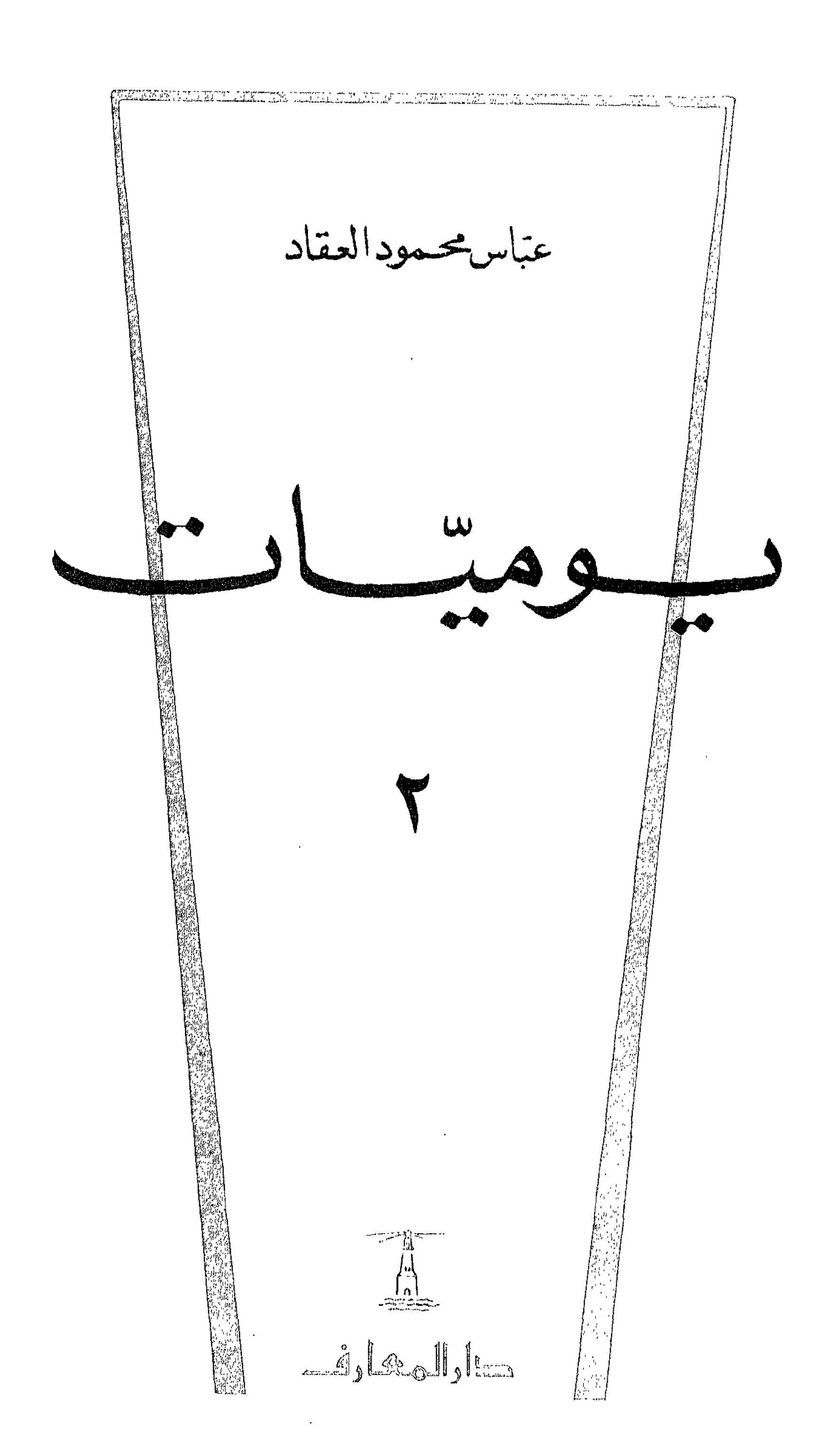


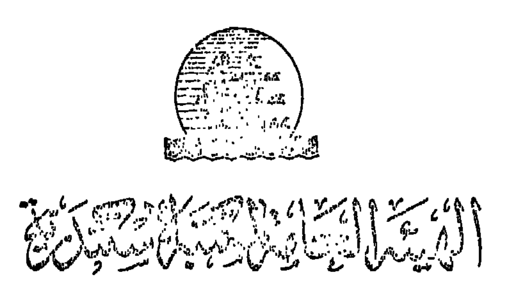
عباس محمود العقاد

يوميّات

٢

دار المعارف

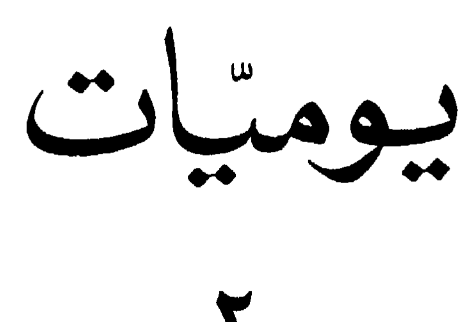




يوميّات



عبّاس محمود العقاد



٢

الطبعة الثالثة



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع

تقديم

تصدر هذه المجموعة من يوميات العقاد — رحمه الله — بعد أن افتقده ميدان القلم منذ عام تقريباً . . فترك بذلك فراغاً عظيماً فى قلوب قرائه ومحبيه .وكنا نتمنى أن يفسح العمر للعقاد فيرى مجموعة يومياته هذه بأجزائها الأربعة بين يدى القراء الأعزاء الذين تعودوا منه كل يوم شيئاً جديداً فى ميدان التأليف والكتابة ، ولكن أبت عناية الله ذلك فلاذ العملاق صاحب القلم بالرفيق الأعلى تاركاً فيما ترك هذه المجموعة معدة للطبع والتقديم .

وتتسم هذه المقالات التى احتوتها هذه المجموعة بالسمات التى يدل عليها عنوان « اليوميات والصحفيات » وهى امتداد المجال ، وتجدد المناسبات ، وسهولة التناول ، وسرعة المساجلة فى حينها بين النقد والرد ، أو بين السؤال والجواب كما وصفها صاحبها فى تقديمه لمجموعتها الأولى التى صدرت فى العام الماضى .

ويمكننا أن ندرج هذه المجموعة تحت عنوان « أدب ونقد » فهى تدور حول نقد القصة على إطلاقها وكذلك نقد الكتب والمؤلفات ، ومدارس النقد وموقف نقادنا منها ، وحول الشعر العربى والشعر الغربى على السواء .

وقد كتب عملاق الأدب العربى هذه المقالات منذ سنوات عشر تقريباً بصحيفة الأخبار اليومية وفى غيرها من الصحف والمجلات بمختلف العناوين .

وإننى أغبط نفسى إذ عاصرته ولازمته زهاء تلك العشر سنوات فكنت أراه يهتم بها اهتماماً بالغاً ، فهى التى كانت تصله بقرائه وتصلهم به ، استلهم موضوعاتها من وحى عصره الذى عاش فيه وأرسلها فى أغلب الأحيان جواباً عن سؤال ، واتصفت جميعها بصفات صاحبها فجمعت الحجة الدامغة والسند المفحم والضربة المسددة فى الصميم ، وكانت جميعها دلالة كافية على عمق صاحبها فى العلم واللغة والخبرة بالناس والأشياء والأذواق ، وهى فوق هذا وذاك دليل على قدرته على الإنتاج وهذا من صفات الأدب الواسع المنتج كما يقول النقاد من شيوخنا الأدباء .

لقد بلغ العقاد ما بلغ من رفيع المنزلة وبُعد الصوت بحسن استعداده وطول اجتهاده . فلم يتكئ فى جهاده الأدبى الكبير على سند من ثروة أو وظيفة أو صديق، وكان بذلك من الأفذاذ الذين شقوا طريقهم الوعر بسن القلم ، وكان قلمه فى يده « كالمبضع فى يد الجراح الماهر لا يشق إلا بتقدير ولا يقطع إلا بقدر » .

فعاش العقاد ذلك العمر العريض من أجل رسالته السامية فى عالم الفكر والثقافة . وترك الدنيا بعد أن خلف وراءه تراثاً ضخماً للأجيال القادمة واستطاع بذلك أن يسطر اسمه العظيم فى جبين أدبنا العربى الحديث فاستحق نتيجة لذلك الكفاح الكبير ، لقب عملاق الفكر العربى دون سواه اعترافاً بقدرته العلمية والأدبية ووصفاً لوفرة إنتاجه الكثير .

تلك التقدمة العاجلة التى صحبنا فيها القارئ الكريم هى خير ما نستهل به جميعاً هذه المجموعة من يوميات فقيدنا الراحل الكريم . . وحسبنا أنها قطرة من ذلك المحيط العقادى الجبار . . ولا نبالغ حينما نقول : إن كتابات العقاد ــ رحمه الله ــ ليست فى حاجة إلى تقديم .

ديسمبر سنة ١٩٦٤ — عامر العقاد

السكوت أبلغ من كل مقال*

يؤسفني أن أحيط سيادتكم علماً بأني كتبت في إحدى المجلات مقالا عن سيادتكم فاستقبلت في مساء ظهور المقال ألواناً من السباب الشديد في التليفون . . . ومنذ ذلك الوقت أخذ هذا المجهول يواصل شتائمه حتى اضطررت إلى إبلاغ شرطة النجدة ، وهو مرة يسمي نفسه الدكتور خفاجة ومرة يسمى نفسه كمال إسماعيل ويعلم الله أني لا أحمل لأحد ضغناً ولا كراهية .

فهل لك يا سيدى أن ترشدني إلى ما أفعل ؟ . . أرجو أن تلفت نظره على صفحات الأخبار حتى يرتدع . .

دكتور جمال الدين الرمادى

. . . أنت ظريف يا دكتور رمادى وايم الله ؟ ! . .

ظريف إن خطر لك أنني أعرف ذلك الذى تشكوه ، وظريف إن كنت تستعين بي عليه وأنا لا أعرفه !

وأظنك ستعرف عني شيئاً يدعوك إلى كتابة مقال جديد — بعد هذه المعرفة — إذا علمت أنني ما سمعت بصديق لى يعتزم أن يرد على كاتب يشتمني أو يفترى عليّ إلا رجوته أن يريح نفسه ويريح قلمه من هذه المؤنة وأقنعته بأن السكوت أبلغ في إفحام المفترين من كل مقال .

أما إذا أصر الدكتور على أن أرشده إلى ما يفعل فليس في وسعي أن أوصيه بشيء غير ما أوصيت به نفسي مرات بعد مرات ، أيام تعرضت لأمثال هذه الحملات ، في التليفون وفي رسائل البريد .

إنني اليوم لا أجيب على التليفون بعدمنتصف الساعة التاسعة .

ولكنني كنت في عهد من العهود أعمل في الصحافة الصباحية وأنتظر المحادثات التليفونية كل ساعة من ساعات الليل .

ويشاء الكثيرون من أشياع الزعماء الذين أكتب عنهم أن يبلغوني آراءهم عنى

---

* الأخبار ١٤ / ٣ / ١٩٦٠ .

بالأسلوب الذى يشكوه الدكتور جمال الدين .

وكان واحد من هؤلاء يهتم على الخصوص بأخبار امرأتى — امرأتى التى لم توجد قط ولا وجود لها الآن — فيذكر لى من أسرارها ما أجهله وما يجهله هو بطبيعة الحال .

وأسمع ذلك المخبر الصادق وأستزيده من آرائه عنى ومن أخبار امرأتى لديه ، حتى انقطع ذات ليلة فطلبته أنا وعتبت عليه لأنه لم يسعدنى بتحياته ذلك المساء وتركنى مشغول البال على امرأتى التى كان يتعقبها فى كل مكان ، وسألته : أيعلم أين هى الآن ؟ أليس من العار عليه أن يقودها أحد غيره وهو بقيد الحياة ؟

وكان هذا آخر العهد به وبما يفتريه على امرأتى فى التليفون ، وفى الصحف ، لأنه كتب عنها مرة إلى صحيفة اللواء . . قبل أن يعلم أنها مخلوق غير موجود .

والدكتور الرمادى رجل سعيد الحظ مع هؤلاء المجهولين الذين يتحدثون إليه وحده ، لأنهم يختصونه بالتحية ولا يلقونها فى أذن غير أذنه ، فلماذا يستنجد بمن يشاركونه فى السماع ؟ ولماذا يكتمونه السر ويأبى هو إلا أن يذاع ؟

دكتور رمادى !

لا تسأل عن دكتور خفاجة ، ولا عن كمال إسماعيل ، ولا عن أحد من قرائك الغاضبين ، وألحقهم بمقال ثان . . إنهم يستحقون !

* * *

عاد سائل إلى السؤال عن رأيى فى تعليق الدكتور محمد مندور الذى يقول فيه إننى لم أفرق بين الثقافة والحضارة فيما كتبته عن سبق الثقافة العربية للثقافتين العبرية واليونانية .

وإذا كان من الكلام ما لا يرد عليه فهذا التعليق أحق الكلام بأن يترك بغير رد ، لأن الدكتور محمد مندور ينسى أن التفرقة بين الثقافة والحضارة شىء تعلمه هو من جيلنا ولا يستطيع أن يذكر له سابقة فى اللغة العربية قبل هذا الجيل .

ولم يحسن الدكتور محمد مندور — بعد — أن يفرق بينهما حتى فى تعليقه على رسالتنا ، لأن الرسالة تقوم على مسائل الكتابة والعقائد الدينية والمذاهب الروحية

وهى كلها من مسائل الثقافة ، خلافاً لما يظنه الدكتور محمد مندور حين ينسبها إلى الحضارة .

ونقول للسائلين — أخيراً — عن نقد الناقدين لنا : إن الجواب يعلمه من قرأ الكتاب المفقود . فإن لم يكن السائل ممن قرءوه فهو كمن يريد منا أن نعيد له نشر ما كتبناه ليعلم ما قلناه حقاً وما يدعى الناقدون أننا قلناه .

وليس هذا مما نرتضيه لأنفسنا ولا مما يرتضيه القراء ، لأنهم بين اثنين . قارئ نعيد له ما قرأ ، وآخر نرغمه على قراءة شيء لم يقرأه باختياره ، وكلاهما فضول .

النقد السيكولوجي *

إذا لم يكن بد من تفضيل إحدى مدارس النقد على سائر مدارسه الجامعة ، فمدرسة « النقد السيكولوجي » أو النفساني أحقها جميعاً بالتفضيل في رأيي وفي ذوقي معاً ، لأنها المدرسة التي نستغني بها عن غيرها ولا نفقد شيئاً من جوهر الفن أو الفنان المنقود .

إن المدرسة الاجتماعية تفسر لنا عوامل العصر في المجتمع الواحد ، ولكنها لا تفسر لنا الفوارق بين مائة شاعر أو كاتب يعيشون في مجتمع واحد وفي حقبة واحدة .

والمدرسة الفنية أو البلاغية تفسر لنا أسباب شيوع الذوق المختار إيثاراً لأسلوب من التعبير على أسلوب ، ولكنها قد تعرفنا بالصانع وبالقدرة على الصناعة ، ولا تنفذ من وراء ذلك إلى « الإنسان » الذي يصنع والإنسان الذي يتذوق ذلك الفن من فنون الصناعة اللفظية أو المعنوية .

أما الناقد السيكولوجي فإنه يعطينا كل شيء إذا أعطانا بواعث النفس المؤثرة في شعر الشاعر وكتابة الكاتب ، ولا بد أن تحيط هذه البواعث ، إجمالا أو تفصيلا ، بالمؤثرات التي جاءته من معيشته في مجتمعه وفي زمانه .

وآية القدرة في يد الناقد السيكولوجي أن يشمل العصر كله بمقاييسه النفسانية حين يهتدي إلى وجوه المشابهة في الأعماق ، فيرجع بها إلى سبب واحد شامل لجميع المناهج والأساليب والدوافع السيكولوجية ، وإن بدا عليها أنها تفترق بينها أبعد افتراق .

قليل من النقاد من يستطيع هذا في عصره ، ومن هذا القليل الأستاذ « روبرت إليوت فيتش » Fitch صاحب كتاب « أوديسة الذات المحصورة » الذي صدر في الأسابيع الأخيرة وعرضته صحافة الأدب الغربي للمناقشة ولا تزال تعرضه بين الرضا عنه والسخط عليه .

---

* الأخبار ٥ / ٤ / ١٩٦١ .

هذا الناقد — بالجملة — كما جاء فى بعض المجلات ينحى مرة واحدة بجرة قلم عريضة على مذاهب الإلحاد ، واللاأدرية ، والرومانتيكية ، والعقلية ، والإنسانية ، والوضعية والوجودية ، والسريالية ، وكل مذهب ينتهى بياء النسبة فى لغتنا أو ينتهى « بالإزم » المعهودة Ism فى اللغات الأجنبية .

كل هذه المذاهب تنتهى إلى عيب واحد وهو « الأنانية » والانحصار فى الذات ، وتركيز الاهتمام كله والشواغل كلها فيما يعنينا لذواتنا ، ولا يخرج بنا عن محيطنا .

وعنده أن المشكلة ليست مشكلة الأنانية بمعنى « حب الذات » ولكنها هى مشكلة الاشتغال بالذات إلى حد السآمة من الذات ، والاشمئزاز من الذات ، وما يصح أن نسميه باللهجة الدارجة « القرف من الذات » .

فهذه السآمة هى التى تقود الناس فى العصر الحديث إلى « تحليل الذات » وإلى « الرثاء للذات » ، وإلى كراهة الذات وحب التخلص منها بما يشبه الانتحار ، لأنه لا يخرجها من أفق الحياة الواسع ويحصرها فى هذه « الذاتية » السائمة المسئومة ، بغير رجاء .

وعلة العلل عند هذا الناقد بالجملة — ولابد أن نذكر أنه أستاذ الفلسفة الدينية — هى الضلال عن العبادة المثلى : عبادة الله الذى لا يصح معنى العبادة كله إن لم يكن مداره على العبادة الإلهية .

ترك المحدثون عبادة الله وظنوا أنهم يستبدلون بها عبادة الطبيعة ، أو عبادة الإنسانية ، أو عبادة المجتمع ، أو عبادة الفضاء ، حتى صاروا إلى العبادة الأخيرة وهى عبادة « الذات » فلم يزالوا بها قبولا ورفضاً وحباً وبغضاً حتى صاروا بها إلى الإفلاس .

ويقول الأستاذ «فيتش» إن عبادة الذات كانت مزهوة بنفسها قبل أن تصير إلى الإفلاس الأخير ، فكان « ويتمان » شاعر أمريكا منذ مائة سنة يقول : « إننى أهيم بنفسى ، وكم لى من متعة هناك ! »

وكان فوست بطل رواية الشاعر جيتى الألمانى ويهيم بالقوة ، ودون جوان بطل رواية بيرون الإنجليزى يهيم بالسرور ويتبعهم هكسلى فيهيم بتحقيق الذات ،

ثم يتبعهم كيرواك فيقول بلسانه بطلهُ : « إننى فراغ ، إننى لا فرق بينى وبين الفراغ ، ولا فرق بين الفراغ وبينى » .

والغرض الأكبر لهذه العلة الشاملة أنه لا يلقى اللوم على الذات بل يلقيه على كل مسئول آخر أو غير مسئول ، تارة على الوراثة ، وتارة على البيئة ، وتارة على الرب المعبود ، وتارة على الدولة ، وتارة على البنات ، وتارة على الآباء ، وتارة على الحرب الباردة . . . إلا « الذات » وهى المسئول الأول إن لم تكن المسئول الأول والأخير . فإنها لا تلام ولا تزال براء من الاتهام .

وما الدواء ؟ وما الشفاء بعد كل هذا التوصيف والتشريح ؟ وكل هذا الاتهام والإنحاء ؟

الدواء فى بضع كلمات أن يذكر الإنسان أنه لا يعيش ولا يعرف العزاء بغير صلاة ، وأن الصلاة لا تكون ولا يفهم لها معنى إن لم تكن صلاة إلى الله وإذا أراد فليجرب الحقيقة وهو خالص مخلص فى هذه التجربة . . .

وإلا فقد جرب « الذات » وكل مضاف إلى الذات من حب وكراهية ، وشغلان وسآمة وتحليل وتركيب . فلم ينته إلى شىء غير الإفلاس .

إن هذا الكتاب لم يصل إلينا . بعد ، ولم نعرف منه إلا ما قرأناه من مقتبساته ومن تعليقات النقاد عليه ، ولكن القدرة على « الإحاطة » العميقة واضحة فى هذا المقدار الذى عرفناه عنه ، وهو يوافق اعتقادنا الدائم أن المصيبة كلها فى أدعياء الإصلاح أنهم يعفون « المصابين » من المسئولية ويلقونها تارة على المجتمع وتارة على الوراثة . . . وينسون أن كل إصلاح يبنى على أن الإنسان « غير مسئول » هو إصلاح مستحيل ، ولا يعنينا بعد ذلك أن يكون صحيحاً أو غير صحيح . فإن المريض الذى لا يفهم أولا أنه مسئول عن طلب العلاج النافع لا يفيده بحال من الأحوال أن يعلم ما هى العدوى ومن أين انتقلت إليه .

لا بد من نهوض « الذات » بالمسئولية قبل كل شىء ، وهذه هى الخطوة الأولى للخروج من الذات والقدرة على رؤيتها ورؤية ما حولها ، وبغير ذلك يتساوى حب الذات وكراهة الذات .

اقرءوا ما تنتقدونه *

يعلم أصدقائى أننى لا أحفل بالأقاويل التى تكتب عنى فى بعض الصحف ، وأننى قلما أتم قراءتها إذا بدأت فيها .

ومنهم من كان يتطوع للرد عليها فأرجوهم ألا يكلفوا أنفسهم هذه المشقة فى الشئون الشخصية ، بل حدث منذ سنوات أن أحدهم كتب رسالة خاصة فى البريد المستعجل إلى صحفى معروف على أثر كلام عنى نشره فى صحيفته ، ثم أخبرنى بذلك فرجوته وألححت عليه أن يستردها من مكتب البريد وحمدنا يومئذ إهمال المكتب أو كثرة العمل على موظفيه . . لأن الرسالة « المستعجلة » بقيت إلى اليوم التالى ولم تسلم إلى صاحبها بعد تفريغ الصندوق كما هو المفهوم .

لكن الصديق الفاضل الذى خالف هذه السنة فى الأسبوع الماضى مشكور أجزل الشكر على هذه المخالفة ، لأنه فى الحق قد أطلعنى على نادرة من نوادر الحياة الأدبية لم أعرف لها سابقة فى كل ما وقفت عليه من تواريخ الآداب قديمها وحديثها ، وشرقيها وغربيها ، وما جد منها وما هزل . . وكان يفوتنى ولا شك شىء لا يتكرر فى كل جيل ولا فى كل عشرة أجيال . لو أنه أغفله ولم ينبهنى إليه ، وما كان بالحسن أن يفوتنا شىء كهذا فى وقت من الأوقات .

ماذا يقول القارئ إذا سمع أن كاتباً كتب تاريخ « أحمد عرابى » ليقول إنه هو خديو مصر الذى ثار عليه الفلاح محمد توفيق . . ؟

وماذا يقول القارئ إذا سمع أن كاتباً تصدى لنقد حكيم المعرة فزعم أنه رجل عربيد ، قضى حياته فى معاقرة الخمر وأكل لحم الخنزير ومطاردة النساء على قوارع الطرقات . . ؟

شىء من هذا ، بل أغرب من هذا قيل عن كاتب هذه السطور : وهو أننى جامد على مذهب الأقدمين فى نقد الشعر والأدب ، وأننى لا أفهم وحدة القصيدة ولا أصول البنية الحية فى الكتابة ، وخير من الاستطراد فى الحكاية عن هؤلاء القائلين أنقل هنا كلامهم كما قالوه . . قالوا أفادهم الله :

---

* أخبار اليوم ٢٧ / ٢ / ١٩٥٤ .

« نجد هذا فى الحكم النقدى وفى التعبير الأدبى نثره وشعره على السواء وكما كان نقاد العرب القدامى يعدون بيتاً من الشعر أبلغ ما قالته العرب ، وبيتاً آخر أهجى ما قالته العرب ، وبيتاً ثالثاً أمدح ما قالته العرب ، وإلى غير ذلك من أفعال التفضيل ، لا يزال نقادنا وأدباؤنا من المدرسة القديمة يحتفلون كذلك بهذا المعنى الواحد أو البيت المنفرد لما فيه من أسلوب رائق ومعنى شائق . . فالعقاد مثلا يترنم بهذا البيت :

وتلفتت عيــنى فــذ خفيت عنى الطلــول تلفت القلب

فلا نلبث أن نقرر أنه يساوى عنده ألف قصيدة . . . لماذا . . ؟ لأن العقاد مثله فى ذلك مثل بقية أدبائنا القدامى ، لا يبصر بالظاهرة الأدبية فى الوحدة العضوية المتكاملة للعمل الأدبى ، وإنما فى البيت ، فى المعنى ، فى النادرة اللطيفة ، فى العبارة المفردة » . .

أعلمت أيها القارئ إذن ما هو مذهب العقاد . . . ؟ مذهبه فى الأدب هو ذلك الخلط الذى قضى حياته ينحى عليه وينكره ويشرح عيوبه وسخافاته ، ثم لا يعدم اللاغطون بهذا اللغط المخجل صحيفة يومية تنشره لهم بالعناوين العريضة وتزعم لقرائها أنها تنشر عليهم بياناً جديداً عن « الأدب بين الصياغة والمضمون من عبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم » . . وهما فيما علمت أستاذان فى مدارس ثانوية أو عالية . . ويالخيبة الأدب والتعليم إن صح ما علمناه !

من سنة ١٩٠٩

إن قراءنا كادوا يتهموننا باللت والعجن بل بالإفراط فى اللت والعجن ، لكثرة ما كتبناه وأعدناه فى هذا المعنى منذ نيف وأربعين سنة . .

منذ حملنا القلم فى الصحافة ونحن نكتب ونعيد أن القصيدة بنية كاملة وأن الإعجاب ببيت القصيد جهل بالشعر والأدب وميزان فى النقد يجب أن نحطمه ونعفى عليه . .

وفى سنة ١٩٠٩ نشر حافظ إبراهيم قصيدته التى يقول فى مطلعها :

لقد نصل الدجى فمتى تنــام أهمٌ زاد نومــك أم هيام

فكتبنا فى صحيفة الدستور ما خلاصته أننه أخذ قطعة من الحرير وقطعة من المخمل وقطعة من الكتان ، وكل منها صالح لصنع كساء فاخر من نسجه ولونه ، ولكنها إذا جمعت على كساء واحد فتلك هى « مرقعة الدراويش » .

إلى سنة ١٩٢١

وفى سنة ١٩٢١ أصدرنا كتاباً مستقلا لنقد الشعر الذى لا تلاحظ فيه بنية القصيدة ، وقلنا فى الصفحة السابعة والأربعين من ذلك الكتاب ، كتاب الديوان :

« . . ورأيتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءاً قائماً بنفسه لا عضواً متصلا بسائر أعضائها ، فيقولون أفخر بيت وأغزل بيت وأشجع بيت ، وهذا بيت القصيد وواسطة العقد ، كأنما الأبيات فى القصيدة حبات عقد نشترى كل منها بقيمتها فلا يفقدها انفصالها عن سائر الحبات شيئاً من جوهرها » .

وقلنا قبل ذلك إن « القصيدة الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ولا يغنى عنه غيره فى موضعه إلا كما تغنى الأذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة ، أو هى كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها وفائدتها وهندستها » .

وختمنا هذا البحث قائلين : « إننا لانريد تعقيباً كتعقيب الأقيسة المنطقية ولا تقسيماً كتقسيم المسائل الرياضية وإنما نريد أن يشيع الخاطر فى القصيدة ولا ينفرد كل بيت بخاطر ، فتكون كما أسلفنا بالأشلاء المعلقة أشبه منها بالأعضاء المنسقة . . »

إلى سنة ١٩٢٨

وكتبنا فى البلاغ سنة ١٩٢٨ جواباً عن سؤال من الأستاذ عبده حسن الزيات عن الفرق بين الشعر العربى القديم والشعر الإنجليزى على عمومه فقلنا بعد شرح طويل :

« . . . ومن هنا كانت وحدة الشعر عندنا البيت وكانت وحدته عندهم القصيدة . . فالأبيات العربية طفرة بعد طفرة والأبيات الإنجليزية موجة تدخل

فى موجة لا تنفصل من التيار المتسلسل الفياض » .

وقد طبعت هذه المقالة مع ثمانى مقالات من قبيلها فى مجموعة « ساعات بين الكتب » وظهرت من هذه المجموعة حتى الآن ثلاث طبعات .

إلى سنة ١٩٣٠

وفى سنة ١٩٣٠ ألفنا كتابنا عن ابن الرومى خصيصاً لشرح الأسباب التى تدعونا إلى الإعجاب به وأولها أنه أقرب الشعراء الأقدمين إلى المذهب الذى نختاره وأن عصره أول العصور التى فطنت لتجديد الشعر على هذا الأسلوب .

واستشهدنا فى الصفحة السادسة والأربعين بكلام الحاتمى حيث يقول :

« مثل القصيدة مثل الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه وتعفى معالمه . . »

ثم استقصينا الشواهد من قصائد ابن الرومى وعقبنا عليها فى الصفحة (٣١٦) فقلنا :

« إن العلامات البارزة فى قصائد ابن الرومى هى طول نفسه وشدة استقصائه المعنى واسترساله فيه ، وبهذا الاسترسال خرج عن سنة النظامين الذين جعلوا البيت وحدة النظم وجعلوا القصيدة أبياتاً متفرقة يضمها سمط واحد قل أن يطرد فيه إلى عدة أبيات ، وقل أن يتوالى فيه النسق توالياً يستعصى على التقديم والتأخير والتبديل والتحوير ، فخالف ابن الرومى هذه السنة وجعل القصيدة كلا واحداً لا يتم إلا بتمام المعنى الذى أراده على النحو الذى نحاه . فقصائده موضوعات كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الأغراض ولا تنتهى حتى ينتهى مؤداها وتفرغ جميع جوانبها وأطرافها ولو خسر فى سبيل ذلك اللفظ والفصاحة » .

إلى سنة ١٩٤٧

وفى سنة ١٩٤٧ كتبنا فى مجلة الكتاب خلاصة شروط الشعر الحسن فعددنا فى أولها أن الشعر قيمة إنسانية وليس بقيمة لسانية ، ثم قلنا : « إن القصيدة بنية

حية وليست قطعاً متناثرة يجمعها إطار واحد . فليس من الشعر الرفيع شعر تغير أوضاع الأبيات فيه ولا تحس منه تغييراً فى قصد الشاعر ومعناه » .

وهذه المزية خاصة هى المزية التى شرحناها وكررناها وعدنا إليها خلال هذه السنوات فى مقالات متفرقة ، وتداولها القراء فى كتب متوالية أعيد طبعها ثلاث مرات وأربع مرات ، ومنها كتاب أعيد طبعه بعد أسبوع واحد وهو كتاب الديوان ، ولم يسبق لكتاب عربى حديث مثل هذا الذيوع والانتشار .

والأدب للمجتمع قبل ربع قرن

وقبل ربع قرن — أى قبل أن يعرف الأدعياء كيف يتهجون كلمة المجتمع — كنا نكتب فنقول : إن آفة الأدب المصرى أنه يعيش بمعزل عن الأمة ، ومن ذلك ما كتبناه بالبلاغ فى سنة ١٩٢٧ فقلنا : « إن العزلة بين الشعب والحكومة والفوارق الدائمة بين الحياة القومية والحياة الرسمية هى علة الجدب الغريب الذى يلاحظ على آداب مصر الرسمية أى الآداب التى تجرى على تقاليد الحاكمين والرواة فى العصرين القديم والحديث » .

كتبنا هذا ورددناه ولا نزال نردده ونعنى به حين نذكر الشعب أنه مجموعة من النفوس والضمائر والأذواق والأخلاق وليس كما يريده الماديون الحيوانيون مجموعة من البطون والجلود وكفى .

فما هو السر إذن ؟

فما هو السر إذن فى تلك الحملات المكذوبة التى تصطدم بالواقع هذا الاصطدام العنيف ؟

السر الذى لا يحتاج إلى بحث طويل أنها حملات لغير وجه الأدب والأمانة الثقافية ، فلو كانت لوجه الأدب لكان كاتب هذه السطور حقيقاً بالحمد والثناء ممن يقتدون بمذهبه بعد أربعين سنة من نشره وترديده وتوكيده ، وسواء كان هؤلاء الأدعياء قد اطلعوا على مذهبه فتجاهلوه أو حملوا عليه دون أن يطلعوا عليه؛ فالحقيقة الباقية فى الحالتين أنه مقصود بالحملة لغير وجه الأدب والأمانة الثقافية .

وقد فهمنا

نعم .. وقد فهمنا ولا حاجة بنا إلى ذكاء خارق لنفهم ما وراء هذه الحملة أو هذه الحملات من أناس يترنمون بالخواجة « إيليا أهرنبرج » وأمثاله ، ويكتبون ذلك صريحاً بعد ما نقلناه من كلامهم فيقولون :

« لو قارنا بين هذه الرواية ورواية العاصفة لإيليا أهرنبرج لوجدنا فارقاً ضخماً فى المضمون وفارقاً ضخماً فى الصياغة كذلك ، فرواية أهرنبرج لا تصور واقعاً مريضاً متحللا بل معركة تتابع عملياتها المنظورة من الكفاح المرير للقضاء على الأخطبوط النازى فى أوربا وما يواجه هذه العمليات من عقبات وصعاب .. »

إلى أن قالوا : « ولو قارنا بين إليوت وشاعر آخر هو ماياكوفسكى لوجدنا كذلك فارقاً ضخماً فى المضمون والصياغة .. فمايا كوفسكى فنان صائغ للشعر كذلك ولكنه يمجد الحضارة الصناعية الحديثة ويستبصر بالحركة الصاعدة للتاريخ .. »

فمن هو أهرنبرج ؟ ومن هو مايا كوفسكى ؟

أهرنبرج يهودى روسى ألف رواية « العاصفة » لشفاء حزازة اليهود من ألمانيا النازية ، لا لوجه الأدب ولا لوجه الإنسانية ! .. وجاراه الدعاة الشيوعيون فى الحملة على ألمانيا يوم كانت تحاربهم ويحاربونها ، فلما دارت الدفة بعد الحرب العالمية وبدا لأولئك الدعاة أن يتقربوا من الألمان ويمهدوا لضمهم إلى الحدود الحمراء أمروه بأن يؤلف فى غير هذا الموضوع ، وحولوه إلى الميدان الفرنسى فوضع روايته الجديدة بعنوان « الموجة الأخيرة » ليشيد فيها بهمة الشيوعيين الفرنسيين وينعى فيها على الجمهورية الذاهبة ما ينعاه أولئك الدعاة !

أما مايا كوفسكى فهو الشاعر الشيوعى الذى انتحر سنة ١٩٣٠ ولحق بزميله يسنينى الذى انتحر قبله بخمس سنوات ، وأولهما لم يجاوز السابعة والثلاثين والثانى لم يجاوز الثلاثين ..

وهذا هو المثل الأعلى عند أصحابنا للشعر الحى فى سبيل الحياة !

فإذا كان هذا هو الأدب المطلوب منا فقد فهمنا وفهم الناس ووجب على

هؤلاء الأدعياء ، إن كان لهم نصيب من أمانة الثقافة ، أن يدعو هذه المماحكة ويعلنوا الحقيقة ولا يضللوا بقرائهم فيخدعوهم باسم الأدب وهم لم يطلعوا على حرف مما ينقدونه ويفترون الكذب على ذويه .

وإلى الدكتور طه

وبعد ضبط هرلاء الأدعياء — ولا نقول مناقشتهم — يؤسفنا أن ننتقل من حديثهم توًّا إلى حديث مع الدكتور طه حسين ، ولا يسوغ عندنا هذه النقلة إلا أننا نبدؤها بتعزية واجبة للدكتور ، حماه الله السوء ووقاه فضول الدعوى والأدعياء . .

لقد نسينا أن هذين الإمامين المجددين وجها البيان إلى عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين ، وليس فى الدنيا مصيبة أحق بالتعزية من عمادة يبايع عليها هذان ، وما أشبه هذين .

ثم نبادل الدكتور بالتحية تحية أحسن منها ، وبالمشورة مشورة أحق منها بالاتباع .

ومشورتنا على الدكتور أن يقرأ كتب التحليل النفسانى وأن يعيد قراءتها مرة بعد مرة ، ونحن على يقين أنه سيعدل بعد قراءتها عن رأيه فى علاقة الأدب بهذا التحليل .

وهذه مشورة ميسورة الاتباع .

أما مشورة الدكتور فهى غير مفهومة وما يفهم منها فاتباعه مستحيل .

ماذا يقول الدكتور طه يا ترى ؟

أتراه يقول إن البواعث النفسية شيء لا علاقة له بدراسة الأدب والأدباء ؟ إذا قال ذلك فمن يتابعه على هذا الرأى ؟ ومن يعمل به فيكتب ما يستحق أن يقرأ فى هذا الزمن ؟

أم تراه يقول إن الأطباء هم المختصون بالنقد الأدبى دون غيرهم لأنهم هم المختصون بالدراسات النفسية ؟

إذا قال ذلك فأين هو المثل الواحد الذي يدعم به هذا الرأي ؟ وأين هو الطبيب أو الأديب الذى يقره عليه ؟

لو أن الدكتور كلف نفسه مؤونة الاطلاع على الدراسات التي يبرأ منها، لعرف على الأقل أن أدواتها ميسورة للأديب . وأنها غير محرمة عليه ولا هي مقصورة على الطبيب ، ولعرف كذلك أن الأدباء هم الخبراء الذين يرجع إليهم الأطباء كلما اتصل الأمر بالتعبير وتدبر معانيه أو بالخيال وتصور رموزه .

إلا أن الدكتور طه ، على الخصوص ، أقدر من غيره على العلم بهذه الحقيقة دون أن يوغل في دراسة النفسيات ، لأنه يعلم من عمله في الجامعة ووزارة المعارف أن هذه الدراسة يتولاها أساتذة أدبيون ولا يشترط فيها علم الطب إلا لمن يفتح العيادات للعلاج ، ولا شك أن الدكتور يسمع باسم العالم الفاضل الأستاذ محمد فتحي ويسمع أنه يستشار في مسائل الأمراض النفسية والجرائم التي تتولد منها ، وليس الأستاذ فتحي طبيباً ، ولكنه من رجال القانون .

قد يستغني الدكتور طه عن الإيغال في دراسة النفسيات إذا كان قصارى الأمر أن يلم بأدواتها ويعلم أنها غير ممتنعة على الأديب .

أما الذي لا غنى عنه للدكتور فهو البحوث التي تفرق بين الاعتداد بالنفس عند أبي نواس وعند المعري وعند أبي الطيب وعند بشار .

فالاعتداد بالنفس وصف قد يشترك فيه هؤلاء جميعاً من جانب هنا أو جانب هناك .

ولكن من ذا الذي يفهم هؤلاء إذا فهم أنهم يصدرون جميعاً عن باعث واحد ؟

إن الاعتداد بالنفس ، بمعزل عن الدراسات النفسية ، قد يختلط هذا الاختلاط ولا يجدي فيه الاكتفاء بلفظه ومعناه في اللغة .

أما النفسانيون فقد يعرفون اعتداداً بالنفس يدخل في جنون العظمة ويسمونه المغالومانيا ، ويعرفون اعتداداً بالنفس يدخل في جنون الأثرة ، ويسمونه الأيجومانيا ، ويعرفون اعتداداً بالنفس يدخل في جنون الانحصار الذاتي ، ويسمونه الأيجوسنترزم ، ويعرفون اعتداداً بالنفس يدخل في جنون النقص والتحدي ويسمونه نجاتفزم Negativism ويعرفون اعتداداً مثله يدخل في جنون العناد ويسمونه ميوتزم Mutism ويعرفون الاعتداد بالنفس طبيعة في كل مخلوق مستمداً من حب البقاء ثم تنازع البقاء ،

ويعرفون منه اعتداداً بالنفس يدخل فى جنون الاشتهاء الذاتى ويسمونه النرجسية ، وهو الذي وصفنا به أبا نواس وأنكره الدكتور لأن أبا نواس لم يعلم به ولا يعترف به لو علم . . كأنه من المشروط فى الصفات أن يعترف بها الموصوفون !

إن الدراسات النفسية تميز بين هذه المداولات التى يتميز فيها أبو نواس والمعرى والمتنبي وبشار ، حيث تجمعهم فى المعجم كلمة الاعتداد .

والدراسات النفسية هى التى تعرفنا أن الصفة الواحدة قد تجرى مع الاعتداد بالنفس وقد تناقضه فى الإنسان الواحد ، فحب التدليل مثلا قد يورث اعتداداً بالنفس وقد ينم كذلك على فقدان الثقة بها ، لأن صاحبه يعلق قيمته على التفات الآخرين إليه .

ويتفق مثل هذا فى الصفات الأخرى فنرجع إليها حسب مدلولاتها النفسية ولا نكتفى بمداولاتها المعجمية .

وأنا أفعل هذا والدكتور يستطيع أن يفعله ، ولكنه لا يشاء لأنه يقنع بإسداء « النصح » إلى الأدباء ليفعلوا هذا ولا يفعلوا ذاك . . !

أنا أفعل هذا وأكتبه وأقرره ، وأرجو من يطلع على خطأ فيه من المختصين أن يعلنه بأسبابه ، وهو مشكور .

ولقد تابع الدكتور جماعة المستشرقين على تفسير كلام أبى نواس عن الطلول بأنه مذهب فى التجديد والإعراض عن القديم .

وفهم الأدب على هذا النحو لا يفسر لنا أن مطالع أبى نواس فى بكاء الطلول أكثر من مطالع الشعراء الأقدمين ، ولا يفسر لنا أنه يستطرد إلى السخرية بالأنساب كلما ذكر الطلول فى سياق النعى والإنكار . ولا يفسر لنا أن الخليفة يأمره بذكر الطلول فيطيعه ويقول :

دعانى إلى ذكر الطلول مسلط   يضيق ذراعى أن أجور له أمرا

لا يفسر لنا كلام المستشرقين عن التجديد هذا الأمر من الخليفة باجتناب النعى على الطلول ، فما كان الخليفة مناظراً للشاعر فى الأدب يقول هذا بمذهب ويقول ذلك بمذهب سواه .

ولكن الذى يفسره لنا هو «عقدة النسب» فى طوية أبى نواس ، فلهذا يأمره الخليفة باجتناب ما يثير ضغائن الأنساب .

إن الدكتور طه لم يقنعنا بكل ما كتبه عن تحليلنا لأبى نواس أن ندع التحليل وأن نقول : إن النرجسية والاعتداد بالنفس كلمتان مترادفتان .

فعسى أن نقنعه نحن بالالتفات قليلا إلى كتب التحليل ، فهى ولا شك جديرة بالالتفات ، وجديرة بتصحيح كثير من الآراء .

وبهذه المناسبة

وبهذه المناسبة نقول : إننا سنعود إلى مسألة النسب جواباً لخطاب الأديب الفاضل الأستاذ «حسن قرون» وتوضيحاً لرأينا فى مزاعم النسابين عن الحميريين والعدنانيين فليست المسألة سهوة كما ظن الأديب بل هى رأى ألمعنا إليه فى كتابين قبل كتاب أبى نواس ، وهما كتاب أبى الأنبياء ، وكتاب أثر العرب فى الحضارة الأوربية .

ولعلنا نعود إليه فى موعد قريب .

أدب مدارس النقد ومدارس الدعاية بين جيلين *

من الواجب أن نفرق بين مدارس النقد ومدارس الدعاية ، لأن التفرقة بينها حماية للأفكار وصيانة للوقت وكشف للخداع الذى يروجه المخادعون لاستغلال الناس وتسخير عقولهم واستحقاق شكرهم باسم الرأى والمصلحة العامة، وهم فى الواقع مستحقون منهم للسخط والزراية لأنهم يروجون بينهم الغفلة ويضحكون منهم وهم ينظرون إليهم مصدقين منقادين من وراء ستار الخداع والتضليل .

إن مدرسة النقد تدور حول فكرة أو حول موضوع من موضوعات البحث والمعرفة ، ولكن مدرسة الدعاية تدور حول غرض مستور فلا تعنيها الفكرة إلا لخدمة ذلك الغرض بالدعوى الكاذبة والحيلة الملفقة ، ولا فائدة من البحث فى الفكرة التى تثار حولها المناقشة ، لأن أصحاب الغرض المستور ينتقلون منها إلى غيرها ويختلقون العلل اختلاقاً لترويج الدعاية المطلوبة من وراء كل فكرة ينتحلونها ، فلا نتيجة للجدل حول هذه الأفكار غير ضياع الوقت وإثارة اللغط العقيم فى الهواء ، وأوجب من ذلك وأقرب إلى احترام عقول القراء أن ينكشف الخداع عن عرض الدعاية المسمومة ، فتظهر الحقيقة سافرة لمن يريد النظر إليها ، ويستريح القارئ والكاتب من عناء القيل والقال .

* * *

فى أدبنا العربى الحديث « مناورات » كثيرة تختلط فيها مدارس النقد ومدارس الدعاية ،ويحسن بكل كاتب يحترم قلمه ويحترم عقول قرائه أن ينبه إليها ولا يسوق القراء معه إلى خدمة دعايتها المضللة بالتورط فيها ومتابعة أصحابها على أباطيلها وتحويماتها .

وعندنا من خير هذه المدارس كثير لا نتكلف الجهد للبحث عنه ، لأننا لمسناه فى طريقنا غير مرة ولا نزال نلمسه فى هذه الطريق فترة بعد فترة ، ولا حاجة بنا

---

* الأخبار ١٢ / ٧ / ١٩٥١ .

إلى أكثر من مثل واحد من أمثلة الجيل القريب ومثل آخر من أمثلة الجيل الحاضر ، لكشف النقاب عن مدارس الدعاية على اختلاف الأغراض والأسباب ، وسيرى القارئ أن عرض الخبر عن كل مدرسة من هذه المدارس كاف للتفرقة بينها وبين مدارس النقد البرىء ، وكاف بعد ذلك للقياس عليه وإعفاء الكاتب من تكرار التنبيه إليه ، كلما استحدث المغرضون غرضاً جديداً للدعاية ، ولا نهاية لأمثال هذه الأغراض .

* * *

قبل أكثر من ثلاثين سنة نشأت عندنا مدرسة للدعاية الأدبية باسم أدب الشباب وأدب الشيوخ .

هذا هو الموضوع « العلنى » أمام أبصار القراء .

والموضوع كما قلنا لا يعنى شيئاً عند أصحاب الدعاية المغرضة غير التوسل به إلى قضاء الغرض المستور ، فإذا وصل الموضوع بأصحابه إلى ذلك الغرض فقد وصلوا إلى الهدف المقصود ، وإلا فالموضوعات بحمد الله كثيرة لا حساب لها ولا حساب عليها ، وبعد كل موضوع منها موضوع آخر وموضوعات أخريات تأتى على الأثر وتصلح للادعاء والافتراء ، إلى أن يدرك شهر زاد الصباح فتسكت أو تتكلم بالكلام المباح وغير المباح .

كانت جماعة « أبولو » تصدر مجلة شهرية بهذا الاسم ومجلة أسبوعية ، باسم « الإمام » وتصدر معهما رسائل وكراسات من مطبعتها الخاصة لترويج دعوة واحدة تسميها « أدب الشباب » وتدبير حملة واحدة تسميها الحملة على أدب الشيوخ .

وقبل نيف وثلاثين سنة لم يكن كاتب هذه السطور من زمرة الشيوخ .

كان فى الأربعين، ولم يكن وحده فى هذه السن من الكتاب المعروفين .

كان معه فى هذه السن عبد الرحمن شكرى وإبراهيم المازنى وطه حسين ومحمد حسين هيكل وأحمد أمين مع آخرين وآخرين .

بل كان أكبر منهم جميعاً فى السن أحمد شوقى وحافظ إبراهيم وخليل مطران وحفنى ناصف وإسماعيل صبرى ، وغيرهم وغيرهم من جيلهم بين أحياء وأموات.

ولكن « عباس العقاد » فقط لا غير كان هو « الشيخ » الوحيد فى الأربعين

من عمره بين هؤلاء جميعاً فى الأربعين مثله أو فى الستين والسبعين .

وكان هذا الشيخ الوحيد « شريب الأدب القديم » هو الجدير بالحملة عليه لشعره تارة ولنثره تارة أخرى ، ولشكله أو لقوله وفعله ، فوق ذلك تارات وتارات .

أما الآخرون فلم يكونوا « شيوخاً » ولم يكونوا جديرين بالحملة عليهم والانتقام منهم لأقوالهم أو لأفعالهم ، بل كانوا جميعاً أهلا للثناء وأهلا للنقل عنهم والتحدث بأخبارهم ، فى معرض الإعجاب والإطراء .

حكاية الشباب والشيوخ — إذن — ليست هى مربط الفرس فى هذه الحملة .

مربط الفرس فى الحملة كلها كان فى ديوان الخاصة الملكية بعد مقالاتى عن الرجعية وكلمتى فى مجلس النواب عن الملك أحمد فؤاد ، وكانت لذلك قصة لا يتسع الوقت هنا لشرحها بحذافيرها ، ولكن خلاصتها الكافية فى مقامنا هذا أن زبانية القصر يئسوا من إغرائى وتهديدى من ناحية الوظائف والألقاب ، فأرادوا أن يفهمونى أن سمعة الأدب نفسها ليست فى أمان من مكرهم كما ظننت ، وأنهم قادرون على النيل منى فى هذا الميدان أشد من قدرتهم على النيل منى فى ميادين الوظائف والألقاب ، والمغانم والدواوين .

وقد كان قائدهم المختار لتدبير الحملة أديباً موتوراً يقاربنى فى السن ولا يحسب من الشباب إذا حسبت أنا من الشيوخ ، فظل فى قيادة هذه الحملة — بتمويل القصر — إلى أن خرج ناظر الخاصة زكى الأبراشى « باشا » من ديوانه بقصر عابدين . . . ثم تبدلت — فجاءة — أعمار الشيخوخة والشباب وتوقفت حملة الضغينة والسباب ، فلم يصدر عدد واحد من أعداد أبولو والإمام ، ولم تصدر كراسة واحدة من تلك الكراسات التى تحصر الشيخوخة كلها فى « شيخها » « الوحيد » ثم لا تعرف شيخاً غيره فى الأربعين ولا بعد الأربعين .

* * *

ثم عادت شهر زاد إلى الكلام المباح وغير المباح بعد ربع قرن من الزمان .

فكان الكلام المباح — أو غير المباح — هذه المرة حملة جديدة من طراز جديد : هو طراز الحرب الباردة أو الساخنة بين شعر الحياة وذلك الشعر الذى يحوم كلما حام على « بيت القصيد » . . . ولا يزيد .

ومن المسئول عن بيت القصيد ؟

المسئول عنه إنسان واحد فى العالم العربى كله هو عباس العقاد فقط لا غير . . .

ومرة ثانية أو ثالثة أو رابعة ، ينكشف للقارئ المتأمل أن الحكاية هنا غير « ذات موضوع » وأن الموضوع كله مختلق مما قبل الألف إلى ما بعد الياء .

ذلك أن قادة الحملة لم يقرءوا حرفاً مما يسطره كاتب هذه السطور منذ خمسين سنة فى موضوع بيت القصيد المظلوم .

فكاتب هذه السطور قد بدأ حملته على « بيت القصيد » فى صحيفة الدستور (سنة ١٩١٠) وتابعها بغير انقطاع إلى السنة التى استيقظ فيها « المجددون الغيورون » للزراية بشعر البيت الواحد والإشادة بشعر الحياة .

وقد ألف كاتب هذه السطور كتاباً كاملا عن الشاعر « ابن الرومى » للتنويه بسبق هذا الشاعر إلى وحدة القصيدة وإعراضه عن الشعر الذى يذكر ببيت فى المطلع أو بيت فى الختام ، أو أبيات هنا وهناك بين المطلع والختام .

فليس الموضوع إذن هو الموضوع ، وليس مربط الفرس هو شعر البيت الواحد أو شعر الحياة .

إذ لو كان هذا هو الموضوع لكان من حق كاتب هذه السطور على المجددين الغيُر أن يثنوا عليه ويذكروه بالخير . . . فإن عز عليهم الثناء وحسن الذكر فلا أقل من السكوت .

على أنهم قد كشفوا أنفسهم بما قالوه عن شعر الحياة كما كشفوا أنفسهم بما قالوه عن بيت القصيد .

فالشاعر الروسى « مايا كوفسكى » مضرب المثل بشعر الحياة قد مات منتحراً فى نحو الثلاثين ، ومات مثله اثنان من زملائه بين شعراء المصنع والريف ، وهما باجرتسكى ويسنينى !

وليس أعجب من « شعر حياة » يترك لقرائه القدوة السيئة بالهرب من الحياة .

وليس أعجب فى الدعوة إلى بيت القصيد من كتابة خمسين سنة فى الحملة على بيت القصيد ، ومن تأليف كتاب كامل لتفنيد بيت القصيد .

شعراء الحياة ينتحرون .

وأدباء بيت القصيد يقومون ويقعدون بالحملة على شعر البيت الواحد ويجعلونه أضحوكة النقد بترتيب أبيات القصيدة من أسفل إلى أعلى ، ومن أعلى إلى أسفل ، كما صنعنا فى كتاب الديوان .

وهذا هو الموضوع .

فهل هذا هو مربط الفرس ، أو مربط الفرس موضوع غير هذا الموضوع ، وسر غير هذا السر ، وسبب فى الخفاء لا يعفى كاتب هذه السطور من النقد والتشهير ، ولو مسح بيت القصيد من صفحات الكون ، ولو مد عمر الإنسان المعدود إلى أجل غير محدود .

فكاتب هذه السطور لم يحسن قط فى قول ولا عمل منذ استطاع أن يقول ويعمل فى ميدان الأدب أو ميدان السياسة ، وفى ميدان التأليف أو ميدان الصحافة .

وكاتب هذه السطور معصوم من الصواب والسداد ، جامع للأخطاء والأغلاط فى كل ما قال وكل ما عمل وكل ما أراد .

وما هو السبب ؟ ما هو السر ؟ ما هو الموضوع ؟

الموضوع غير مهم على الإطلاق .

الموضوع أنه مشتوم مذموم على الدوام أو مشتوم مذموم والسلام أو لا سلام !

إن مدارس الدعاية من هذا القبيل لتستغفل الكتاب والقراء إذا هى ورطتهم فى مجاراتها على تهويلاتها وتأويلاتها ، وإنها لتضيع عليهم أوقاتهم عبثاً إذا هى ساقتهم إلى جدال ينتقل بهم من محال إلى محال ، ولا سبيل بعده إلى التفاهم على حال .

وكل حقهم فى ذمة الناقد أن يكشفهم على حقيقتهم ، وأن يأبى عليهم شرف الجد فى مناقشتهم ومساجلتهم . وأن يصون هذا الشرف لمدارس النقد الصادق ، ومدارس الفكرة والموضوع ، وإنه لشرف عظيم ندين به لهذه المدارس الصالحة فيما كتبناه وفيما سنكتبه ، إلى أن يشاء الله .

أما الموضوعات من طراز شيخوخة العقاد وحده فى الأربعين ، أو من طراز بيت القصيد الذى ننعاه خمسين سنة ، فنظرة السخرية وإشارة الاستهزاء ، هى غاية حقه عندنا وعند القراء .

النقد المنهجى*

يسأل الأديب المجتهد « محمد محمد المرشدى بركات » عن ضروب من النقد الأدبى أو التاريخى ، الذى ينشر فى هذه الأيام ويطلق عليه النقاد المشتغلون به اسم النقد على المنهج (أو على المنهج العلمى فى بعض الأحيان) ويخص كاتب هذه السطور جانب كبير منه كلما تناول أولئك النقاد « العلميون » بعض مؤلفاتنا فى الأدب والتاريخ :

ويشير الأديب « المرشدى » إلى موضوعات متعددة فى كتابنا عن خالد بن الوليد تناولها أحدهم واكتفى فى معظمها بقوله : إنها تخالف الحقيقة العامية أو إنها لا تستند إلى دليل من العلم الصحيح :

ولا حاجة بنا إلى تعريف النقد العامى لأنه معروف يتلخص فى كلمات معدودات ، فكل ما يطلب من الناقد العلمى أن يتحرى صحة الحقائق فى الوقائع المقررة وأن يتحرى صحة الاستدلال فى المباحث التى تقوم على الرأى ولا تنتهى ، بعد ، إلى يقين قابل للتحقيق .

وقليل مما اطلعنا عليه من أقوال أولئك النقاد العلميين يصدق عليه وصف التحقيق العلمى أو وصف الفهم والاستقصاء للمعلومات الواردة فى مراجعها حول الموضوع المنقود .

وهذا القليل نادر جداً فيما اطلعنا عليه وهو ذلك القليل الذى توافر على كتابته باحثون فضلاء لهم نصيب من الفهم والاطلاع غير مظاهر التقاليد والألقاب.

أما الكثير من ذلك النقد المظلوم فى نسبته إلى العلم فهو على نوعين مختلفين : أحدهما قد أصبح ضرباً من ضروب النصب الأدبى باسم المنهج أو « المنهش » بالجيم التى يبلغ من تعطيشها أن تلتبس بالشين . . . وليس للذكر المنهش فى أقاويل هؤلاء النصابين غير غرض واحد وهو مداراة العجز وراء الادعاء الكاذب وإهدار الحقائق فى سبيل الطنطنة بالألقاب والمصطلحات ، ومنهم من ينقد الكتاب ولم يقرأ غير

---

* الأخبار ٩ / ٥ / ١٩٦٢ .

العناوين وأطراف الفصول من هنا وهناك على غير فهم ولا أناة ولا رغبة صادقة فى الإدراك والإنصاف .

والنوع الثانى أقرب من ذلك إلى حسن النية ونزاهة الغاية ، ولكنه يقع فى الخطأ « العلمى » لوقوفه عند القليل من المعلومات وقصوره عن واجب الاستقصاء والإحاطة بالموضوع .

ونكتفى بمثل واحد من أمثلة هذا النقد فيما رواه الأديب « المرشدى » عن موضوعات كتابنا عبقرية خالد ، وهو موضوع معرفة العرب فى البادية بقيادة الجيوش الكبيرة قبل الإسلام . . فإن النقد الذى رواه الأديب ينفى هذه المعرفة ويأخذ علينا أننا استشهدنا بالمناذرة والغساسنة وهم — كما قال ذلك الناقد — سكان حاضرة ولا يحسبون بين أبناء البادية فى الجاهلية .

فهذا المثل القريب نموذج للنقد الذي يخالف العلم لنقص المعلومات وقلة الالتفات إلى معانى الكلمات :

فالغساسنة والمناذرة — قبل كل شىء — هم أهل بادية كما هو ظاهر من نسبتهم إلى مواضعهم ، وهى ماء غسان ومدينة الحيرة .

فمهما يكن من موقع غسان فهو فى الأصل موقع فى البادية سواء كان اسم موضع بتهامة أو كان اسم ماء كما جاء فى أشهر الأقوال :

إما نشأت فإنا معشر نجب　　الأزد نسبتنا والماء غسان

وقد كان جمعهم الأكبر من سكان مشارف الشام فلم تشتهر باسم غسان إلا القبيلة التى عرفت باسم « آل جفنة » بعد زوال إمارة « تدمر » وتفرق عشائرها بين جوانب الصحراء .

أما المناذرة فاسم عاصمتهم نفسها وهى « الحيرة » هو بالسريانية « حيرتيا » أى « المخيم » أو مجموعة الخيام ، وقد سميت بهذا الاسم كما هو ظاهر لأنها كانت معسكر خيام بدوية حيث نزلت القبيلة إلى جانب الفرات ؛

وليس قيام الأمراء فى بلاد الحاضرة بمانع أن تكون القبائل كلها بادية تجول بالإبل والماشية حول مشارف العمران ، فقد كان رؤساء القبائل يقيمون فى مكة وصنعاء وعدن وكانت القبائل كلها تتفرق بين جوانب الصحراء على مقربة من

تلك المدن أو بعيداً منها حيث تتجه بها دواعي الترحال فى طلب المرعى والسقاية .

وإذا كان الكلام عن « الجيوش الكبيرة » فمن الواجب على الناقد العامى أن يذكر أن أمير الحيرة أو أمير « تدمر » أو أمير « جلق » لا يجمع الجيش الكبير من أزقة بلدته وهى لا تتسع لجيش كبير من الرجال والنساء والأطفال ، فضلا عن الجند المسلحين المستعدين للقتال ، ولابد له من مدد القبائل التى ينتسب إليها ويقدر على حماية البادية حوله لانتشارها بين أنحائها ، ولو كانت كل قوة المناذرة أو الغساسنة فى المدن لما احتاجت دولة الفرس ولا دولة الروم إلى الاستعانة بهم على حماية الطريق بين العراق والجزيرة العربية أو بين العراق ومشارف الشام ، لأن تحصين المدينة بالجند النظامى كاف لضمان الأمن فيها ودفع أسباب القلق من ناحيتها ، ولكن البادية بعشائرها المتفرقة هى التى كانت مصدر القوة العسكرية لبنى المنذر وبنى غسان ، وعليها كان معولهم الأكبر فى تجنيد الجنود وجمع الجيوش ومحالفة الأكاسرة والقياصرة بين وادى النهرين وعاصمة قسطنطين وعواصم اليمن والحجاز .

هذا هو محصول « النقد العلمى » الذى يتناول ما نكتبه فى الأدب والتاريخ ، وغاية ما فيه أننا إذا التفتنا إليه من حين إلى حين فإنما هى عركة أذن مليحة للشاطر « العلمى » الذى يتصدى للنقد بغير عدته ويحسب أنه ينجو بأذنه سليمة إذا أطلق لسانه « المنهشى » فى غير موضع للنهش واللهاث !

العقول المتخلفة!*

تعصب على اللغة العربية

بعض المؤرخين الغربيين يغلب عليهم ضرب من التعصب على حضارة اللغة العربية لأسباب غير الأسباب الدينية أجملنا الكلام عنها فى مقال قريب من مقالات أخبار اليوم .

ونقول يغلب على بعضهم ولا نقول إن هذه النزعة تشملهم جميعاً لأن التاريخ لا تشمله نزعة واحدة فى أمم كثيرة ، وقد يوجد من المؤرخين الغربيين من يتعصب للحضارة العربية ويبلغ فى تعصبه لها حد الحماسة كما نرى مثلا فى بلاسكو إيبانيز وجوستاف لى بون ، ولكن نزعة التعصب على حضارة اللغة العربية قائمة مع هذا لابد أن يفهمها القارئ العربى وينفذ إلى سرها ، ولا يستعصى عليه النفاذ إلى هذا السر لأنه قريب .

أسباب غير دينية

فالكاتب الغربى ينظر إلى الهنود والفرس نظرة الغربيين إلى الشرقيين ، ولكنه إذا اطلع على أثر بليغ من آثارهم فى الشعر أو النثر أمكنه أن يدعى لنفسه أو لقومه حصة من الفضل فيه . لأن اللغات الهندية والفارسية والجرمانية واللاتينية ترجع إلى أسرة لغوية واحدة هى الأسرة التى عرفت فى العهد الأخير باسم السلالة الآرية ، أو التى عرفت فى مباحث اللغات باسم الأسرة الهندية الجرمانية .

وإذا اطلع الكاتب الغربى على أثر كهذا فى اللغة الصينية نظر إليه نظرته إلى الغرائب التى لا تدخل فى معترك الحياة الحاضرة «وعامله» كما يعامل قطعة من الآنية الخزفية يغالى فيها على أنها حلية مستغربة فى بلاده ، فلا ينافسها منافسة النظير .

أما الآداب المغولية فقد تعود الأوربيون أن يصبغوها بالصبغة الأوربية فى ميدان واسع من ميادينها الفسيحة ، وهو ميدان القارة الأوربية من مشارقها إلى أواسطها ،

---

* أخبار اليوم ٢٠ / ١٠ / ١٩٥٦ .

وقد تعودوا مع صبغهم للآداب المغولية بهذه الصبغة أن ينظروا إليها نظرة التعالى ، من جانب الأصيل العريق على الطارئ المتمسح الذى لا ينافس ثقافتهم ولا يزحزحهم عن مكانها .

هذه نظرة لا يسعه أن ينظر بمثلها إلى حضارة اللغة العربية ، لأنها « سامية » وليست بآرية ، ولأنها وقفت موقف المنافسة زمناً طويلا لحضارته الحديثة فى إبان نشأتها .

بل هو لا يسوى بينها وبين جميع الأمم السامية فى العطف أو الجفاء . لأن الأوربى أو الغربى قد يكره اليهود « الساميين » ولكنه لا ينسى أن كتابهم وكتابه يجمعهما مجلد واحد ، وهى مقاربة فى ناحية من نواحى الثقافة تدخل فى الحساب عند النظر إلى تقارب الثقافات .

والحضارة المصرية أيضاً

ويسرى على الحضارة المصرية أحياناً ما يسرى على الحضارة العربية فى هذه النزعة .

فإننا على الرغم من اعتقاد بعض المؤرخين أن المصريين الأقدمين وفدوا إلى وادى النيل من القارة الأوربية لا نرى لهذا الاعتقاد أثراً يذكر فى شعور الغربيين بالعصبية العنصرية ، لأنهم لا يشعرون بأن أبناء وادى النيل الأقدمين نقلوا إلى الوادى شيئاً من حضارة القارة قبل خروجهم منها !

وفيما عدا علماء المصريات لا نرى إلا القليل جداً من المؤرخين الغربيين يستريح إلى تمييز الحضارة المصرية القديمة بالفضل كلما تنازعته الحضارات اليونانية وحضارة بين النهرين وحضارة وادى النيل ، ويبدو ذلك من حكمهم على أصول علم الفلك وأصول الكتابة وأصول الإيمان بالتوحيد وغيرها من الأصول .

المناسبة

ونعود إلى هذا الموضوع لأننا لم نكد نفرغ من كتابة المقال السابق حتى وصل إلينا كتاب كبير يحمل الشاهد البين على صدق ما لاحظناه فى ذلك المقال ، ونعنى

به كتاب « تكوين العقل الحديث » الذى ألفه الأستاذ جون هرمان راندال واشترك فى ترجمة أجزائه إلى العربية الدكتور جورج طعمة والأستاذ برهان الدين الدجانى والدكتور محمد حسين هيكل، وأصدرته أخيراً دار الثقافة ببيروت .

هذا الكتاب يكشف عن نزعة مؤلفه بالخط العريض فى أساس « التكوين » الذى اختاره لمولد العقل الحديث ، فإنه اختار القرن الثانى عشر تاريخاً لهذا المولد ، ووضع بذلك فاصلا حاسماً يستثنى المؤثرات التى سبقت هذا القرن وفى طليعتها الحضارة الأندلسية واتصال الأوربيين بالشرق العربى أيام الحروب الصليبية .

والمؤلف — على اطلاعه الواسع — يغضى عن الدلائل والعلامات التى لا سبيل إلى الإغضاء عنها إلا لمن يتعمده ويدير بصره بيديه ، لأن المؤثرات التى ترجع إلى حضارة الشرق العربى واضحة مجسمة فى ميادين العلوم وميادين المعيشة اليومية . ففى علوم الرياضة والفلك يعرف الجبر فى اللغات الأوربية باسمه العربى وتسمى الأرقام باسم الأرقام العربية ولا تزال أسماء الكواكب والمنازل السماوية يتخللها الكثير من المصطلحات العربية ومنها ما نقلوه محرفاً فحافظوا على تحريفه كما فعل بعضهم فى نقل النجوم الفرود « أى المفرود » بالفاء فجعلها النجوم « القرود » كما قرأها محرفة بالقاف .

وعلوم الملاحة التى لها الأثر الأكبر فى تكوين الحضارة الغربية وتوسيع آفاقها لا تزال محفوظة بأعلامها العربية حتى ما كان منها متصلا بالإجراءات القانونية كالحوالة Avala والعوار Avar والوصل Wissil وطرح السفن Tare وغيرها من التعبيرات أو الأدوات .

أما أثر التكوين العقلى الذى يبدو من الحياة اليومية فيكفى أن نذكر منه القهوة والسكر والجبة والقميص والحرير الموصلى والحرير الدمشقى والحرير الغزى والجلد المراكشى والقلويات وما إليها لتعلم من تغلغلها فى الحياة اليومية كيف تولدت المؤثرات فى تكوين العقل الحديث .

عذر ولا عذر

هذه الملاحظة التى لاحظناها من قبل ونلاحظها اليوم لم تفت زميلنا الكاتب المحقق الدكتور محمد حسين هيكل فى المقدمة الوافية التى مهد بها لترجمة الكتاب ، فإنه نبه إليها فى الصفحة الخامسة عشرة فقال عن اختيار المؤلف للقرن الثانى عشر :

« إن هذا الاختيار يدعو للاعتقاد بأن المؤلف يرى أن ما حدث فى العالم من تطور التفكير قبل القرن الذى اختاره لم يكن له أثر حاسم فى تكوين العقل الحديث ، ويؤيد اعتقادنا هذا أنه لم يذكر مجهود المسلمين فى التطور الفكرى للعالم إلا ما كان من ترجمتهم كتب اليونان وفلسفتهم إلى لغتهم العربية » .

قال الدكتور هيكل هذا ثم أشار فى الصفحة التاسعة عشرة إلى عذر يلتمسه المؤلف لاختياره يلخصه الدكتور فى قوله : « إن العقل الحديث الذى يتحدث عن تكوينه هو العقل الأوربى أو العقل الغربى دون سواه ، ومنذ انهارت الإمبراطورية الرومانية فى روما كان الشمال الغربى من أوربا فى شبه عزلة عن العالم وكان أهله أشبه بالشعوب التى نسميها اليوم بالشعوب المتخلفة عقلياً أو ثقافياً ، وكذلك ظلوا إلى القرن الثانى عشر . . . »

وهذا العذر من المؤلف موضع خلاف كما قال الدكتور هيكل لا يقبل على علاته . ونحسب نحن أنه عذر مرفوض قطعاً فيما يتعلق بالشمال الغربى من القارة الأوربية قبل غيره من أقاليم تلك القارة ، ولا نستند فى ذلك إلى رأينا أو شعورنا بل نستند فيه إلى آراء الثقات من الغربيين ونذكر منهم مؤلفى كتاب « الحضارة الأوربية سياسية واجتماعية وثقافية » وهم أساتذة الفلسفة جيمس وستفال توسون وفرانكلن شارلز بام وفان نوستراند . فإنهم يقولون عن أثر الثقافة التى انتشرت من بغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة فى القرن الحادى عشر ووصلت إلى الشمال الغربى من القارة الأوربية بصفة خاصة : « إن تسربها لم يكن من أثر الحروب الصليبية كما يسبق إلى الخاطر ، ولكن جاء من طريق صقلية إلى إيطاليا ومن إسبانيا المحمدية إلى إسبانيا المسيحية ثم إلى فرنسا ، وتسابق الرجال من ذوى العقول اليقظى إلى بلارمة وطليطلة لتعلم اللغة العربية ودراسة العلوم العربية ، والعجيب أن معظم هؤلاء الرجال كانوا من الإنجليز مثل أديلارد أوف بات ودنيال أوف مورلى وروجر أوف هيرفورد وإسكندر نكوام ، وكانت رسالة إديلارد فى المسائل الطبيعية أول مؤلف علمى أنتجته أوربة الغربية فى القرون الوسطى ، وقضى بعض الطلاب سنين عدة فى إسبانيا ثم قضوا أعمارهم كلها فى هذا العمل المقصور على ترجمة الكتب العلمية العربية إلى اللغة اللاتينية . . وترجم جيرارد أوف كريمونا المتوفى سنة ١١٨٧ فى الثالثة

والسبعين من عمره واحداً وسبعين كتاباً مختلفاً من هذه الكتب وقاربه فى وفرة الإنتاج أفلاطون أوف تيفولى . وعلى هذا النحو كانت أوربة قد استولت فى مستهل القرن الثالث عشر على محصول العلم الإغريقى والعربى بحذافيره » .

وهؤلاء المؤرخون المختصون بأطوار الحضارة الأوربية منذ القرون الوسطى يعلمون كما يعلم المؤلف أن العرب ترجموا كتب الإغريق ولكن علمهم بهذا لم يمنعهم أن يسموا العلوم التى استفادها الغربيون منهم باسم العلوم الإغريقية والعربية ولم يمنعهم كذلك أن يقابلوا بين الثقافة كما تركها الإغريق وبين هذه الثقافة كما أسلمها العرب للغربيين فيعلموا بالمقابلة العادلة ما طرأ عليها من الزيادة والتحسين والابتكار .

إلا أن صاحبنا مؤلف كتاب « تكوين العقل الحديث » واحد من تلك الزمرة التى تتعصب للغرب وتتوهم أنه غير قابل لإخراج شىء من الآداب ينتقد أو يعاب ، فلولا الشرق — على زعمه — لكانت الفلسفة الإغريقية نفسها خالية من فلسفة الزهد والإعراض عن الحياة الجسدية ، ولولا « روح الغرب » لما بلغ من المسيحية إلا أن تكون ديانة شرقية « أقل قسوة » من الديانة العبرية !

ولقد نظر المؤلف إلى الديانة العبرية بهذه العين المنحرفة فقال عن قانون سفر التثنية : « بل نجد هذا القانون مزيجاً من الوحشية والمثل التى تسمو عليها ومن الأخلاق المتعطشة للدماء التى عرفها الشرق القديم » .

فأما أن العقائد الإسرائيلية قد اشتملت على قسوة وحشية فذلك صحيح قد فطن له الشرقيون أنفسهم حين دانوا بالمسيحية والإسلام . وأما أن الشرق هو مصدر التعطش للدماء وأن الروح « الهيلينية » أو الإغريقية سلمت من هذه الوحشية فهو غير الصحيح وغير المشهور من تاريخها القديم وفيه على الأقل قصة الغضب من الجنس البشرى والحكم عليه بالفناء ثم تعديل هذا الحكم بشطر كل من أفراده نصفين تعجيزاً له عن طلب الكمال ، ثم الحكم على « برومثيوس » بالعذاب السرمدى مشدود الوثاق إلى جبل بعيد مكشوف الكبد للعقبان تنهشها بالنهار ويعيدها الإله سليمة بالليل ليجدد له العذاب عند طلوع الصباح ! . وما كانت جريمة برومثيوس إلا أنه فتح أعين الآدميين للنور والعرفان !

والخلاصة

والخلاصة بعد التأمل فى موازين المؤلف ومكاييله أنه يزن بوزنين ويكيل بكيلين ، وأنه لو استطاع أن يقول إن الغرب لم يستفد من الشرق شيئاً غير ما يحسن الخلاص منه لما رجع بتكوين العقل الغربى إلى أثر وراء شواطئ القارة الأوربية وجبال الأورال .

وهذه نزعة يجب أن نفهمها حق فهمها لنفسر هذا الزيغ البين عن الإنصاف فى تقدير بعض المؤرخين الغربيين لمحاسن الثقافة العربية قديمها وحديثها إلى أيامنا التى نحن فيها ، واختصاصهم هذه المحاسن بالإنكار أو بالتطفيف والتصغير كلما وازنوا بينها وبين محاسن اللغات الغربية والشرقية .

ولا نحب – قبل الختام – أن نصاب بهذه النزعة فننكر مزايا الكتاب الذى ننعى عليه هذا الزيغ فى موازينه . فإنه على ما فيه من عيب ، كتاب يخرج منه القارئ بمحصول نافع من المعلومات عن تطور الفكر الحديث .

أحاديث المائدة *

فى إحدى يومياتى القريبة أشرت إلى كتب اليوميات وأحاديث المائدة فى الغرب ، وقلت إننى قد أعود إلى بيان أسباب الالتفات إليها فى عصرنا ، لأن لها شأناً فى تحول الحركة الأدبية إلى وجهة غير وجهتها .

عاد بى إلى تتبع هذه الكتب — كتب اليوميات وأحاديث المائدة — أن المطبعة الإنجليزية أخرجت فى خلال سنة واحدة نحو خمسة كتب عن الدكتور صمويل جونسون صاحب أكبر ترجمة غربية تدور على اليوميات وأحاديث المائدة ، وكانت العناية فيها بشخصيته أعظم من العناية بمؤلفاته وآثاره الأدبية ، ومنها ما يتكلم عن شبابه قبل اشتهاره واستقرار مكانته فى عالم الثقافة ، ومنها ما يلخص أحاديثه ويعرض منها للناحية البيتية أو لناحية المعيشة أو العلاقات بينه وبين أصدقائه ومشاهير عصره .

ومع هذه الكتب عن صمويل جونسون ظهرت كتب أخرى عن أعلام الأدب فى القرن الثامن عشر أو القرن التاسع عشر ، ممن لا تجمعهم غير صفة واحدة : وهى أنهم « شخصيات إنسانية » يهتم القراء بأحوالهم وأحاديثهم وغرائب أطوارهم كما يهتمون بكتاباتهم وآرائهم وآثارهم المطبوعة .

ولعلنا لا نبخس صمويل جونسون قدره إذا قلنا إنه يعيش اليوم بترجمته التى كتبها تلميذه بوزويل ويوشك ألا يذكر بكتاب من كتبه ، وأعجب عجائب الشهرة الأدبية ونقائض الأحكام عليها من أصحابها وغير أصحابها أن صمويل جونسون كان يغضب إذا سمع أن بوزويل يكتب « حياته » . . ويقول إننى سأنتزع حياته إذا كتب حياتى . . لأنه كان يعلم أن بوزويل صاحب « قفشات » لا تفوته شاردة ولا واردة من أضاحيك الرجل ، ولم تكن أضاحيكه فى الأحاديث ولا فى الأطوار الشخصية بالقليلة .

ما سر هذه العناية بجونسون ونظرائه من أدباء القرن الثامن عشر وما بعده ؟ سرها أنهم جميعاً كما قلنا أصحاب « شخصيات إنسانية » بينة الملامح ملحوظة

---

* أخبار اليوم ١٢ / ٥ / ١٩٥٦ .

الأطوار ، وليس أدعى إلى الاهتمام بهم من شيوع الأدب « المسموح » الذى يكاد أن يكون أدباً آلياً فى العصر الحاضر ، ومعظم أدبائه نماذج بشرية ولا شخصية لها ، ولا معول لها فى جذب الأنظار إليها غير « التفانين » الملفقة يموهونها باسم المدارس والمذاهب أو الأحزاب الفكرية أو الفلسفية ، ولا شيء فيها مما يستحق لفت النظر غير الاصطناع الذى يشبه المشى على الرأس أو القفز على قدم واحدة أو تغشية الوجه بالأصباغ والبراقع ، لتعويض الشخصية الإنسانية بهذه الملامح البهلوانية .

إن الإنسان يبحث عن « الإنسان » فى عصر الآلة فلا يجده إلا فى شكل آلة مصطنعة أو أفنونة من أفانين التهريج والضوضاء على غير طائل .

ولقد كثر هذا الشخص بعد الحرب العالمية الأولى وتعددت أسماؤه ولا حقيقة له وراء هذه الأسماء غير الاصطناع والتلفيق .

ولك أن تعرض أمام نظرك عشرين عنواناً من عناوين هذه المدارس أو المذاهب فلا ترى خلفها من الحقيقة غير التهريج أو الجدل أو الاصطناع ، أو لا ترى خلفها بعبارة أخرى غير المشى على الرأس أو القفز على القدم الواحدة أو الرقص بالريش والجلاجل والبراقع ذوات الأصباغ والأهداب .

سور ريالزم Surrealism وسوبرامتزم Suporematism ودادیازم Dadiasm وورقيات Papiers-Colles وذئبيات أو وحشيـــات Fauvism ورقاعات وشفاعات ، يقف أمامها أناس من الفارغين يصطنعون الجد لينتقدوا ويفسروا ويعلقوا ويلفقوا وليس أمامهم فى الواقع ما يساوى تفسيراً أو تعليقاً أكثر من صفعتين على القفا ، و « اذهب يا ولد أنت وهو لشغلك » . إن كان لهم شغل غير هذه البطالة الجوفاء .

الأدب الآلى والتقاليع البهلوانية هى سر الالتفات إلى أعلام « الشخصيات » التى تعنينا بملامحها الإنسانية كما تعنينا بملكاتها الفنية أو الثقافية ، وإن صفحة واحدة من أدب هذه « الشخصيات » الصادقة لتعطينا من زاد الحياة ما لا نأخذه من مائة « شوال » مملوء بذلك السخف المصطنع الرخيص .

* * *

وسألخص فى هذا المقال جلسة أو جلستين من جلسات القراءة أو جلسات

المصاحبة والمزاملة مع أصحاب الأحاديث التي اشتهرت باسم أحاديث المائدة ، وأولهم صمويل جونسون يعرفه كل قارئ من قراء التراجم فى الآداب الإنجليزية .

دخلت السيدة سيدونز Siddons أكبر ممثلات العصر إلى مسكن الفيلسوف المتواضع فلم تجد كرسياً تجلس عليه ، لأن عدد الكراسى فى البيت لا يزيد على عدد الزوار المعهودين ، وهم آحاد قليلون .

فلم يضطرب الفيلسوف ، بل اتخذ من هذا الحرج مناسبة كأجمل المناسبات لتحية ممثلة مشهورة ، وانحنى وهو يشير إلى الكرسى الذى أخلى لجلوسها قائلا ما معناه :

عفواً يا سيدتى . فحيث توجدين لا توجد كراسى خالية ، وأنت التى تتركين الكثيرين يبحثون عن الكراسى أحق الناس بقبول العذر فى هذا المقام .

ويدور الحديث عن الأدوار التى تحبها الممثلة الكبيرة فتقول له إنها تفضل أدوار كونستانس وكاترين وإيزابلا من روايات شكسبير ، وكلها شخصيات تفيض بالحياة الأنثوية على اختلاف الأمزجة والأهواء .

ويوافقها الفيلسوف على اختيارها ثم يخص بالتنويه دور كاترين الأرجوانية ملكة إنجلترا فى عهد هنرى الثامن ، ويرجوها أن تمثل هذا الدور قريباً ليسعد برؤيته ، فتنصرف على وعد منها بتمثيله وتمثيل غيره مما يقترحه الفيلسوف .

والحق أن الممثلة الكبيرة كانت على صواب فى تسمية الشخصيات النسوية التى تبرز فيها ملكاتها ، وأن الفيلسوف كان على صواب فى اختصاص دور كاترين من بينها ، لأنه دور لا تنفد عبرته الحية فى زمن من الأزمان ، ولعلنا كنا نعبر بهذه العبرة قريباً حين تحدثنا عن أثر الخبرة والمعاشرة فى الزواج ، فإن هنرى الثامن قد أكره إكراهاً على قبولها ثم هام بها بعد فسخ العقد بينه وبينها وكاد أن يتعرض للحرمان من وراثة العرش لإصراره على الزواج منها .

وتغادر الممثلة الكبيرة مسكن الفيلسوف البليغ فيكتب إلى سيدة من معارفه يذكر لها أثر هذه الزيارة فى نفسه فيقول إنه قد أعجبه من زائرته الكريمة أن الثروة والشهرة لم تغيرا شيئاً من أخلاقها الفاضلة ، وهما الخطر أكبر الخطر على مكارم الأخلاق . .

إلا أن هذا الرجل اللبق فى تحية السيدات لم يكن بهذه اللباقة فى جميع التحيات أو جميع المخاطبات ، فإن خطابه إلى النبيل الأديب اللورد شستر فيلد لايزال مثلا من أمثلة التوبيخ « اللطيف العنيف » بين الرسائل المحفوظة فى الآداب الأوربية ، وقد كان جونسون ممن التمسوا معونة النبيل الأديب على طبع كتاب من مؤلفاته فلم يعنه ولم يحفل بجواب سؤاله ، فلما انقضت سبع سنوات على ذلك الطلب واستغنى جونسون عن رعاية السراة والعظماء . أرسل إليه اللورد يعرض عليه معونته فكان الرفض فى هذه المرة من جانب الفيلسوف العزوف ، وكانت خلاصة جوابه أنه لا يحتاج إلى عوامة النجاة على ساحل السلامة بعد أن خاض اللجة وسبح فيها بين خطر الغرق واللهفة على النجاة . . وهذا الجواب الصارم هو الجواب الذى استعاره برنارد شو للرد على لجنة نوبل يوم منحته جائزتها وهو فى أوج الشهرة غنى عن المعونة والتشجيع .

كلا ! لم تكن لباقة الفيلسوف مع الحسان من ربات الفن سواء فى كل خطاب ، ولم تكن لذعاته — كذلك — وقفاً على النبلاء الذين يرفضون معونته ثم يحاولون أن يفرضوها عليه بعد استغنائه عنها . بل كان للجنس اللطيف نصيبه من تلك اللذعات ، وحديثه مع الحسناء مسز ثريل Thrale ينم على نصيب تلميذاته ومريداته من أسلوب « التحيات » الذى استخدمه فى رسالته إلى اللورد شستر فيلد :

دار هذا الحوار ذات يوم بينه وبين المريدة الحسناء !

مسز ثريل — تحياتك نادرة يا سيدى ولكنك إذا تفضلت بها كانت مثلا لا نظير له فى البلاغة ، فإذا غضبت فما من أحد يجسر على استخدام أسلوب من الخطاب يضارع أسلوبك فى القسوة وفى الشدة .

دكتور جونسون : سيدتى ! إننى آسف دائماً كلما نطقت بكلام قاس ، ولا أنطق بمثل ذلك الكلام إلا إذا ضويقت وجاوزت المضايقة بى حد الاحتمال .

مسز ثريل : نعم يا سيدى . ولكنك تضيق ذرعاً بأمور قلما يضيق بها أحد . وإننى لعلى يقين أننى تلقيت نصيباً من قوارسك فى هذه النوبات .

دكتور جونسون : الحق أنك قد تلقيت ذلك النصيب ، ولكنك تلقيته بصبر الملائكة وكان فيه الخير « الملائكى » بعد ذاك .

مسز ثريل : أعتقد ذلك يا سيدى . لأننى تعلمت منك ما لم أتعلمه من رجل آخر ولم أتعلمه من كتاب . وكانت كبريائى حين أشعر بأننى أستحق عنايتك بتعليمى أعظم من الكبرياء التى يجرحها التأنيب . . . فأنت تقوم بالتأنيب وأنا أظفر بالفائدة !

وكان فى المجلس سيدة تدعى مسز بيرنى فقالت : وكلاهما فيما أعتقد مشرف للطرفين .

قال دكتور جونسون : وكذلك أعتقد . . إلا أن مسز ثريل مخلوقة حلوة عذبة الروح ، ولها خلق من أجمل ما رأيت فى أخلاق النساء .

مسز ثريل : أقول لك يا سيدى — بغير تزلف — إننى لا أستمع إلى ملامك فى حضرتك وحسب . بل أظل أسمعه وأذكره فى مغيبك . ولا أزال أسأل نفسى : ترى هل يرضيه عملى هذا أو يعرضنى لملامه ؟ ثم لا يغيب عن بالى أنك لا تناقش أحداً فى الرأى كما تناقشنى .

مسز بيرنى : ألا إنكما قد ألف كلاكما صاحبه حتى تعودتما أن يحتمل أحدكما من الآخر ما يكفى لقتل الطارئ الغريب .

دكتور جونسون : صحيح . . إلا أننا كنا نتناقش هكذا قبل أن تنعقد بيننا هذه الألفة .

مسز ثريل : آه . . إننى ليخطر لى أحياناً أننى لن أموت إلا بكلمة من تلك الكلمات الصارمة التى يقولها لبعض الناس فإن ما يقوله لى أحتمله لعلمى بحبه إياى . ولكنى أحسب ما يقال للآخرين جد قاس !

دكتور جونسون : كيف يا سيدتى ! . . إنك أنت التى تحرضيننى على المقالة القاسية حين تطلبين التقريظ فى غير موضعه . . ولولا أنك تطلبين ثنائى لما تعرضت لملامتى . . إذ لا شىء يضايقنى كما يضايقنى أن أطالب بالثناء على أمر لا يستحق عندى غير الملام .

مسز بيرنى : إننى أعرف ذلك : أعرف أنه ما من موضع للشكوى من شدة الدكتور إلا كان معه موضع لرقته وسماحته !

مسز ثريل : ذلك حق . ولكننى أرجو أن « يقصقصك » أنت أيضاً بعض الشىء .

دكتور جونسون : كلا . لست أرجو ذلك . وإننى ليسوءنى أن أفوه بكلمة تؤلم مسز بيرنى .

مسز بيرنى : لو أنك فعلت لآلمتنى الكلمة فوق ما تتخيل ، وتخاذلت تحتها على الأثر !

مسز ثريل : إننى لأذكر يا سيدى أيام رحلتنا إلى بلاد الغال كيف كنت تحاسبنى على ملاطفة بعض الناس ، وكيف كنت تقول لى : ما هذا الثناء الذى تغدقينه على كل أحد وعلى كل شىء ؟ . . وعندئذ كنت أقول لك : لا عجب يا سيدى . . إننى حين أصاحبك أنت والسيد ثريل وكوينى ينبغى أن أؤدى واجب أربعة فى تحيات الملاطفة . . .

وكذلك قالت السيدة كلمتها الأخيرة ، وأفهمت الدكتور أنها ينبغى أن تؤدى عنه وعن صاحبيه واجبهم جميعاً فى الملاطفة ، لأنهم يقصرون فيه !

* * *

وتستغرق هذه الأحاديث أكثر من ألف ومائتى صفحة ، يثق القارئ أنه لا يفتح صفحتين منها تخلوان من مساجلة حية من هذا القبيل ، تقترن فيها دقة المعنى بلباقة التعبير .

ولا نريد أن ندير المقال كله على مائدة واحدة من موائد هذه الأحاديث ، فهاهنا مائدة أخرى لعلم من أعلام الأدب العالمى فى القرن التاسع عشر ، هو لورد بيرون الشاعر المشهور ، وهاهنا حديث له يشبه هذه الأحاديث بعض الشبه فى العبارة وفى الموضوع .

سأله بعضهم : هل كانت لادى بيرون تحبك ؟ فقال بغير تردد : كلا !

ثم قال : « لقد كنت الزى الشائع — الموضة — يوم التقت بى لأول مرة ، وكان المشهور من سمعتى أننى شاب ماجن وأننى من أبطال الأناقة ومبتدعى الأزياء . وكلا هذين الوصفين محبب إلى الفتيات . وقد تزوجت بى غروراً منها ، لاعتقادها فى نفسها القدرة على إصلاحى وترويضى . وكانت فى بيتها طفلة مدللة غيوراً بطبيعة هذا التدليل ، ثم زادتها الدسائس ممن يحيطون بها غيرة على غيرة . . ولم يكن أسهل من جواز الخديعة عليها ، لأنها كانت تؤمن بعصمتها فى الدراية بطبائع الناس ،

وكانت تفهم كلمة مدام دى ستايل فهماً مشوباً بالحماقة ، إذ كانت تعتقد أن ساعة اللقاء الأولى تغنى فى معرفة الإنسان ما لا تغنيه خبرة عشر سنوات بعد ذلك ، وكان من دأبها أن ترسم لمن تراه صورة قلمية أو صورتين . . وقد رسمت صورتى فى صفحات بعد صفحات ، وليس فيها كلها ما يطابق الحقيقة .

* * *

وتحدث الشاعر عن زياراته لمدام دى ستايل فقال إن زائرات مجلسها كن يعتقدن فيه أنه الشيطان المجسم ، وأنه دخل المجلس ذات يوم على غير موعد ينتظر فأغمى على إحدى السيدات وجعل الآخرون ينظرون إليه كأنهم يتعوذون بالله . واستقبلته ربة الدار بخطبة قصيرة من خطب الوعظ . . فلزم الصمت ولم يزد على انحناءة خفيفة بعد الإصغاء إليها .

* * *

هذه الأحاديث وما إليها هى التى تسمى عندنا بأحاديث المائدة ، وهى اليوم مقبولة مستعادة بين المطبوعات الإنجليزية ومنها ما يعاد بعد انقضاء قرن أو أكثر من قرن على ظهوره للمرة الأولى .

وهذه الأحاديث فى آدابنا العربية أوفر جداً من نظائرها فى الآداب الأوربية ، ولكنها لا تسمى بأحاديث المائدة أو اليوميات بل تذكر فى أبواب النوادر والمسامرات أو تذكر أحياناً فيما يسمى بنوادر المحاضرات والأمالى .

ولو أننا رجعنا إلى الأمالى وما شابهها من كشاكيل العاملى والمرتضى والقالى والأصبهانى وابن عبد ربه والمقرى لجمعنا منها ما يعدل « أحاديث المائدة » الأوربية كثرة ومتعة وقيمة فى البلاغة والدلالة النفسية أو التاريخية .

ولو أننا أضفنا إليها ما نذكره ونوشك أن ننساه من نوادر أدباء الجيل الماضى والجيل الحاضر لامتلأت بها الموائد وشبع منها طلاب هذه الفاكهة أو هذا الغذاء ، وإنهم لكثيرون .

ويخيل إلينا أننا نصنع خيراً إذا تعوضنا بهذه الموائد عن أمثال ذلك اللغط الذى يحمل عنوان الأدب كذباً فى لغتنا ويسأمه قراء الغرب فيعرضون عنه ليلتمسوا العوض منه على موائد الأدباء الغابرين .

حديث آخر الزمن*

الدنيا خلصت !

كنت فى أسوان منذ خمس سنوات أو ست ، وكان الأوان أوان الموسم الشتوى فى إبانه ، وأما بالنسبة إلى السنة الدراسية فقد كان أوان البعثات التى يشترك فيها الطلاب والتلاميذ من الجامعات إلى المدارس الابتدائية ، ومنها مدرسة عالية أو متوسطة للبنات .

وسمعت تعليق الجدات الموقرات على بعثة البنات بصفة خاصة ، فلم تسمع إحدى الجدات الموقرات بنبأ هذه البعثة الأنثوية إلا سألت هذه الأسئلة جميعاً مع اختلاف الترتيب :

هل لهؤلاء البنات أهل ؟

وهل حضر معهن أحد من أهلهن ؟

وما هى أعمارهن ؟ وهل يجرى ذلك كثيراً فى بلاد البحاروة . . أى بلاد الوجه البحرى بعبارة أخرى ؟

ولما علمت الجدات الموقرات أن هؤلاء البنات لهن أهل ، وأن أحداً من أهلهن لا يصحبهن فى هذه الرحلة ، وأن أعمارهن تتراوح من الرابعة عشرة إلى العشرين أو ما فوقها بقليل ، وأن هذه الرحلات كثيرة فى بلاد « البحاروة » . .

ولما علمت الجدات الموقرات بذلك كله دقت كل منهن كفاً بكف وقلن جميعاً إحدى كلمتين :

آخر زمن . . !

أو الدنيا خلصت !

* * *

---

* أخبار اليوم ٣ / ٩ / ١٩٥٥ .

وخلصت أكثر من مرة

فلا أدرى ماذا تقول هؤلاء الجدات الموقرات إذا سمعن برحلة البنات الثلاث ؛ فيما بين العشرين والخامسة والعشرين من العمر، بغير دليل ولا زميل ، من إنجلترا إلى فرنسا إلى إسبانيا إلى أفريقية الشمالية من أقصاها إلى أقصاها ، إلى مصر إلى السودان إلى أفريقية الوسطى فأفريقية الشرقية ؟

لا يكفى أن تكون الدنيا « خلصت » مرة واحدة ، بل ينبغى أن تكون خلصت وخلصت مرات وراء مرات .

هؤلاء ثلاث بنات . لا يعرفن أحداً فى البلاد التى زرنها . ولا تعرف إحداهن صاحبتيها فى الواقع . . لأن صاحبة الفكرة فى الرحلة جمعت صاحبتيها بطريق الإعلان فى الصحف . واختارتهما من نيف وثلاثين طلباً بعد النظر والمحادثة . . ثم أسلمن أنفسهن للمقادير .

ماذا تعلمن لهذه الرحلة التى استغرقت أكثر من مائة يوم بين العمار والخراب ؟ بل ماذا قصدن فى الحقيقة أن يتعلمن ؟

إنك لتطالع قصة الرحلة من الفاتحة إلى الخاتمة فلا ترى فيما عدا المسير وشد الرحال وصور الآثار والرمال ، غير التعرف إلى بضعة رجال ، وبقيت خرافات التاريخ بعد شهود مواقعها كما كانت على البعد، حتى حمام كليوباترة ومارك أنطونى فى مرسى مطروح . . !

وكل ما نشرنه فى كتابهن من الصور معلوم مسبوق إليه ، وكل ما روينه من أخبار البلاد قد أصبح اليوم بعض حوادث الصحف اليومية ، ولا جديد فى الأمر غير المصادفات الشخصية التى صادفنها مع بعض الرجال .

وإحدى دواعى التسلية فى هذه الرحلة أن صاحباتها لا يكلفن أنفسهن وصف امرأة واحدة فى الطريق بالجمال أو الجاذبية . ولا يذكرن وصف الجمال والجاذبية إلا فى اللحظة التى يتحدثن فيها عن رجل . . ولا سيما الرجل طالب القبلة أو طالب الزواج .

* * *

بغير مصباح ديوجين

فبغير مصباح ديوجين العتيق وجدن عدة رجال والفيلسوف الخائب لم يعثر على رجل واحد بمصباحه فى رائعة النهار ، لاختلاف الشروط واختلاف العينين .

وجدن فى إسبانيا الفتى المغامر الذى تطارده الدولة ولكنه مع هذا الخطر الذى يلاحقه قد عرض نفسه للموت من أجلهن ، لأنهن يجهلن مداخل الطريق ومخارجها بغير هدايته .

ووجدن التونسى « على » ذا العينين السوداوين ، وفارق إحداهن وعيناه (السوداوان) تغرورقان بالدموع ، وهى كذلك لا تخفى دموعها فى موقف الوداع .

ووجدن فى القاهرة يونانياً يصحب إحداهن إلى الصور المتحركة ، ووجدن مصرياً يحرسهن على طريق الهرم ، لأنها أيام انتخاب ومظاهرات !

ووجدن فى أسوان كنزاً من الرجال بين مصريين وغير مصريين ، وأحدهم شاب أرمنى بعينين وطفاوين ، وملامح ساحرة تحكى ملامح الرب المعبود بين قدماء الإغريق إله الربيع « أدونيس » .

أما المصريون الأسوانيون — وطن الشكر — فوصفهم على الجملة أنهم على حظ نبيل من الوسامة Nobly Handsone

وأما فى الخرطوم فقد حضرن وليمة تضم بين ضيوفها ثمانية أجناس غربية وشرقية ، وحمدت إحداهن ربها لأن المصرى الجذاب — من المصريين اللذين لقياها فى الفندق — هو الذى صحبها إلى النزهة دون المصرى الآخر ، وكان ذلك المصرى الجذاب مهندساً فى مصلحة الرى المصرية .

والرحالات المغامرات — والشهادات للحق — منصفات .

لأنهن ذكرن « المضايقات » التى تعرضن لها فلم يخصصن بها المصريين أو الشرقيين ، بل شملن بها الأوربيين من كل وطن وطبقة وسن ، على مدى الطريق .

والمضايقة الكبرى التى يروينها عن مصر بدأت على الحدود ، وانتهت فى الإسكندرية ، ولم تتكرر بعد ذلك إلا مرة واحدة فى الخرطوم .

* * *

تذاكر

تزودت كل منهن للرحلة بمائة وخمسين جنيهاً من لندن إلى لندن كرة أخرى عوداً على بدء بعد ثلاثة أشهر وأسبوعين ! . .

وذهبن فى مرسى مطروح ليركبن القطار ، فاتخذن مقاعدهن فى الدرجة الثالثة من باب القصد ، وباب المشاهدة والاستطلاع .

وجاءهن التذكرى — أو الكمسارى — فدعاهن إلى الدرجة الثانية وقال لهن إنه لا يتقاضاهن زيادة فى الأجر على هذه النقلة ! .

وقادهن إلى ديوان مخصص (للحريم) .

قالت كاتبة الرحلة : ولكنه ترك القطار وجلس معهن ، ولاح عليه أنه ينوى أن يطلب منهن ثمناً لهذه الدعوة لا يقدرن على بذله ، وتحققن من ذلك حين استطرد من التحيات ، غير المباركات ، إلى وصف مسكنه بالإسكندرية ، وعنده فيه سرير يسع أربعة بالراحة !

ولم تكتم المؤلفة أنهن ذهبن معه إلى ذلك المسكن ، ولكنهن ذهبن جميعاً فى وقت واحد للفرجة والاستطلاع ، وانتظرن ريثما خلع ملابس المصلحة وتهيأ للخروج معهن بملابس النزهة ، ثم أرشدهن إلى فندق يونانى استأجرن فيه حجرة واحدة ، وما يشعرن بعد الفجر إلا وصاحبنا يفتح الباب ويزعم أنه نسى صحيفته بالأمس ، ثم يميل إلى إحداهن ويسر إليها كلاماً لم تسمعه صاحبتاها ، ولكنها قالت لهما بعد ذلك إنه سألها قبلة فرفضتها .

ومن صور البنات الثلاث يتبين أن صاحبنا التذكرى هذا صاحب ذوق وإن لم يكن صاحب عفة . . لأن البنت التى سألها القبلة من بينهن أجمل البنات . !

وعلى هذا ، أو من أجل هذا فيما يظهر ، يتكرر فى الرحلة ثناء الرحالات المغامرات على المصريين .

قالت المؤلفة : « لقد حذرونا مراراً من المصريين وقالوا لنا إنهم قوم يبغضون الأوربيين وسيصيبنا منهم بعض الكدر لا محالة ، فكان من أسباب الغبطة الزائدة عندنا أننا وجدنا كل واحد على درجة من اللطف تفوق المألوف خلافاً لما توقعنا » .

ووصلن إلى « إدفو » بأعلى الصعيد ، فتلقاهن بها موظف فى مصلحة الرى على أهبة الزواج ، وسرهن أن يستمعن منه تفاصيل العادات المرعية فى الخطبة والمعيشة البيتية ، وقالت له إحداهن : « أتعلم ؟ إنه لينعشنا أن نراك ونرى أبناء وطنك قوماً لطافاً على خلاف ما سمعنا وأنذرنا قبل السفر » .

وقهقه الشاب مستغرباً وهو يقول لهن : « يا له من كلام متناقض غريب .. فقد كنت أفهم دائماً أن الإنجليز هم الذين يوصفون بالجفوة ويستكبرون أن يتحدثوا إلى أحد من غير الإنجليز » .

وكل الرحلة على هذا النمط .

وختامها فى إفريقية الشرقية زواج واحدة من البنات الثلاث ، وكان يمكن أن تتزوج صاحبتاها أيضاً لو أرادتا الزواج .

رحلة أخرى

والرحلة الأخرى تسلك الطريق نفسه مبتدئاً من ليبيا ومنتهياً على شواطئ البحر الأحمر بين أرتيريا والحبشة والسودان واليمن وعدن وسائر هذه الأقاليم .

كاتبها لم يقصد الرحلة ولكنها فرضت عليه بأمر الدولة الإيطالية ، لأنه كان طبيباً من أطبائها فى طرابلس ، ثم أرادت أن تنتفع به فى مستعمرات البحر الأحمر ، لمعرفته باللغة العربية وعادات « الوطنيين » .

واسم هذا الطبيب ألبرتو دى براجنو Pirajno

واسم كتابه « ترياق الثعابين » لأن رقية الثعابين ضرب من الطب الوطنى يصادف أمثاله فى صناعتهم ، وفيها إشارة مجازية إلى الثعابين الآدمية ، وما أكثرها فى هذه الرحلة التى لا تفرغ من الخبائث والسموم ومنها سموم المخدرات والمهربات .

ما أكثر الثعابين وأكبر الأذى من بعضها فى قصص هذا الطبيب !

وواحد من هذه الثعابين مضحك لا تنتهى أخباره من مضحكات إلا لتتصل بمضحكات أخرى من نوع آخر ، وأول من يضحك ضحاياه ، وأول من يضحكون منه أنفسهم بعد شفائهم من سم اللدغة التى قلما تميت .

ذكرنى هذا الخبيث بالمحتال العالمى « بلسامو » الذى حير الأوربيين منذ قرنين وشاع العجب منه حتى كتب عنه فيلسوف البطولة « توماس كارليل » صاحب كتاب الأبطال الذى ترجم إلى اللغة العربية ، فقال عنه الفيلسوف إن سره كله فى تمام خباثته . . فهو خبيث تام غير مغشوش بذرة واحدة من الطيبة أو الصدق والأمانة Perfect scoundrel

وكذلك خبيث هذه الرحلة : رحلة ترياق الثعابين .

فإن الشذوذ التام فى هذا الخبيث أنه فاشل كل الفشل فى كل عمل أمين ، مخلص كل الإخلاص فى كل عمل مختلس ، وبعض هذه الأعمال المختلسة تجارة الأعراض وتجارة الرقيق وتجارة السموم المخدرة ، وتجارة السياسة الدولية . .

فمن أتم أنواع الشذوذ فى هذا المخلوق أنه قضى حياته لا يخلص لأحد ولا يخلص فى عمل وأنه بدأ حياته طفلا مشرداً خائباً لا شغلان له غير مطاردة الظلال : ظلال الفراش وأشباهها من ذوات الجناح .

وقالت أمه للطبيب إنها لا تفهم لسلوك هذا الولد الشاذ علة غير أنها ارتعبت رعباً شديداً وهى حامل به من جراء انفجار مروع .

اسم هذا الخبيث « بوغيشة الكذاب » . . وضحاياه مذكورون بأسمائهم المعروفة فى مصوع وأسمرة والحديدة وعدن وصنعاء ، ومنهم طبيب كبير تولى رئاسة مستشفى مشهور فى القاهرة ، لأن بوغيشة سئم تجارة الأعراض وانتقل من بلده إلى بلد آخر فأظهر الاستقامة والمروءة ودخل فى خدمة الطبيب الكبير فأسلمه صيدليته عند سفره مطمئناً إليه . . ثم عاد من السفر فإذا الصيدلية كلها أثر بعد عين ، وإذا بوغيشة نفسه « فص ملح » وذاب كما يقولون ، ولم يسمع به أحد من عارفيه بعد ذلك إلا وقد أرسل لحيته وافتتح له مستشفى يعالج به المرضى والجرحى ممن يصابون فى حوادث التهريب ، ويتستر وراء هذه الصناعة لإدارة حركة واسعة من حركات الاتجار بالمحظورات على أنواعها ، وتمتد تجارته إلى الشام وتركيا ومصر والحجاز .

وأثرى بوغيشة من هذه التجارة ، واستطاع أن يتصل بالسياسة الدولية فظهر

فى صورة من صور الصحف السيارة يدلى بأقواله فى مسألة من مسائل الخصومات الشرقية .

مخلوق مزيف من الفرع للقدم وليست السياسة الدولية إلا إحدى « التزييفات » التى يدلنا عليها أنها تنتظم فى سلك واحد ، عند هذا الخبيث، مع تجارة الرقيق وتجارة الأعراض وتجارة الحشيش والأفيون والكوكايين .

وحتى المخدرات لا يصدق فى تصنيفها ونسبتها إلى تجارها ، فقد باع (كربونات الصودا) مرة باسم الكوكايين مع قليل من التمويه والتغفيل ، وذكر للمشترى اسم بائعة لا تعرف عن هذه الصفقة شيئاً ، فكادت تفقد حياتها بعد انكشاف الحيلة .

وأخطر ما فى هذا الخبيث أنه خفيف الروح ، وأن صرعاه أنفسهم يضحكون ويكادون يمسكون بجنوبهم ضحكاً كلما ذكروه وذكروا كيف يقعون فى حبائله مرة بعد مرة وهو ظاهر البراءة أمامهم كأنه لم يكذب فى حياته كذبة واحدة ، وربما كان الصحيح أنه لم ينبس فى حياته بكلمة واحدة تخلو من الكذب والخداع ، ثم ينساها لساعته حين يجنى ثمرتها العاجلة ، ولا يخطر له أنه قد صنع مع ذلك المخدوع المنكوب شيئاً يمنعه أن يلقاه بعد ذلك ليعيد عليه الكرة فى براءة ظاهرة غير متكلفة . . . براءة يتمناها أصلح الصالحين أو يتمناها أقدر الممثلين . ولكنها على اليقين لا تكلفه جهداً كبيراً أو صغيراً ليتسم بها أمام صرعاه. إذ هو كما قال فيلسوف الأبطال: « خبيث تام غير مغشوش بذرة من الصدق والصلاح »، أو هو « خبيث مصفى » كما نقول فى أحاديث كل يوم ، . وابن الحرام المصفى هو الخبيث التام والذى عناه ذلك الفيلسوف .

ما أجدر هذا الخبيث بقصة وافية تدار على حوادثه وخلائقه وعلاقاته مع الناس وأولهم صرعاه وضحاياه !

إن قصص الخيال لا تجود لنا بكثير من أشباه « بوغيشة » خيبة الله عليه . فما خاب الملعون قط فى رأى نفسه وإن كان كله خيبة فى آراء الصالحين.

وما أضيع آراء الصالحين بين عامة الآراء !

الرحلة الثالثة

والرحلة الثالثة من قسمة آسيا الوسطى ، لأن مؤلفها بيتر ماين Peter Mayne سبق له التأليف عن القارة الإفريقية أو عن المغرب الأقصى وسمى كتابه عنه « أزقة مراكش » . . وكان فى الحق منصفاً غاية ما يستطيع الغربى أن ينصف فى الكتابة عن الأمم الشرقية ، ولا سيما الأمم التى تبتلى بمقاومة الاستعمار .

وإفريقية من جهة وآسيا الشرقية أو الوسطى من الجهة الأخرى هما القبلتان اللتان يتنافس الرحالون فى الاتجاه إليهما بعد الحرب العالمية الثانية . فلو أردت أن تمنح إحداهما الجائزة التى تستحقها بكثرة الرحلات المؤلفة عنها لما عرفت أيهما أحق بها ، أو لصنعت كما صنعت الحسناء التى احتكم إليها حافظ إبراهيم وخليل مطران وسلماها جنيهين تراهنا عليهما ليأخذهما صاحب الملامح « العجيبة » منهما .. فنظرت إليهما ملياً ثم سلمت جنيهاً لهذا وجنيهاً لذاك !

تتدفق كتب الرحلات عن آسيا وإفريقية فى الوقت الحاضر على منهج غير معهود من قبل .

ولسنا نعنى أن الغربيين لم يؤلفوا عن القارتين من قبل ، ولكننا نعنى أن الاختلاف بعيد بين سبب الاهتمام بالأمس وسببه اليوم .

فبالأمس كان هناك مستشرقون يهتمون بالتاريخ أو باللغات ، وجواسون — أو جواسيس — يرسمون الخرائط الحربية سراً ليستعان بها فى الحملات الاستعمارية أو مبشرون يشتغلون تارة بهذه (الشغلة) وتارة بتلك .

أما الاهتمام اليوم فبالقوة الإنسانية فى الشرق ، ولعل الأصح أنها فى نظر الغربيين « قوة طبيعية » تقاس وتوزن لحين الحاجة إليها ، وربما احتاجوا إليها فى هذا الحين .

أكاد أقول إنك تتناول أية رحلة عن أى بلد معلوم أو مجهول فتخرج منها بشىء طريف أو بخبر جديد ، ولا استثناء لهذه الرحلة بين الأفغان والباكستان وفى بلاد « بختونستان » على الخصوص ، وهى بلاد قبائل (الإفريدى) وما جاورها من القبائل المشهورة باسم « الباقان » .

سيعلم الغربيون شيئاً لا يريدون أن يصدقوه عن منزلة المرأة فى البلاد الشرقية ، بين المدن وفى أعالى الجبال .

فالرحالة يصف لنا سيدات القبائل فى باكستان الغربية فيقول إن السيدة تحسن لقاء الضيوف كما تحسنه المضيفة الإنجليزية المهذبة فى الحاضرة الكبيرة ، ويقول عن إحداهن — زوجة زميله ميرعجم — إنها ذات جمال ساحر وذات مهابة طبيعية هائلة ! Tremendous natural dignity

ولا تنحصر « وجاهة » المرأة (الجبلية) هناك فى آدابها الاجتماعية المطبوعة ، بل توجد من النساء شاعرات يحرضن شعوبهن على قتال المستعمرين ويحفظ الرحالة الإنجليزى أبياتاً من إحدى القصائد أعجبته وجعل يترنم بها فى سيارة القافلة ، وفيها تقول العمة شيتاق : « العيون الزرق والأنوف الطوال . . أسأل الله أن يأخذهما جميعاً لديه ! » .

أما المدهش من أمر الرحلة كلها فهو قصة القبائل مع القديسين .

فلا يوجد بطن من بطون القبائل الأفريدية لا يفاخر الآخرين بمزارات قديسيه ، ويسمون المزار باسم قريب من اسمه العربى وهو « الزيارة » ويحجون إليه بين آونة وأخرى للتفاهم والتصالح وعقد الصفقات وحلف الأيمان على الوفاء .

وتشكو إحدى البطون فقراً فى القديسين فتعيرها البطون الأخرى ، وتفخر عليها بوفرة « الزيارات » لديها .

وليست وجيعة الفقر (القديسى) هنا أنه نقص فى السمعة الدينية وكفى . . كلا ! بل الوجيعة العظمى أنه نقص فى مصالح القبيلة ومرافقها فإن القوم على تلك الجبال قد استحكمت بينهم العداوة حتى لا يأمن أحدهم غيره إلا بيمين على رأس ضريح ، ولا تنعقد صفقة بينهم إلا بمثل تلك اليمين .

وكيف تنحل هذه المشكلة الدنيوية الأخروية حيث تستحكم أزمة القداسة ؟

على وجه غاية فى البساطة والسهولة ، فإن القديسين الذين تقام لهم الأضرحة بعد الممات يشتهرون بكراماتهم ونوادر صلاحهم وتقواهم وهم بقيد الحياة .

ويخرج واحد من هؤلاء الأتقياء مع رفيق فى السفر من أبناء القبيلة المفتقرة

إلى الأضرحة ، فما هو إلا أن ينفرد به فى الطريق حتى يخطر للرفيق هذا الخاطر السريع !

أليس من المصلحة أن يموت هذا القديس على أرض القبيلة ليدفن فيها ؟ أليس فى استطاعة الزميل « الأفريدى » أن يسدى هذه اليد إلى قبيلته وعشيرته الأقربين .

بلى ، فى استطاعته ذلك ، وقد فعله .

فعل ماذا ؟

قتل القديس قبل أن يخرج من أرض القبيلة ليدفن فيها ويزار ضريحه فى قضاء مصالحها وإبرام عهودها وخداع المخدوعين بأقسامها وأيمانها .

ما أجهل الإنسان . . !

ما أذكاه — على ظنه — فى مساومات بنى نوعه وأربابه ومغالطاته لضميره وضمائر ذويه .

وما أشبه هذه الغيرة على القداسة عند الأفريديين بقداسات شتى عند أمم التقدم والحضارة .

وكلهم — بعد — قاتلوا أنبياء ومرسلين ، ومستغلون لكل شىء حتى قداسة القديسين !

كشكول البريد *

يرد مع كل بريد غربي طائفة من الكتب والمصنفات تحيط بكل موضوع من موضوعات الثقافة الإنسانية ويحار القارئ بينها فيما يقرؤه وما يدعه لكثرتها وإغراء كل منها بالإقبال عليه قبل غيره . ولكننا نحب هذه الحيرة ونروض أنفسنا عليها . لأن الحيرة بين مائة شيء حسن « أريح » من اليقين أمام شيء واحد رديء وقد شبعنا زمناً طويلاً من اليقين الرديء الذى لا حيلة فيه .

ويندر فى هذه البرد أن تغلب عليها صبغة واحدة فى كل رسالة ، فإنها تجمع بين الجد والهزل والمحافظ والمجدد ومذاهب اليمين ومذاهب اليسار ، إلا أننا نحسب أو نتخيل أن البريد الأخير قد واجهنا ببعض الشذوذ عن هذه القاعدة العامة : فقد كادت الفكاهة أن تغمره عامدة أو غير عامدة ، وقد أوشكت أن تتسلل إلى الجد المقصود منه كما تسللت إلى الهزل الذى كتبه كاتبوه للضحك والتسلية من صفحة العنوان إلى صفحة الختام .

وهذه أمثلة منوعة تعفينا من أعباء الحصر والاستقصاء ، وتدل على ما تعنيه من غلبة الفكاهة على جده وهزله ، من الألف إلى الياء .

كتابان من باب الجد هما كتاب فرنسى عن « تطور مصر من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٥٠ » وكتاب « التحدى فى مستقبل الإنسان على الكرة الأرضية » .

وكتب أخرى من باب الفكاهة والتسلية وهى تاريخ الغزل والتشبيب وتاريخ الحكمة السارة فى المواعظ والأمثال ، وكلام عن الإخراج المسرحى ، وكلام عن الممثل كين ، وكتاب يقول عنوانه « اضحك معى » ويكاد جوابه كله أن يكون : لا .

١ ــ تطور مصر فى ربع قرن

ألف هذا الكتاب مارسيل كولب وقدمه الأستاذ روبرت مونتانى من أساتذة

---

* أخبار اليوم ٨ / ١٢ / ١٩٥٤ .

الكولج دى فرانس ، وأراد به الحد فى الكتابة عن تطور مصر فى ربع القرن الذى ابتدأ سنة ١٩٢٤ وانتهى فى سنة ١٩٥٠ . . ولكنه لو تعمد السخرية بالتاريخ كله لما احتاج إلى جهد يبذله وأدلة يستند إليها غير الجهد الذى توافر عليه بعلمه وبغير علمه ، والأدلة التى استند إليها فى عامة فصوله وهو لا يدرى .

وهذا نموذج واحد عن مسألة نعلمها نحن علم اليقين ويعلمها معنا كل من قرأ لنا طرفاً مما كتبناه فى هذه السنوات الخمس والعشرين .

وخلاصة هذه المسألة أن « العقاد معجب بمسولينى وهتلر » وأنه ألف كتابه عن عبقرية محمد ليعقد المقارنة بين رسول الإسلام وبين أبطال الطغيان من هذا القبيل .

قال سامحه الله : « إن النبى عند العقاد صورة غالية لا فى التاريخ العربى وحده أو التاريخ الإسلامى وحسب ، بل فى تاريخ الإنسانية قاطبة . فإن هذا الدارس المثابر على دراسة جيتى ، المتشبع بآراء نيتشه ، المعجب فى حماسة وقوة بالدكتاتورية الألمانية والإيطالية ، يسرد مناقب النبى النادرة . . ويعقد المقارنة الطويلة بينه وبين نابليون وهتلر . . » .

فماذا يقول صاحبنا هذا لو لم نؤلف كتابنا عن الحكم المطلق فى أوائل هذه السنين الخمس والعشرين ، ولو لم نؤلف خلال الحرب كتابنا « هتلر فى الميزان » . .

ولو لم نقل قبل ذلك إن الناس ينظرون إلى نابليون وهو يسبح فى بحر من الدم ولا يعنيهم منه إلا الإعجاب ببراعته فى السباحة .

كنا نقول عن أديب مصرى مات قبل أوانه ، وكان من عادته مع القراء وعادة القراء معه أن يضحكوا من كل ما يقول ولو كتب فى معرض الرثاء .

كنا نقول عنه رحمه الله : « إنه لو كان يضحك قراءه قاصداً لكان أبرع من موليير فى عالم الفكاهة » .

فالحمد لله على نظراء من أدباء فرنسا لأديبنا الفقيد ، وهو سبحانه وتعالى محمود على كل شىء .

٢ ـ تاريخ الغزل

ومع البريد كتاب فى فنون الغزل من أقدم عصوره إلى منتصف القرن العشرين.

كتبه « تيرنر » مؤلف كتاب تاريخ الإعلان ، ولم يتعمد فيه الهزل ولكنه لم يستطع أن يهرب منه فى صفحة واحدة ، لأن الحب كله لا يخلو من الهزل ، ودع عنك الغزل الذى يجرى فى كل عصر على حسب التقاليد .

والمؤلف حريص على تبرئة الجنس البشرى من وصمة الجلافة والخشونة منذ أيام الغابات والكهوف . فلم يوجد قط ذلك العاشق الذى يخبط المعشوقة على رأسها بالهراوة ثم يسحبها من شعرها إلى منزل الزوجية بين المقاومة والتسليم .

ولم يتخلف الإنسان فى هذا الميدان عن الطير والحيوان ، فإذا كان الطير قد عرف كيف يستهوى الحبيب بالعش اللامع الوثير ، وعرف كيف يتلقى من الطبيعة حلية الريش والزينة ، فخليق بالإنسان أن يتعلم منه بالقدوة والمحاكاة إن لم يتعلم منه بالعقل والبداهة .

وعلى طول المسافة بين عصر الكهوف وعصر « ناطحات السحاب » يرى المؤلف أن الرحلة قصيرة ، وأنها تدور ثم تعود إلى حيث بدأت كلما أمعنت فى الطريق ، وأن رحلات الهوى بين المتعلمين والمتعلمات فى القارة الحديثة إنما هى رحلات على مدى خطوات من فنون الغزل تحت ظلال الآجام وبين مغاور الكهوف .

إلا ذلك الاستثناء الذى لابد منه للتقدميين .

فإن القلوب « التقدمية » لا تعرو ذلك الغزل البرجوازى الانتهازى الذى كان يعرفه الأقدمون .

وفى سهرة من سهرات الإذاعة بموسكو يسمع الناس تمثيل الغزل بين فتى فلاح فى مزرعة تعاونية وفتاة فلاحة تسوق الجرارة فى تلك النوبة . .

وتتنهد الفتاة ثم تقول : « ما أجمل العمل فى ليلة جميلة كهذه الليلة ، ومن فوقنا البدر الكامل ، وعلينا أن نجتهد كل الاجتهاد فى توفير البترول ! »

ويجيب الفتى : « إن هذه الليلة توحى إلى أن أزيد على حصتى من الإنتاج . . »

وبعد هنيهة يعود فيقول : « إننى عشقت أسلوبك فى الدأب والاجتهاد منذ اللحظة الأولى » .

ويتغنى فتيان برلين الشرقية بأنشودة يسمونها أنشودة السيارة ، ويقول فيها الفتى : « إنى أتغنى بسيارتى وكل سيور الجلد تغنى معى . لأننى الليلة سأقبل حبيبتى ، وأقول لها ثم أعيد القول فخوراً بالمزرعة رقم (ثلاثة) التى سبقت إلى الرقم القياسى جميع النظراء . . » .

ووصلت إلى اتحاد النقابات الدولى نسخة من أغانى الغزل التى يسمح بها الحزب الشيوعى فى بورما لأتباعه ، فإذا هى تحرم عليهم الغزل البرجوازى من قبيل (أهواك !) . . وما أحلاك . . إلى أشباه هذا الهراء ، وتنظم لهم نماذج للغزل يقول الفتى لفتاته فى بعضها :

« إننى مفتون بإخلاصك وأمانتك لقضية الحزب ، وأتمنى أن نرفع الراية معاً فى هذا الجهاد » .

ولا يجمل (بالتقدمى) المخلص أن يبدأ الغزل ويختار من يخاطبها به قبل اطلاع اللجنة التى يعمل فى نطاقها ويحق لها أن توجهه فى العمل حيث كان !

٣ ـ الحكمة السارة

ويمضى مع تاريخ الغزل تاريخ أخر للحكمة العالمية من أقدم أصولها .

والحكمة العالمية من أقدم أصولها هى حكمة الأمثال التى يقال عنها إنها يخف وزنها ويثقل معناها ، كأنها الجواهر والفصوص .

وقد سماها صاحب هذه المجموعة بالأمثال السارة فلم يخدع القارئ بهذه التسمية ، فكل مثل من أمثالها الألفين يضحك بمفارقاته ويسر السامع بحلية من حلى البلاغة فى التعبير ، ويدهشه لأنه لا يدرى حين يسمع المثل السار أو المثل السائر : هل اقترب من شىء بعيد أو ابتعد من شىء قريب .

قالت الإنسانية بجميع لغاتها ، أو قال آدم بجميع لغاته ، فما من مثل هنا

إلا وهو تكرير لكلام قيل فى لغة أخرى ، وهكذا قيل .

إذا أردت أن تنسى شيئاً فاذكره

رنين الدرهمين فى الكيس أعلى من رنين المائة

من يضحك من نفسه أولا لن يضحك منه أحد

مداراة المعرفة خير من إظهار الجهل

كلما صعد النسناس ظهر احمراره !

الكسالى أقل الناس فراغاً

تسقط الشجرة حيث تميل

أحبب جارك ولا تهدم جدارك

القط الذى يطرد الفيران . والقط الذى يقبضها يستويان !

الحماقة فى الوقت المناسب عقل

أكثر الأشياء لها مقبضان

إذا عثر اللسان نطق بالحقيقة

الخطيب الأخير ينال يد العروس

الثروة تعب فى الجمع ، وهم فى الصيانة ، وخوف من الضياع

الكلب لا يعوى إذا قذفته بعظمة

أسأل الله الصديق الذى يطلعنى على عيوبى فيغنينى عن الأعداء

السمعة الحسنة تذهب بعيداً ، والسيئة أبعد !

الثوب جديد . أما البالى فهو الثقوب

كل ثناء يموت ما لم تطعمه

الكأس الأولى هى الغالية

أصدق الصدق ما تنكر سماعه

الماء الملوث يطفئ النار كالماء الطهور

المال الخفيف يحملك والمال الثقيل تحمله

كسوتنا الأخيرة فى الدنيا بغير جيوب !

لا تستر عن الصديق ما يعرفه العدو

زيادة فى العجلة نقص فى السرعة

وكلما قالت الإنسانية قولا خالداً نفيساً ، قالته بهذا الأسلوب ، ولم تقله بأسلوب التلغراف أو التليفون .

وكلما عز على الإنسانية أن تتعب فى سبيل الحكمة مسّها الحاجة إليها . .

وهكذا هى اليوم تطلب فى كل تعليم علماً بغير دموع ، وحقوقاً بغير واجبات وأمثالا ملبسة بالسرور .

٤ ـ واضحك معى

وكتاب من هذه الكتب غاية فى الجد على الرغم من جامعيه ومرتبيه ، ولهذا يطلبون من قرائه أن يضحكوا ولا يتركونهم وشأنهم يضحكون متى شاءوا ويبكون إن طاب لهم البكاء ، وقد يكون البكاء ألزم من الضحك بعد قراءة الكثير من « مضحكات » الكتاب .

اسم الكتاب « اضحك معى » . .

ومؤلفوه طائفة من أعلام الفكاهة السيارة فى الصحافة الأمريكية والإنجليزية وصاحب الرأى والذوق فى اختياره علم آخر من أعلام الفكاهة السيارة فى العصر الحاضر ، يسمى دافيد لانجدون . . إن كنت قد سمعت به أيها القارئ الضحوك .

إحدى فكاهاته : رجل نجا من الموت بالسم وبالرصاص وبالسلاح الأبيض ، وعاش بعد ذلك متشائماً منقبضاً لأنه اعتقد أن القدر لم (يكلف خاطره) أن ينجيه من الموت مرات إلا لأنه يدخر له فى جعبته مصيراً أصعب من الموت !

ومن فكاهاته : رجل إنجليزى يحدث صاحبه عن أبيه فيقول له إنه اشترك فى حرب (الزولو) . .

فيسأله الصديق فى أى الجانبين ؟

وملحة الملح من نوادر الكتاب قصة الرحالة الذى اتهمه الإفريقيون « بالعين الحاسدة » وألقوا عليه التهمة فيما أصابهم وأصاب مزارعهم وأشجارهم وأنعامهم من العلل والأوبئة وخسائر الجدب والكساد .

ولابد من الجزاء وهو معلوم .

فإن لم يذعن للجزاء فعليه أن يحصل على شهادة البراءة من كاهن القبيلة ، ولا يعطيه الكاهن هذه الشهادة إلا إذا مر « حافياً »فوق الحجارة المحماة على مشهد من المصابين والمصابات ، ومن شهود الذمة والأخلاق .

والمتهم — ماك جريجور — فيه نظر

وكاهن القبيلة فيه نظرات

وعيون أبناء القبيلة فيها أنظاركثيرة مفتوحة لكي ترى أو لا ترى على حسب المقام.

وقد برئ المتهم من جرائمه كل البراءة ومر على الحجارة المحماة حافى القدمين ، فلم يصبه سوء .

مر على الحجارة المحماة حافى القدمين ولكن على الدراجة . .

ولم يرد فى العلم القديم أن الدراجة تعصم المتهم من قضاء الأرباب .

هذه هى المضحكات التى استطعت أن ألبى بها طلب السادة مؤلفى الكتاب أو طلب السيد الذى يدعونا إلى الضحك معه !

وأحسبنى قد استخدمت الكرم الشرقى فى تلبية ذلك الطلب العسير . .!

والرأى عندى أن يقنع الغربيون من الشرقيين فى هذا العصر بطلب واحد : وهو طلب البكاء .

طلب غير مستجاب بغير تكليف !

٥ — الجمهور معصوم

والسؤال السريع الذى يسبق القارئ إلى لسانه : معصوم من ماذا ؟ أو معصوم من أى شىء ؟

فقد تكون العصمة من الصواب هنا أقرب العصمين ، ولكن المخرج الكبير « أدولف زيوكر » لم يقصد هذا حين كتب ترجمة حياته وتحدى بها المخرجين قائلا : إن الجمهور لن يخطئ أبداً .

تجربة خمسين سنة قضاها هذا الفنان المجرى فى إخراج روايات المسرح والصور المتحركة ، وعمل فيها بفراسة الشرقى لأن أبناء المجر محسوبون فى القارة الأمريكية من الغربيين وعمل فيها بتنظيم الحساب أو تنظيم الإحصاء لأنه قوام كل عمل فى العصر

الحديث ، وجاء فى الحق بخلاصة نفيسة لتجارب الفن المسرحى فى القرن العشرين ، ومدارها كلها الاهتمام بالفنان والاهتمام بالكاتب معاً ثم الاجتراء على التكاليف بغير مبالاة .

وكانت أولى مجازفاته إطالة الوقت للرواية المعروضة على اللوحة البيضاء ، فقد كان المظنون فى الجمهور أنه لن يصبر على منظر من مناظر الصور المتحركة أكثر من دقائق معدودات .

وكانت له مجازفات كثيرة فى التعاقد مع بعض الممثلين والممثلات على مئات الألوف من الريالات ، فلم يخسر فى مجازفة واحدة منها لأن الجمهور خيب رجاءه وأخلف تقديره ، أو أخلف حسابه على القول الصحيح .

وقد تتبعنا المخرج الكبير فى معظم صفحاته وخرجنا من الكتاب ونحن على ثقة من موافقته على شريطة واحدة : أن يكون عنوان الكتاب « الجمهور لا يبخل أبداً . . » .

فلم يثبت زيوكر نتيجة واحدة كما أثبت هذه النتيجة من تجاربه الطوال .

رسالة الكاتب*

بماذا يعنى الكاتب ؟

هل يعنى بطلب الشهرة ؟ هل يعنى بطلب الكسب ؟ هل يعنى بإتقان عمله ؟ هل يعنى بأداء رسالته ؟

وصل البريد الأدبى الأخير وفيه مناقشات من هذا القبيل لمناسبة اجتماع المؤتمر الثامن والعشرين من مؤتمرات أندية القلم العالمية.

ومن الآراء السديدة التى اطلعنا عليها رأى القائل إن هذه الأغراض لا تتناقض حتماً لأن كبار الأدباء الأقدمين — من طبقة هوميروس وشكسبير — كانوا يطلبون الكسب بمرضاة السامعين ويبدعون مع هذا غاية الإبداع .

ويصح هذا الرأى كلما أمكن الجمع بين هذه الأغراض بغير تناقض ولا اضطرار إلى تقديم غرض منها على سائرها ، ولكن ماذا يكون الرأى إذا حصل التناقض كما يحصل فى كثير من الأوقات ؟

الرأى الصواب فيما نعتقد أن يكون الغرض المقدم هو الغرض الذى يجعل الكاتب « كاتباً » وبغيره لا تتحقق له صفة الكتابة ولا يتيسر له أداء رسالة من رسائلها .

فالطبيب — مثلا — لابد أن يكون طبيباً قبل النهوض بأمانته الإنسانية ، بالغة ما بلغت من القداسة والوجوب .

والكاتب كذلك لابد أن يكون كاتباً قبل نهوضه بواجبه الخاص . لأن الواجبات العامة مشتركة بين الكتاب وغير الكتاب ، مطلوبة ممن يحمل القلم وممن لا يحمله ، ولا محل للبحث فى الرسالة الكتابية ما لم يكن هنالك كاتب وما لم تكن هنالك كتابة .

والكلام هنا للجارة العزيزة

والجارة العزيزة هى الطائفة الأمية التى تحسب أن الكتابة فن لا يحتاج إلى أداة ، أو أنها فن يحتاج إلى أداة يملكها كل من ملك أصبعه .

---

* الأخبار ٣٠ / ٧ / ١٩٥٦ .

الأدب والتمدن *

كلمة الأديب فى أصل معناها العربى تقابل كلمة « المتمدن » فى الاصطلاح الحديث .

ومن هنا ، فيما نعتقد ، سميت الوليمة « مأدبة » لأنهــا عنوان أدب المجالسة والاجتماع ، كما يقال فى الغرب « رجل صالون » و « سيدة صالون » بهذا المعنى :

وإنى على ما فىّ من عنجهيــة ولوثــة أعرابيــة لأديب

مما يفهم منه أن الأدب عندهم نقيض الجلافة ، وأن الأديب على هذا الاعتبار هو الإنسان المصقول .

وأصل التأديب على ما يظهر من مادة الكلمة مأخوذ من التهذيب والتهديب ، وكلاهما يفيد التنقية والتطهير من الأشواك والأهداب ، ويقال هذبت الشجرة وهدبتها أى قطعت زوائدها وجنيت ثمرتها ، ولا خلاف فى أن حروف كلمات « التأديب والتهذيب والتهديب » مما يقع فيه الإبدال الكثير ، إذ ليس أكثر من الكلمات التى تروى بالذال والدال أو بالهمزة والهاء .

فالتأديب إذن هو التهذيب أو التهديب ، بلفظه ومعناه .

ولهذا يخطر لنا أن كلمة Litetatute of medicine لا تترجم بالأدب الطبى لأن الكلمة الأوربية مأخوذة من مادة الحرف أو الكتابة ، وليست مأخوذة من مادة التهذيب والتهديب ، وإنما تترجم بالكتابة الطبية كما قال أستاذ الجيل لطفى السيد للدكتور سليمان عزمى فيما روته آخر ساعة .

فإذا كان لابد من اصطلاح خاص فالدكتور عزمى نفســه قد وفق لهذا الاصطلاح قبل عشر سنوات على ما نذكر ، حين أصدر كتابه القيم وسماه : « على هامش الطب » . فإن هذا الاصطلاح يمكن أن يطلق على الكتابة التى تقرب الطب إلى الجمهور أو تلم بتواريخ الأطباء ، والنظريات الطبية لا تدخل فى صميم العلم والعمل الذى يزاوله الطبيب دون غيره .

---

* الأخبار ١٤ / ٩ / ١٩٥٩ .

وإذا ترجمت عبارة أدب الطب بهوامش الطب لم يلتبس على السامع ما يقصد منها ، ثم يتكفل الاصطلاح بعد ذلك بالتحديد والتأكيد .

التخصص كما أفهمه

أما هذه فهى — حقًّا — مشكلة عالمية من مشكلات العصر الحاضر بجميع أجياله ، وعلى رأسه جماعة العلماء والأدباء .

يكتب الآن قادة الأفكار الغربيون فى مشكلة « التخصص » التى شطرت ثقافة العصر إلى شطرين أو جعلت الثقافة الإنسانية ثقافتين ، لا تغنى إحداهما عن الأخرى ولابد منهما للإنسان الصحيح ، ولا نقول الإنسان الكامل ، فإنه غير موجود !

فالثقافة اليوم تنقسم إلى علمية وأدبية ، بين عالم لا يعرف شيئاً عن هوميروس وفرجيل ، وأديب لا يعرف شيئاً عن تكوين المادة ونظام الأفلاك .

وكلاهما نصف إنسان . . .

أما الإنسان « الصحيح » فهو الذى يعرف العلم ولا يجهل الأدب ، أو يعرف الأدب ولا يجهل العلم ، وإن لم يبلغ فيهما معاً مبلغ التخصص والامتياز .

وكنا قبل الحرب العالمية نقول عن الرجل إنه مهندس وأمى ، أو إنه طبيب وأمى ، أو إنه معلم وأمى ، أو إنه أمى وهو يحمل فى جيبه وفى رأسه أرفع الشهادات .

فاليوم يخافون فى الغرب من هذه الأمية التى تنتشر بين العلماء كما تنتشر بين الجهلاء ، ويكاد يحصى السكان جميعاً من يحصيها بشطريها ، فلا يستثنى منها غير فضلات الأرقام فوق الملايين .

ويعترف كتاب الإنجليز بسبق الأمريكيين والروس لهم فى تعليم الثقافة العامة ، والمعلومات المشتركة بين طوائف القراء من العلميين والأدبيين على السواء ، ويستدلون على ذلك برواج الألوف من كتب العلم والأدب فى أيدى الجمهرة العامة من الجنسين . ولكن نقاد المجلات الأدبية يشعرون ببعض العزاء فى عناية الشاب الإنجليزى بالرياضة والفروسية ، ويحسبون أن العناية بالموسيقى مع الإقبال على لعب

الكرة بأنواعها والسياق بأنواعه تعويض حسن لنقص العناية بالمعلومات العامة ، وإن لم يكن أحسن تعويض ولا أنفع تعويض .

ونزيد على رأى هؤلاء النقاد أن الملاحظة من أساسها تحتاج إلى تعديل كبير .

فنحن لا نعتقد أن « التخصص » ممكن على أتم وجوهه مع الانقطاع لعلم واحد أو دراسة واحدة . فقد يكون من لوازم « التخصص » أو من لوازم التفوق فيه أن يفارق الدارس حدوده وينظر إلى الأفق الواسع من حولها ، وقد يجهل داره من يعيش فيها طول عمره ولا يدخل داراً غيرها ليعرف منها مواضع الزيادة والنقص فى داره ، فلا مناص لإتقان التخصص من شيء غير التخصص يظهره على محاسنه وعيوبه ، ويظهر إلى جانبه تخصصاً آخر يقاس عليه .

لقد قيل إن « المتخصص » نصف إنسان ، وإن الإنسان الصحيح هو الذى عرف الأدب ولا يجهل العلم أو يعرف العلم ولا يجهل الأدب .

فقل ولا حرج عليك : كلا .. ولا هو نصف إنسان .

وإنما هو كما قال نيتشه : أذن كبيرة أو لسان طويل تمشى به قدمان .

العرب

— ما هو دور علمائنا وأدبائنا وشعرائنا فى غزو الفضاء ؟

« وماذا تفعل سيادتكم لو قالوا لك إنك ستصعد إلى القمر بعد أربع وعشرين ساعة ؟ »

مدرسة العروة الوثقى الإسكندرية — عبد الرازق فهمى المهداوى

فى وسع الطالب النجيب أن يطمئن إلى درجات علمائنا وأدبائنا وشعرائنا فى هذا الامتحان العسير .

بل فى وسعه أن يطمئن إلى دور أمتنا كلها فى هذا الامتحان ، لأن القدرة الأولى والأخيرة فى مسألة غزو الفضاء إنما هى قدرة المال الكثير الذى لا غنى عنه للعلماء ولا للأمم ، ولو كان جميع أفرادها من العلماء المخترعين المبتدعين المبدعين.

ألا يرى الطالب النجيب أن السباق فى ميادين الفضاء محصور بين أغنى الأمم وأكبرها عدداً وثروة . وهم السوفييت والأمريكيون ؟

أيظن أن العلماء والمخترعين لا يوجدون فى بلاد كسويسرا والدنمارك والسويد والنرويج وإيطاليا وألمانيا وفرنسا وهولندا والبرتغال . .

أيظن أن تلك البلاد لا يوجد فيها الطيارون المستعدون لركوب الطائرات إلى أبعد مجاهل الفضاء ؟

إن بريطانيا موطن « رذوفورد » إمام مباحث الذرة لم ترصد بميزانيتها شلناً واحداً لحساب المركبات الفضائية ، لأنها لا تملك الثروة التى كانت تملكها بالأمس ولا تأمن حكومتها أن يثور عليها شعبها إذا أنفقت من محصول الضرائب ما يكفى هذه التجارب والمحاولات .

ولو كانت هذه التجارب والمحاولات من المشروعات التجارية لما تأخرت إلى هاتين السنتين ، لأن الوسائل العلمية والصناعية قد كانت موفورة معروفة لكل تجربة أو محاولة تدعو إليها أعمال السفينة الفضائية ، ولكن شركات التجارة لا تقدم

على عمل كبير النفقات مجهول النتيجة قبل أن يتحقق أصحاب الأسهم من جدواه، ولابد من الانتظار بالتجربة والمحاولة إلى أن تتولاهما الدول التى تقدر عليهما ولا تحسب حساب الربح والخسارة فى مسائل الدفاع والهجوم. وما زالت الولايات المتحدة تدرج نفقات هذه التجارب بين تكاليف وزارة البحرية وميزانية الدفاع على الإجمال ، وما تزال التجارب المسموح بها فى ميزانيات الدول الصغيرة مقصورة على الصواريخ النووية وأسلحة الذرة بأنواعها المختلفة ؛ ولا ينتظر أن تتحمل هذه الميزانيات أعباء علم الفضاء وصناعة الفضاء فى نطاق أوسع من نطاق المعامل الكيمية ومدرجات المعاهد العليا بالجامعات .

ولو كانت لبلادنا ثروة تسمح لها بإنفاق ألوف الملايين على تجارب غزو الفضاء لما شككنا فى إمكان علمائنا وصناعنا أن يدخلوا هذا السباق على أمل كبير فى النجاح . فقد سمعنا كبار الخبراء الغربيين يقولون إن الجندى المصرى الذى قل أن يحسن القراءة العربية — فضلا عن الأجنبية — كان أقدر على استخدام الرادار أثناء الحرب العالمية الكبرى من جنود البريطانيين والأمريكيين. وقد رأينا بأعيننا جهلاء الريفيين يحاولون صناعة المذياع وإدارة المكنات وإصلاح الساعات وهم غير مستعدين لذلك بغير عدة النظر والمراقبة والخبرة بالبسائط من آلات الريف . وشاهدنا منهم من يقود الباخرة بين جنادل الشلالات ولا سابقة له فى هذا الفن غير النظر إلى طاحون البخار هنا أو مكنة الزورق هناك .

فالحيلة الآلية قديمة عندنا ، واشتغال الأقدمين هنا بهندسة الحياض وأدوات الرى ومراقبة الأجرام السماوية ميراث نافع جداً فى العلوم الرياضية والصناعات الرياضية على التعميم ، وقد كان الإغريق يسمون الهندسة بعلم قياس الأرض لأنها كانت تستخدم لهذا الغرض عند قدماء المصريين ، وكان أفلاطون يوصى تلاميذه بأن يتقنوا « الحساب » كما كان يتقنه أولئك القدماء ، وما أقرب « الرياضة » على اختلاف أبوابها من هذه الصناعات وهذه التجارب والمحاولات ، ولو صعدت إلى عنان السموات .

سؤالك يا سيد عبد الرازق سؤال تلميذ يحك أنفه لأساتذته العلماء والأدباء ، كأنه يقول لهم: أين شطارتكم يا هؤلاء وأنتم ترهقوننا بالأسئلة وتضنون علينا بالدرجات

وتستطلعون ما نعلم وما لا نعلم من هذه المخترعات وتلك المعجزات ؟ .

لكن هؤلاء الأساتذة يستطيعون أن يحكوا لك أنفك وأنوفهم كلما سألوك : أتدرى كم ثروة الروس والأمريكيين وكم ثروتك – ثروة بلادك – على غاية ما وصلت إليه ؟

أتدرى ؟ . . . لا !

إذن حاسب على درجاتك فى الجغرافية والحساب .

أتدرى ؟ . . نعم !

إذن لا تسأل ذلك السؤال وأنت تحك أنفك وتبتسم ابتسامة الشماتة بعلمائك وأدبائك ، بل تسأله إن شئت وأنت تدعو الله أن يرزقنا الملايين وألوف الملايين ويسلكنا بين عباد الله الطائرين المحلقين ، ويعلمنا الرفق بعلمائنا المساكين عند تلاميذهم الشياطين .

أما سؤالك الآخر عمن يسألنى عن الرحلة غداً إلى القمر فجوابه للراحل الكريم : مع السلامة وإلى اللقاء ، وإنا منتظروك على رجاء ، وحبذا لو صدق الرجاء ، فى الهواء وما فوق الهواء !

حيوان . . لابس *

لا يدرى الإنسان كيف يهتدى إلى تعريف نفسه ، والعجب فى الأمر لمن يعرفها يا ترى ؟ هل تراه يعرفها لفائدة الأحياء الكثيرة من غير بنى آدم وحواء ؟ هل نراه يعرفها لفائدة الآدميين ، وإذا وقع اختلاف فى التعريف والاعتراف فعلام يدل هذا الاختلاف ؟

على أن الواقع أن التعريف كله عمل من أشق الأعمال الفكرية ، وإن شئت فقل إنه كلام أشق من جميع أنواع الكلام .

التعريف صعب ولو كان لشيء معروف غير مجهول ، وخذ مثلا لذلك تعريف « الصحافة » وهى من الشهرة بحيث نستخدمها فى الإعلان عن الأشياء التى نريد أن يعلمها من يجهلونها ، فماذا تقول فى تعريف الصحافة أو الصحفة ؟

ورقة لنشر الأخبار؟

فما القول فى الصحيفة التى تنشر مع الأخبار أقوالا أخرى فى العلوم أو الفنون أو السياسة ؟

نضيف إذن أنها تنشر الأخبار وقد تنشر معها هذا وذاك وذلك من المنشورات الصحفية ، ولكننا لا نستوفى الإحصاء إلا إذا سردنا الموضوعات ثم قلنا فى النهاية « وغيرها وغيرها » مما هو مجهول أو غير مذكور .

وهل ترانا قد عرفنا الصحيفة بعد هذا الإحصاء وهذه الإشارة إلى غيرها وغيرها وغيرها ؟

كلا . فهنالك الفرق بين النشرة التى تذاع مرة واحدة أو الكتاب الذى يجمع تلك الموضوعات وبين الصحيفة الدورية ذات المواعيد المنتظمة ، وهنالك الفرق بين اليوميات والشهريات والأسبوعيات ، فإذا أجملتها كلها فى كلمة « المواعيد » فإنك لا تستطيع أن تحصر الفوارق بين ما تحتويه بحسب هذه المواعيد أو بسبب العلاقة بين الوقت والموضوع .

---

* الأخبار ١٠ / ٦ / ١٩٥٥ .

تلك بعض الصعوبات فى تعريف الصحيفة فكيف بتعريف الإنسان وما اتفق فى الصفة قط إنسانان اثنان ؟

قيل إنه حيوان ناطق ، وقيل إنه حيوان اجتماعى ، وقيل إنه حيوان ضاحك ، وقيل فى شيء من السخرية إنه حيوان لابس .

ويرى أهل البصر بالتعريفات أن « الحيوان الضاحك » أصدق هذه التعريفات ، لأن الضحك شيء لا يفهمه الحيوان ولا يتعلمه ، وقد ينطق بالألفاظ وقد يفهم بعض الفهم على نوع من الأنواع .

أما « الحيوان الاجتماعى » فتلك صفة لا تخص الإنسان وحده ، وكثير من الأحياء العليا والحشرات يعيش فى جماعات .

وسخر بعض المعلقين على التعريفات كما سخر المنطق الضاحك الذى عرف الإنسان بأنه حيوان لابس . فسأل أولئك الساخرون منكرين ومنتقدين : وما القول فى سكان خط الاستواء ؟

قال صاحب التعريف : القول فيهم أنهم فى حمام دائم ، وتعريفنا لا ينسحب على الإنسان فى حالة الاستحمام . . وكذلك يحدث مع الحيوان الناطق أنه يكف عن النطق أحياناً بجميع معانيه ، وكذلك يحدث مع الحيوان الضاحك فإنه قد يكف عن الضحك وقد يجاوز الكف عن الضحك إلى البكاء .

قل إذن إن الإنسان حيوان لابس .

وقلها لتزيد الإنسان تعريفاً إلى تعريفات ، أو تزيده تنكيراً إلى تنكيرات ؛ فلا ضير أن يكون التعريف وسيلة إلى التنكير ، لأننا سنسمع قريباً أن هذا « الحيوان اللابس » إنما يلبس ليراه الناس لا ليستتر أمامهم كما هو المفهوم .

روح الملابس وروح الشرائع

فى أوائل القرن الماضى كتب الفيلسوف الأيقوسى توماس كارليل رسالة وافية فى هذا الموضوع ، خلاصتها أن الإنسان يلبس للزينة ، ولا يلبس للدفء أو للحياء ، وأن الناس لو أنهم طولبوا بخلع الثياب ، لغضب ذوو اللهو والمجون منهم قبل ذوى المروءة والحياء .

قال بلسان صاحبه الذى يروى عنه : « إنه يستطيع أن يؤلف كتاباً عن روح الملابس كما ألف مونتسيكيو كتابه عن روح الشرائع ، لأن الملابس تدل على الأمم كما تدل عليها شرائعها . وهذه وتلك لا تأتى مصادفة ولا تأتى عرضاً وإن تبدلت الأزياء والألوان ، ولكنها تعبر عن الذوق والفكر والعقيدة ، وتختلف من عصر إلى عصر على حسب اختلاف الأجيال المتعاقبة فى أذواقها وأفكارها وعقائدها ، وصفوة كلامه ما قدمناه من أن الإنسان يظهر بملابسه ولا يستتر ، وأنه يبدى روحه وعقله حين يستر ما يستر من جسده وأعضائه .

السباعيان

ومن طريف أمر هذا الفيلسوف الأيقوسى عندنا أنه قد تكفل بنقل فلسفته إلى اللغة العربية أخوان فاضلان ، هما الأستاذ محمد السباعى رائد الترجمة الحديثة فى مصر ، والأستاذ طه السباعى وزير التموين الأسبق . فنقل السباعى الكبير كتاب الأبطال الذى تكلم فيه الفيلسوف عن النبى العربى وجعله نموذجاً للنبوة ، ونقل أخوه كتاب فلسفة الملابس ، كأنه يعلم بوحى الغيب أنه سيتولى أمر الملابس ويدبر توزيعها على المصريين فى أشد أزماتها العالمية أثناء الحرب الماضية .

قال الفيلسوف فى بداية فصوله الأولى : « إن الإنسان لا يجرى مع الصدفة العمياء لا فى سن الشرائع ولا فى خياطة الملابس ، بل ما تزال اليد العاملة مهتدية بنور العقل تنقاد بزمامه وتذعن لأحكامه ، وإنك لتجد فكرة فنية كامنة فى كل ما يبتكر من الملابس على اختلافها وكل ما يبذل من المساعى فى سبيلها ، وما جسم المرء وملابسه إلا البقعة التى عليها والمواد التى بها يشاد ذلك الهيكل الرائع الفخم : شخص الإنسان .

فسواء أرأيته يرفل فى البرود المسبلة الأذيال ، ويختال فى رقاق النعال ، أم رأيته يسمو بالقلنسوة العالية من خلال الأوشحة والمناطق والأحزمة والقراطق ، أم أبصرته منتفخاً فى الأطواق المنشاة ، والحشايا المشمعة ، أم ألفيته قد شد نفسه وقسمها أجزاء متميزة وخرج إلى الملأ مجموعة من أربعة أعضاء — كل ذلك يتوقف على نوع هذه الفكرة الفنية ، وهل هى إغريقية أو غوطية ، قديمة

أو غوطية متأخرة أو حديثة مولدة . . ثم تأمل أى معان جليلة تنطوى عليها ألوان الملابس، فمن الأسود القاتم إلى الأحمر الوهاج أى خصائص روحانية وصفات نفسانية يكشفها لك اختيار الألوان . فإذا كان التفصيل ينبيك عن طبيعة الذهن والقريحة فإن اللون ليخبرك عن طبيعة القلب والمزاج ، ولا بدع فهذا كله يجرى بين الشعوب كما بين الأفراد بفعل الأسباب والمسببات . . ذلك الفعل الذى لا ينقطع عمله ولا ينكر أثره وإن كان فى غاية التعقيد والالتباس ، فما من حركة من حركات المقص إلا وهى منظمة مدبرة بمؤثرات دائبة عاملة ليست بالخفية ولا بالمبهمة على ذوى البصائر الجلية والأفهام النافذة » .

ونحن فى أوان الربيع

ونحن الآن فى أوان هذه الفلسفة لأننا فى منتصف شهر أبريل وفى أوائل فصل الربيع ، وقد سبقنا الطبيعة بأسبوعين أو ثلاثة فظهرت الألوان والأشكال على الثياب والأزياء قبل أن تظهر فى الحدائق والبساتين .

وخلق الإنسان من عجل . .

وصدق الله العظيم . .

ولم يكذب القائلون إن الإنسان حيوان لابس ، ولا كذب القائلون إنه يلبس ليظهر ولا يلبس ليتوارى عن الأنظار .

كلا . . ولا كذب كارليل حيث قال إن عقائد الناس وأفكارهم تظهر من ملابسهم وأزيائهم كما تظهر من شرائعهم وقوانينهم ، فإن ملابس العصر الحديث ولا شك لم تكن معقولة قبل عشرة قرون ، وإن ملابس العصور الأولى ليست معقولة ولا مقبولة لو ظهر بها الناس فى هذه الأيام .

والأمر — بعد — مرتبط بالنفس الإنسانية لا بالأنسجة والأنوال ولا بالفبريقات والدكاكين .

قبل ألف سنة كان الإنسان يلبس ليخفى جسده ويظهر مركزه الاجتماعى ، وكان من السهل أن تنظر إلى إنسان من الناس فى عرض الطريق فتعرف من شارته أنه رئيس أو نبيل أو تاجر أو وجيه حضرى أو وجيه فلاح ذو ضياع وكراع » .

كان الإنسان يخفي جسده لأنه يؤمن بنجاسة الجسد أو يؤمن بأنه مصدر الخطيئة وآلة الرذيلة .

فلما اختلف الاعتقاد واختلفت النظرة الاجتماعية إلى الأفراد والطبقات ظهر هذا الاختلاف فى الملابس والأزياء ، فلم يبق اليوم من ينكر الجسد لأنه جسد . أو من يخفيه لأنه ينبوع الرذائل والخطايا ، ولكنهم ينكرونه لقبحه ويسترونه لغلظته وضخامته أو لنحافته وهزاله . فهى مسألة فن وذوق وليست مسألة اعتقاد ومفاضلة بين الأجساد والأرواح !

وفلسفة الملابس اليوم أنها أقرب إلى الطبيعة الفطرية مع أننا قد غرقنا فى الصناعة إلى رءوسنا .

إن الإنسان فى عصر الصناعة أقرب إلى ورق التين وجلود الحيوان التى تترك أطراف الجسد عارية مكشوفة فى الرجال وفى النساء .

ولو كانت المسألة مسألة صناعة لكانت هذه المفارقة إحدى المضحكات ، ولوجب أن يكون الأقرب إلى أوراق التين آباؤنا وأجدادنا الذين عاشوا قبل عشرة قرون وقبل عشرين وثلاثين .

ويدل على هذا أيضاً أن الأمم القديمة التى كانت لا تدين بنجاسة الجسد ولا تلوثه وحده بوصمة الرذيلة لم تكن تثقله بالثياب كما فعل أبناء القرون الوسطى .

والناس اليوم أقرب إلى المساواة فى الحقوق الاجتماعية ، فهم كذلك أقرب إلى المساواة فى الأزياء والأكسية وأصعب على الناظر تمييزاً بين طبقات منهم وطبقات . إلا أن تكون المسألة مسألة ذوق وعادة فلا تقاس بالمظاهر والشارات ولكنها تقاس من الباطن بالتفكير والإحساس .

وقد كانت للأزياء والأشكال وطأة شديدة على كل طبقة غنية أو فقيرة فى القرون الغابرة ، فلا يتصرف الإنسان بملبسه حسب مشيئته ، ولا يزال حكمهم على الملابس حكم المثل السائر بين أولاد البلد عندنا . . « كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس » .

إلا أن الواقع اليوم أن سلطان العرف يسمح للفرد ببعض الحرية أو بكثير من الحرية إلى جانبه ، فلا نعجب إذا رأينا مئات الشبان والشيوخ بغير طرابيش

أو رأيناهم بالقمصان دون « الجاكتة » والصدار ، أو رأيناهم يختارون من الألوان ما كان محرماً على كل أحد أو كان الجمع بينه بمثابة الخروج على المجتمع والابتذال .

وقد تدرج الناس من ملابس السهرة السود إلى ملابس السهرة البيض ، ومن الردنجوت الأسود إلى الردنجوت الرمادى فى عشر سنين أو أكثر من عشر سنين ، وعلمنا منذ سنوات أن أحد الأمراء ضرب كاتباً فى دائرته لأنه رآه يلبس الطربوش القصير كأنه يجترئ على حرية الاختيار بعدما تقرر مكان الطربوش الطويل باختيار الأمراء وذوى السلطان ، فإذا كان لاختلاف الأطوار فى هذه الأمور دلالة مفهومة فكل دلالة لها تقول لنا إن روح الملابس وروح الشرائع بمنزلة واحدة فى تفسير الأحوال الاجتماعية وتفسير الأخلاق والأذواق والحقوق .

توحيد الأزياء

وتوحيد الأزياء ينبغى على هذا أن يكون توحيد معان لا توحيد أشكال وألوان .

فلا ضير من عشرة ألوان للقميص ، أو أربعة ألوان للحذاء ، ولا من الطول حيناً والقصر حيناً فى هذه القطعة ، أو فى تلك من اللباس ، وإنما الضير كل الضير أن يكون لهذا الاختلاف معنى السيادة من جانب ، ومعنى الحرمان من جانب آخر ، وهذا هو الذى يلاحظ الآن على غير قصد من اللابسين وصانعى الملابس ، فليس الاختلاف هو المهم ، بل المهم هو معنى الاختلاف ودلالته على الفوارق والحدود ، وعلى المزايا والحقوق .

ويبدو لنا أننا إذا نظرنا هذه النظرة لم نجد أن التفاوت بيننا فى الأزياء أكثر من التفاوت بين الأمم الأجنبية والأمم الأوربية على الخصوص ، لأن طربوشنا شيء واحد وقبعاتهم عشرات ومئات تشترك فى اسم القبعة ولا تشترك فى الشكل ولا فى اللون ولا فى المادة التى تصنع منها ، وقد تكون أشكال الملابس الريفية والحضرية عندهم أزياء مختلفات كاختلافها بيننا أو أبعد من هذا الاختلاف .

أفيون الفلاسفة

إلا أننا مع هذا الفضل العميم الذى أسبغه الناس على الثياب فيما تقدم ، أو أسبغته الثياب عليهم ، لم يدر بأخلادنا أنها ترتقى إلى مقام القداسة الصوفية التى ارتقى بها إليها الفيلسوف الحديث ألدوس هكسلى فى رسالته الأخيرة عن « أبواب الإدراك » وتحدث فيها عن تجاربه للمسكالين ذلك العقار الذى نسميه بحق « أفيون الفلاسفة » بعد ما قرأناه من وصفه ومن إطناب الفيلسوف فى مزاياه !

وقبل أن نلم بأطراف من تلك المزايا نجمل تاريخ هذا العقار وبيان آثاره كما جمعها ألدوس هكسلى من مصادره العلمية ، ولا ننسى أنه من أقطاب المفكرين ذوى الثقافة العلمية فى العصر الحديث .

يؤخذ المسكالين من نبات الصبار الذى يضع ابناء الأقاليم العليا فى الصعيد نصيلة منه إلى جوار المقابر لأنه رمز للرى والغضارة .

وقد اهتدى إليه الهنود الحمر وقال بعض السياح الأول من الإسبان إنهم يأكلون جذوره ويسمونها البيتول ويتناولونه كالقربان المقدس فى الصلوات الجامعة .

ويؤخذ من التحليل الكيمى أنه يشبه « الإدرنالين » فى مادة تركيبه ، ولم يتقرر حتى الساعة أنه من المخدرات أو المنومات وقد يتعب من يتناوله إذا كان قد أصيب حديثاً باليرقان أو كان منزعج الأعصاب . ولكن أثره يزول بعد ساعات ولا يعقب بعده حنيناً إليه أو عادة كعادة التدخين والشراب .

وأراد هكسلى أن يسلم نفسه لأحد العلماء المختصين بتجاربه من الوجهة النفسية ، فجربه فى ربيع السنة الماضية واستعان المختصون أثناء التجربة بآلات التسجيل والتصوير فقيدوا كل كلمة فاه بها وصوروه فى حالات متعددة ، وأعادوا عليه ما قاله وأطلعوه على تسجيلاتهم بعد انتهاء أثره ليسترجع فى ذاكرته جملة إحساسه به أثناء التجربة .

وهذه خلاصة تلك الآثار كما شرحها فى رسالة أبواب الإدراك .

فأول آثاره أنه يجلو الحس فينظر من تعاطاه إلى الأشياء كأنه يراها خارجة

من يد الخلاق لأول مرة ، لم تبتذلها ألفة المشاهدة ويحسبها الناظر كتلك الموجودات التى سميت لأبينا آدم يوم رآها فى هذه الدنيا أو يوم رآها فى فردوس النعيم .

ومن آثاره أنه يمحو الإحساس بالزمن المتقطع وبالأمكنة المتباعدة كأنها تتصل اتصالا واحداً فى دوام لا يقبل التعاقب والانفصال ، وهى حالة أشبه بالحالة التى يتغنى بها أصحاب التجليات حين يتكلمون عن الأبد وعوالم الخلود .

ومن آثاره ذلك الحس المباشر أو المعرفة الباطنية التى لا تتوقف على تسمية الأشياء بكلمات اللغة ولا على تحليلها وتشريحها بأساليب المناطقة والعلماء التجريبيين ، وأقرب المحاولات العلمية للوصول إلى هذه المعرفة المباشرة هى محاولة المدرسة النفسية المسماة بمدرسة الجشتالت ، وقد أشرنا إليها فى مقالاتنا الأخيرة وفى بعض مؤلفاتنا وقلنا إنها تحاول أن تعود العقل إدراك الحقائق جملة واحدة غير متقطعة ولا متفرقة بأجزائها وتفصيلاتها .

أما مكان الأنسجة فى هذه التجربة الحسية النفسية فالكلمة التى سجلت على الفيلسوف عندما عرضت عليه محسوسة ومصورة تغنى عن الإسهاب فى وصف شعوره ووعيه حين هتف قائلا : هكذا ينبغى أن يكون النظر . . وهكذا ينبغى أن ينظر الناظر وإلا فلا . .

ولعل هذا راجع إلى اجتماع الحواس كلها لتمييز النسيج بألوانه وظلاله ورسومه وملمسه مع التأمل فى دقة نسجه ودقة المصور فى نقله وإحساس الناظر مع المصور ببراعة هذا فى اشتغال حسه عند النقل بكل ما يراه ويتأمله ويجتهد فى محاكاته .

قال الفيلسوف ما مؤداه إن البشرية المسكينة لن تستغنى عن الحلم بما فوق الحس أو ما وراءه ، ولن يتسنى لكل آدمى أن يرتفع بالرياضة الروحية والفكرية من عالم الزمان والمكان إلى عالم الأبد والخلود ، فإذا تهيأت له مادة لا ضرر فيها تنقله حيناً بعد حين وراء عالم الشقاء فربما كانت هذه وسيلة عصر المادة للخلاص من قيودها العمياء ، لأنها وسيلة مادية يحسها ولا يشك فيها ، وقد يتعود — بفضل المسكالين — أن ينظر تلك النظرة العالية إلى الأشياء الحقيرة فيؤمن إيمان المتصوفة بالجمال الحى السابغ على كل شىء ، وينفى القبح عن الوجود كله ، دون أن يتعاطى المسكالين .!

وما جربناه نحن

ونود من القارئ ألا يسرع إلى الابتسام والاستخفاف والا يصرف الموضوع بقول القائل المتعجل إن هى إلا تخريفات مساطيل !

إن مقام ألدوس هكسلى أجل من أن يقابل بهذه السخرية الرخيصة ، وإن دراساته الصوفية ، شرقية وغربية ، لأوسع من أن تضاف إلى حساب الجهل والشعوذة أو حساب التخريف وسهولة التصديق .

وما من حالة وصفها الفيلسوف إلا وهى حالة طبيعية تطيف بالأذهان فى ساعات التأمل بغير عقار من قبيل المسكالين أو غير هذا القبيل .

ومن أمانة التجربة أن نقول إننا نمر بهذه الحالات دقائق معدودات من فترة إلى فترة ، ونحفظ منها ما وصفناه شعراً أو نثراً فنراه الآن مطابقاً لما وصفه هكسلى فى رسالة أبواب الإدراك .

فى قصيدة الفجر الأول نصف الموجودات كما طلع عليها أول فجر وشوهدت فى أول صباح :

من رأى أول فجـــر فى سماء الـــكون لاحا
كما تجلى من صباح قبل أن يدعى صباحا

وفى مقدمة « مجمع الأحياء » نصف الشعور بما وراء الألفاظ والتحليلات لنفهم الحياة « بلغتها ولا نحاول التعبير عنها بلغتنا ، وأقرب ما نشبه به تلك اللغة المبدعة أنها وحى ناطق بالمجاز كامن فى العقول والقلوب والأرواح والحواس تكتبه بطريقة تصويرية كطريقة المعبرين عن المعانى برموز الكتابة المصورة فتنبت شجرة لتقول النضرة والنماء ، وتنشىء ربيعاً لتقول الحب والرواء . . . بل تبدع كوناً لتقول الله والسماء ، أو هى تصور ولا تلفظ ونحن نفسر ولا نقرأ . . »

وقلنا قبل ذلك فى وصف اللحظة الأبدية : « . . . اذكروا أنكم تتمتعون فى كل لحظة من لحظات عمركم بالفرق السحيق بين العدم والحياة . اذكروا أن روح الوجود تغلب فيكم كل لحظة من تلك اللحظات من هاوية العدم إلى قلب الدنيا النابض الجياش » .

* * *

ولسنا ننقل هذه الأمثلة لندعى أننا متصوفون متنسكون ، فما خطر لنا قط أن ندعى هذه الدعوى وما يعنينا من التجربة كلها إلا أن نقرر أنها تجربة واقعية طبيعية وأنها ليست بمقصورة اليوم ، أو من قبل ، على عقار المبسكالين ولا ما يشبهه من العقاقير ولا على المتصوفين المحترفين ، وإن بعض العلماء الطبيعيين من أمثال أدنجتون ليتحرجون جداً من رفض هذه التجارب بظهر الكف ولا يزالون على رجائهم أن تضاف تجارب الحس المباشر إلى تجارب المنطق والتحليل .

ونعود من حيث ابتدأنا إلى الملابس تحية لألوان الربيع . فنقول إن هذا الإنسان حيوان لابس ، وإن روح الملابس كروح الشرائع كامنة وراء الظواهر والمحسوسات ، وإن هذه المصنوعات البديعة تحكى لنا كثيراً عن الطبيعة بل عما فوق الطبيعة . . فلسفة نسمعها اليوم من العلماء والحكماء ، ولا ينفرد بها خبراء الملامح والأعطاف وعشاق الأشكال والأزياء .

أكل العيش *

حضرت اليوم جلسة المجمع اللغوى لأول مرة فى السنة المجمعية الجديدة ، وهى تبدأ فى الأسبوع الأول من شهر أكتوبر .

وقبل أيام كان زائر أديب من فلسطين يسألنى : هل تعتقد أن المجمع أدى رسالته ؟

وجوابى على هذا السؤال دائماً أن رسالة المجمع باقية ما بقيت اللغة العربية ، فليست هى من الرسائل التى تؤدى ويقفل عليها الكتاب .

قال : « وهل عممت مصطلحاته كما ينبغى ؟ »

قلت : و « كما ينبغى » هذه أيضاً لا يسأل عنها المجمع ، لأن هناك أناساً كثيرين ينبغى أن يصنعوا شيئاً فى خدمة اللغة العربية ، وليس للمجمع سلطان التنفيذ ولا يحسن أن يكون له هذا السلطان لأنه بمثابة الإكراه على استخدام الكلمات ، وأقل من وسيلة التنفيذ وسيلة النشر وقد خلت منها يد المجمع ، لأنه لا يملك مطبعة ولا يملك « الشخصية » المستقلة فى المعاملة .

وأعتقد أن المصطلحات تروج أحياناً لأسباب غير أسباب الصحة والدقة والسهولة ، ومما جربته فى ذلك أننى استخدمت كلمة « المصارفة » لما يسمونه قطع العملة ، وكلمة « المشاعية » لمذهب كارل ماركس ، وكلمة « المداورة » لانتهاز الفرص ، فلم تصب كلمة المصارفة رواجاً مع سهولتها وصحتها ، وراجت كلمة الشيوعية بدلا من المشاعية ، وتغلبت كلمة المداورة على كلمة الانتهازية .

وعلى هذا يقاس فى أسلوب وضع المصطلحات وحظها من القبول .

كذلك كان سؤال الأديب الفلسطينى وكذلك أجبناه ، ولكل سؤال جواب كما يقال .

فى إحدى جلسات مجلس الشيوخ سأل السيد عبد المجيد الرمالى :

ما هى وظيفة المجمع ؟

قلنا : أكل عيش !

---

* الأخبار ١٥ / ١٠ / ١٩٥٤ .

تكريم الفن *

أنعم بذكراك نرويها فترويـنـا   يا راحلا لم يزل يحيي ليالينا

هذا مطلع قصيدة جيدة قرأتها اليوم للشاعر صالح جودت فى إحياء ذكرى « الريحانى » ، أحسن فى كثير من أبياتها ولا سيما قوله :

يا حكمة من دموع الناس تضحكنا   حينا ، ومن ضحكات الناس تبكينا

وقوله :

يا صاحب الصوت خشناً فيه حشرجة   كأنه من ضمير الغيب ياتينا
كم اهتـززنا على إيقـاعه طربـا   وكم سمعنـاه أحلى من أغانينا
فما تهـدج إلا من مشاعـرنا   ولا تحشرج إلا مـن مآسينا
ليس الغنـاء الذى يرضى غرائـزنا   إن الغنـاء الذى يرضى أمانينا

والمناسبة كلها مناسبة كبيرة الدلالة فى تاريخ الحياة القومية وتاريخ القيم النفسية فى جملتها .

مضى الزمن الذى كان فيه الشاعر يرثى الفنان أو الفنانة فيقول :

رحمـة العود والـكمنجا عليه   وصـلاة المزمـار والقانون

ونحن فى الزمن الذى يرثى فيه الفنان بعد وفاته بسنوات ، فيعطى حقه من التقدير بميزان الإعجاب الصادق والثناء الصريح . .

ويبدو لنا أن العالم كله يتطور فى تقدير هذه القيم الفنية ولا ننفرد نحن الشرقيين بالنظرة العتيقة إليها ولا بالنظرة الحديثة التى تهتدى إليها الإنسانية بعد الروية والمقارنة . .

منذ ثلاثين سنة قدم شارلى شابلن إلى فرنسا فاستقبل فيها استقبال الأبطال ودهشت الصحف الأدبية نفسها لما سمته إسرافاً فى الحفاوة فتساءلت قائلة : « ترى لو كان الطبيب فنسان صاحب لقاح التيفوس بين الجموع المهللة لشارلى شابلن أما كانوا يدفعونه عن الطريق ويعرضون عنه ليقبلوا على بطلهم العزيز » ؟

---

* أخبار اليوم ١٠ / ٤ / ١٩٥٤ .

وكتبنا يومئذ تعليقاً على هذه الدهشة فقلنا : « إننا نرى شيئاً من العدل فى هذه الأطوار التى تشاهد فى الجماهير ، فإن الممثل الهزلى لن يظفر بعد موته بكثير ولا بقليل من الإعجاب الذى هو حقيق به ، فمن الإنصاف أن يكافأ فى حياته هذه المكافأة على إضحاك الناس وتسرية همومهم وتنشيط عقولهم وقلوبهم ، وما هو بالعمل الحقير ولا القليل الشأن فى هذه الدنيا المفعمة بالشواغل والهموم . . » .

ثم قلنا : « إن هناك ضرباً من الاقتصاد الشعورى غير مقصود فى حركات الجماهير من هذا القبيل . فالطبيب فنسان يفيد بعلمه ، ولو لم يلق هتافاً وتهليلا . أما شارلى شابلن فهل تراه يسخو بمواهبه بغير الهتاف والتهليل ؟ أو هل يمكن التفريق بين الوقت الذى يضحك فيه الناس والوقت الذى يهللون له فيه ؟ »

ان الصحيفة الفرنسية لا تكرر اليوم ملاحظتها الأولى لو تكرر الاحتفال بمقدم شارلى أو أحد من نظرائه على اللوحة الفضية . .

وإن الشاعر العربى لا يستكثر اليوم رحمات الله على الفنان الراحل قناعة برحمة العود والقانون . .

إن القيم النفسية تتقدم من تصحيح إلى تصحيح ، وإننا لنعتقد أن تقرير الفنان أصدق المقاييس التى تقاس بها الحرية والكرامة الإنسانية ، فإننا نكرمه بمحض شعورنا واختيارنا ووحى أذواقنا وأفكارنا ولا نكرمه خضوعاً لسلطان الجاه والثروة أو سلطان العصبية والأسرة القوية .

وتلك علامة من علامات الخير . .

ومن علامات الجمال . .

رأى فى الإملاء *

قرأت اليوم — كما قرأت سائر أيام الأسبوع — كلاماً عن الإصلاح الذى قيل إنه سيحل المشكلات جميعاً فى كتابة اللغة العربية ، لأنه يعلم الناس أن يكتبوا الحروف كما ينطقونها فى جميع اللغات .

وكل ما قرأته حتى الآن يزيد مشكلات الكتابة ويوقع اللبس والاختلاط حيث لم يكن من قبل لبس ولا اختلاط .

هل ننوى من اليوم أن نقول « رمى يرمى رمياً ورجا يرجى رجياً وصفا يصفى صفياً » إلى آخر هذه الألفات أو هذه الياءات .

إن كنا ننوى ذلك فقد انحلت المشكلة وتساوت الألف والياء ، تكتبها ألفاً أو تكتبها ياء كما تشاء .

ولكننا لا ننوى ذلك ولا نستطيع إذا نويناه ، لأنه يجر إلى الخلط الذريع بين أبواب الفعل وأوزان المشتقات ، وكلها مرتبط بأساس تكوين اللغة العربية لأنها لغة اشتقاق تقوم على أبواب الفعل الثلاثى التى لا وجود لها فى جميع اللغات الهندية الجرمانية وهى اللغات التى تكتب بالحروف اللاتينية ويدعونا إلى التشبه بها من ينسون الفارق الأصيل بين لغة الاشتقاق ولغة النحت والتركيب .

ومتى كان إلغاء الفوارق بين أبواب الفعل الثلاثى ضرباً من المستحيل فالخلط بين ألفها ويائها يزيد المشكلات ولا ييسر صعوبة واحدة من الصعوبات التى تيسرها القواعد المتبعة لأصغر التلاميذ .

كل ألف رابعة فما فوقها تكتب ياء لأنها ياء فى المضارع أو المصدر كما نفهم من النطق البسيط للأفعال والمصادر .

فنحن نقول اكتفى يكتفى واستوى يستوى واهتدى يهتدى واعتلى يعتلى ، ولا يوجد لسان عربى يصعب عليه أن يجرى على هذه القاعدة فى تصريف الأفعال .

* الأخبار فى ١٨ / ٦ / ١٩٥٦ .

ونحن نقول كذلك تعالى تعاليّاً وترامى تراميًا وتداعى تداعياً ولا يصعب على أحد أن يأتى بالمصدر بداهة وارتجالا على هذا القياس .

وهكذا نرى أن القاعدة هنا تزيل اللبس وتحفظ للأفعال والمشتقات أبوابها وأوزانها ، ولا توقعنا فى الخلط بين كل ألف وكل ياء .

ومن « تسليات » الإصلاح الذى يستطيعه عندنا من لا يستطيع أن يفك الخط قول بعضهم إننا يجب أن نكتب كما نتكلم ليفهم عنا جميع القراء ما نقول :

وعلى هذه القاعدة يقول ابن القاهرة « بقه » ويقول السورى « تمه » ويقول الصعيدى « خشمه » إذا تكلموا عن الفم .

فكيف تكتب الفم فى كتاب يقرؤه القاهريون والسوريون وأبناء الصعيد .

وعلى هذه القاعدة يقول السورى « أجره » ويقول المصرى « رجله » ويقول السودانى « كراعه » . . فكيف نكتبها فى كلام يقرؤه هؤلاء ؟

ونريد أن نعرف كيف نكتب الشمس والسماء والثورة والتوراة ؟

ينبغى أن تكتبها كما تنطق : « اشَّمس وسَّماء ، وثَّورة وتَّوراة ؟

. . فيزول الإشكال بحمد الله . . لأننا لا ننطق الألف واللام فى هذه الكلمات كما ننطقها فى كلمات القمر والبلد والجمل والبرتقال .

بسيطة الحكاية يا حضرات المصلحين .

بسيطة جداً والله العظيم ، وعلى المقسم كفارة القسم إن كان لابد من قسم أو تكفير . .

عام الكف وعام الكفء *

نعم ، ومن بحره كما يقول أولاد البلد ، وإن كنا بهذا الاستطراد ننتقل من محيط السياسة إلى محيط الأدب وخفاياه « السياسية » أيضاً تصحيحاً للتاريخ . .

كتب الأستاذ مجد الدين حفنى ناصف فى العدد الماضى من « أخبار اليوم » يقول إن بطل القصة التى رويناها عن حفنى ناصف مع السيد توفيق البكرى هو إبراهيم المويلحى ، الذى كان كاتباً خاصًّا للخديو إسماعيل .

ونحن يسرنا أن يخرج حفنى ناصف من هذه القصة التى تناقلها المعاصرون عنه ، ولكننا نستبعد أن يكون إبراهيم المويلحى هو بطلها المدبر لها كما قال الأستاذ مجد الدين ، فإن إبراهيم المويلحى مات فى يناير سنة ١٩٠٦ وقضى السنة السابقة لها وشطراً من أواخر سنة ١٩٠٤ عليلا ملازماً للفراش كما هو مسطور فى سيرته ، ولم يكن فيما قبل ذلك بثلاث سنوات أو أربع على صلة بالقصر أو بالسيد البكرى تمكنه من زيارة هذا فى داره تنفيذاً لمقاصد الحاشية الخديوية ، ولو رجع الأستاذ مجد الدين إلى تاريخ المساجلات الأدبية السياسية فى تلك السنوات لاستبعد مثلنا علاقة المويلحى فى ذلك الحين بالقصة التى ذكرناها . .

عام الكف وعام الكفء وعام الكفر

فى سنة ١٩٠٢ التى سميت بعام الكف كان المويلحى مغضوباً عليه من القصر وحاشيته ، وكان الشيخ على يوسف لسان حال القصر ينشر فى المؤيد مقطوعات الأدباء عن الإهانة البالغة التى أصابت المويلحى الصغير فى حانة « دارتاكوس » ويتناول فيها المويلحى الكبير كلما تناول المويلحى الصغير .

وخلاصة « عام الكف » هذا أن فتى من أبناء الأعيان يسمى محمد نشأت صفع محمد المويلحى فى تلك الحانة وشتمه وشتم أباه ، ففتح المؤيد صفحاته لأخبار تلك المناوشة وأقوال الشعراء فيها ، وكان الشاعر المشهور إسماعيل صبرى

* أخبار اليوم ١٩ / ١٢ / ١٩٥٣ .

موتوراً من المويلحيين فتكفل بالقسط الأكبر من المقطوعات الشعرية ، وتتابعت الأبيات والنكات تحت عنوان عام الكف فترة طويلة ، ومنها على لسان المويلحى الصغير :

إلهـــى إنى مـــن ذنـــوبى تائب ومن فعلى الممقوت يا رب خائف
فلا تجعل اللهم صدغى صحيفـتى إذا نشرت يوم الحساب الصحائف

وعلى لسان الأب صاحب « مصباح الشرق » :

نهشت النــاس أعراضــاً ومــالا ونلت من البريــة ما اشتهيت
وكم صفـــع الجـــرىء أديم وجهى فما خفت الهوان وما ارعويت
أأترك لـــذة الفتـــن اعتبــاطا وأهجرها وفى « المصباح » زيت

ومما قيل فى تلك الكف التاريخية :

إن كفا كفت أذاك عن النـــا س لـــكف جديرة بالفخار

ولم تزل العداوة ناشبة بين المويلحى وحاشية القصر إلى سنة ١٩٠٤ وهى السنة التى تزوج فيها الشيخ على يوسف صاحب المؤيد بالسيدة صفية بنت السيد عبد الخالق السادات على غير علم من أبيها ، وقد كتب العقد بدار السيد البكرى فى الخرنفش ، وطلب السيد السادات من المحكمة الشرعية إلغاءه لأن « على يوسف » غير كفء للزواج من سيدة شريفة .

فطار المويلحيان فرحاً بهذه الفرصة السانحة . وانتقما من عام الكف بعام الكفء ، فلم يبق أديب ناقم من المؤيد وصاحبه إلا اشترك فى هذه المناوشة وجدد بعضهم ما قيل فى مثل هذا المعنى من الشعر القديم كقول الشاعر العربى :

سلام الله يـــا مطـــر عليها وليس عليك يا مطر السلام
فطلقهـــا فلست لهـــا بكفء وإلا يعـــل مفرقك الحسام

وظل الشيخ على يوسف ينادى باسم الشيخ « مطر » عدة شهور . . .

ولم تهدأ المعركة حتى تمت حلقات هذه السلسلة « بعام الكفر » تعليقاً على خطاب مصطفى كامل للخديو عباس ، معلناً فيه اعتزال القصر وقطع الصلة بمن فيه . .

أما قبل عام الكف وعام الكفء وعام الكفر فقد بلغ من سخط الخديو على إبراهيم المويلحى أنه أمر أحمد شفيق (باشا) عند سفره من الآستانة فى شهر سبتمبر سنة ١٩٠١ أن يتصل برجال الضبطية التركية لاعتقال المويلحى وحجزه عن السفر ، وأشار شفيق إلى هذه الحادثة فى مذكراته فقال : « وعند ما أراد الخديو الرجوع إلى مصر ذكرت تحسين بك بحجز المويلحى فسرد علىّ بأن السلطان رأى أن حجزه وهو قد حضر فى كنف الخديو يكون مدعاة للنقد ولا يليق بمقام سموه . . . » .

وإنما أراد الخديو حجزه عقاباً له على دسائسه التى ثابر عليها فى السنتين السابقتين . فلم تكن علاقته بالحاشية الخديوية ولا بالسيد البكرى مما يسمح له بخداع البكرى أو يسمح للخديو بالاطمئنان إليه فى شئونه السرية .

وهذا فضلا عما هو معلوم من شهرة المويلحى بالنثر دون الشعر ، فليس هو بالذى يتحدى السيد البكرى فى مساجلات النظم دون أن يفطن البكرى إلى ما وراء تحديه ومنازلته إياه فى هذا المجال .

لهذا نستبعد كما أسلفنا ، أن يكون إبراهيم المويلحى هو الذى استدرج البكرى إلى نظم الأبيات فى الأدب المكشوف فانقاد لاستدراجه ، ولا نجزم بالظن فى أمر المويلحى ولا فى أمر حفنى حتى يأتى اليقين . ورحم الله أبا العلاء حيث قال :

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى　　　إنى أخاف عليكم أن تلتقوا

من حوادث الكلام *

والكلام أبو الحوادث .

فإن النار بالعـــودين تذكـــو وإن الحرب أولها كلام

وكأنما أراد الشاعر أن يبالغ فى خطر الكلام فخيل إليه أنه جاوز مداه حيث قال إنه بداءة الحرب ، ولكنه لم يبالغ فى بيان خطره لأن الكلام أيضاً نهاية كل حرب ، إذ كانت نهاية كل حرب معاهدة صلح أو قصة فى تاريخ أو خبراً من الأخبار .

« والإنسان حيوان ناطق » كلمة صحيحة بكل معنى من معانى النطق ، وصحيح مثلها أن الكلمة أول كل خلق :

كن فيكون . . .

وفى البدء كان الكلمة

و « اللوغوس » فى حكمة اليونان ترادف معنى الكون والوعى الموجود .

فتاريخ الأدب فى العام الماضى ، وفى جميع الأعوام ، إنما هو تاريخ حوادث واقعة ، وإن كانت حوادث كلام ، وأهم حادث فى عالمنا الأدبى قد يكون سطوراً فى ورقات ولا يبخسه ذلك شيئاً من قدره . . . فما من حادث قط يستحق أن يسمى حادثاً إن فاته أن يصبح سطوراً فى ورقات .

وقد اختلف أدباؤنا فى هذا الحادث المهم حين سئلوا عنه فى نهاية العام الغابر ، أو فى مطلع العام الحاضر ، فقال الأستاذ توفيق الحكيم لمحرر صفحة الأدب : إنه توجيه جائزة نوبل إلى شرشل ، وقال الأستاذ أحمد أمين إنه شيوع الاعتقاد بأن الفن والأدب للمجتمع ، وقال الأستاذ على أدهم : إنه هو ظهور كتاب الفلسفة الشرقية والغربية ، وقال الأستاذ عبد الرحمن صدقى : إنه هو تجدد الاهتمام بالشاعر أبى نواس .

وكلهم على صواب من جهة على الأقل ، وحسبنا ذلك من إصابة فى الإجابة ، لأن الإحاطة بالصواب من جميع جهاته غير ميسورة فى جواب واحد عن مثل هذا السؤال .

---

* أخبار اليوم ٩ / ١ / ١٩٥٤ .

وسنعرض لكل جواب بشيء من التعقيب أو المناقشة ، ثم نتركه وفيه بعد ذلك ولا شك مجال لتعقيبات ومناقشات .

توفيق الحكيم

قال الأستاذ الحكيم : « إن منح جائزة الأدب لشرشل وهو رئيس وزارة قائمة يدل مع الأسف على أن السياسة وسلطانها فى العصر الحاضر تكاد تفقد الأدب اعتباره وحرية اختياره ، ولو كان شرشل أديباً عادياً وكتب ما كتب لما قومت أعماله بهذ المعيار » .

ونعتقد نحن كما اعتقد الأستاذ الحكيم أن المنصب الكبير قد فعل فعله فى توجيه الجائزة إلى رئيس الوزارة الإنجليزية ، ولكن على غير الوجه الذى يراه الأستاذ.

إن شرشل زميل للحكيم فى فن القصة ، لأنه ألف قصة سفرولا Savrola وهو فى الثالثة والعشرين ، ومن الطريف أن سفرولا هذا هو بطل ديمقراطى يناضل الاستبداد وينشد الحرية ، وإنه يسلك فى جهاده سبلا لو سلكها زعيم وطنى تحت سلطان شرشل لما سلم من الجزاء الشديد .

ولم يثابر شرشل على كتابه القصة منذ قصته الأولى ، حتى تجوز المقابلة بينه وبين الأستاذ الحكيم بعد الخمسين ، ولا يهم أى رقم بعد الخمسين !

لكنه كتب فى الأدب والفن والنقد ، ويصح أن يقال إنه كتب فى شئون الفلسفة الأخلاقية فأشفق على مصير الإنسان مع العلم الحديث ، لأنه على تقديره صائر إلى إحدى حالتين : تدمير الحضارة بما يخترعه من الأسلحة ، أو تدمير وجدانه بالمعيشة الآلية ، إذ يصبح هذا الحيوان الناطق كالأداة المتحركة لا يحسن غير عمل واحد يتخصص له بالتحضير والتربية كأنه الإنسان الصناعى المزعوم Robot

ولا نرى رأى الأستاذ الحكيم فى قيمة الكتابة الأدبية التى ظهرت لزميله سابقاً فى فن القصة ، فإن بعض هذه الكتابة يضارع المختار من طبقة الأدباء الذين منحوا الجائزة فى السنوات الأخيرة ، ومنه فى الدراسات « التحليلية » ما يفوق أمثاله . كدراسته لبرنارد شو ولورنس وتروتسكى وبلفور .

ولكننا نعتقد أن هذه الكتابة وحدها لم تكن لترشحه لجائزة نوبل على الخصوص ،

وهى جائزة موقوفة على التقريب بين الشعوب وخدمة السلام .

فلماذا توجهت إليه هذه الجائزة ؟

ان العلة هنا فى شعور الأمم الشمالية لا فى طغيان سلطان الوزارة ، فإن أبناء السويد والنرويج والدنمرك لا يستطيعون على ما يظهر أن يفرقوا بين السلام العالمى والسلام الذى يعنيهم ، فإذا وقف شرشل فى وجه النازية والشيوعية فهو عندهم « خادم سلام » من الطراز الأول . . . فما برحت أمم الشمال الصغيرة تشعر بالخطر من جهة ألمانيا النازية وروسيا السوفييتية ، فكل من حارب هاتين القوتين فهو من خدام قضية السلام .

وهذا يفسر لنا أن جائزة نوبل لم تمنح قط لروسى أو ألمانى إلا أن يكون من الروس البيض أو الألمان المهاجرين ، ويفسر لنا أن الأمريكيين لم يظفروا بإحدى هذه الجوائز إلا بعد اشتراك الولايات المتحدة فى السياسة العالمية ووقوفها بالمرصاد مرة لروسيا ومرة لألمانيا ، أو دعوتها إلى السلم ملحوظاً فيه سلام الأقطار السكندنافية .

من هنا تتعرض السياسة لموازين الأدب ، ولعل الوعى الباطن هنا يفعل فعله بمعزل عن القصد وتعمد المحاباة .

* * *

أحمد أمين

ويقول الدكتور أحمد أمين : « لا أرى أنه حدث فى العام الماضى ما غير وجهة الأدب وإنما حدثت تطورات اقتصادية وسياسية فى بعض الممالك الكبيرة جعلت الأدب يتجه نحو أن يكون فى خدمة المجتمع . . » .

وتعقيبنا على ملاحظة الدكتور أحمد أمين أن نسأل : وماذا تعنى خدمة المجتمع ؟

إن كلمة المجتمع لا تعنى بطبيعة الحال أن المجتمع مجرد من الأمثلة العليا والأشواق الرفيعة والمطالب الوجدانية ، فالأدب إذن قد كان فى خدمة المجتمع من أقدم عصوره ، ولا يمكن أن يكون فى خدمة شىء آخر ، فما كانت المجتمعات

لتحفظ أدباً تتناقله بالرواية جيلا بعد جيل إن لم يكن فيه ما يعنيها ويشغلها ويثير اهتمامها .

والحق أن الأدب يجب أن يخدم المجتمع .

والحق أيضاً أن المجتمع يجب أن يتسع للحياة الإنسانية فى جميع مطالبها ومطامحها ، ومنها المثل العليا وأحلام الخير والجمال .

وعلى هذا لا يكون الشاعر الذى يصف حديقة الورد عرضة للسخرية ، لأن المجتمع الذى لا محل فيه لحديقة الورد ناقص مشوه ، وما من مجتمع فى الدنيا يحتاج إلى من يوصيه بغيط القمح والشعير ، ولكنه قد يحتاج أحياناً إلى من يوصيه بغير الطعام من مطالب الأرواح والأجسام .

* * *

على أدهم .

وقبل أن نذكر الحادث الأدبى البارز فى السنة الماضية، كما اختاره الأستاذ على أدهم نرجع إلى قصة لا يعرفها القراء ولكنها تجمع بين الطرافة واللزوم فى هذا المقام .

مدرسة الإسكندرية فى الأدب قديمة تتجدد مع المدينة فى أيام عزها وشهرتها ، وهذه المدرسة وجدت مع العصر الحديث واقترنت نشأتها بنشأة القرن العشرين ، وكان على رأسها الأستاذ عبد الرحمن شكرى ومن توابعها الأساتذة على أدهم ومفيد الشوباشى وعبد اللطيف النشار وعثمان حلمى والشيبوبان خليل وصديق ومحمود سالم وزكريا جزارين وطائفة ممن يلى هؤلاء فى السن من الشبان الناشئين .

وبين أبناء هذه الطائفة شيطان لا أسميه خطر له أن يضع مسرحية فى قالب « حلقة ذكر فلسفية » يشترك فيها زملاؤه الأدباء والشعراء ويهتف كل منهم فى ذكره بالاسم الذى يسبح به ويغنى على ليلاه .

فمنهم من يهتف « بيرون . بيرون ! »

ومنهم من يهتف « شيلر . شيلر ! »

ومنهم من يهتف « أنا . أنا . أنا . أنا » . . ولا يزيد عليها .

أما الأستاذ أدهم — وهو أحد الذكيرة المتحمسين — فهتافه على الدوام : « هيجل . شيجل . كارليل . كارليل » . . ثم يعيدها عكساً وطرداً فى حلقة الذكر ، وفى غير الحلقة على انفراد ، بعد انفضاض الذكيرة الهاتفين .

إذا عرف القراء هذه القصة لم يعجبوا لرأيه فى اختيار الحادث البارز من حوادث السنة الأدبية ، وهو : ظهور كتاب الفلسفة الشرقية والغربية فى مجلدين من عمل لجنة هندية ، يرأسها الدكتور « راداكرشنان » وكيل الجمهورية .

ونحن والله لا نعجب لهذا الاختيار ولا نستكثر على الكتاب أن يكون حادثاً مذكوراً فى السنة الماضية ، لولا أنه كتاب مراجعة وتلخيص وليس بكتاب إبداع وابتكار .

ولكننا مع هذا نحسب أن الجانب الجدير بالتنويه من هذا الكتاب أن يفرغ له رجل مشغول بوكالة جمهورية فى إبان نشأتها ، ولم يكن شاغله الوحيد من نوعه فى أثناء قيامه بهذه الوكالة ، بل أضاف إليه اشتغاله بإحياء الأسفار البرهمية القديمة مترجمة مشفوعة بنصوصها السنسكريتية ومكتوبة بالحروف اللاتينية .

هذه حوادث أدبية جديرة ولا شك بالتنويه ، وفيها ردود كافية على أولئك المتحذلقين الذين أقاموا أنفسهم مقام المتصرفين فى العقول والقرائح ؛ يمنعون ويبيحون باسم القديم والجديد ، ولا نصيب لهم من قديم أو جديد .

* * *

عبد الرحمن صدقى

والأستاذ عبد الرحمن صدقى يرى « أن الظاهرة التى تستحق التسجيل هى هذا الاهتمام بالشاعر القديم أبى نواس فقد ظهرت عنه عدة كتب ونشرت له قصائد كثيرة ، وهذا الاهتمام ليس من قبيل المصادفة وإنما مرده فيما أعتقد إلى أن الشاعر كان ثائراً على قيود التقاليد وكان داعياً للانطلاق والحرية ، وكان زعيم ثورة ؛ فلا غرابة أن يكون الاهتمام به فى عهد الثورة » .

وفى هذا الرأى صواب كثير ، فلا مصادفة فى الاهتمام بهذا الشاعر فى العصر الحاضر ، ولكنه على ما نرجح قد لقى هذا الاهتمام لأنه أصلح نموذج فى الأدب العربى

للدراسات النفسية وتطبيق آراء النفسانيين المحدثين على الأمزجة والأخلاق ، ولا نعلم أن شاعراً آخر من شعراء العربية ييسر للباحث من الشواهد والأمثلة ما ييسره له أبو نواس ، أو أن شاعراً آخر يكثر الخطأ فى دراسته وتكثر الحاجة إلى تصحيح الخطأ كما يتفق ذلك فى دراسة هذا النموذج العجيب ، ولهذا تناولناه بالنقد فى كتاب يظهر قريباً ويتبين منه أن أبا نواس صورة أخرى غير الصورة التى مثلت له فى الأذهان من طريق الشهرة والإشاعة ، وإن جاءت فى أحسن المراجع الأدبية.

* * *

ولا إحراق ، بل أوراق يا وراق

وذلك خلاصة الحادث الذى قلنا إنه أبرز الحوادث الأدبية فى السنة الماضية ، وأشرنا به إلى تصريح الرئيس الأمريكى بوجوب رفع الحجر عن الآراء المعارضة للمذاهب السياسية القائمة فى بلد من البلدان ، فلا يحسن بالعلم ولا بالتعليم أن يدخل الطالب إلى مكتبته وهو يعرف أن الحقيقة مخبوءة عنه أو أن عقله يخشى عليه من الاطلاع على رأى من الآراء ، وأصدق ما يكون ذلك على الشيوعية إن جاز التمييز بين مذهب ومذهب فى حرية الاطلاع عليه ، فما من مذهب هو أظهر عيوباً وأسهل تفنيداً من الشيوعية ، ولا لزوم لسلطان القوة فى تفنيد مذهب قط إذا كانت الكلمة فيه تنفيها كلمات والسند عليه تبطله أسناد .

على أننا نقول هذا ونقول معه إن حرية الفكر غير حرية الإجرام ، وإن إباحة الآراء والأفكار غير إباحة المؤسسات والتنظيمات ، لأن المؤسسة الشيوعية هى باعتراف الشيوعيين مؤامرة علنية على نظام المجتمع وأخلاقه وآدابه وشرائعه ومعاملاته . وليس قصاراها أنها مؤامرة على الحكومة أو السلطة الحاكمة ، وليس من القانون إباحة العمل على تقويض القانون من أساسه وإباحة ذلك لمن لا يقيده قسم ولا عهد ولا يمين . وإذا صح أن « الفتى يدان كما يدين » فلا موضع لشكوى الشيوعيين من مصادرة المؤامرة السافرة وهم لا يسمحون بما دون ذلك من مجرد الخلاف على التفاصيل فضلا عن القواعد والأصول .

الثورة الدائمة

أما ثورة الفكر فهى شىء دائم لا يتطلب الإجرام ولا يستعين به على غاية ، بل الإجرام هو القضاء على هذه الشعلة الدائمة التى أودعها الله طبائع البشر حين أودع سر الوجود كله فى « الكلمة » وفى الوحى الذى يتنزل من حين إلى حين على رسل الخير والحرية فلا ننتهى رسالته إلى آخر الزمان .

ونكتب هذا وفى القاهرة — كما قلتم فى أخبار المجتمع منذ بضعة أيام — صاحب كتاب الرجل الثائر البير كامى Camus الذى سميتموه بالفيلسوف .

قلتم فى أخبار المجتمع يوم الأحد الماضى إنه سيصل إلى القاهرة « الفيلسوف الوجودى . . . وسيبقى أسبوعاً يلقى خلاله عدة محاضرات من الأدب الوجودى ، والنقد المعاصر ، وأنه صاحب موقف سياسى يخالف موقف قومه ، لأنه من أنصار الحركات الاستقلالية . . . » .

ولا ندرى هل يرضى كامى نفسه أن يسمى فيلسوفاً وأن يحسب من الوجوديين ، فإن ثورته تشمل المنطق وقيود العقل والعرف وما إليها ، وقوام دعوته كلها أن الدنيا شىء بغير معنى ، وأنها يجب أن تؤخذ على هذه الصفة فلا نتذرع لها بعدة غير عدة العزيمة وقلة المبالاة ، وروايته الكبرى — الطاعون — تقوم على حوار بين الشيخ الذى يحيل الوباء على الحكمة الإلهية وبين الطبيب الذى لا يرى له ولا لغيره حكمة ما ، ولكنه يكافحه ويعيش بعد موت امرأته لأنه يأنف من جبن الخنوع والاستسلام ، وكأنما الإنسان فى حياته الضائعة بطل الأسطورة اليونانية « سيسفوس » الذى قُضى عليه أن يخلد فى الجحيم ليرفع كل يوم حجراً ثقيلا من الهاوية إلى القمة ثم ينحدر به فيعود إلى رفعه كرة أخرى . . وعنده أن الأديان قد عالجت شقاء الحياة بالرجاء وبالعقيدة ، فاستنفد الشقاء كل رجاء واستنفد العقيدة بعد الرجاء ، ولم تبق له قوة يعتصم بها غير الثورة الدائمة وغير التسلية الطيبة فى هذه الغربة التى تزداد غرابة على مر السنين .

لو قلتم « الثائر الأبدى » لكان هذا فيما نحسب أدنى إلى رضى الكاتب من لقب الفيلسوف ثم لقب الفيلسوف الوجودى على الخصوص . . والرجل لما يجاوز

الأربعين بعد ، ولما يختم رسالته فى عالم الفكر والأدب ، فلعله مع امتداد العمر يثوب إلى قرار دائم بعد الثورة الدائمة ، أو لعله يدين ببعض المعنى فى ثورته التى لا معنى لها غير الإفلات من الخنوع والتسليم .

ونحن على تقديرنا لصدق الرجل فى شعوره ونبله فى مقاومة أعداء وطنه والأخذ بناصر المظلومين تحت نيره ، نرجح أن آفته كلها قلة الفلسفة فى دعوته ووجهة تفكيره ، لأنه يقرر فى أول كتابه « الثائر » أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى لا يرتضى ما هو فيه ويريد أن يكون غير ما هو كائن ، ثم ينتهى من الكتاب إلى وجهة عجيبة ، وهى دوام الثورة على الماضى وعلى المستقبل فى سبيل الحاضر .

ترى لو آمن الإنسان بالحاضر وحده هل يثور ؟ وهل يتقدم من حاضر إلى حاضر أعظم منه لو لم يكن نظره معلقاً بالمستقبل على الدوام ؟ وهل يتفق أن يقال إن الإنسان يأبى أن يكون كما هو كائن ثم يقال إنه رهين بالحاضر دون سواه ؟

إن صاحبنا ينكر « الوجود المطلق » Absolute وينعى الإيمان به على المتدينين والماديين ، ولو استطاع الإنسان أن يحصر نفسه فى نطاق المحدود لكان حيث هو كائن بغير أسف على ما مضى وغير اشتياق إلى ما هو آت.

وإنه ليبدع غاية إبداعه حين يصف الغربة التى يشعر بها الكائن العاقل بين عناصر الطبيعة ، وحين يصف سخافة الحوادث والصروف وخلوها من المعنى ، ومن هنا كان سؤال بعضهم له : كيف يفسر اهتمام الكاتب بالكتابة فى الدنيا التى لا معنى لها ؟ أتراك تؤمن بأنها رسالة علوية يساق إليها الكاتب مسخراً من عالم الغيب ؟ وقد أجاب سائله بأن الحياة تطلب التغيير بدافع من داخلها ودافع من خارجها كلما ضاقت بها ظروفها ، وأن الكتابة دافع من هذه الدوافع الحيوية ، ويبدو أنه جواب كاف لذلك السؤال ، ولكن السؤال الذى يبقى معلقاً بغير جواب مقنع هو شعور الإنسان بالغربة بين عناصر الطبيعة ، فهل من المعقول أن يخلق الإنسان من عناصر الطبيعة ثم يشعر بالغربة بينها وهو من مادتها ولا شىء فيه غريباً عن هذه المادة ؟ ألا يكون من الأجوبة التى تخطر على البال هنا أنه يشتمل فى كيانه على مزاج غريب هو علة الشعور بتلك الغربة ؟

بلى . ويكون من الأجوبة التى تخطر على البال أيضاً أن المزاج الغريب هو

هدف الشعلة المقدسة : شعلة الفكر الثائر على المادة إلى غير استقرار ، شعلة الحرية الفكرية التي تخول الفكر حق الصواب والخطأ ، فإنه لا يقال عن الحق إنه حق إذا كان مقيداً بالصواب أو بالصواب كما يراه الآخرون : ولا حرية للإنسان إن كان الإنسان صالحاً لا يستطيع غير الصلاح .

* * *

وحق التخريف أيضاً

ومن سخرية المناسبات أننا نستطرد ، لبعض المناسبات، إلى إلحاق الكلام عن حرية التفكير بالكلام عن حرية التخريف .

والمناسبة هي رسالة يقول فيها كاتبها ، بعد إنحاء شديد . أنه يشك في قصة « الشاطر هانس » أو قصة الحصان الذي كان يتفرس بنظره في وجه سائله فيعلم من ملامحه أين يقف عند عد الأرقام أو تمييز الحروف الأبجدية ، ويجزم بأن هذا الخبر من خرافات المشعوذين .

ولا ننكر على كاتب الرسالة حقه في الجزم بالتكذيب حيث لا موجب للتكذيب لأن التخريف مما يدخل في حق الخطأ الذي أسلفنا الإشارة إليه .

قال الراوي : والتخريف تخريفان : تخريف معناه قبول الخرافة . وتخريف معناه رفض الحقائق لأنها تبدو لمن يرفضها كالخرافات .

ومن التخريف أن نستكثر على طاقة الحصان أن يستخدم نظره ذلك الاستخدام النادر . لأننا نستطيع أن نعلم من مجرد النظر إلى عيون الخيل أن استعمال نظرها في الانتباه إلى ما حولها ضرورة تصنع المعجزات . ومن هذه المعجزات أن العينين تنظران إلى الجانبين خلافاً لأعين الحيوان التي تنظر أمامها وتستدير لتنظر ما حولها ، وقد يكون الحوذية أذكى من كاتب الرسالة الذي رمانا بالتخريف لأننا نقلنا قصة الشاطر هانس . فإنهم يحجبون نظر الخيل إلى الجانبين. ولو كان للخيل قدرة على أن تحجب عينيها بيديها كما يفعل بعض الناس لأغمضتها بغير حجاب ، ولكنها مسكينة محرومة من هذا الحق . . . فهنيئاً به لمن يحرص عليه.

ساعة مع الشيطان *

وللقارئ أن يبتسم ، بل هو مبتسم حتما إذا أوحى إليه العنوان أنها ساعة واحدة مع الشيطان .

أساعة واحدة مع هذا الزميل الأبدى الذى صحب أبانا آدم فى الجنة وشيعه إلى الأرض ولم يفارق أبناءه منذ تلك الساعة إلى هذه الساعة !

لو قال قائل إن الشيطان يفارقه ساعة فى اليوم ، أو فى الأسبوع أو فى الشهر ، لكانت هذه دعوى عريضة من بنى آدم فى هذا الزمان .

فإما أن يزعم أن ساعة واحدة مع الشيطان شىء نادر يدار عليه الحديث فى الصحف فلا جواب لتلك الدعوى غير الابتسام ، ويحق للقارىء كما قلنا أن يبتسم ، ولا يضيرنا فى الواقع أن يبتسم ! . فإنها فى آخر الأمر ابتسامة متبادلة ، نأخذها من القارىء ونعيدها إليه بفوائدها ، إلا إذا تخيل أن أوقاته مع ذلك الزميل الأبدى أقل من أوقاتنا ، فلا تكون هذه الدعوى منه إلا دليلا على الملازمة الشيطانية التى لا تسمح بفراق دقيقة واحدة ولا يحق له إذن أقل من ستين ابتسامة فى نسق واحد وإلا ظلمناه وغبناه .

* * *

ولكنها ابتسامة متعجلة

أما الواقع فإن هذه الابتسامة كيف كانت ، عجلة من الشيطان لأننا لا نقصد الشيطان الأبدى حين نقول إنها ساعة قضيناها معه وكتبنا عن قصتها هذا المقال .

إنما هو شيطان الكاتب الإيطالى « جيوفانى بابينى » الوليد الصغير الذى لم يمض على ميلاده شهران بحساب اللغة الفرنسية على الأقل ، ولم يصل إلى مصر إلا منذ أسبوع .

وجيوفانى بابينى قد ألف فى أول القرن كتابه عن السيد المسيح ، واعتزم

---

* أخبار اليوم ١ / ٥ / ١٩٥٤ .

أن يؤلف هذا الكتاب عن الشيطان منذ خمسين سنة ، فلم ينجز وعده إلا فى السنة الأخيرة ، وهو تسويف على الوعود الشيطانية غير كثير .

وربما كان كثيراً أن نقول عن هذا الشيطان إنه شيطان الكاتب الإيطالى الكبير .

فإن « بابينى » لم يخلق لنا شيطاناً من خياله كتلك الشياطين التى خلقها الشعراء والأدباء واشتهر بها أمثال ملتون الإنجليزى وجيتى الألمانى وكردوتشى الإيطالى ولرمنتوف الروسى وآخرون وآخرون من أصدقاء الشياطين المخلصين وأعدائهم المنافقين .

كلا . لم يفعل « بابينى » هذا ولم يبتكر فى كتابه شيطاناً من عنده ، ولكنه استوفى الإحصاء أو كاد عن شياطين الزمن القديم وشياطين الزمن الحديث واستقصى الأخبار عن الشياطين فى كل دين وكل لغة وكل أمة ، فمنها الشيطان الإسرائيلى والشيطان المسيحى والشيطان الإسلامى ، ومنها من يتمتع بالجنسية المصرية ومن يتمتع بالجنسية اليونانية أو الهندية أو الفارسية ، ومنها شياطين الشعراء والفلاسفة والحكماء .

مجموعة حافلة من كل لون ، وتحفة جديرة بموحى التحف إلى عباقرة الفنون ومحتكر الصنف كله — صنف الإغراء والإيعاز والإيحاء — فى عرف رجال الدين .

* * *

الشيطان « المودرن »

وأطرف ما فى هذه التصنيفة الحافلة شيطان حديث يصوره لنا الكاتب الروسى البولونى (مرجكفسكى) صاحب الكتاب المأثور عن المسيح المجهول .

يقول المثل « أعط الشيطان حقه » .

ولكننا على ما يظهر من كلام مرجكفسكى قد أعطينا الشيطان فوق حقوقه جميعاً حين وصفناه بسعة الحيلة وادعينا له أنه خبير بفنون الاختراع والتجديد فى هذا الباب .

فكل حيلة من قبل الحيل المعادة ، أو كلها من قبل الخمرة الجديدة فى البواطى القديمة . . ليس فيها من جديد فى معدنها الأصيل ، ولكنها كالثوب الردم

الذى يحوره ويدوره مع اختلاف الأزياء بين موسم وموسم وبين هندام وهندام .

آية ذلك أنه يغرى الناس اليوم بالحيل التى حاول قبل تسعة عشر قرناً أن يغرى بها السيد المسيح .

وارجع إلى هذه الحيل فى إنجيل متى فماذا ترى ؟

ترى كاتب الإنجيل يقول إن السيد المسيح بعد ما صام أربعين يوماً وليلة جاع كثيراً فقال له إبليس : « إن كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة تصير خبزاً . . . ثم أخذه إبليس إلى جناح الهيكل وقال له : إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل . . ثم أخذه إلى جبل عال جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال له : أعطيك هذه جميعاً إن خررت وسجدت لى . . »

أليست هذه أقوى حيل الشيطان ؟

لو كان عنده أقوى منها لكان السيد المسيح أحق بتجريبها فيه ، ولم يدخرها لأحد غيره .

فهذه الحيل — على قول مرجكفسكى — هى كل بضاعة الشيطان العصرى يعيدها ويكررها بقالب جديد .

تحويل الحجر إلى خبز هى صناعته التى علمها أصحاب الكيمياء فاستطاعوا بها أن يستخرجوا اللحم الصناعى والزبدة الصناعية والأطعمة الصناعية جميعاً من مادة الجماد .

والسقوط إلى أسفل ، أو السقوط إلى أعلى . . هى هى صناعة الطيران وما جرته من بلاء الإنسان على الإنسان .

ومملكة العالم هى الشهوة الشيطانية التى تحفز الكتلتين إلى الصراع الوبيل على السيادة العالمية .

فما أقدم حيل الشيطان ، وما أيسر الألاعيب التى يسرح بها هذا الألعبان !

* * *

الشيطان الدولى

ونفهم من كتاب (بابينى) أن فوارق الجنسية غير مقصورة على الأجناس الآدمية .

فهناك عصابة دولية من الشياطين تنتمى إلى الشرق والغرب وإلى الأقدمين والمحدثين .

هناك الشيطان المصرى « سبيت » أقدمها جميعاً وأولها فى ترتيب التشريفات أو التحقيرات ، وهو شبيه بالصحراء التى كان المصريون يخشون حرها وسمومها كما نخشاه نحن فى هذه الأيام . ورذيلته الكبرى ، الغيرة والنكاية والرعونة التى تتشبه بالشجاعة والإقدام .

وهناك الشيطان الهندى (مرتيا) وهو يغرى بشهوات الجسد ويقود الإنسان من ثمَّ إلى الموت ويربطه بدولاب الحياة والرجعة أبداً فلا يزال ذاهباً راجعاً كلما تناسلت الأمهات والآباء .

وهناك الشيطان الفارسى أهريمان وهو رب نزل من عرش الربوبية ولم يزل محتفظاً بدعواها مهدداً بالخراب والعذاب كل من يأباها .

وهناك الشيطان الإغريقى «تيفون» وهو الذى ولدته (هيرا) لرب الأرباب ساخطة عليه متهمة له بخيانتها ومغازلة الربات والإنسيات فى غفلة منها ، فهو ثائر متمرد مفتون بالعصيان ، ومصيره إلى الهاوية فى قيود الذل والهوان .

وعلى كل دين

وتختلف الشياطين على حسب الأديان كاختلافها على حسب الملل والألوان .

فالشيطان اليهودى هو (الضد) المعاند والواشى النمام ، ويستعير من اليونانية هذا الوصف الأخير .

والشيطان المسيحى هو رسول الخطيئة وناقل الإنسان من حياة الخلود إلى الحياة التى يختمها الموت ويعيدها التكفير إلى خلودها الأول .

والشيطان الإسلامى هو المتكبر الدساس خادم الرذيلة والفساد وسيد الرذيلة والمفسدين .

وإن بابينى ليفهم شيطان اليهودية فهماً حسناً ويفهم شيطان المسيحية فهماً صحيحاً ، ولكن فهمه للشيطان الإسلامى ليس بالحسن ولا بالصحيح .

يقول الكاتب الإيطالى إن الإسلام عجيب فى موقفه من الشيطان ، ويكاد يقول إن الإسلام يظلم الشيطان ، لأن الشيطان كان (منطقياً) فى اعتقاده أنه أفضل

من آدم لأنه من نار وآدم من طين ، أو كما قال بشار بن برد بوحى من الشيطان :

إبليس أكرم من أبيـــكم آدم فتبينـــوا يا معشر الأشرار

النـــار عنصره وآدم طينة والطـــين لا يسمو سمو النار

ومهما يكن من حقيقة التفاضل بين العناصر فالكاتب الإيطالى يرى من التناقض أن يكون الإسلام دين الوحدانية الذى لا يقبل الهوادة فى تعدد الآلهة على أى صورة وبأى تأويل ثم يقول لنا إن الله أمر إبليس بالسجود لآدم ثم يلعنه لأنه أبى السجود .

* * *

شيطان غير مفهوم

والذنب فى هذا التناقض المزعوم على (بابينى) لا على الإسلام ، لأنه فهم (أولا) أن السجود بمعنى الصلاة وهو جهل منه بالفارق بين معنى السجود فى اللغة ومعناه فى اصطلاح الفرائض الدينية .

فالسجود فى اللغة هو الخضوع والتوقير ، ولم يكن العربى القديم يفهم من السجود أن يضع جبهته على الأرض متعبداً أو مصلياً كما نفهم بعد ذلك من اصطلاح الصلاة .

كذلك الزكاة لها معنى فى اللغة ومعنى فى اصطلاح الفرائض ، فليست التزكية لغة هى بذل الحصة من المال بالمقدار المعلوم ، ولكنها فهمت كذلك بعد فرض الزكاة ، وإن كان فى التسمية خلاف .

وكل تلميذ من تلاميذ الشرق العربى قد سمع المعلم وهو يعاقب بعض تلاميذه فيقول له (اركع ديس) . . وما من أحد يزعم من أجل ذلك أن المعلمين يأمرون التلاميذ بعبادتهم والصلاة لهم فى البلاد العربية .

إن الله لم يأمر إبليس بالصلاة لآدم ، ولكن « بابينى » هو الذى فهم السجود على غير معناه .

أما تفضيل الطين على النار فلا غرابة فيه عند « بابينى » نفسه على فلسفته التى شرحها فى هذا الكتاب .

وفلسفته التى شرحها فى الكتاب هى أن الفضيلة بغير فتنة وغواية شىء غير مفهوم .

فبغير الكبرياء لا عبقرية ولا بطولة ، وبغير الشهوة لا معنى لتغليب الروح على الجسد ورفض اللذات فى سبيل العفة والطهارة ، وبغير الغضب لا معنى لفضائل العدل والإنصاف ، وبغير الطمع لا معنى للرخاء والاعتدال ، وبغير الكسل لا معنى لمذاهب السلوك التى شرعها كنفشيوس ولاوتسى من حكماء الصين .

ولهذا كان الشيطان « ضروريًّا » فى عرف بابينى ، لأن امتحان النفس بالغواية هو الذى يثبت لها الفضل فى المقاومة والثبات .

ولهذا كانت فضيلة الإنسان على المخلوقات ، لأنه عرضة للشهوات والرذائل أما سائر المخلوقات ففى أمان وعصمة من التمييز بين الخير والشر والتكليف بتغليبها لخيار الأمور على شرورها .

وشيطان الإسلام إذن مفهوم جدًّا وإن كان عند الكاتب الإيطالى متناقضاً غير مفهوم .

والطين الذى يفسد ويتغلب على الفساد أشرف من النار التى تقوى على إصلاح الفساد ثم تعجز عن الإصلاح .

* * *

الشيطان الشهيد

ومن ضرورة « الشيطنة » فى عرف بابينى ننتقل إلى ضرورة الشيطنة فى عرف صديقنا توفيق الحكيم .

إن الأستاذ الحكيم كان « أفن » من بابيني فى رفضه التوبة من الشيطان .

لقد ذهب ليتوب على يد الحبر المسيحى فلم يتقبل منه التوبة ، لأنه لا يملك « التصرف » فى عقيدة الخطيئة والتفكير .

إن الأستاذ الحكيم كان « أفن » من بابينى فى رفضه التوبة من الشيطان .

وذهب ليتوب على يد الشيخ المسلم فلم يدر الشيخ كيف يقول بعدها « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

وذهب قبل ذلك إلى الحاخام اليهودى فأنكر عليه التوبة التى تسوى بين الشعب

المختار والشعوب التى يختارها الشيطان أو تختاره هى بالمعصية والإنكار .

إن هذا الشيطان ضرورة « فنية » فى رواية الخليقة، وهل تصلح الرواية بغير شريرها أو وغدها كما يقال باصطلاح الفن الجميل ؟

إن المسكين ضحية لأزمته . .

إن المسكين شهيد الضرورة ، وإن كانت شهادة الضرورة غير شهادة الاختيار .

* * *

بين التوبة والغفران

وإلى هنا يمتاز الكاتب المصرى باللباقة الفنية ، ويستحق ولا ريب حسن الجزاء من شياطين الفن على أقل تقدير .

ثم يمضى الكاتب الإيطالى خطوة لا يستطيعها الكاتب المصرى ، لأنها خطوة بل خطوات فى أسرار علم اللاهوت .

إذا كان الشيطان ضحية الضرورة فهل له أن يطمع بعد انقضاء الدنيا فى رضوان العالم الآخر ؟

هل له أن يطمع فى الغفران أو هو « طمع إبليس فى الجنة » كما يقال فى عامة الأمثال ؟

بابينى يفتى باحتمال الغفران ، ويعتمد فى ذلك على مراجع كثيرة من القرن الأول للميلاد إلى القرن العشرين .

يعتمد على « أوريجينى » فيلسوف المسيحية الكبير فى القرون الأولى ، ويعتمد على فلاسفة اللاهوت الإسكندريين ، وهم يقولون إن الشيطان لن يبقى له وجود ولا لزوم بعد ارتفاع الموت والخطيئة من الدنيا، وإنه لا يبقى شيطاناً بعد ذلك، بل تتغير فيه الطبيعة التى كان قوامها خطيئة وموتاً من غواية العصيان .

ويتقدم الكاتب مع القرون إلى العصر الحديث ، تارة مع القديس جريجوار النيسى وتارة مع القديس جيروم ، وتارات أخرى مع فان فوندل الملقب بشكسبير هولندة فى القرن السابع عشر ، أو مع الفريد دوفينى الفرنسى فى القرن التاسع عشر ،

وكلهم يقولون إن الملائكة أنفسهم سيطلبون له الرحمة بعد ارتفاع الخطيئة والموت ، وإنهم بعد لأى ما سيجابون .

ولا ينسى « بابينى » كلام إنجيل متى الذى روى أن السيد المسيح فى اليوم الآخر « يقول للذين على اليسار اذهبوا عنى يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته » .

لم ينس بابينى هذا الوعيد ولكنه استعان بخبرته اليونانية ففسر الأبدية هنا بالمعنى اللغوى وأبى أن يفسرها بالمعانى الفلسفية التى استعارها من فلسفة علماء اللاهوت ، ولو أنه فعل مثل ذلك فى تفسير السجود لما ادعى على الإسلام أنه غريب فى موقفه من الشيطان .

هذه الخطوة التى خطاها بابينى إلى أسرار علم اللاهوت يا ليته ما خطاها . . لأنها جرت عليه الغضب من بعض المتشددين فأنذروه بالعقاب الذى لا يقبل الغفران لأنه أفتى بجواز الغفران على الشيطان .

ونعلق الدعاء له فلا نقول : والله يغفر له ، بل نقول وعلى الله القبول « ويغفر الله لمن يشاء حين يشاء » .

* * *

بمعونة الله

ثم نعود إلى قارئنا الذى لحنا على فمه الابتسام من عنوان « ساعة مع الشيطان» ...

فمهما يكن من الأمر فنحن لم نقرأ كتاب « الشيطان » إلا بمعونة من الله ، لأننا قرأناه باللغة الفرنسية وهى اللغة التى يعيننا الله على فهمها كلما احتجنا إليها ، لأننا تعلمناها فى مدرسة كثيرة القيود والأغلال . . . وتعلمناها على أستاذ من أجهل الناس باللغة الفرنسية .

أما المدرسة فهى سجن قره ميدان

وأما الأستاذ فهو كاتب هذه السطور . . .

وجلية الخبر أننى قضيت من مدة الحبس أربعة أشهر حين صدور الحكم علىّ بتسعة أشهر ، فبقى منها خمسة لم أدر كيف أقضيها بلا عمل ولا راحة . . . فاستخرت الله ودعوت بكتب « التعليم الذاتى » للغة الفرنسية ، وخرجت من السجن

وأنا أقرأ أناتول فرانس وأعجز عن قراءة أندريه جيد .

وكنت أيأس أحياناً وأعرض مشكلاتى على زميلى فى السجن الأستاذ حسن النحاس ، فكان جزاه الله خيراً يعيد الطمأنينة إلىّ ويفهمنى أنها مشكلات تعضل على الفرنسيين أنفسهم ، فلا موجب لليأس إذا هى أعضلت على المبتدئين . .

ثم احتفظت بمعلوماتى الفرنسية القليلة بعد خروجى من السجن لمطالعات الضرورة . . .

أما مطالعات الضرورة عندى فهى الكتاب الذى أعرف مؤلفه وأحب أن أطلع على ثمرات فكره ثم لا أجده مترجماً إلى اللغة الإنجليزية .

وهكذا الشأن فى كتب « بابينى » التى عرفتها وعرفت منها نزعة حسنة وإن لم يكن لها عمق ولم يكن لها فى أكثر الأحوال فضل ابتكار . .

ذهبت إلى الإسكندرية فى أسبوع شم النسيم فوجدت أمامى فى إحدى المكتبات مؤلفه الحديث عن الشيطان .

فأغرانى به شيطان المطالعة الذى لا يفلت من براثنه أحد وقع فى قبضتها .

وأعاننى الله عليه ، والحمد لله . . !

السفور يا « رجال » *

من الواجب ، ومن السهل أن ألبي رجاء الصديق الفاضل الذى لفت نظرنا إلى ببغاوات الأدب فى هذا البلد واقترح علينا أن يكون تعليقنا « درساً يستفاد » ويقطع على الدجل والجهل طريقهما إلى العقول .

ولقد قيل لى كثيراً إن احتقارك الدجل لا يعفيك من واجب الإبانة عنه لمن عسى أن ينخدع فيه ، وإننا على اعتقادنا أن ما يقولونه حق نرى أن أداء الأمانة للحق لا يتوقف على نهج واحد ولا على فضيحة رجل واحد ، وبخاصة حين يلتبس الأمر بين إظهار الحقيقة والحرص على ثناء الدجالين .

حرب الأضداد

لكننا نرى اليوم أننا فعلنا ما ينبغى لدفع كل شبهة من شبهات الحرص على ثناء الدجالين والأدعياء .

فليس فى وسع أحد أن يرمى بالحرص على هذا الثناء كاتباً يهاجم الأضداد فى وقت واحد ، ولا يدخر لنفسه ثناء هذا الضد حين يهاجم من يناقضه ويعاديه ويخص بالثناء من يناصره ويحابيه .

ليس فى وسع أحد أن يتهم بالحرص على الثناء كاتباً يهاجم الشيوعية ويهاجم فى الوقت نفسه مطامع الشركات وأصحاب الملايين ، وليس فى وسعه أن يتهم بذلك كاتباً يهاجم الكتلة الشرقية والكتلة الغربية فى وقت واحد ، أو يهاجم الصهيونية مع من يسمون أنفسهم بالإخوان المسلمين ، أو يهاجم سلطان الوفد وسلطان القصر وسلطان الاحتلال، أو يلعن النازية ولا يكسب رضى الحلفاء كالذين نالوا منهم الخلع والألقاب والأنواط ، أو يقف فى طريق التبشير وطريق الاستعمار وطريق الاستغلال وطريق الإلحاد ، بما يكتب فى الدين والفلسفة والأدب والتاريخ .

إن الذى يبالى الثناء حيث كان لن يفعل هذا ولن يجهل ما ينبغى أن يفعله

---

* أخبار اليوم ٦ / ٣ / ١٩٥٤ .

فمن السهل إذن أن نلقى الدرس المطلوب دون أن يخطر فى البال أننا نلقيه لمصلحة من مصالحنا ، أو لسمعة يعنينا أن نبلغها عند سماسرة الثناء المغرض أو الثناء المأجور .

لكننا لا نلقيه لتصحيح أقاويل الأدعياء فقد وضح أنهم لايصدرون عن رأى ولا يعرفون ما يكتبون عنه وينتقدونه ويزعمون أنهم ينهضون لتغييره وتبديله ، وأى تصحيح يفيد الدعى الذى ينسب إلينا مذهباً كتبنا عشرين بحثاً فى تفنيده والسخرية منه والدعوة إلى نقيضه ؟ ولقد شرحنا ذلك فى مقال الأسبوع الماضى فليكن الدرس فى هذا المقال أن الأدعياء يجهلون الأدب الذى يجعلونه مثلا منصوباً للاقتداء به والاهتداء على نوره ، وليكن فى هذا الدرس زاجر لهم عن التضليل بعقول القراء وعبرة لمن يضيع الوقت فى الإصغاء إلى ذلك الهراء .

وهذا قسط من أقساط شتى سنبذلها ولا نضن بها بعد اليوم صيانة للعقول وتحذيراً لمن يحسبون أنهم فى أمان من عواقب اللغو والتزييف ، لأنهم شعروا مرات أن الحارس لا يصيح بهم وهم يتسللون .

إعجاب بمرسوم

فهؤلاء الأدعياء يشيدون بقصائد « مايكوفسكى » الشيوعى كما يجهلون العوامل التى أحاطت بشهرته من قبل الثورة الروسية إلى أواخر أيام ستالين .

مايكوفسكى هذا قد حار فى كسب الشهرة والطنطنة الجوفاء فحاولها من كل طريق وانتحر أخيراً لأنه اتهم بخيانة الجماهير .

جعل نفسه تلميذاً فى إيطاليا لشاعر الفاشية « مارتينى » المهرج المعروف ، وأين الفاشية من الشيوعية لو كان هذا المسكين ترجماناً لمذهب يفقه ما يدعيه ؟

وكتب مع أصحابه بياناً (سنة ١٩١٢) ملأوه بصيحات كصيحات الخرس فى آذان الصم ينادون فيه « ألا رجاء للأدب حتى تقذف « باخرة التقدم » بأمثال تولستوى ودستيفسكى وبوشكين وتتسع لأمثاله من " المستقبليين " ».

ثم احتفلت الدولة بعد ذلك بذكرى بوشكين فكان صاحبنا هذا شاعر الاحتفال ، ونظم لبوشكين قصيدة يخاطبه فيها فيقول : إنك لتعلم أنه ما من أحد

من هؤلاء يحزن مثل حزنى لأننا لا نراك بيننا هذا اليوم » .

وسئل لنين عن شعره فقال : إننى أقرأ بوشكين و يعجبنى كلامه وأقرأ نكراسوف و يعجبنى كذلك ، وأما مايكوفسكى فلا مؤاخذة . . إنه غير مفهوم !

ثم روت كروبسكايا زوجة لنين فى مذكراتها عنه أنه زار معسكراً للشبان فى أيام المجاعة فقال له بعضهم إنهم يفضلون مايكوفسكى على بوشكين . . فابتسم وقال : أظن بوشكين أفضل .

وقد صدر أمر الدولة بمنع روايتيه الحمام و بقة الفراش ، وغلب اليأس عليه فى أيامه الأخيرة فنظم من مقطوعاته اليائسة مقطوعة يقول فيها : « إن القلب يشتاق إلى رصاصة والرقبة تشتاق إلى موسى . . » . . وظن أنه يستميل إليه المحكمين فى الأدب بقصيدة عن مشروع السنوات الخمس فخاب رجاؤه ، فبخع نفسه وهو فى السابعة والثلاثين .

فكيف حدثت المعجزة بعد ذلك فأصبح مايكوفسكى سيد الشعراء من الروس وغير الروس بلا مراجعة ولا استثناء .

حدث هذا بمرسوم !

وأما كيف حدث فذاك أنه كان خصماً لمدرسة الثقافة الصعلوكية Proletkult هى التى انتقدته وسخرت من شعره وتعبيرات شعوره ، ثم تبين للرفيق ستالين أن المدرسة كانت من حزب تروتسكى كغيرها من المثقفين ، فوجب إذن أن يصبح مايكوفسكى شاعر الإنس والجن ما دام مغضوباً عليه من المثقفين أنصار عدوه المبين ، وعادت دواوينه فطبعت ووزعت على التلاميذ فى المدارس بعد أن كانت محرمة عليهم وعلى سائر القراء ، وشفع له نقاد الدولة فقالوا عنه إنه كان مخلصاً فى خطابه للجماهير وإن لم يفهموه . . ألم يكن مذهبه أنه يريد أن يزيل الفوارق بين الشعر والنثر وكلام الشوارع والأسواق ؟ . . بلى ولا مراء . . فليكن إذن سيد الشعراء !

فكان سيد الشعراء ، وصاحت الببغاء بهذا النداء ، وصاحت به معها زمرة الأدعياء !

وفى سبيل الانتحار

والأدب فى سبيل الحياة كان من صيحات شاعر آخر ، بخع نفسه وهو فى الثلاثين لأنه يحتقر الحضارة الصناعية الحديثة ويرميها بالخسة والدمامة ، ويعاف الحياة بين الماكينات والآلات !

وليذكر القارئ أن الإمامين المجددين فى مصر ضربا المثل برجحان مايكوفسكى على الشاعر « إليوت » لأن إليوت ينكر الحضارة المادية وشاعرهم مايكوفسكى« يمجد الحضارة الصناعية الحديثة ويستبصر بالحركة الصاعدة للتاريخ » .

لكن ما القول فى الشاعر الشيوعى إيسنين ؟

إيسنين هذا ، أو سرجى إيسنين ، نظم شعره فى لعن الصناعة والحنين إلى المزرعة ، وأقذع فى هجاء الأمريكيين لأنهم يبنون الصروح التى تسمى بناطحات السحاب ، ثم نظم أبياتاً قبل موته يقول منها : « إن الموت ليس بالشيء الجديد ولكن الحياة أيضاً ليست بالشيء الجديد ! » .

ومن بدوات هذا « المجدد » أن أهاجيه فى الحضارة الأمريكية لم تمنعه أن يعيش عالة على الراقصة الأمريكية « ازادورا دنكان » ويشغل عندها وظيفة « الزوج » ويتنقل معها بهذه الوظيفة « الاسمية » بين عواصم القارة الأوربية .

ولا نحب أن نستعير من اللغة العامية تلك الكلمة الوحيدة التى يطلقها العامة على أمثاله .

فليتفضل باستعارتها من يفضلون العامية على الفصحى فى هذا المقام وفى كل مقام . .

وربما قيل : وما بال الشيوعيين يلامون على بدوات هذا المجدد المنتحر فى سبيل الحياة ؟

فمن قال ذلك من غير المتشيعين فهو معذور . . فأما المتشيعون المفروض فيهم أنهم يعلموننا الأدب « المعتمد » فهم خليقون أن يعلموا أن الدولة هى التى طبعت مؤلفاته بعد انتحاره بسنة واحدة ، وأن عميد الأدب الشيوعى ، مكسيم جوركى ،

كتب عنه فشهد له بأنه كان ممثلا لعصر الثورة ، وكتب آخرون فقالوا إن مايكوفسكى نموذج الشيوعى العامل وإيسنين نموذج الشيوعى الفلاح .

والعامل والفلاح كلاهما قد انتحر . . فى سبيل الحياة !

وأهرنبرج وإليوت سواء

والأدعياء قد ضربوا المثل بأهرنبرج وفضلوه على إليوت ، لأن إليوت يعتصم بالدين من متاعب العصر وضوضاء الصناعة .

لو أنهم قرءوا أهرنبرج ، وقرأوا رواية العاصفة خاصة ، لما قالوا هذا أو لما قيل لهم هذا فصدقوه . .

فما نسى أهرنبرج اليهودى أن يجعل الدين ملاذاً يعتصم به أبطاله وبطلاته كلما ضربتهم متاعب الحياة ولاحقتهم مظالم النازيين .

قالت رايشكا لحماتها : أتؤمنين حقاً بوجود الله ؟

قالت « كهانا » بلكنتها الملحدة لا أعلم فإنى لا أفكر فى هذا حين تسير الأمور فى مجراها ، ولكننى كلما طرأ طارئ . . . ولا تغضبى منى ياريشكا . . فإنك تقرأين كتبك وتذهبين إلى المسرح ، ولكننى لا أملك إلا أن أعود بالذاكرة إلى صلواتى الأولى فأعتصم بسلوى الصلاة . . »

وفى أقاصيص جوردون ، الكاتب اليهودى الآخر ، مناظر « مؤثرة » لليهود الذين يحملون كتب التوراة والتلمود معهم قبل الجلاء عن المواقع المهددة ، ويتركون وراءهم الآنية والمتاع .

والرقباء الشيوعيون يأذنون بوصف هذه المناظر على شرط واحد : وهو الإطناب فى تقريظ نخوة الروس الذين ينجدون الضحايا ويحيطونهم بالعطف والعزاء ، لأنهم كانوا يتوددون لإسرائيل ويطمعون فى تسخيرها ، فإن لم يكن وصف المذابح مقروناً بهذه « الدعاية » الروسية منعوا الرواية أن تطبع وأن تمثل ، إن كانت من المسرحيات .

فهل يجوز لليهودى — فقط أن يعتصم بدينه ولا يجوز ذلك لإليوت المسكين؟ وهل يجب علينا احتقار الشعر لأنه يستنكر الصناعة ونقوم ونقعد إعجاباً

بالصناعة المستنكرة إذا استنكرها رفيق من الشيوعيين ؟

نحن إن أعجبنا مايكوفسكى فإنما تعجبنا منه الأبيات بعدا لأبيات ومنها مقطوعة الجمل والحصان . .

يقول الجمل وقد نظر إلى الحصان يا له من جمل ناقص . . !

ويقول الحصان وقد نظر إلى الجمل يا له من حصان مشوه . !

ثم يقول الشاعر إنه لا نقص هناك ولا تشويه ، ولكنهما خلقان مختلفان :

لم لا يقول الأدعياء عن اختلاف الشعر مثل هذا المقال ، إن كان لهم من فهم شاعرهم نصيب غير نصيب الببغاء ؟

شيوعى يطلب برهاناً

ومن دواعى التسلية عندى دائماً أن أقرأ كلاماً شيوعياً أو أتلقى خطاباً من شيوعيين . .

وأمتع هذه التسليات فى الأيام الأخيرة خطاب من شيوعى بتوقيع « سالم » يطلب فيه برهاناً على ما قلته عن أهرنبرج « نصير السلام العظيم . . المدافع عن قضايا المستعمرات فى كل المحافل وسائر المؤتمرات . . أهرنبرج الكاتب الإنسانى ممجد الحضارة ومقدس الإنسان . . » .

أو بالإيجاز أهرنبرج الذى وصفه صاحبنا بجميع أوصاف « بريا » قبل اعتقاله ، ويجوز أن يصفه غداً بكل أوصاف « بريا » بعد الاعتقال ! قديس عظيم ثم شيطان رجيم فى أربع وعشرين ساعة !

وأمتع التسليات أن تسمع شيوعياً يظن أن أوصافه وأوصاف زمرته لإنسان من الناس شيء له قيمة فى حساب الآدميين ، وهذه أوصاف « بريا » قبل الاعتقال وأوصافه بعد الاعتقال لا تزال تطن فى الآذان .

وأمتع التسليات أن تسمع مخلوقاً من هذا الواغش البشرى يصدق ببرهان ويكذب ببرهان ، وهم قد صدقوا كارل ماركس حين أفتى لهم بهدم المجتمعات الإنسانية منذ أول التاريخ إلى اليوم . . أما براهينه على ذلك فلا تكفى لهدم عشة من عشش الترجمان .

نعم . . وقد صدقوه حين قال لهم إنه رسم للعالم مستقبلا أبدياً لا يحيد عنه ملايين السنين ، ولا توجد عجوز من أسخف المصدقين بمعجزات الأولياء تصدق من أوليائها مثل هذا الهذيان .

أما فيما نحن فيه خاصة فقد صدق سالم — أو الرفيق شلومة على الأصح — أن العقاد يدين بمذهب فى الأدب قضى أربعين سنة ينقضه ويسخر منه ويقيم الأدلة ع فساده .

ولكن الشيء الذى يستعصى على التصديق عنده هو أن يكون أهرنبرج يهودياً يشنى حزازة قومه من النازيين ، وكيف يجوز هذا فى العقول ياترى؟ وما البرهان عليه يا خلق الله ؟ . .

مزق هدومك يا رفيق شلومة ! .

هو هذا بغير برهان . .

أما إن كان لابد من البرهان ، تحليلا لثمن هدومك — يا رفيق شلومة — فمن البراهين القريبة جداً أن الخواجة أهرنبرج لم يكتب لنا قصة عن المنكوبين من مهاجرى فلسطين بإجرام قومه الصهيونيين ، ولم يكتب قصة عن فظائع القرم والتركستان التى نكب بها المسلمون .

ومن هذه الفظائع ما يصلح لقصة يجول فيها قلم « نصير السلام العظيم » . . وهى قصة الرجل الذى أعياه دواء طفله بل عز عليه قوته فخنقه بيديه وقتل نفسه بعده ، ولم يكن وحيداً فى هذا الشقاء .

فليست هذه فظائع تثير النفوس ، وليس هؤلاء آدميين يرثى لهم الكاتب الإنسانى العظيم ، ولا يبعد أن يصدر غداً المرسوم الذى يقول للشيوعيين إنها هى الرحمة كل الرحمة وإنها هى الخير كل الخير ، فيصدقون ويهللون ويستبشرون ، ولا برهان لهم إلا أنها صدرت بمضمون مرسوم ، أو بغير مضمون .

تماماً كما انقلب بريا وغيره من قديسين إلى شياطين من شيعة إبليس اللعين ، فى أربع وعشرين ساعة ، أو أقل من أربع وعشرين !

فإن كان الرفيق شلومة بحاجة إلى برهان آخر فسنعطيه البرهان مخصصاً له ولإخوانه الشجعان الذين لا يهرجون ولا يضللون . .

البرهان أن الخواجة أهرنبرج ينكر النازية ويقبل حذاء الشيوعية ، ويدور مع الكرملين حيث دار بين الخصوم والأنصار .

أما نحن المهرجين المضللين فنحن مهرجون مضللون بغير برهان ، لأننا نحمل على النازية ونحمل على أختها الشيوعية ونحمل على أخيها الاستعمار ، ولا نفعل ذلك لنقبض الأجور التي يقبضها الخواجة أهرنبرج . . رسول الإنسان في هذا الزمان .

وسلم لنا عليه يا شلومة !

مقترحات

والمعذرة إلى أصحاب الرسائل أن نودع الرقيق شلومة لنتحدث إليهم ، فإنما حديث « الرفيق » ، تسلية لهم ومتعة لأفكارهم وأذهانهم ، وليس أمتع للأفكار والأذهان ، من شيوعى يطلب البرهان .

يسألنا الأديب السيد « أحمد عبد اللطيف الخضراوى » بالإسكندرية عن رأينا فى انتقال زعامة الأدب إلى بيروت كما قال الدكتور طه حسين ، ثم يذكرنا بوعدنا أن نضع كتاباً خاصاً فى قصة حياتنا « لتكون درساً مفيداً لشبان هذا الجيل والأجيال المقبلة فى العصامية العلمية . . »

ولا نعلم الأسباب التى أوجبت فى رأى الدكتور طه أن تنتقل العاصمة الأدبية فى العالم العربى إلى بيروت ، وقد نناقشها أو نقرها إذا علمناها ، ولكن الدكتور على كل حال لا يطيل المهلة فى تولية العواصم والإمارات ، وقديماً جعل إمارة الشعر أشبه بالجمهورية لأنها تنقلت على يديه خلال بضع سنوات بين شوقى والزهاوى والعقاد ومطران وعلى طه ، فأصبحت إمارة كجمهورية أو قنصلية ، وهو خير على كل حال . .

أما كتابة ترجمتى فلا أزال عند وعدى بها قبل سنوات ، ولكنها عمل يحتاج إلى وقت لا أملكه ، فمن التوسط بين إنجازه وإهماله أن أكتب شيئاً منه كلما عرضت له مناسبة ، وذلك خير من الإهمال إلى أن يحين وقت الإنجاز .

الزمخشرى والجرجاوى

ويقترح علينا العالم المجتهد الشيخ «سيد على الطوبجى» بأسيوط أن نؤلف كتاباً عن الجرجاوى وكتاباً عن الزمخشرى ، وكلاهما جدير بالكتابة عنه شرحاً لمذهبه فى اللغة والبلاغة ، وإن يكن مجال التحليل النفسانى لا يتسع فى السيرتين كما يتسع فى سير الأكثرين من الأدباء .

والأستاذ مشكور على ثنائه وعلى تقديره لكتابنا عن أبى نواس ، ونرجو أن يحمد ما نكتبه عن العالمين الجليلين وإن لم نستطع توقيت الموعد للكتابة عنهما بينما يتتابع علينا من العمل ، وكله فى خدمة الأدب والتاريخ ، وهو عذرنا كلما فرغنا من واجب وتخلفنا عن واجبات .

النفسيات باللغة الفرنسية

ويبدو من خطاب الأديب «تلميذ» أنه اطلع اطلاعاً حسناً على دراسات التحليل النفسانى باللغة الفرنسية ، والأستاذ سلامة موسى كما نعلم يعرف الفرنسية ويستطيع الانتفاع بالكتب التى أشار إليها «تلميذ» إذا لم يكن قد اطلع عليها ، وليست هذه الكتب قليلة باللغة الإنجليزية بل يمكن أن يوجد منها بهذه اللغة ما لا يوجد بغيرها ، كما يمكن أن تكون فى الفرنسية والألمانية والإيطالية ، والإسبانية أيضاً ، كتب جليلة فى هذه الدراسات لم تترجم إلى غيرها .

أما من حيث الكفاية فليس القانع بها مضطراً إلى استقصاء الكتب فى جميع اللغات ، فكيف ونحن فى الشرق نكتفى بما دون الكفاية ؟ وما دون الميسور ؟

الموالد . . وأسواق الأدب *

كان عبد الله نديم ، خطيب الثورة العرابية مناضلا بفطرته التى ولد عليها قبل أن تولد الثورة ، طبع على المناوشة فى ميدان السياسة ، كما طبع عليها فى ميادين الأحاديث والأسمار ، وتعودها فى عالم الفكاهة والعبث ، كما تعودها فى عالم الجد والعمل .

ومن معاركه الفكاهية التى تذكر فى تاريخه إلى جانب معاركه القلمية واللسانية ، تلك المعركة الطريفة التى نشبت بينه وبين عصبة « الأدباتية » من رواد المولد الأحمدى قبل اشتعال الثورة العرابية بخمس سنوات (١٨٧٧) وقد حفظت لها محاضر مكتوبة وتقع فى خمس ملازم من التغبيرات الأزهرية ونشرت منها صحيفة الأستاذ فى العدد الحادى والأربعين من سنتها الأولى مقتبسات تدل عليها .

« اتفق لى أنى كنت بمولد سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه سنة ١٢٧٤ هجرية وكان معى السيد على أبو النصر والشيخ رمضان حلاوة والسيد محمد قاسم والشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهورى ، فجلسنا على قهوة الصباغ نتفرج على أديب وقف يناظر آخر ، فلما فطن أحدهما لانتقادنا عليهما استافت أخاه إلينا وخصانا بالكلام فأخذا يمدحاننا واحداً فواحداً ، إلى أن جاء دورهما إلىّ فقال أحدهما يخاطبنى :

انعم بقرشك يا جندى وإلا اكسنا ، أمال ، يا افندى
إلا أنا وحياتك عندى بقالى شهرين طول جيعان

فقلت على سبيل المزاح معه :

أما الفلوس أنا مديشى وأنت تقول لى ممشيشى
يطلع على حشيشى أقوم أملص لك لودان

قال :

« فلما قمنا وتوجهنا إلى منزل المرحوم شاهين باشا ، وكنا نازلين عنده جميعاً أخبره السيد على أبو النصر بما كان منى مع الأديبين ، فلما أصبحنا استدعى

---

* الأخبار ١٩ / ٩ / ١٩٦٢ .

شاهين باشا شيخ الأدباتية وطلب منه أن يستحضر أمهرهم عنده ووعدهم أنهم إن غلبونى أعطاهم ألف قرش ، وإن غلبتهم يضرب كل واحد منهم عشرين كرباجاً . . » .

ثم مضى كاتب القصة فى تفصيل أخبار المعركة التى احتدمت بين الأدباتية من ناحية ، والنديم وحده من الناحية الأخرى زهاء ثلاث ساعات انهزم بعدها الأدباتية ، ولكن شاهين باشا أعفاهم من الضرب وأعطاهم خمسة جنيهات بدلا من العشرة الموعودة ، إذا انتصروا على النديم .

كانت هذه القصة أول ما ورد على ذاكرتى حين قرأت فى أخبار الصحف اليوم أن الأستاذ نائب رئيس المجلس بمدينة طنطا قرر أن يكون الاحتفال بالمولد الأحمدى هذه السنة على نظام جديد يجمع بين نظام المعرض الاقتصادى والموكب الاجتماعى والمحفل الأدبى ، أو كما قال راوى الخبر فى الصحيفة إنه لأول مرة ستقام سوق عكاظ حقيقية يدعى إليها الأدباء والفنانون والصحفيون من أبناء الغربية وهم كثيرون » .

وتواردت على الذاكرة بعد ذلك صور الموالد المشهودة التى حضرناها فى عواصم الأقاليم الكبيرة وقراها الصغيرة ، وأشهرها مولد السيد عبد الرحيم القنائى بمدينة قنا ، ومولد الشيخ البسطامى و بقرية الكوبانية من قرى مركز أسوان .

لم يكن مولد من هذه الموالد معرضاً منتظماً ولا سوقاً عكاظية منتظمة ، ولكنها جميعاً لم تخل من جميع العناصر المتفرقة التى يتألف منها المعرض وتتألف منها السوق ، مع الإشراف الحسن والتنظيم المقصود ، والقدرة على وسائل التعاون بين الأقاليم وتيسير الاختيار الحسن لتمثيل القطر كله فى كل مولد من موالده الكبار .

فلم نفتقد فى مولد السيد عبد الرحيم رياضة واحدة من رياضات الفروسية والفتوة أو رياضات التسلية واللعب ، ولم يخل المولد فى أيامه ولياليه من ظاهرة مقصودة أو غير مقصودة تمثل للوارد عليه كل ما اشتمل عليه عرف الإقليم من عادة أو خلق أو « سبر » مقرر فى محافل الأفراح والأحزان ، ولا نظن أن معرضاً رياضيًّا من معارض القارات الأوربية والأمريكية يحتوى فى برامجه منظراً من مناظر الفروسية والفتوة أحق بالتمثيل والمشاهدة من منظر الفرسان المتصاولين على ظهور الخيل أو منظر المترجلين فى حلقة التحطيب . وهى أدل على البراعة فى استخدام السلاح اليدوى

من حلقات المسابقة ، لأن الحذر من التعرض لمساس السيف قد يرجع إلى الحذر الطبيعى قبل رجوعه إلى « الحذر الفنى » الذى يشاهد فى كل حركة من حركات التحطيب .

ويقترب المولد من الليلة الأخيرة فتكثر فيه الأسواق « العكاظية » مع هذه الأسواق الرياضية ، و يتقاطر عليه شعراء الربابة والأرغول ورواة القصص والملاحم ، ثم يختتم المولد بتلاوة القصائد فى مقصورة الضريح ، ينظمها شعراء المدينة وما حولها ويتطوع لإلقائها الشيخ الوقور الذى نذر نفسه لترتيل المدائح والمواعظ فى هذا المقام .

أما مولد الشيخ البسطامى فقد كان « القوالون » ينوبون فيه عن شعراء القصائد والتراتيل الفصحى ، وهؤلاء « القوالون » هم خلفاء الشعراء على عهد الجاهلية فى كل شىء غير النظم باللغة الفصحى ، لا يقصرون عنهم فى الحكمة ولا فى المثل السائر ولا فى الإعراب عن « روح الجماعة » كلما حدث حادث يعنيها أو نجم بينها سبب من أسباب الشكاية تترجم عنه بأناشيدها .

ويدور المولد كله على حلقات متباعدة يتردد الزوار عليها جميعاً أو يقبل كل منهم على ما يهواه منها . ولا تقام حلقة « القوالين » فى كل ليلة لاشتغال القوالين بأعمالهم فى القرية أو القرى التى تجاورها ، ولكنها إذا انعقدت بعد ليلة أو ليلتين جذبت إليها زوار الحلقات التى تدور على الرقص أو على المزمار أو على رواة الملاحم ، فلا تعود ليلتها إلى الانعقاد إلا بعد انفضاض حلقة « القول » وسكوت القوالين الحاضرين عن المساجلة .

وطريقة هذه المساجلة عندهم أن يتوسط أحدهم الحلقة واقفاً ويرتجل القول لمناسبة من المناسبات الحاضرة ، ويسمعه مناظره وهو جالس ينكت الأرض بعصاه إلى أن يميل القوال الواقف بالعصا إلى موضع جلوسه ، فينهض زميله إذن ويجيبه مرتجلا على وزن كلامه ، ثم يخلفهما قائلان آخران ولا تزيد أدوار المناظرة — إلا نادراً — على ثلاثة أدوار .

وحبذا القرار الذى استقرت عليه عزيمة نائب المجلس بمدينة المولد الأحمدى ، فإن هذه السنة وشيكة أن تسرى إلى كل مولد من موالد المدن الكبيرة والقرى الصغيرة ، وليس لتعميم الثقافة الشعبية وثقافة الفن والأدب على الإجمال وسيلة أيسر من هذه الوسيلة القريبة التى تهيأت لنا مادتها « الخامة » ولا تحتاج مادتها المصقولة إلى كبير كلفة ، غير اتجاه النية إليها وتوافر الهمة عليها .

تراث الإنسانية بخير وعافية *

كنا نود لبلدينا وسمينا الأستاذ « عباس الأسوانى » نصيباً من التوفيق فى النقد الموضوعى يزيد على نصيبه الذى خرج به من نقده لسلسلة « تراث الإنسانية » فى العدد الأخير من مجلة آخر ساعة .

ولكنه قد خانه الحظ فلم يسعده النقد الموضوعى العزيز بغير شطر واحد من شطريه ؟ وهو أنه اجتنب المساس بأشخاص المؤلفين والملخصين فى كلمته التى صاح بهم فى عنوانها قائلا : راجعوا ما تنشرونه يا سادة !

فلما التفت إلى الكتب المؤلفة أو الملخصة إذا به يغفل موضوعها كل الإغفال ويوجه إلى سلسلة تراث الإنسانية نقداً لا يخطر ببال أحد يضع موضوع السلسلة أمام عينيه .

يقول الأستاذ عباس الأسوانى : « ولا شك أن سلسلة تحمل هذا الاسم الضخم وتهدف إلى تحقيق هذه الغاية الخطيرة ويشرف على تحريرها نخبة من الأساتذة المشهود لهم بالكفاية لا بد أن تعتبر مرجعاً لا يجوز فيه الخطأ مهما كان يسيراً ، كما ينبغى أن تساق فيه — ولو بشكل موجز — كافة الآراء المتعارضة التى تتعلق بالأعلام أو بالكتب التى ألفوها وأن تراعى الدقة المطلقة فى سرد تفاصيل حياتهم ولا يختصر منها — أى من هذه التفاصيل — إلا ما كان عديم النفع للباحث فى التعرف عليهم . . . » .

هذه هى الشروط التى يتطلبها الأستاذ الأسوانى من سلسلة تراث الإنسانية فهل تراه يتطلبها من السلسلة وهو مستحضر لموضوعها ومواضيع مثيلاتها بين يديه ؟..

ما هو « أولا » موضوع السلسلة ومثيلاتها فى آداب العالم قبل تحقيق الجواب الصحيح عن هذا السؤال ؟

موضوعها إعطاء فكرة مجملة للقارئ العابر عن كل كتاب معدود بين أمهات الكتب الكبرى التى يجتمع منها تراث الإنسانية فى أبواب الثقافة المختلفة ومع هذه

---

* الأخبار ٩ / ١٠ / ١٩٦٣ .

الفكرة العامة إلمامة سريعة بترجمة المؤلف لا تزيد صفحاتها وصفحات الخلاصة الموجزة للكتاب على خمس عشرة إلى نحو عشرين صفحة بقطع السلسلة .

ومثال ذلك كتاب تاريخ الأمم والملوك للطبرى الذى تناوله الأستاذ الأسوانى بنقده فى السلسلة تعقيباً على تلخيص الأستاذ خليفة التونسى .

هذا الكتاب يقع فى (٣٣٠٠) ورقة من صفحاته التى طبع عليها ، أو يقع فيا يزيد على « ٦٠٠٠ » صفحة من قطع السلسلة ، وقد وردت أخبار مؤلفه فى عشرات الصفحات بين المراجع المتفرقة وأولها حوادث التاريخ .

فهل يتخيل الأستاذ الأسوانى أن هذه الألوف من الصفحات والأخبار تحتويها بجميع تفصيلاتها الدقيقة سبع عشرة صفحة من السلسلة ؟ وهل استطاع الطبرى نفسه وهو مؤلف الكتاب أن يلاحظ ذلك حين اختصر كتابه من ثلاثين ألف ورقة إلى ثلثمائة وثلاثة آلاف ؟

مثل آخر من أمثلة عرض الكتب المطولة فى السلسلة كتاب لسان العرب لابن منظور ، فهل يستطاع فى حيز السلسلة أن يحيط الملخص بتفصيلات حياة ابن منظور فى ناحية واحدة وهى ناحية المعجم ومواضع المقارنة المسهبة بينه وبين سائر المعجمات التى تقدمته ؟ وهل فى وسع الملخص أن يأتى بأكثر من عشرين كلمة على أقصى التقديرات نموذجاً لأسلوب ابن منظور فى شرح معانى الكلمات؟ وهل كلف الأستاذ الأسوانى نفسه أن يرجع إلى مجموعة أوربية كمجموعة السلسلة باللغة العربية ليعرف هنالك الخطة المتبعة فى هذه المجاميع كما تظهر عندنا وعند غيرنا بجميع اللغات ؟

إن حكم لارشفكول قد لخصت فى عشرات من سلاسل التراث الإنسانى باللغات الأوربية .

وأمامى أكبر هذه المجاميع باللغة الإنجليزية وهى مجموعة « كتب العالم الكبرى » The World Gret Book وقد وردت خلاصة الحكم على صفحاتها فى صفحة (٢٣٣٣) .

فإذا رجع إليها السيد الأسوانى لم يجد هنالك إشارة واحدة إلى مدام لافييت التى

أوجب على الأستاذ على أدهم أن يذكرها فى كلامه عن لاروشفكول .

وأكثر من ذلك أن ترجمة لارشفكول وردت فى هذه السلسلة مرتين : إحداهما فى صفحة (٢٣٣٣) والأخرى فى صفحة (٢٤٩٣) عند تقديم مذكراته وهى أولى بالإشارة إلى مدام لافييت لأنها ترجمة حياة وليست مجرد أقوال يكتبها لتجرى مجرى الأمثال على لسان كل قائل ، ولا يلزم أن يكون هذ القائل من ذوى المعرفة بمدام لافييت ، فلماذا أهملها المشرفون على سلسلة الكتب الكبرى فى ترجمتين لا فى ترجمة واحدة ؟ وكيف تتسع المجلدات لعرض ملايين الصفحات إذا وجب أن تستقصى جميع هذه التفصيلات ؟

بل أكثر من ذلك وذاك أن معجم الأدب الفرنسى باللغة الإنجليزية الذى اشترك فى تأليفه نخبة المتفرغين لدراسة هذا الأدب باسم: Dictionary of F. Literure قد كتب عن صاحب الحكم واعتمد فى تلخيص ترجمته على أربعة مراجع غير مجموعة الحكم والمذكرات ، فلم يعرض لسيرة لافييت بكثير ولا قليل .

* * *

ونحب أن نقول لبلدينا الأسوانى وسمينا عباس إن التعجل ينقد أديب محقق واسع العلم بأمهات التراث الإنسانى كالأستاذ على أدهم غير مأمون العثار .

ولهذا عثر السيد الأسوانى عثرة « مليحة » حين أقدم على نقده فى ترجمة بعض الكلمات فقال بنص عبارته :

قد لاحظنا أن ترجمة الأستاذ على أدهم لبعض هذه الحكم لم تكن دقيقة للأسف على أهمية الترجمة الدقيقة بالنسبة لهذه الحكم بالذات التى اختار لارشفكول كلماتها بعناية فائقة . . . ومن ذلك أن الأستاذ أدهم ترجم كلمة Maux إلى كلمة متاعب مع أن ترجمتها الدقيقة هى الشرور أو الرذائل ، وذلك فى الحكمة التى تقول : فينا من الحكمة ما يكفى لاحتمال شرور الغير . . . ولا يصح أن يقال إن كلمة متاعب تشمل الشرور والرذائل فإنها كما تشملها تتسع لما هو أهون منها إلى أن تصل إلى عادى المضايقات التى لو كان يقصدها لارشفكول لأصبحت حكمته لغواً . . » .

والواضح عندنا من حكمة لارشفكول أنها تصبح لغواً لو أنه أراد الشرور

والرذائل . . فإن الشرير والمرذول لا يحتاجان إلى صبر على احتمال ما فيهما من شر ورذيلة ، بل يجوز أن يلتذ كل منهما ما هو منغمس فيه من الشهوات والمطامع والسيئات ولا يستغيث من ثقل أعبائه .

أما الأمر الذى يحتاج إلى احتمال من صاحبه فهو المتاعب والمقلقات والمضايقات ما كبر منها وما صغر على حسب الطاقة والأذى .

وها هنا نستطيع أن نفهم معنى لحكمة لارشفكول ، فلا تصبح لغواً بغير معنى ! .. لأنه يتهكم بدعوى الحكمة عند الناس حين يلومون غيرهم على القلق والانزعاج ويحسبون أنهم يصبرون على متاعبهم ومقلقاتهم لو أصيبوا بمثلها ، وهم كما نقول فى أمثالنا : « كل من على البر عوام » . . . أو هم كما كان النازيون يقولون متهكمين بحماسة الإنجليز فى الحرب العالمية : « إننا نثابر على القتال إلى آخر جندى فرنسى » . . . أى إن ضحايا الآخرين سهلة الاحتمال ، ولكن الناس لا يملكون مثل هذه الحكمة ولا مثل هذا الصبر إذا كانوا هم المصابين بالبلاء .

وليس من اللازم أن يبرع الإنسان فى فهم دقائق اللغة الفرنسية ليفهم المقصود بقول القائل Mal La Tete سواء كان ألماً أو مجرد وجع دماغ كما يقال .

ولقد كان من الحق أن نلفت الأستاذ الناقد إلى أخطائه العربية لو جرينا على طريقته فى إحصاء المآخذ على الآخرين ، وهى فى نحو عمود واحد لا تقل عن عشرة أخطاء ، ولكننا نقنع بالاستعارة منه قائلين وهو ينصح لنا قائلا : « راجعوا ما تنشرونه يا سادة . . » فنقول له : « راجع يا سيد ما تطلب فيه المراجعة من الناس » . . . ولو أنه فعل لكلف نفسه أن يفتح صفحة من مجموعة كمجموعة السلسلة باللغات الأوربية ، فيعلم أنها مقصودة فى كل لغة لكى تنوب عن الفهرس الواسع الذى تعده بعض المكتبات للتعريف بمحتويات كتبها ، ولا نزيد على هذا القدر — بأية حال — إلى درجة الإحصاء والاستقصاء الذى لا يفوته جليل ولا دقيق من التفصيلات .

* * *

« . . . أرجو أن تتكرموا بتوضيح أصل كلمة (ميت) التى كثيراً ما نطالعها فى أسماء المدن والقرى مثل ميت غمر وميت يعيش وميت علوان ، وهكذا .

« وأرجو أن يكون إيضاحكم . . . على صفحات الأخبار فى يومياتكم »

دكتور شرارة

مستشار مؤسسة أوريان — إسكندرية

. . والمتفق عليه بين العارفين باللغة القبطية أن كلمة « ميت » هى كلمة منية بعينها ، ولهذا يقال منية — المرشد — مثلا — كما يقال ميت المرشد، أو يقال منية سمنود كما يقال ميت سمنود إلخ .

وترجع الكلمة القبطية إلى كلمة « مون » أو « مين » الفرعونية بمعنى بلدة ، وقد خلفتها — بعد الفتح العربى — كلمة منزلة أو محلة « كمحلة روح » ومحلة قيس ومحلة مالك ومحلة أبى الهيثم « والمحلة الكبرى » وغيرها من البلدان التى حلت فيها العشائر الوافدة مع الجيش العربى لما يلاحظ من اختلاف المكان بين الحل والترحل فى حركات هذه العشائر قبل الاستقرار فى القرى والحواضر .

* * *

« . . . ماذا يعنى النقاد بوصفهم هذا الكاتب أو الأديب بأنه متصوف ؟ وهل هناك سمات معينة يتميز بها المتصوف من الكتاب والأدباء ، وما هى ؟ »

مكين عبد الحميد بتجارة القاهرة

إذا كان التصوف الذي ينسب إليه الأديب مذهباً من مذاهب العبادة بين أصحاب الطرق الصوفية أو أصحاب الآراء الدينية فلا التباس فيه ، لأنه ينصرف إلى معناه الذى لا يجاوز حدود العقائد والشعائر أو حدود المسالك النسكية التى يسلكها الزهاد والحكماء الدينيون .

ولكن النقاد لا يقصدون فى الغالب إلى هذا المعنى حين يتكلمون عن موضوعات الأدب وأساليب الكتابة ، وإنما يقصدون إلى التمييز بين الكاتب الذى لا خفاء بأقواله وآرائه وموضوعات وصفه وتفكيره ، وبين الكاتب الذى يبدو بعض معناه ويحس القارئ أن وراء كلامه الظاهر معنى آخر يحتاج إلى التفسير ويحتمل اختلاف العقول فى إدراكه وتوجيه مرماه ، ولا يطلق هذا الوصف على الكتاب الذين يقصرون تفكيرهم على القيم السطحية ولا يؤمنون بالأسرار وراء المظاهر والمحسوسات ، فإن

الناقد لا يصف الكاتب من هؤلاء بالتصوف ولو كان أسلوبه فى عرض أفكاره قليل الوضوح من الوجهة اللغوية .

وقد يقال عن الشاعر إنه غامض معقد التركيب فى بعض أبياته ، ولا يقال عنه مع هذا إنه شاعر متصوف ، فإن أبياتاً كثيرة من شعر المتنبى تحتاج إلى شرح لغوى تختلف عليه الآراء ، ولكنه لا يوصف بالتصوف لأنه ينهج منهج الحكمة العملية التى يزاولها الناس فى تجاربهم اليومية ، وقد يغوص على الحقائق العميقة التى لا يلمحها الناظر لأول نظرة ، ولكنها بعد ذلك قابلة لأن يلمحها من يشاء متى التفت إليها .

وقد يقال — أحياناً — عن شاعر يصف المحسوسات وينظم فى الخمر والغزل إنه متصوف كما قيل فى كثير مما كتب عمر الخيام ، لأن كلامه فى الخمر والغزل مصحوب ببحث عن مشكلات الحياة ومعنى الوجود ومصير الإنسان فى دنياه ، وكأنما هو قد خرج من أعماق تفكيره فى هذه الخفايا ليتعوض منها بلذات الحس ويشتغل بحاضره عن مجاهل المستقبل الذى يقصر به التفكير عن الوصول إلى مداه .

وينظم شاعر آخر كأبى نواس فى مثل هذه الأغراض من معاقرة الخمر والتشبيب الصريح أو المستور بالمعشوق ، فلا يخطر لناقد أن يسميه متصوفاً ولو تطرق فى بعض شعره إلى التوسل والاستغفار أو إلى ذكر العبادات والأسرار .

ولا بد فى « التصوف » كيفما كان موضوعه أن يوحى إلى القارئ بمعنى من وراء حجاب الحس كأنه الظلال التى تقترن بالأنوار ، ولو فى وضح النهار .

شروط الكتابة *

يقول القلقشندى إن الذكورة شرط لمن يتصدى للكتابة ، وأحسب أنكم تناصرون هذا القول لموافقته لرأيكم فى كفاءة المرأة بوجه عام ، فهل لى أن أسأل عن هذا الشرط بالنسبة لأديبة من أديبات العصر النابغات كالآنسة « مى زيادة » ومن يضارعها . . ؟

ماهر محمود البقرى
آداب الإسكندرية

أيًّا كان الكلام الذى قاله القلقشندى فى شروط الكتابة ، فينبغى أن نذكر هنا أن الكتابة — كما تشترط فى دواوين الإنشاء — هى صناعة غير صناعة التأليف وتحرير المقالات والفصول .

إن الكتابة هنا صناعة كصناعة الوزارة يشترط فيها كل ما كان مشترطاً فى الوزير المسئول عن الإدارة العامة أو عن ديوان الخليفة والأمير . وقد كانت الكتابة مساوية للوزارة بهذا المعنى فى أمم كثيرة شرقية أو غربية ، ويسمى الوزير الإنجليزى إلى اليوم بالسكرتير أو سكرتير الدولة عن الديوان الذى يتولاه .

فإذا كان الكلام عن صناعة الكتابة بمعنى التأليف والتحرير فليس شرط الذكورة لازماً لهذه الصناعة فى رأى القلقشندى ولا فى رأى غيره من أدبائنا المتقدمين والمتأخرين ، وقد كانت بنات البيوت يتعلمن الكتابة والقراءة ويحفظن الأشعار والأخبار ويروين ما يرويه ظرفاء المجالس من الطرف والأمثال وملح الحديث والفكاهة ، ولم يكن تعليم الكتابة والقراءة محظوراً على البنات بغير حكم العادة والتقليد فى عصور الجمود ، فقد أوجبه الدين إذ جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وأوجبه العرف المثقف على الذين يحتكمون إلى الذوق السليم فى مسائل التربية كما يحتكمون إلى الدين .

ونبوغ الآنسة « مى زيادة » ونظيراتها فى كتابتهن دليل على استعداد المرأة للإجادة فى أبواب من التأليف والتحرير يقرؤها الرجال كما تقرؤها النساء ، وقد

* الأخبار ١٩٦١/٦/٢١ .

ذكرنا غير مرة أن المرأة برعت فى فنون من القصة والمقالة الوصفية كما برعت فى فنون التمثيل والغناء ، وليس من المشترط على كل كاتبة أن ترتفع إلى القمة العليا فى بابها أو فى أبواب الكتابة على اختلافها ، فإذا أحسنت فناً من الفنون الأدبية فحقها كحق كل كاتب يحسنه ولو لم يرتفع إلى القمة العليا التى يعد المرتفعون إليها بالآحاد بين أصحاب كل صناعة ، فإننا نحرم الصناعات جميعاً على الصناع من الذكور والإناث إذا اشترطنا فيها التفوق على الآخرين ! . . ومن هم الآخرون — إذن — ما دام التخلف عن القمة العليا محرماً على طالب الكتابة منذ البداية ؟

على أن الكاتبات المحسنات باللغة العربية أكثر عدداً من المسيئات منهن إلى صناعة الكتابة . . وربما كان لقلة العدد مع حداثة العهد شأنها فى هذا الحساب لكنه على أية حال شأن يذكر للمرأة إذا وضعت للكتابة شروطها وفتح لها فى العصر الحاضر ديوان غير ديوان القلقشندى فى صبح أعشاه .

* * *

الانتحار :

تغيرت نظرات الناس فى بلادنا إلى الانتحار فى الجيلين الأخيرين . وقد كان الانتحار — كما لا يخفى — آفة قديمة عرفها الأقدمون قبل أيام هذه الحضارة الأوربية، ولكنهم فوجئوا بأخباره فى الصحف بعد ظهور الصحافة عندنا فكانت لهم فيه آراء طارئة غير متأثرة بالتقاليد الموروثة فى القصور الخالية .

نظروا إليه « أولا » كأنه ضرب من الشجاعة لأنه إقدام على الموت .

ونظروا إليه بعد ذلك نظرة أصح وأسلم من هذه النظرة ، فأخذوا بأقوال الناصحين والوعاظ أنه ضرب من الجبن لأنه هرب من معركة الحياة .

ونظروا إليه كأنه نوع من الاحتجاج والتحدى ، وكأنه نوع من الخجل والاعتذار ولم تخل إحدى هذه النظرات من شعور الاستخفاف بالحياة وبالوازع الذى ينهى عن الانتحار ، لأن هذا الشعور لا ينفصل عن عمل يائس يسوق صاحبه إلى قلة الاكتراث بحياته وقلة الاكتراث بما ينهاه عن العدوان عليها .

ولسنا نعتقد أن الناشئة المساكين الذين تساورهم هذه الفكرة أحسن ظناً بالمنتحر من أندادهم قبل عشرين أو ثلاثين سنة ، ولكننا نحتاج إلى معلومات كثيرة لتقدير

هذه الحالة النفسية بين الجيلين ، ونحس أن هذه المعلومات ناقصة فى سجلاتنا الاجتماعية بالقياس إلى أمثالها فى الأمم الأوربية والأمريكية ، فلا ندرى من أى فريق من أصحاب الأمزجة المختلفة يكون الناشىء الذى تغلبه هذه الآفة بين زملائه المتغلبين عليها !

هل هو من المجتهدين ؟

هل هو من المتدينين ؟

هل له تربية عريقة فى عرف العائلات ؟

هل هو من المعرضين للأمراض العصابية ؟

وهل لمتاعب البيت فى أسرته علاقة بأزماته النفسية ؟

إن الإحصاءات فى الأمم الأوربية والأمريكية تعنى بجميع هذه التفصيلات وقد تعين على البحث فى أسباب الوقاية التى تخص المعرضين لهذه الآفة أو تعم المجتمع كله فى أزماته النفسية وعوارضه الباطنة وهى متشابهة متشابكة بين أبناء الحضارة الحديثة .

ونحسب أن نظام الامتحان الذى يجرى به العمل الآن قد أراح الطلبة من كثير من عوائق الإعادة وبواعث القنوط والإشفاق من ضياع الفرصة فى أوانها ، ولا نكاد نرى بقية من التعديل تخفف من هذا النظام فوق ما تلاحق عليه من تعديلات السنين الماضية ، إلا إذا صح قول القائلين أن موسم الشتاء أرفق بأعصاب الطلبة الممتحنين من موسم الصيف ، وأن تغيير هذا الموسم أمر مستطاع لا ضير فيه على مناهج التدريس ولا على الدارسين والمدرسين .

ولكن نظم الامتحانات والتصحيحات مهما يكن من أثرها فى التخفيف والتهوين لا تغنى آخر الأمر عن التعبئة الأخلاقية فى كل شدة وكل حرج : تعبئة أخلاقية تزود الناشئين بعزيمة تثبت لكل محنة وطاقة على خلق الأمل لاتتعلق بنجاح واحد ولا تعيش على أمنية واحدة ، بل تخلق لنفسها النجاح الذى هى قادرة عليه والبديل الذى يعوضها من كل مفقود ، وليس بالعسير توليد هذه الطاقة فى نفوس الناشئين بعد ذهاب الزمن الذى كان يقدس « الوظيفة » ويقدس معها علامة « الميرى » فوق كل بضاعة : وبضاعات القلوب والنفوس قبل بضاعات الدكاكين والدواوين .

كتاب منكوب*

« قرأت مقالا بتوقيع ابن زيدون يقول كاتبه إن أحد الناشرين طلب إلى العقاد أن يؤلف كتاباً عن الأدب العربي فى مطلع القرن العشرين نظير مائة جنيه ، فلما أتم العقاد الكتاب ذهب به إلى الناشر وجلس قليلا يشرب القهوة ريثما يأتى الناشر بالمبلغ ولكنه أتى بتسعين فقط واعتذر للعقاد بضيق الحال . فنهره العقاد بشدة لأنه يعلم أنه كاذب وانتزع منه الكتاب المخطوط فمزقه شر ممزق وأشعل النار فى أشلائه . . فضاع إلى الأبد . .

« وفى إحدى الندوات الخاصة دارت مناقشة حامية فانقسم الحاضرون بين فريق يقول إن الذى فعله العقاد دليل على تمسكه بالمال وحرصه عليه ، وفريق يعتبر أنه توكيد لما عرف عنكم من اعتزاز بالكلمة وحرص على الكرامة . . . أما أنا – يا سيدى – فلا أكاد أصدق هذه الواقعة وأرى فيها تحريفاً غير مقصود ، أو لعله مقصود ولا ندرى . . . وأكون شاكراً لو وضحتم لنا هذا الأمر فى اليوميات» .

محمد محمد مرشدى بركات
كلية الآداب – جامعة عين شمس

إذا كان لقصة هذا الكتاب فائدة غير تصحيح الخبر فتلك هى فائدتها فى دراسة تاريخ الأسطورة لأنها هى بذاتها مثال جيد لنشأة الأسطورة فى الزمن الحاضر ونشأتها ، من ثم ، فى الأزمنة الماضية .

إن الأساطير جميعاً خليط من الخبر الصحيح والمبالغة الزائدة ، وخليط من الواقع الثابت والخيال الجامح ، وخليط من عمل الفكر وعمل العاطفة وعمل الذاكرة وعمل الخرافة !

وهذه هى الأسطورة فى خبر الكتاب المحرق على رواية ابن زيدون .

أما « الأصل » المجرد من الزوائد والأخلاط والمبالغات فهذه خلاصته فى سطور .

* الأخبار ٢٢ / ١١ / ١٩٦١ .

ذهبت إلى أسوان قبيل الحرب العالمية الأولى فأزمعت بعد بضعة أسابيع من الفراغ المطلق أن أشغل هذا الفراغ بقراءة الكتب وتدوين المؤثرات التى أحسستها أثناء قراءتها كتاباً بعد كتاب وساعة بعد ساعة وتم عندى من كتابة هذه المؤثرات نحو ثلثمائة صفحة تصلح للنشر على حدة ، أى مستقلة عن الكتب التى علقت عليها بعد قراءتها .

وأرسلت هذه الصفحات إلى صديقى الأستاذ المازنى بالقاهرة ليعهد إلى أحد الناشرين فى طبعها ، فجاءنى منه الرد بعد حين بما فحواه أن الناشر الوحيد الذى قبل أن يطبعها يريد أن يشتريها بخمسة عشر جنيهاً وعدد من النسخ المطبوعة بعد صدورها ، ولا ينوى أن يشرع فى طبعها قبل بضعة شهور .

ولا أذكر أننى شعرت بغضب فى تلك اللحظة ، إذا كان المقصود بالغضب ثورة الشعور فى هياج واضطراب ، ولكننى أخذت رزمة الصحائف المخطوطة ومشيت بها إلى ناحية الفرن بالمنزل ، وألقيتها بين نيرانه المتوقدة ممزقة مبعثرة ، وأنا أقول للسيدة الوالدة التى كانت تعاتبنى دائماً على إدمان النظر فى (الورق) بغير فائدة : هكذا يؤكل العيش من طريق التأليف !

وبعد أسابيع أخرى عدت إلى التجربة من جديد ونويت فى هذه المرة أن أطبع الكتاب لحسابى إذا تم من الصفحات ما يكفى لطبع كتاب ، ثم عدت بالصفحات إلى القاهرة وطبعت منها خمس ملازم حان بعدها موعد العودة إلى البلدة ، فأسلمت الملازم المطبوعة إلى صاحب مكتبة بجوار المسجد الحسينى كان قد اطلع على الملازم فى المطبعة لأنه يطبع فيها بعض كتبه ، وأبدى لى رغبته فى موالاة طبع الملازم الباقية على نفقته وتسليمى خمسمائة نسخة من الكتاب كله . على ما أذكر ، بعد الفراغ من طبعه ، بدلا من حق التأليف .

وانتظرت أياماً فى أسوان فلم تصل إلى مسودة الملزمة السادسة للمراجعة ، فأرسلت إلى صاحب المكتبة الخطاب بعد الخطاب ولا جواب ، ثم علمت أنه أغلق المكتبة بعد توقيع الحجز عليها وبيع ما فيها ، وسافر إلى بلده بإقليم الفيوم .

وعاد الصيف فعدت إلى القاهرة وجلست ذات مساء على مقهى عند العتبة الخضراء على مدخل السكة الجديدة ، فسمعت بائع كتب ينادى فيما ينادى عليه

على كتاب «ساعات بين الكتب» للعقاد وهو اسم ذلك الكتاب الذى اخترته له لأنه مطابق لموضوعه ، وموضوعه كما تقدم هو تدوين آثار الكتب فى نفسى وتفكيرى ساعة بعد ساعة !

وكان أول ما خطر لى أن الرجل أتم طبع الكتاب من الأصول التى تركتها عنده ، فحمدت الله وناديت البائع وطلبته منه فإذا هو الملازم الخمس ولا زيادة عليها ، فعجبت لهذا الكتاب المنكوب ولم أعاود التجربة مرة أخرى ، ولكنى ضمنت الملازم الخمس أول مجموعة من مجاميع المقالات نشرتها باسم الفصول .

أما كتاب «ساعات بين الكتب» الذى ظهر بعد ذلك فهو غير هذا الكتاب فى طريقته وإن كان شبيهاً به فى موضوعه ، لأنه يحتوى مقالات فى نقد الكتب ومناقشتها نشرتها بالصحف اليومية أو الأسبوعية التى كنت أعمل فى تحريرها !

هذه هى القصة وتلك هى الأسطورة ، والفرق بينهما هو الفرق بين كل أسطورة قديمة وخبرها الصحيح .

الصحافة بين أسلوبين*

أسلوب التنوير . . وأسلوب التسلية

فى كل مجال من مجالات الحياة العامة ثورة على وظيفة الناقد حيثما كان ، ولا سيما وظيفة الناقد فى عالم الآداب ، وعالم الفنون .

ولا تهمنا هنا وظيفة الناقد فى مجالاتها الكثيرة التى تحيط بالشئون العامة ، فإن لها موضعاً غير هذا الموضع ، أو مناسبة غير هذه المناسبة !

ولكننا نعنى « الناقد الأدبى » حين نعرض لوظائف النقد فى جملتها ، ونلاحظ (أولا) أن « الحالة واحدة » عندنا نحن الشرقيين وعندهم أولئك الغربيين ، من أوروبيين وأمريكيين . . !

فنى كل مكان يذكر فيه النقد الأدبى يوجد اليوم من يسأل : من هو الناقد ؟ وكيف يؤدى وظيفته ؟ وهل هناك نقاد يؤدون وظيفتهم ؟ وهل عند هؤلاء النقاد ما يحتاج إليه الناقد من الأمانة والكفاية ؟

فى عدد هذا الشهر من مجلة « انكاونتر » الإنجليزية سأل سائل : لماذا يعرض بعض القراء اليوم عن آراء سيريل كونولى ؟

والسائل هو « أدموند ويلسون » وناهيك به عن ناقد « عالمى » يرشحه الكثيرون للزعامة العالمية — الغربية — فى النقد الأدبى ، وأحسبه أوسع النقاد ثقافة بين كتاب اللغة الإنجليزية الأحياء .

والمسئول عنه — سيريل كونولى — هو الناقد المختار زمناً طويلا لمجلة الأوبزرفر ومجلة « نيوستيتسمان » وهو صاحب مجلة الأفق Horizon التى تنسب إليها أحياناً دعوة الأفق المفقود كما تنسب إليها أحياناً دعوة الأفق الطالع ، بمعنى أفق العالم الجديد ، وهو زميل جورج أورويل وجراهام جرين ، وكلاهما فى الذروة من المكانة الأدبية بين الكتاب المعاصرين ، ولعله أنبغ النقاد من مواليد القرن العشرين .

---

* الأخبار ٢٥ / ١١ / ١٩٦١ .

قال الكاتب المسئول — جون وين — إنه ليس على يقين من إعراض القراء عن آراء « كونولى » وأدى بذلك واجب المجاملة لزميله الكبير ، قبل أن يستطرد إلى إجابة سؤال ادموند ويلسون على اعتباره سؤالا يستحق البحث فيه : لأنه سؤال رجل يزن ما يقول ».

وعند كاتب المجلة التى نشر فيها الموضوع أن كولونى هو الذى يجنى على سمعته ، لأنه يكرر ويعيد أنه اشتغل بالنقد بعد إخفاقه فى محاولاته الأدبية الأخرى ، ومنها نظم الشعر وكتابة المقال المنثور .

فالناقد لا تتم له وظيفة النقد لمجرد كونه شاعراً مخفقاً أو كاتباً مقصراً عن منزلة الإجادة والإبداع ، ولن يكون الإنسان ناقداً لأنه ليس بشاعر ولا كاتب ، ولكنه يحتاج إلى « ملكة إيجابية » ترشحه للنقد كما يحتاج الشاعر إلى ملكة الخلق الشعرى ، ويحتاج الكاتب إلى ملكة القدرة الكتابية .

قال كاتب المجلة بعد ذلك إن سبباً آخر من أسباب « هز الكتفين » لآراء كونولى أنه يستمتع بالرواج بين الطوائف التى لا تنظر إلى المطالعة نظرة جدية ولا تصبر على التفكير فيما تطلع عليه ، فإن رواجه بين هؤلاء يسلبه ثقة القراء الذين يفكرون ويراجعون أنفسهم فيما قرءوه .

واتفق قبل نهاية الأسبوع الذى ظهر فيه عدد المجلة أن صدر ملحق « التيمس » الأدبى وفى صدره مقال للشاعر الناقد « إليوت » يحيى به أستاذ النقاد الإنجليز فى العصر الحاضر — ليتلتون ريشموند — لمناسبة بلوغه الثمانين ، ويعيد إلى الأذهان دروس هذا الأستاذ القدير لتلاميذه الناشئين على يديه ، ويفرق فى مقاله بين مدرسة النقاد الذين يكتبون لملحق « التيمس » الأدبى ومدرسة النقاد فى مجلة الأوبزرفر والاستيتسمان وغيرهما من المجلات الأسبوعية التى تعنى بالمسائل الأدبية ، ويعتقد « إليوت » أن كتابة المقالات النقدية بغير توقيع كما تنشر فى التيمس لها شأن كبير بجوهر النقد وطريقته وأسلوبه ، لأن الكاتب ينسى وجهته الشخصية ويتحرى وجهة المبادئ العامة حين يكتب بغير توقيعه المعروف ، ولكنه يسمح لنفسه بتمثيل رأيه ومزاجه وعلاقاته الخاصة حين يكتب ما يكتب على تبعته وفاقاً للمعروف من مبادئه ، وقد تكون مبادئ مدرسة خاصة أو ناقد خاص بين جمهرة النقاد .

ويتفق أيضاً أن هذه الآراء تنشر فى وقت يعتبرونه هناك من أوقات الأزمات الصحفية لاحتجاب بعض الصحف واضطرار غيرها إلى الاندماج أو توحيد العنوان .

ويكتب النقاد فى تعليل هذه الأزمة فيقولون إنها ظاهرة من ظواهر الانتقال والتحول بين أسلوب الصحافة قبل خمسين سنة وأسلوبها بعد الحربين العالميتين ، ومنهم من يلخص الفارق بين الأسلوبين بأنه هو الفارق بين أسلوب « التنوير » وأسلوب « حديث المائدة » أو حديث السمر والتسلية ، فإن القارئ قبل خمسين سنة كان يقرأ الصحيفة وينتظر منها « تنويره » وإمداده بالمعلومات التى تعينه على تكوين رأيه ، ولكنه يقرأ الصحيفة اليوم ولا يرى للصحفيين حقاً فى تنويره أو تعليمه شيئاً يجهله ، وكل ما ينتظره من الصحيفة أن تحدثه كما يتحدث حول المائدة أو كما يتحدث مع ناقل الخبر وراوى القصة المسلية ، وقلما ينتظر منها الفائدة أو الرأى المسموع .

ونحسب أن الناس لا يختلفون هذا الاختلاف فى وظيفة الناقد والكاتب أو فى وظيفة الصحيفة الأدبية والخبرية إلا لأنهم يختلفون قبل ذلك فى وظيفة « القارئ » وفى الغرض من القراءة كلها قبل كل شىء ؟ .

فهل من جديد طارئ على عالم القراءة أو عالم القراء ؟

لا جديد فيما نعتقد غير شىء واحد لا يعطى حقه من الالتفات عند التحدث عن النقد والكتابة فى العصر الأخير .

وذلك الشىء الواحد هو الطوائف الجاهلة أو الطوائف الأمية والشبيهة بالأمية التى دخلت إلى عالم القراءة ، وخلطت بين حرية الرأى وبين القدرة على تكوين الآراء والحكم على حقائق الأمور فى الحياة العامة .

هذه الطوائف تريد من القراءة ما تقدر عليه ولا تطلب شيئاً فوق ذلك لأنها تظن أن المساواة فى حرية الرأى معناها أن الجاهل يساوى العارف فى القدرة على تكوين الآراء والحكم عليها .

وتلك غاشية تجرى إلى مجراها ولابد أن تنتهى إلى منتهاها ، ولا نخالها تنتهى قبل

أن يزول هذا الجهل وهذا الغرور ، وقبل أن تصبح حرية الرأى مساوية للقدرة على فهم الرأى وتكوينه .

وسيتم هذا كله إن شاء الله حين يتم التعليم ويصبح التعليم « تثقيفاً » يرتفع بصاحبه من الأمية والمشابهة للأمية ، ويجعله يطلب الرأى من غيره ولو كان هو نفسه من أصحاب الآراء ، لأن صاحب الرأى يفهم قبل كل شيء مقدار الاتساع والتعدد فى جوانب الأمور ومذاهب التفكير ، فينتظر النقد وينتظر الحجة المقنعة ويملك الحجة التى يعارضها بها أو يؤيدها ، ثم يخلق المتخصصين لهذه الوظيفة كما يخلق المجتمع المنتظم ديوان المحاسبة ، ولا يمترى المجتمع فى وظيفة ديوان المحاسبة إلا كان هذا الامتراء علامة الإفلاس ، لا علامة الاستغناء ، فلا غناء عن الحساب حيث يوجد ما يستحق الحساب .

سلام فى كل عام .. وفى مقبل الأعوام .. *

بدأنا بحمد الله ، وعلى بركة الله .

سنة جديدة فى مجرى السنين والدهور .

وآية جديدة من آيات هذا العقل الإنسانى الذى يخلق معالم الزمن بيديه ، ثم يحيلها على أفلاك السماء أو على مسالك الأرض ، كلما ضاقت بها مطالعها ومغاربها فى ذلك الفلك الرحيب .

أين هى نهاية السنة الراحلة فى عالم البروج وآفاق الكواكب والنجوم ؟

أين هى بداية السنة المقبلة فى تلك العوالم التى لا تعرف بينها موقع البداية من موقع النهاية ؟

لا أثر ولا علامة .

موضع الثلاث والستين كموضع الأربع والستين ، بعد الألف الأول ، وبعد الألوف التى لا تحصى .

والألف الأول فى أى ترتيب من مراحل الدهور يقع له موقعه الأول !

لا موقف هنالك ولا مسلك ولا مدار ، ولا عدوة هنالك ولا ملجأ ولا جوار .

وإنما هو عقل الإنسان ، فى كل زمان وفى كل مكان ، وفى كل أفق من آفاق السموات ، وفى كل طبقة من طباق الأرضين .

عقل الإنسان هو الذى يخلق معالم التاريخ ، وعقل الإنسان هو الذى يرسم فى دارة الفلك أوائل السنين ومراحل الدهور .

عقل الإنسان هو الذى يرسم خرائط الفلك ويقسم الخريطة الجغرافية ، ويضع حدوده على تلك الخريطة حيث لا تحدها الجبال ولا البحار ولا تصدها الصحارى ولا القفار ، بل يدخلها العقل فى حدوده ويوقعها فى مواقعه ، ويقول للصحراء هنا تدخلين وهناك تخرجين ، حيثما ارتسمت لك جهاتى الأربع إلى اليسار واليمين .

---

* الأخبار ١ / ١ / ١٩٦٤ .

عقل الإنسان هو البيئة التي ترسم للفضاء مواقعه وتقسم على سطح الأرض مسالكه وموانعه .

عقل الإنسان هو الذي يفعل فعله بالتراب والهواء ، وليس هو الآلة الصماء بين دروب الثرى أو بين مهاب الرياح .

وإن يكن آلة بينها — كما شاء عبيد المادة الصماء ، فما هو مثلها بالآلة الصماء .

وفي عقل الإنسان ، لا في معالم الأرض ولا في بروج السماء ، ترتسم البداية لهذه السنة الجديدة .

وفي عقله هو — إن شاء — هي سعيدة أو غير سعيدة . .

إن كان سلام في عقل الإنسان ففي كل مكان سلام .

وإن يكن في هذا المكان حرب ، أو في ذلك المكان خراب ، فما هي بالحرب ولا هو بالخراب أو ينتقل في الخفاء إلى عقل إنسان ، أو إلى عقول جميع الناس .

ولم تتغير الأرضون ولا تبدلت السموات بين بشائر السلم ونذر القتال ، وما يتقاتل حجر وحجر ، ولا جبل وجبل ، ولا سلاح وسلاح ، وإنما يتقاتل بها عقل إنسان وعقل إنسان .

قضاؤك منك وما تقدر ودواؤك فيك وما تشعر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ولعلها مقبلة بالخير والسلام ، هذه السنة التي ترتسم اليوم على صفحة الأيام .

ولعله مقبل بها على السلم والأمان ، ذلك الإنسان الذي يرسم الأوائل والأواخر ، في تقاويم السنين ومعارج الأكوان .

ولعله متغير في غده بإذن الله ، ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ..
صدق الله فيما قضاه . .
وعلى بركة الله !

* * *

وللنطق حقه الأول من التقديم عند (الإنسان الناطق) فى مطلع السنة الجديدة .

وهذه أسئلة فى اللغة وفى اسم الإنسان الأول من طائفة متفرقة من أصدقائنا القراء ، لا نرى موضعاً أوفق للإجابة عنها من هذا الموضع فى الحديث عن (أول) السنة وعن عقل الإنسان الذى يصنع التاريخ ويدين بالمنطق ، كما يدان .

يقول السيد (بحر عبد الرحمن المغربى) إننا ذكرنا فى كتابنا (اللغة الشاعرة) أننا لا نعرف لغة تفيض بأسماء الأوقات والأزمنة والفصول ، كما تفيض بها اللغة العربية ، فهل لاسم (السنة) فيها مادة أصيلة ؟ وكيف اشتقت منه كلمة (السنة) للدلالة على معناها ؟

ثم يستطرد إلى السؤال عن اسم آدم واسم حواء من أين جاء هذا وذاك ؟ وهل معنى التسمية بهما أن اللغة العربية وجدت منذ وجود الرجل الأول والمرأة الأولى على الأرض ؟

والذى نرجحه عن المادة التى يرجع إليها اسم السنة أنها هى مادة (السن) التى كان العرب يميزون بها أعمار الإنسان حسب أدوار حياته ، فهم يقولون « أسن الطفل » أى نبتت له (سن) ثم يصفون الشيخ بأنه (مسن) بمعنى ارتفاع سنه أو بمعنى فقد أسنانه ، كما يقولون أحياناً عن الناهل إنه العطشان ، مع أن المنهل هو مورد الماء .

ومن استخدام السن لأدوار العمر تستعار للمدة من العمر على أرجح الأقوال .

ولا توجد لغة من اللغات ، فيما نعلم ، تدل فيها كلمة السنة على معناها الفلكى ابتداء من غير استعارة قريبة أو بعيدة من مادة أخرى ، فكلمة (يير) year مثلا تنحدر من كلمة قديمة بمعنى الموسم ، ومثلها كثير من الكلمات فى أصول اللغات الأوربية .

أما اللغة العربية فقد تمتاز على سائر اللغات بكلمات ثلاث يمكن أن تستخدم لمعانى السنة المختلفة وهى السنة الفلكية ، والسنة من الموعد إلى الموعد ، والسنة التى تتم بها الفصول على اختلاف ترتيب الشهور .

فالمدة التى تبتدئ من أول يناير وتنتهى فى آخر ديسمبر يقال لها (سنة) فى الاصطلاح المتفق عليه .

والمدة من يوم فى سنة ١٩٦٤ إلى يوم مثله فى سنة ١٩٦٥ تسمى بالحول ، ويطلق العام على كل اثنى عشر شهراً كيفما كان ابتداء الشهور .

ومثل هذا التفصيل فى التفرقة بين معانى السنة يعتبر متمماً للتفصيل فى التفرقة بين مدد الأوقات على مثال لا نظير له فى معظم اللغات . . « فالمدة شاملة لجميع المقادير من امتداد الزمن وتنطوى فيها اللحظة أو اللمحة للوقت القصير ، والبرهة والردح للوقت الطويل ، والفترة للمدة المعترضة بين وقتين ، بل وجد فيها الحين للزمن المقصود المعين ، والعهد للزمن المعهود المقترن بمناسباته ، والزمن للدلالة على جنس الوقت كيفما كان ، والدهر للمدة المحيطة بجميع الأزمنة والعهود والأحيان » .

وقد وجدت فى اللغة العربية كلمات لكل لحظة من لحظات النهار والليل ، فوجدت فيها كلمات البكرة والضحى والغدوة والظهيرة ، والقائلة ، والعصر ، والأصيل والمغرب والعشـــاء والهزيع الأول من الليل ، والهزيع الأوسط ، والموهن ، والسحر ، والفجر ، والشروق ، ويكاد التقسيم على هذا النحو أن ينحصر بالساعات ..

ولم تكن اللغة العربية مع الإنسان الأول قبل التاريخ ، لأنها لغة تاريخية ، أى داخلة فى حدود التاريخ ولو كان من التاريخ المجهول ، ولكننا لا نعرف لغة قد ثبت ثبوت اليقين أنها أقدم فى أصولها من اللغة العربية .

إلا أن اللغة العربية قد احتوت كل جذور الألفاظ التى يقال إنها الأصل فى تسمية آدم وحواء .

فشراح العهد القديم يرجعون باسم (آدم) إلى كلمة (دم) بمعنى الأحمر ، أو كلمة (ادمو) الأكادية بمعنى المجبول أو المصنوع .

واللغة العربية فيها مادة الأدمة بمعنى اللون الأسمر إلى احمرار ، ومادة الأدمة بمعنى القرابة ، ومادة الأدمة بمعنى المواءمة والتوفيق بين زوج وزوج ، لأن آدم زوج لحواء .

أما اسم (حواء) فقد جاء فى الإصحاح الثالث من سفر التكوين فى العهد القديم

أنه مأخوذ من الحياة . . . (ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حى) .

ومادة الحياة موجودة فى اللغة العربية ، كما توجد فيها مادة (الحوة) بمعنى اللون الذى يشبه لون آدم ، ومنه قوله تعالى : (. . والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى) .

* * *

وإنه ليحق لأبينا آدم ، ولأمنا حواء ، أن يرقدا هانئين فى تربتهما التى لا نعرفها ، لأنهما — على مر السنين — فى ذاكرة البنين .

ويرى أصدقاؤنا القراء فى هذه اليوميات وحدة ثلاثة أسئلة من ذرية آدم وحواء يؤدون عنهم فريضة الذكرى والسؤال .

تقدم أحدها ، ويتبعه الآن سؤال من السيد (لطفى أحمد عبد الشافى الطالب بكلية الآداب — جامعة الإسكندرية) يقول فيه :

(. . إنه لأمر بديهى جداً أن كل إنسان لا يولد وقد اختار لنفسه اسماً معيناً وإنما يختار الأبوان اسماً للأبناء . . ولكن الشىء الذى نود من أستاذنا الجليل أن يلقى عليه مزيداً من الضوء هو اسم آدم وحواء عليهما السلام ، فمن المعروف أنهما كانا يتخاطبان بالإشارة ولم يعرف كلاهما الكتابة وتسجيل اسم المولود بها ، فكيف عرفهما العالم بهذين الاسمين ؟ . . وهل يمكن أن نعلم أن لهذين الاسمين دلالة لغوية كما هو المعلوم عن كثير من الأسماء) .

ونقول للطالب النجيب — أخينا فى آدم وحواء — إنه لم يحسن الظن بأبيه الطالب فى مدرسته الخالدة ، فإن الله جل وعلا هو الذى ناداه باسمه فى الجنة وهو الذى علمه (الأسماء كلها) كما جاء فى القرآن الكريم .

أما معنى الاسمين فى اللغة العربية ففى البيان الذى قدمناه غنى عن العودة إليه .

* * *

ولم تقصر بنت حواء عن إخوتها بنى آدم فى مجال السؤال عن الأم حواء رحمها الله .

فالسيدة (شريفة صادق) تقول فى خطابها بعد كلمات طيبات من التحية ، إنها لا تعرف أصلا لقول القائلين إن حواء أخرجت آدم من الجنة ، وإنما جاء فى

القرآن الكريم أن الشيطان وسوس لهما معاً ولم يوسوس لحواء وحدها ثم وسوست هى لآدم فكان ذلك سبب خروجهما من الجنة .

ثم تقول السيدة : (. . كما أطلب رأيكم السديد فى النظرية التى تعارض قول دارون إن الإنسان أصله قرد ، لأن أصل القرد إنسان . . وقد فاتنى أن أذكر فى خطابى السابق أن زوجى الأستاذ على إمام شرح نظريته هذه مستنداً إلى آيات من الذكر الحكيم فى كتابه عن الصهيونية وأرض الميعاد ، حيث ذكر فى سورة البقرة : (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) . . وفى سورة المائدة : (وجعل منهم القردة والخنازير) .

وسنكون عاجزين عن الشكر لو تفضلتم بإبداء رأيكم فى هذه النظرية .

* * *

والذى نود أن نقترحه على السيدة البارة بأمنا وأم أمهاتنا وجداتنا أن تعفى المسكين (دارون) أخانا فى آدم وحواء من تهمة الانتساب بكل إنسان إلى أب غير آدم ، والرجوع به إلى جد من القردة فى كل سلسلة من سلاسل النسب تصعد أو تهبط إلى ما قبل التاريخ وقبل آباء التاريخ وأمهات التاريخ .

دارون لا يقول إن الإنسان أصله من القردة ، ولكنه يقول إن الإنسان والفقاريات العليا جميعاً من أصل واحد ، وأن هناك سلالة تبتدئ من جرثومتها وتنتهى إلى الإنسان الأول ، ولكن له اسمه المحفوظ فى سجلنا المحفوظ نحن معاشر الآدميين .

أما الذى نود أن نقترحه على قرينها الفاضل فهو أن يحذر على بنى الإنسان من غرور القردة والخنازير . .

ماذا يصيب الناس من هذا الغرور لو وقر فى دماغ كل قرد أنه فى الإنسانية أعرق من الآدميين ؟

وماذا لو وقر ذلك فى أدمغة الخنازير أبناء الخنازير ؟

وإن السيد (الإمام) ليعلم أن فيما نعتقد — أن المسخ قد يصيب الخلقة كما يصيب الأخلاق ، فإن ثبت له فى تقديراته وتقريراته أنه لم يكن مسخاً فى الأخلاق وإنما كان مسخاً فى خلقة الجسد ووظائف الحيوان فمن الثابت فوق كل ثبوت

أن الملايين من القردة والخنازير ليس لها آباء ولا أجداد من غير القردة والخنازير ، وإننا لا نستطيع أن نقابل قول القائلين إن الإنسان كان قرداً بقول آخر يقول : كلا . . بل أصل الإنسان قرد وأصل الإنسان خنزير .

أما الذى نود أن نقترحه على أبناء آدم الذين برئت أنسابهم من أسلاف قردية أو خنزيرية — فهو البر بالآدمية ، وبالأخوة فى الآدمية ، مدى السنين ، بعد ثلاث وستين وأربع وستين .

وليكن لهم هذا البر المشكور بروح الأب آدم وروح الأم حواء ، ولكنه البر الذى يتنزهون به عن عقوق الأبوين فى كل قرة عين .

ولا عقوق بعون الله فى ولد يذكر أخاه كما يذكر أخاه ، ويطوى السنين والأيام ، فى أخوة ووئام ، وفى مودة وسلام . .

سلام فى هذا العام ، وعلى مدى الأعوام .

شم النسيم والبصل *

وها نحن أولئك لا نأبى أن نحسب من الواقعيين أو من الطبيعيين حيث يصح هذا الحساب ، لأننا ننتقل من أبراج السماء ومذاهب الأدب إلى البصل والفسيخ .

كتب إلينا العالم الكيمى الدكتور ناشد سيفين من الإسكندرية يقول تعقيباً على ما كتبناه عن شم النسيم :

« . . وهذا العيد كما قلتم هو عيد رأس السنة . وعادة شم البصل عند القيام من النوم فى صباح ذلك اليوم هى للتذكير بهذا ، وهو تقليد مأخوذ من عادة لا تزال باقية فى الريف إلى أيامنا ، وهى أن يشم الطفل البصل عند ولادته لتنبيهه بما له من رائحة نفاذة . غير أن الناس الآن لجهلهم الغاية من هذا التقليد وسببه صاروا لا يكتفون بشمه بل يأكلونه ؛ ولكى يجعلوا أكله مستساغاً أضافوا إليه الفسيخ فصار طعامهم المفضل فى يوم شم النسيم . . ولقد كان عيد رأس السنة يقام طبقاً لأسطورة عن الإله تقول : إنه غضب على الناس فى الزمان القديم لعصيانهم فسلط عليهم مهلكاً على هيئة أنثى الأسد فأمعن فى الناس تقتيلا حتى تغطت الأرض بالدم واصطبغ النهر بلونه ، ثم عفا الإله عن الذين اختارهم ليكونوا شعبه فأرسل هاتور بحيلة تنفذها وهى أن تأمر النساء أن يصنعن من الشعير خمراً ويمزجنها بعصير العنب الأحمر ليكون منه شراب مسكر بلون الدم ثم يسكبنه فى الفجر قبل بزوغ الشمس فى الأماكن التى اجتازها المهلك فيحسب أنه دم أعداء الإله . . . وأمر الإله أن يعتبر هذا اليوم أول الأيام ، ويقام فيه العيد باسم هاتور وتشرب الخمر التى بلون الدم لذكرى الخلاص ، واعتياد الناس الخروج مبكرين فى يوم شم النسيم إلى الأماكن الخلوية ومعهم شراب العنب والأشربة الأخرى المصنوعة من الشعير هو بقية تقاليد كانت عند الأقدمين . . .

وقد أخرج بنو إسرائيل من مصر فى شهر أبيب ، وفى الشهر الثالث أى فى توت الذى يقع فيه رأس السنة المصرية هفت نفوس القوم وهم فى برية سيناء إلى مباهج ذلك العيد وطلبوا أن يصنع لهم تمثال عجل — وكانت هاتور ترسم على صورة بقرة —

---

* أخبار اليوم ٢٦/٥/١٩٦١ .

ثم نادوا غداً عيد للرب ، وبكروا من الغد فجلسوا للأكل والشرب . . ولنذكر أن اليهود جعلوا شهر أبيب فصحاً لهم يحتفلون به فى الرابع عشر من شهر نيسان وهو يوافق أبريل بحسب التقويم الغربى . . ولست فى حاجة بعد ذلك لأن أبين لسيادتكم أن قوم إسرائيل ذكروا الضربات ومنها تحويل الماء إلى دم على منوال القصة المصرية ليكون لهم عيد على شاكلة عيد هاتور » . .

* * *

ونحن ننشر ما اتسع له المقام من خطاب العالم الكيمى الباحث الدكتور سيفين شاكرين له دراسته التاريخية لنستخلص منها ما ينبغى أن يخلص للقراء العصريين من أبناء مصر : وهو ضرورة العودة إلى كتابة قصة الخروج — خروج بنى إسرائيل — من الوجهة المصرية التى هى فى الحق وجهة التاريخ الصحيح .

فالواقع — من القرائن التاريخية — أن بنى إسرائيل الذين خرجوا مع موسى عليه السلام لأسباب دينية قليلون جداً بالقياس إلى جميع أسباط إسرائيل ، ولهذا كان منهم من يقول له — كما جاء فى العهد القديم — من الذى ولاك علينا وخولك حق القضاء بيننا ؟

ولم تكن جمهرة القوم ممن ينكرون العقائد المصرية ولا كان علماء المصريين ممن يجهلون التوحيد ، بل كانوا موحدين كما قال أبو التاريخ هيرودوت .

ولكنها كانت فترة ارتداد بعد شيوع الوحدانية كما يؤخذ من تاريخ عصر أخناتون ، وخرج القليلون مع موسى عليه السلام لأسباب دينية وخرج الآخرون كراهة للعمل اليدوى الذى سخرهم فيه أمراء الشمال ، وبقيت جملتهم على التقاليد المصرية فى الأعياد والشعائر والقرابين ، ومنها الاحتفال بعيد الربيع الذى سموه عيد الخروج ، ومنها أناشيد الصلاة التى ينظمونها على قواعد النظم الفرعونى مع أنهم ساميون .

البصل والفيتامين

إلا أننا نخالف الدكتور سيفين فى مسألة من مسائل الكيمياء أو تاريخ الكيمياء . فإن تقديس البصل وارتباطه بالولادة والحياة تقليد مصرى قديم يدل على

عراقة هذه الأمة فيما نحسبه اليوم من أحدث المعلومات . وهو معلوماتنا عن الفيتامينات والهرمونات

فالمصريون كانوا يقدسون من الخضر أصنافاً ثلاثة لعلها أغنى الخضر بالفيتامينات وهى البصل والخس والثوم .

فالبصل — وهو مأخوذ من الاسم المصرى بسرو — قربان محبوب فى الشعائر الفرعونية ، وتوجد له صورة بين القرابين المقدسة إلى جوار الباب الكبير بمعبد القرنة ، ويدخل فى شعائر الاحتفال بالربيع ، لأنه مع البيض من رموز الحياة والولادة .

والثوم يقدسونه ويختلط الأمر على الشاعر الرومانى الهجاء جوفينال فيقول متبرماً : « ماذا أصنع بين قوم يعبدون الثوم ؟ »

والخس يسمى عندهم « عفت » ويوصف بالحشيش المقدس كما جاء فى ورقة العلامة « ايبرز » عالم المصريات المشهور ، وهو من القرابين المستحبة عند إله النسل ، وله خاصة تساعد فى اصطلاحنا العصرى على توليد الهرمونات .

فالمصريون الأقدمون كانوا يعرفون هذه النباتات بخصائصها ويقرنون بينها وبين شعائر الأعياد فى مناسباتها ، وأكلهم للفسيخ عادة قديمة لعلها تجددت وشاعت بعد الإقبال عليه رغبة فى المشهيات على أثر الصيام الطويل .

وليس بالفسيخ — فى الواقع — من عيب . . وإنما العيب فى أكله مع النشويات وفى الإفراط منه والإكثار من شرب الماء عليه ، ولا أكتم الكيمى الفاضل أننى أصنعه أحياناً فى منزلى ولا أشكو منه كما يشكو الذين يسيئون أكله . . لأنه من أحسن الأطعمة وأغناها بمادة الغذاء .

أما قصة الشراب الأحمر فإننى أحيل الدكتور سيفين إلى خلاصتها التى نقشت على جدران الحجرة الخاصة فى هيكل سيتى الأول الذى بنى قبل خروج بنى إسرائيل من الديار المصرية ، وأحيله كذلك إلى كتابنا عن إبليس لأننا أجملنا فيه هذه القصة ثم عقبنا على إجمالها بالعبارة التالية :

« وتروى قصة النقمة من البشر على روايات شتى يكثر فيها التناقض على ما هو

مألوف فى الأساطير الأولى . فأشدها وأصرمها هذه القصة التى نقشت على هيكل الملك الذى يهمه أن يبالغ فى بطش الأرباب ومصير العصاة ، وأقربها إلى الرفق تلك الروايات التى تقول : إن الأرباب راجعوا الإله الأكبر وراح بعضهم يصبغ الجعة بالأصباغ الحمراء ليحكى بها لون الدم ويزعم للأرباب الساخطين أنه قد أريق منه ما يكفى للزجر والعقاب . . »

وربما كان أحدث الآراء فى تفسير هذه الظاهرة كما حدثت لأول مرة قبل وجود بنى إسرائيل فى مصر أن نجماً مذنباً عبر بوادى النيل فامتزجت غازاته بالنيل فاحمر لونه وفسد ماؤه وكثرت حشراته وأصيب الناس بالأوبئة وطفا بعض الماء على وجه الأرض فأصاب الزرع وأتلف الثمرات وعم القحط بعد ذلك ، وأصبحت القصة نموذجاً لما أتى بعدها من قصص العقاب أو قصص الضربات والنكبات .

وأيًّا كان تفصيل القصة فالتاريخ المصرى القديم كلمة فيها لم يقلها بعد ، وأكثرها مخالف لكلمات بنى إسرائيل ومن تبعهم من رواة القال والقيل .

سهوات الحكيم *

نعدو من سهوات التاريخ إلى سهوات زميلنا الأستاذ الحكيم .

لقد سمع هذه السهوات اليوم بأذنيه ، وأوشك أن يسهو فيقول كعادته : حصل . جائز . . لولا أنه أحيط بضجة من القهقهة لا تبقى على أعمق السهوات .

تحدث بعضهم عن سهوات الحكيم — وهو سامع — فقال :

إنه كان يسهر أيام العزوبة فى أحد الأندية العامة ، فهبط عليه صديق يقول له بلهجة الأسف والملام :

يا أستاذ ! أنت ساهر هنا وزوجتك تسهر فى سيارة فلان إلى هذه الساعة ؟

فوثب الأستاذ وهرول إلى المنزل ، وصاح بالخادم وهو يفتح له الباب فى غضب لم يعهده منه قط :

أين الهانم ؟ أين الهانم ؟

قال الخادم دهشاً : أى هانم يا بك ؟

قال الأستاذ : أى هانم ؟ امرأتى يا أبله !

فغلب الخادم دهشة وضحكاً وقال له وهو لا يصدق ما يسمع : ولكنك يا بك غير متزوج !

وانتقلنا إلى حديث « السهاة » المشهورين فذكر زميل كبير قصة الأستاذ أحمد أمين رحمه الله وهو فى ترام مصر الجديدة وعامل التذاكر يسأله عن الاشتراك فيخرج له الساعة ويدنيها من عينيه كلما كرر السؤال .

قال عامل التذاكر : أنا أسألك يا بك عن « الأبونيه »

قال الأستاذ وهو لا يزال فى ذهوله : وما هذا الذى تراه إذن بعينيك !

وقيل عن الأستاذ أحمد ، طيب الله ثراه ، إنه كان يكره السبانخ وقدموه له يوماً على المائدة فقال متأففاً : ما هذا ؟ سبانخ !

---

* الأخبار ١٩/٤/١٩٥٦ .

قالوا ! نعم . لقد علمنا أنك تكره الرجلة فطبخنا لك السبانخ بدلا منها . .

فأقبل على الطعام يأكله باشتهاء ، وقال شاكراً : حسناً صنعتم . أكثروا منه بعد الآن . .

الحق أن العبقرية المصرية فى فن القفشة ، قليلة النظير ، وقد كان أغرب ما سمعناه عن الأدباء « السهاة » من أعلام الغربيين قصة « ليسنج » ملك النقاد ، ولكن قفشاتنا المصرية — بغير تعصب — أبرع من قفشات الألمان .

كان ليسنج يعود إلى منزله كل ليلة عند منتصف الليل ، وذهب قبل الموعد ذات ليلة فدق الباب وأطل عليه الخادم من النافذة فقال له : إن الأستاذ لم يرجع بعد .

فرجع الأستاذ من حيث أتى وهو يقول : طيب . سأعود فى فرصة أخرى !

قفشاتنا نحن أبرع وأحق بالتدوين ، ولكننا نأسف لأننا لا نحفل بها ولا نجمعها كما صنع السلف الصالح من جامعى النوادر والفكاهات ، وما كان الزاد الأكبر من طرائف العقد الفريد والأمالى والبيان والتبيين إلا من هذه البضاعة التى نسهو عنها فى أدبنا الحديث .

وحقيقة أمرها أنها أكثر من فكاهات : إنها صورة نفسية واجتماعية ، ولمحات من العبقرية القومية ينبغى أن نضيف تراث العصر منها إلى سائر العصور .

بين ذوات الأربع

وصلت إلىّ فى خلال الأسبوع رسالتان ، إحداهما تنصرف على الأكثر إلى الحمار وتاريخه وكلمة الفنان وعلاقتها فى اللغة العربية بالحمار ، والأخرى تنصرف على الأكثر إلى الفيلسوف « بريدان » ومكانه من الفلسفة بين الناس ، وبين المخلوقات الأخرى التى اختار منها المثل لحكمته المشهورة .

وتشاء ذوات الأربع بعد ذلك بأيام قليلة أن تبرز فى صفحات الحوادث بأخبار تلفت إليها الأنظار ، وتستحق من أجلها التقديم على الأقل فى مضمار التعليق .

من الذى يترك الثور الثائر على اللغة العربية ويتكلم على حمار « بريدان » ؟

ومن الذى يتكلم عن الفنان الذى يسمونه فى القواميس حمار الوحش ويترك حمار العمدة ؟

الثور الثائر على اللغة العربية ، وحمار العمدة — الذى أثار المعركة فى البلدة الآمنة — كلاهما أحق بالسبق وأولى من حمار « بريدان » وبرسيمه بالتعليق .

وكلاهما له سر قد تواطأت الصحف جميعاً على إخفائه ، ولم تنشر منه إلا الجانب الذى يثير السخرية ويغطى على حقيقة الموضوع .

وحقيقة الموضوع كما علمناها أن الثور والحمار معاً من أصحاب الرأى والنظر ، وأن الهجمة التى هجماها فى وقت واحد لم تكن قفزة طائشة من قفزات الحيوان كما يصورها بنو آدم المغترون بالآدمية فى زمان بطل فيه هذا الغرور ، ولم تكن جمحة شاردة من جمحات ذوات الأربع التى لا تحتاج إلى شىء غير القيد واللجام كلا... لم تكن قفزة ولا جمحة ، ولكنها رأى أصيل ينبغى أن نصغى إليه طائعين وإلا أصغينا إليه فى يوم من الأيام كارهين .

الثور الثائر

فالثور الثائر يهجم على مجمع اللغة العربية عامداً متعمداً عن سبق روية وإصرار ، ويعلم الساعة التى اختارها للهجوم لأنها ساعة من ساعات الأسبوع

* أخبار اليوم ٢ / ٧ / ١٩٥٥ .

الأول فى الإجازة ، يسهل فيها الاقتحام ويؤتى فيها الرجام .

ولم يكفر هذا الثور — صاحب المبدأ — فى دعوته ولا فى كلامه الذى تلقاه عنه من يفهم الخوار ، ولا يخفى عليه هذا الأسلوب من الحوار .

الثور المسكين لم يقل إلا ما قالته العجماوات من قبله فى الحملة على اللغة العربية ، وإن كان الثور المسكين أصدق من زملائه منطقاً وأقوى منها حجة حين يعم بالقول جميع اللغات : لغات بنى الإنسان .

ما هذه العناية بلغة الإنسان دون المئات من اللغات التى ينطق بها الحيوان ؟

ما هذه الأموال التى تؤخذ من عرق الثور الحارث والحمار الكادح والحصان المجهود والجمل المكدود من أجل ألفاظ وأصداء ، يهرف بها أبناء آدم وحواء .

ويقول الثور ، ولم يكذب ، إن هؤلاء الأبناء من ذرية آدم وحواء ، قد عبدوا ذوات الظلف قبل الآن ، وتقدموا إليها بالدعاء والقربان . . !

ويقول الثور ، والعهدة عليه ، إن أبناء جلدته نهضوا فى تاريخ الأرض كلها بأعظم الأعباء وأحقها بالذكر والثناء ، فما زال واحد منهم يحمل الأرض البوار بما عليها من الأوزار ، حتى أخرجها الآدمى — كوبرنيكس — إلى المدار ، وطار بها فى الفضاء كل مطار ، فهى من يومها كالريشة فى الإعصار ، لا تستقر على قرار . . !

قالها الثور واستمات

وقالها من قبله زملاء له ولم يستميتوا وستقال بعده بكل خوار أو حوار ، مادام الليل والنهار!

وحمار العمدة

وأما حمار العمدة فأول ما يقال عنه إنه ليس بحمار ، وإنما هو جمل السنجق القديم يتقمص أجساد الحمير ، ويستعيد اليوم عهداً كاملاً من السلطان ، فلاتعنيه قبضته هنا من الحشيش أو هناك من البرسيم .

وحديث الجمل وسنجقته شرح يطول ، يذكره الأقلون من الأحياء ، وينساه الأكثرون .

كان من أمة الجمال ولم يكن من أمة الحمير .

وكان السنجق صاحب الجمل أمير الإقليم كله ، يطيعه الناس كما يطيعون جمله ، ويستمع منهم هذا كما يستمع منهم ذاك ، وكلاهما لا يستمع لمن يقول ولا لما يقال .

وعاث الجمل فى الحقول ، وطغى الجمل على الحمير والبغال والثيران والعجول .

وحارت فيه الأيدى والعقول .

يدٌ لا تستطيع أن تمتد إليه ، وعقل لا يهتدى فيه إلى حيلة ، ولا بد من حيلة تحتال ، ومن حال تحول . . .

وتفتقت الحيلة بعد حين .

وخافوا متفرقين فتشجعوا متجمعين وقدموا عليهم وكيلا يتكلم عنهم ، إذا بلغوا السنجق راكعين ضارعين خاضعين .

وكانوا ثلاثين ، فأصبحوا عند باب الديوان عشرين ، وأصبحوا عشرة عند باب الحجرة ، وأصبحوا عند الكرسى واحداً فرداً ينظر وراءه فلا يرى وراءه ولا حواليه من أحد . . وهو الوكيل الشجاع الأمين . .

ــ ما الخبر ؟

ــ الجمل يا حضرة السنجق

ــ وما للجمل ؟

ــ الجمل يا حضرة السنجق وحيد فريد ، بلغ سن الزواج فى عزك وجاهك ، ولا بد له من خطيبة قريبة . . والخطيبة القريبة عند هؤلاء ، يعودون بها اللحظة إن أمرتم باللقاء . . !

وأمر السنجق باللقاء ، وعاد الوكيل الأمين إلى موكليه ، ليقول لهم إن أسماءهم مقيدة فى الديوان ، فإن لم يعودوا بالناقة قبل أن يبرح السنجق مكانه ، لم تبق منهم غير تلك الأسماء !

وجلية الخبر فى قصة حمار العمدة أنه الجمل القديم الذى ظفر بالناقة ، وأنه كان يتطلع إلى الأتان ، ولا يعلم كيف دار الزمان ، فإذا نجا بجلده وأمن غائلة عهده ، فقد هان على الجلد السليم ضربة أو ضربتان !

ومن حديث شهر زاد

ولا نفتئت على زميلنا الأستاذ الحكيم

ولا نخالسه الود مع فتاته شهر زاد

ولكننا نسمع كما سمعت شهر زاد سر اللغة التي يوحى بها إلى الإنسان فيفهم بها حديث الطير والحيوان .

وللمصادفة التي لا حيلة لنا فيها كانت « الشفرة » في هذه اللغة أيضاً شفرة الثور والحمار .

كانا صديقين في دار رجل من المطلعين على طلاسم سليمان الحكيم ، وشكا الثور سوء حاله لصديقه الحمار فنصح له الصديق بأن يتمارض فلا يأكل علفه الذي يوضع له في المساء ، فقد يرحمونه لمرضه فلا يسوقونه إلى المحراث عند طلوع الصباح ، والسكوت عن الكلام المباح . . .

ورحموه كما ظن الحمار ، ولكنهم صنعوا شيئاً لم يقع في ظنه عند إسداء النصيحة لصاحبه ، فقد أخذوه هو إلى المحراث لينجز عمل الثور في ذلك النهار.

وآثر الثور عضة الجوع يومين أو ثلاثة على شقاء العمل من مشرق الشمس إلى مغربها ، فهلك الحمار وهم بالفرار ولا سبيل إلى الفرار .

لكن الشقاء يفتق الحيلة حتى للحمير ، فما عاد من الحقل في اليوم الثالث حتى بادر الثور قائلا في لهفة المشفق عليه كل علفك يا صاح . . كله كله . . فقد سمعتهم يتشاورون في ذبحك غداً مخافة أن تموت . . .

واستمع صاحب المزرعة إلى هذه المناجاة بين ثوره وحماره فضحك ، ورأته امرأته يضحك فغضبت ، وأراد أن يسترضيها فلم يقدر ، لأنه مؤتمن على السر الذي يكتمه العليم به أو يفشيه فيهلك ولا ينجو من العذاب .

وتصر المباركة ويلين المبارك ، ويكاد يستعد للموت لولا حديث آخر من أحاديث الحيوان يسمعه هذه المرة من الديك ، ويسمع فيه شتمه بأذنيه ، لأنه يفرط في حياته من أجل زوجة واحدة ، وديكه سيد الحريم الكامل من الدجاج يترك هذه الزوجة ليقبل على تلك فلا تعارضه هذه ولا تلك فيما يريد .

ويعمل صاحبنا بالنصيحة ، فترجع الزوجة اللجوج عن دلالها القاتل ، وسلم الرجل وتسلم المرأة معاً من الكارثة ، خوفاً من « تعدد الزوجات » . . .

تعدد الزوجات

وتعدد الزوجات حديث اليوم الذى يقحم نفسه فى كل موضع وكل موضوع بعد الحديث الذى أفضى به الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وبعد تعقيبات المعقبين والمعقبات عليه . ولكننا لا نريد أن نغتنم الفرصة التى أقحمته علينا بين السطور لنخوض فيه . فمهما تبلغ بنا المخاضة فى هذا البحر فلن نخرج منه بغير النتيجة التى خرجنا بها غير مرة . وهى أن تعدد الزوجات محنة يساق إليها الرجل العاقل مضطراً ويندفع إليها الرجل السفيه لغير ضرورة ، وأن المجتمع حقيق بأن يحاسب الزوج الذى يبنى بأكثر من زوجة واحدة ليتعرف قدرته على العدل المشروط فى تعدد الزوجات . ومنه بل فى مقدمته العدل فى الإنفاق على الأسرة فى بيتها أو فى بيوتها المتعددة . لأن المجتمع هو المسئول عن جرائر العجز والتقصير فى تربية الذرية وصيانة الزوجات . ولكن المجتمع على هذا كله لا يستطيع أن يحرم على الناس تعدد الزوجات فى بعض الحالات ، لأنه أرحم من تطليق المرأة العاقر أو المرأة المريضة ومن تعطيل الزواج عن مهمته التى لا معنى له بغيرها ، وهى الذرية.

على أننا لم نعرض لتعدد الزوجات فى هذه اللمحة العاجلة لنخرج منه بالقول الفصل الذى لا سبيل إليه ، وإنما عرضنا له لنقول : إننا بحمد الله لن نحتاج إلى تهديد أحد له لكتمان السر الذى وعيناه وحفظناه ، وهو سر اللغة التى يجرى بها منطق الطير والحيوان .

ولسنا — وأيم الحق — نفشى سراً إذا قلنا إن العجب فى هذا الزمن إنما هو الكلام بلغة الإنسان على كثرة ما يسمع فيه من أقاويل الحيوان . ولولا أن العجماوات لاتعلم أنها عجماوات ، لما كانت لغاتها سراً من الأسرار فى هذه الأوقات .

ولنعد إلى حمار الحكيم

وأما وقد مضينا حتى الآن على سنة الأهم قبل المهم ، وقدمنا حديث الحمار الذى يحن إلى عهد السناجق والأغوات والثور الذى يثور على اللغة العربية ولغات الآدميين أجمعين . .

وأما وقد فضلنا الحياة الحاضرة على التاريخ الغابر من سيرة «بريدان» وحمار بريدان . . .

فلنعد الآن إلى حمار الحكيم ، ونعنى به الحكيم القديم .

فأول ما يقال فى هذا المقام إن « بريدان » المسكين لم يكن له حمار ولم يذكر هذا المثل قط فى كلام منسوب إليه .

وقد عاش بريدان Buridan بين قومه الفرنسيين ولم يكتب لهم حرفاً باللغة الفرنسية ، ففتح على نفسه باب الدعوى الكاذبة بالكتابة باللغة اللاتينية ، وشاع عنه منذ القرن الرابع عشر أنه صاحب المثل المشهور عن الحمار بين الحزمتين أو بين الحزمة وجردل الماء واختلفت الروايات ولم يختلف الرواة فى اتهام الفيلسوف المظلوم .

قالوا عنه مرة إنه يقضى على حماره بالموت جوعاً إذا تردد على حد سواء بين حزمتين من طعام واحد ، أو تردد على حد سواء بين إرواء عطشه من جردل الماء ، وإشباع جوعه من حزمة البرسيم .

وقالوا عنه إنه كتب ذلك فى رسالته عن أخلاق أرسطو وحرية الاختيار ، فإذا بالرسالة تظهر بعد حين وليس فيها حرف واحد عن الحمار ولا عن البرسيم ولا عن جردل الماء .

وعلى نقيض ذلك ظهر أن الشاعر دانتى ، الذى عاش قبله ، ذكر هذه المشكلة وارتفع بها من الأرض إلى الفردوس السماوى وافتتح بها نشيده الرابع فى رحلة السماء ، وتحدث عن الحمل الذى يقف بين ذئبين يخافهما على السواء ، وعن كلب الصيد الذى يقف بين غزالين ولا يجرى هنا ولا يجرى هناك ، وعن العقل الذى يقف بين شكين ولا سبيل بينهما لليقين .

وسبقه فيلسوف المسيحية — توما الأكوينى — ليبطل سلطان الحس على العقل والإرادة ، ولم يكن « بريدان » يومئذ يحسن التردد بين ثديين فى صدر واحد ، أو يحسن التردد بين ظلمات الرحم ونور النهار ، لأنه لم يدخل بعد فى تلك الظلمات !

وجاءته التهمة خبط عشواء ، ولصقت به إلى اليوم ، وستلصق به فيما يلى من الأيام ، وسيفرض عليه الحمار الذى يلاحقه حيث كان . .

وهذه قصة بريدان وحمار بريدان .

أما الفنان

أما كلمة « الفنان » فالمتحذلقون هم الذين يحرمون إطلاقها على صاحب الفنون ، لأنها اسم حمار الوحش عند العرب كما يزعمون .

وليس الفنان اسماً لحمار الوحش بل صفة يوصف بها لأنه كثير الخطوط . . والفن من أسماء الخط وأسماء الفرع وأسماء الغصن ، وكل شيء من الأشياء ذوات الأفانين .

وإذا وصف حمار الوحش بالفنان فكما يوصف بكثرة الخطوط أو بالسرعة أو بما شئت من الصفات .

ولا يقال إذن إن صاحب الخطوط — مثلا — صفة لا يوصف بها الخطاط . أو إن السريع صفة لا يوصف بها القطار .

ولك أن تقول : إن الذى يحرم الكلمة فى معناها الحديث فنان . . ولك أن تقول إنه غير فنان .

فيها قولان !

وختامه ذهب

وختامه ذهب . وهو والمسك فى الختام الحسن صنوان . . .

وفى القافية بعينها : قافية ذوات الأربع التى استأثرت بهذا المقال .

فالختام من ذهب هو الختام « بالحمار الذهبى » بطل القصة التى ترجمت من اللغة اللاتينية منذ خمس سنوات ، وأعيدت طبعتها حتى هذه السنة أربع مرات ، غير طبعة أخرى فى كتب الجيب .

ولم تكن هذه ترجمتها الأولى من اللاتينية ، فإنها ترجمت إلى الإنجليزية للمرة الأولى سنة ١٥٦٦ وأعيدت طبعتها سنة ١٥٧١ ثم أعيدت سنة ١٥٨٢ ثم أعيدت سنة ١٥٩٦ ثم أعيدت سنة ١٦٣٩ .

وترجمت القصة مرة أخرى سنة ١٨٩٣ ، وطبعت هذه الترجمة طبعة جديدة سنة ١٩١٣ ، ثم نقحت وطبعت سنة ١٩١٥ .

ويأتى الكاتب المؤرخ المشهور روبرت جريفس فى سنة ١٩٥٠ فيكلف خاطره أن يترجمها من اللاتينية ترجمة جديدة لطبعة بنجوين ، وتعاد هذه الطبعة فى سنتها ، ثم بعد سنة ، ثم بعد ثلاث سنوات .

وما « قصة الحمار الذهبى » هذه التى تظفر بكل هذه العناية من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين ؟

هى بالإيجاز كأنها قصة من قصص ألف ليلة . ألفها الكاتب اللاتينى إيبوليوس Apuleilius فى القرن الثانى للميلاد وترجمت إلى اللغات الأوربية ، ولا تزال تترجم وتطبع إلى اليوم .

وعندنا هنا قطيع من عجماوات الأدب لم تصنع من الذهب ، يصدرون المراسيم كل يوم بأمر جديد ؟ هذا موضوع يكتب فيه وهذا موضوع تحرم الكتابة فيه ، وهذه قائمة بالكتابة العصرية المباحة وتلك قائمة أخرى بالكتابة التى تحرم على ذوى الأقلام ، أو على كتاب الحياة .

هل سمع القراء بالريفى الذى زار القاهرة مرة ثم عاد إلى قريته يفتى لهم بما يصنعه المتمدنون ، وما يقوله المتمدنون ، وما يأكله المتمدنون ، وما يشربه المتمدنون .

عجماوات الأدب عندنا أعظم دعوى من ذلك الريفى الذى يدعى المدنية وحده ويحتكرها دون عباد الله من القرويين والحضريين . . .

وممن تستمد العجماوات — عجماوات الأدب — ذلك السلطان الذى يحرمون به ويحللون ؟

لا من الغرب ولا من الشرق ، ولا من الحاضر ولا من الغابر ، ولا مما يعملون فهم لا يعملون شيئاً ، ولا مما يعمله غيرهم فهم لا يقرءون شيئاً ......

واكتب هذا ولا تكتب ذاك ، واطرق هذا الموضوع ولا تطرق ذلك الموضوع . . .

ويرحم الله الثور الثائر ويمسى الله بالخير الحمار العاثر ، فإنهما والله لأحق بالإصغاء من زملائهما الذين يثورون ولا يعرفون كيف يثورون ، ويجمحون حيث يجمحون وهم لا يقفون على أربع ولا على اثنتين .

كابوس . . وكوابيس *

ولا تقل نعوذ بالله

إنها كوابيس نعم . ولكن لا تقل نعوذ بالله إلا أن تعوذ بالله على كل حال ، قبل قراءة المقال ، و بعد قراءة المقال !

هى كوابيس ، ولكنها قبل كل شيء « تسلية الفيلسوف » التى يلعب بها فى ساعات الفراغ .

ولقد قيل عن الفلسفة كلها ، بجدها وهزلها ، إنها لعبة عقلية أو « حركة جمبازية » فى الدماغ . . فإذا كان هذا شأن الفلسفة كلها فلا يفزعن أحد من لعب الفلاسفة ، وهم فى جدهم خطر مأمون .

وغير هذا من أسباب الأمان أن هذه الكوابيس تصيب مخلوقات لم تظهر قط فى عالم الحياة ، أو تصيب مخلوقات تعودت أكبر الكوابيس وأضخمها فاكتسبت المناعة منها ، وامتلأت بمصلها الواقى فكسرت سمومها ونفضت عنها همومها .

هذا أو تصيب الكوابيس أناساً يستحقونها ويستحقون أن يقضوا حياتهم كلها فى كابوس بعد كابوس ، لأن نوم الظالم عبادة كما يقولون ، فإذا كان نومهم كابوساً فهو عبادة تبلغ حد القداسة وتحسب من الكرامات .

الشيطان فى الضواحى

منذ سنة ظهرت فى عالم التأليف مجموعة من القصص والروايات القصيرة لكبير فلاسفة العصر الحاضر ، برتلاند رسل، الذى أشرنا إليه فى بعض هذه المقالات .

وأخف ما كتبه الفيلسوف قبل هذه القصص بحوث فى التربية وفى السياسة الاجتماعية أو السياسية العالمية .

أما كتاباته الأخرى فنها الدراسات الرياضية العليا ، ومنها التعليقات على مذاهب الفلاسفة ، ومنها التصحيحات لقواعد المنطق أو قواعد الرياضة المنطقية .

---

* أخبار اليوم ١٩ / ٦ / ١٩٥٤ .

وكلها موضوعات بينها وبين القصة بحور وبرور ، وأحقاب ودهور ، تمتنع بينها علامات المرور !

فلما ظهرت مجموعته القصصية بعنوان « الشيطان فى الضواحى » عجب لها قراء الفلسفة كما عجب لها قراء القصة ، واطلع عليها هؤلاء وهؤلاء جرياً وراء حب الاستطلاع ، واعتقد الأكثرون أن قراءها سيطوونها ثم لا يعودون إليها ولا إلى قصة أخرى من قلم كاتبها ، وحسبهم تجربة واحدة من تسلية الفيلسوف .

لكن « الشيطان فى الضواحى » لم يتخل عن عالم القراءة بعد الطبعة الأولى فلم تكد تنفد هذه الطبعة حتى أعيدت ثانية وثالثة ، وحتى أقبل الناشرون يطلبون من الفيلسوف مدداً آخر من هذه الشياطين ، فأمدهم بهذا المدد الآخر من الكوابيس .

بعض هذه الكوابيس كان قد نشر فى المجلات بتوقيع مستعار ، وظن قراء المجلات أنه من آثار قصاص كبير معروف يريد أن يلعب مع القراء لعبة الاستخفاء .

فلما تكاثر الطلب على الشياطين أسعفهم الفيلسوف بطائفة من تلك الكوابيس ، ومعها طائفة أخرى من أحدث المخترعات لم تنشر قبل الآن .

ولقد أبدع الفيلسوف فى اختيار الموضوعات القصصية ، وتعمد فى اختيارها أن يضحك الناس من حماقات الفلسفة التى تشيع فى حياتنا العصرية ، ومنها بعض مذاهب التحليل النفسانى وبعض مذاهب الوجودية وما يشبهها من مذاهب الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وإن أمتع ما فى هذه السخريات لأولئك الأبطال الخياليون فى عيادة الطب النفسانى أو مستشفى الأمراض العقلية ، ومنهم هملت وعطيل ومكبث وروميو والملك لير وآخرون ، وآخرون . . .

هملت وعطيل فى العيادة

يتكلم هملت وجماعة من عارفيه الذين يحفظون وقائعه ويستظهرون كلامه حرفاً حرفاً كما رواه شكسبير ، فيدهشهم أنه ينكر الوقائع والكلام معاً ويقول لهم إن

صاحبكم شكسبير هذا قد رآنى وحادثنى قبل أن أعالج نفسى فى عيادة الدكتور بومباستيكوس Bombasticus أوالدكتور — القعقاع باللغة العربية — فكتب ما كتب عن هملت كما توهمه . . ولم يخطر له أن هملت قد عرف سر الداء بفضل الطبيب القعقاع أو الجعجاع ، فنال على يديه الشفاء .

يقول هملت ما فحواه :

« علمت فى عيادة الطب النفسانى أننى مصاب بعقدة أوديب ، وخلاصة عقدة أوديب هذه أننى أحب أمى وأغار عليها من أبى وأكرهه من أجل هذه الغيرة فى قرارة وجدانى ، فلما مات أبى تحولت الكراهية إلى عمى واشتدت كراهيتى له وغيرتى منه لأنه تزوج من أمى ، ووجدت صاحباً لى ينفخ فى النار ويستثيرنى باسم الثأر ، ويطمع أن أخلف عمى فينتفع بالحظوة عندى ، ثم يتفاقم الوهم فى نفسى حين أتخيل من الرعب والغيظ أننى قتلت والد حبيبتى ، وما قتلت فى الواقع غير فأر كان يلعب وراء الستار .

فلما انكشف لى كل ذلك فى عيادة الطبيب شفيت من الوهم وسلمت من الطمع ، وعشت بحمد الله مبرءاً من الجنون بريئاً من الإجرام .

ويتكلم عطيل وجماعة من عارفيه فيدهشهم كذلك بإنكاره وراحة باله ، ويحمد الله لأنه شفى من دائه فى عيادة الطبيب .

يقول لهم إنها كانت عقدة من مركب النقص فى نفسه ساورته بين أنداده الذين لا يبلغون مبلغه من الشجاعة وحسن البلاء ولكنهم ينعمون دونه بالبيض الحسان ، وخيلت إليه هذه العقدة أن ديدمونة تعشقه وتؤثره بالحب على ذوى قرباها ، فغفل عن حقيقة الواقع وأغمض عينيه ليتخادع فينخدع ، فكان له ما أراد وانخدع إلى حين .

ثم تفضل الطبيب القعقاع أو الجعجاع فأماط عنه الغشاء وفتح له عينيه ، فأنف من الغفلة وترك الفتاة المفتونة تذهب إلى حيث ألقت . . ثم تزوج « بشمس منيرة سوداء » من بنات جلدته ، فنعم بحبها ونعمت بحبه ، ورزق البنين والبنات إلى أن أدركه هادم اللذات ومفرق الجماعات .

ويتكلم مارك أنتونى ، وهو فى خلقته شركة بين شكسبير والتاريخ فيقول :

« إنكم لتعلمون جميعاً حق العلم تلك الأكاذيب التى لفقها على شكسبير ، ولعله قد مضى زمن كنت أنظر فيه إلى كليوباترة كأنها رمز الأمومة، وكان هذا طبيعيًّا لا غرابة فيه مذ كنت أنظر إلى يوليوس قيصر كأنه رمز الأبوة ، ولكن شكسبير قد ادعى فأفلح فى دعواه حتى خدع المؤرخين من ذوى الجد والرصانة فصدقوا أننى أنظر إليها هذه النظرة وأحتفظ بحبها فى كهولتها . فلما لقيت الطبيب القعقاع (أو الجعجاع) ، فسر لى خبايا العقل الباطن فبدت لى كليوباترة على غير تلك الصورة التى يضفيها عليها الخيال الكاذب ، وبفضل هذه الهداية حسمت المعركة فى اكتيوم وعدت إلى زوجتى إكتافيا أخت خصمى اكتافيوس ، فنعمت بالحياة الزوجية معها وقضيت على كليوباترة بالموت خدمة لمصالح الدولة » .

ويسأل عطيل : ولكن هل كنت تحب إكتافيا ؟ . .

فيجيبه مارك أنتونى إليك يا صاح : « إننى . . . لا أعرف معرفة اليقين ما هذا الذى يسمونه الغرام . وإنما كنت أنطوى لها على الشعور الذى ينبغى أن ينطوى عليه كل مواطن كريم لحليلته . وكنت أوقرها وأجد منها قرينة أعول عليها فى الحياة العامة ، وكنت بتوفيقها ومشورتها مستطيعاً أن أعيش على المثال الذى يرتضيه الطبيب ، فأما الغرام الذى كنت أفتتن به قبل لقائى لذلك الرجل القدير فقد تركته جانباً وربحت بديلاً منه تقدير ذوى الفضيلة والخلق القويم » .

ويتكلم روميو فيشرح كيف فسر له الطبيب عقدة نفسه ، ويقول ما فحواه إنها أيضاً « عقدة أوديب » وإنه قد تعمد — نكاية فى أبيه — أن يحب فتاة من الأسرة التى يعاديها أبوه وتعاديه . فأحب جولييت من أسرة كابوليت وترك الحور الملاح من بنات أسرته الكبيرة أسرة مونتاج .

قال : وكان الدكتور الجعجاع يومئذ صيدلياً فأخطأ فى تركيب مخدراته ومنوماته ، ولكنه لم يخطئ فى وصفته النفسية التى أقتنعت المحب المغرور بضلال المصابين بعقدة أوديب ، لأنهم ينسون أنهم اليوم أبناء وغداً آباء ، فإذا عقدوها مع آبائهم فقد تنعقد عليهم من أبنائهم ، وخير لهم أن يتجنبوا العقدتين ، وأن يأخذوا بإحدى الحسنيين .

وقد أخذ روميو بالحسنيين جميعاً فاستراح من حب جولييت ، وتزوج من أميرة لا يعلم بها الجاسوس شكسبير !

وهكذا يمضى الفيلسوف فى علاج أبطال شكسبير واحداً بعد واحد ، ويعرضهم لنا فى العالم الآخر مع تمثال ناطق يسمعنا الصوت كما نسمعه من الميكروفون ، فكلما تقدم بطل من الأبطال دارت معه الأسطوانة الحاكية وأسمعتنا كلامه فى رواية شكسبير وكلامه فى عيادة الطبيب الجعجاع ، ثم يدار المفتاح غلطاً فنسمع صوت الطبيب فى جهنم يصيح ويلعن ويتلوى من العذاب . .

إنه يعانى الكابوس المخيف الذى لا يفارقه فى نومته الأبدية . .

إنه جنى على أولئك الأبطال فعاقبه الله بجنايته ، لأنه شفاهم فقتل أرواحهم فى سبيل شفائهم ، ولأنه مسخ ملامحهم التى قامت عليها شخوصهم فى سبيل شخوص أخرى لا تمييز بينها ولا مزية لها فى التاريخ ، ولا فى الخيال .

وذلك أحد الكوابيس .

كابوس يخيف الدكتور الجعجاع ولكنه لا يخيف القارئ الكريم .

بين العرائس . . والشياطين *

فى وقت واحد صدر باللغة الإنجليزية كتابان هامان أحدهما عن الأدب الروسى من عهد شيخوف إلى اليوم ، والآخر عن الأدب الإنجليزى الحديث .

أما الأول فمؤلفه هو الأستاذ مارك سلونيم Slonim الروسى ، الذى كان أستاذاً لأدب بلاده فى جامعة براغ ، ثم انتقل إلى باريس ، حيث يشتغل بالكتابة وإلقاء المحاضرات .

وقد وصل بتاريخ الأدب فى البلاد الروسية إلى سنة ١٩٥١ فأرانا هذا التاريخ فى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية على الخصوص كأنه تاريخ أوامر حكومية ينسخ بعضها بعضاً كل سنتين أو ثلاث سنوات ، ثم يعود الأدب المرغوب فيه بالأمس علامة من علامات النكسة والانحطاط بمرسوم جديد يصدر من ولاة الأمور ، وأصبحت « للمنتجات الأدبية والفنية » مشروعات وخمس سنوات أو سبع سنوات كتلك المشروعات التى تعين الأوقات للمصنوعات والمزروعات .

وأوجز ما يقال فى عرض الطريق ، تعليقاً على هذه الحركات المصطنعة إنها تكذيب قاطع للفلسفة الماركسية فى الأدب والفن ، لأن هذه الفلسفة تزعم أن الآداب فى جميع العصور إنما هى انعكاسات طبيعية للأحوال الاقتصادية ، وعلى هذا الزعم نشأت آداب الفروسية ممثلة لعصرها بغير حاجة إلى مراسيم ولاة الأمور ، ونشأت آداب البرجوازية كذلك ، ونشأت بعدها آداب « الرأسماليين والمستعمرين » طبيعة تلقائية لا تحتاج إلى ترسيم ولا توجيه ، بحيث لو أراد أحد أن يغير وجهتها وأن يرسم لها موضوعاً غير موضوعاتها لما استطاع . فالآن ماذا يقال عن الأدب الذى يحتاج إلى المراسيم كل سنتين أو ثلاث سنوات ؟

إما أنه غير طبيعى ، وإما أن الهيئة الاجتماعية غير طبيعية ، وهو فى الحالتين مكنة تدار كما تدار الآلات .

لقد كان الناقدون يقولون إن الفلسفة الماركسية بهيمية . .

ظلموا البهيمية . . إنه على الأكثر أدب آلات ومكنات . . . .

---

* أخبار اليوم ٣٠ / ١ / ١٩٥٤ .

الأدب الإنجليزى يتجدد فى القاهرة

أما الكتاب الثانى فاسمه « الكاتب العصرى وعالمه » لمؤلفه الشاعر الناقد الأيقوسى فريزر Fraser .

ويمكن أن يضاف إلى وصفه أنه رحالة يكاد لا يهدأ فى مكان ، إلا إذا اقتضته طبيعة العمل أن يقيم فيه شهوراً أو سنوات ، فساح فى الشرق الأوسط وفى أمريكا الجنوبية وفى اليابان ، وأقام زمناً بعاصمتها يلقى المحاضرات على أساتذتها وطلابها المشتغلين بالدراسات الأدبية الأوربية ، وكان موضوع هذه المحاضرات جميعاً يدور على الأدب المعاصر إلى سنة ١٩٥٠ .

ويحسن بالجهلاء المتشدقين باسم الجديد أن يقرءوا هذا الكتاب وأمثاله ليفقهوا معنى التجديد الأدبى فى عرف رجل هو نفسه من أقطاب المدرسة الجديدة فى أدب بلاده ، ومن المطلعين على مدارس التجديد فى الأمم الأوربية والأمريكية وبعض الأمم الآسيوية . . . وحسبهم سطران من الكتاب يدلان على سطور وصفحات حيث يقول هذا المؤلف: « إنه من المفارقات أن إحدى العلامات البارزة فى التجديد الأدبى نشاط العناية بالماضى لذاته » . .

ولكن القارئ المصرى يجد فى هذا الكتاب مجالا للتأمل والمراجعة يهم الأدباء المصريين خاصة قبل سائر الأدباء فى البلاد الأخرى ، إذ يعتقد المؤلف حركة التجديد فى الشعر الإنجليزى خلال السنوات العشر الأخيرة كانت فى القاهرة لا فى لندن وكان الشعراء دريل Durrell وبرنارد سبنسر Spencer وتلر Tiller أحدث المحدثين فى المدرسة الشعرية الحديثة باللغة الإنجليزية .

وفيم ينظم أحدث المحدثين ؟

رثاء طيار ، أو منظر البحر الأبيض تحت الظلام ، أو ليالى القاهرة ، أو العصفور السقاق فى العلمين ، أو وصف الإسكندرية من حجرات الطبقة العاشرة فى مساكن الميناء ، وكل ما نظموه أو نثروه فيما نقله صاحب الكتاب ، أو فيما تخيره لهم جامعو النخب والمختارات يدور على الموضوعات التى يحسبها جهلاء الأدب المصرى من القديم المهجور .

أرنى الله

وعلى هذا يستطيع الأستاذ توفيق الحكيم أن يطمئن على حظه من الأقدمية أو الأحدثية حتى حين يصور لنا العقلية الصوفية قبل بضعة قرون ، ويستطيع زميلان له أن يطمئنا مثل اطمئنانه على هذا النصيب ، وهما الشاعران النابغان رشيد سليم المشهور باسم الشاعر القروى ، وبشارة الخورى المشهور باسم الأخطل الصغير ، وأولهما ينظم الشعر العربى فى البرازيل والثانى ينظمه فى لبنان .

وكلهم يطرقون تلك الموضوعات التى حكم جهلاء الأدب العربى عليها بالقدم وقد عدت فى « بلاد التجديد » من أحدث المحدثات ، وإنما العبرة فى كل تجديد بطريقة التناول لا بعنوان الموضوع . فليس فى العلم الحديث مثلا موضوع أحدث من تركيب المادة ، والمادة نفسها لا يقدر وجودها بأقل من مئات الملايين من السنين . . !

أخذت معى للمطالعة بأسوان هذه الكتب التى أذكرها فى هذا المقال ، وحمدت الاختيار بعد ما قرأت منها ، فهى فى الحق من خيرة ما تخرجه المطابع فى أمة من الأمم العصرية ، ولا خوف عليها من المقارنة بينها وبين نظيراتها فى لغة من اللغات .

وليس ذلك بمانع أن يكون فيها ما ينتقد أو ما يرضاه أناس من القراء ولا يرضاه آخرون ، فسيكون هذا حظ الكتاب الذى يصدر فى سنة ٢٩٥٤ أو فى سنة ٩٩٥٤ أو فى كل سنة يصدر فيها كتاب . . !

توبة إبليس

أبدع الحكيم فى قصته عن توبة إبليس وسماه الشهيد . . ثم صوره فى الصورة التى تزيل استغراب القارئ من هذه التسمية وتتركه بعد قراءتها وهو يقول : مسكين إبليس . . !

يطلب المسكين التوبة على يدى الحبر المسيحى فيوقعه فى حيرة . . إذ أين تذهب قصص الخليقة والخروج من الفردوس ، وما معنى يوم الحساب إذا محى

الشر من الأرض . . ؟ وهل يحاسب الذين أغواهم إبليس وينعم إبليس بالمغفرة بعد هذا الإغواء . . ؟

ويذهب المسكين إلى الحاخام فيخيره بطلب التوبة كما خيره حبر المسيحية ، وينتهى الحوار بينهما بقول الحاخام فى ازدراء واستهزاء : « ليس من عادتنا التبشير ولا الاهتمام بأن يدخل فى ديننا الغير . حتى ولو كان إبليس » .

ويذهب المسكين إلى شيخ الإسلام ، فيحار الشيخ الأكبر كيف تكون تلاوة القرآن الكريم إذا قبلت توبة الشيطان . . وكيف يبدأ القارئ بالاستعاذة من الشيطان الرجيم بعد اسم الله الرحمن الرحيم . .

وترك المسكين السماء مذعناً وهو يهمس لنفسه ، إنى شهيد . إنى شهيد .

والحكيم فى هذه القصة قد حكم الفن فى تصوير الكون كله ، فليس إبليس فى هذه الصورة إلا « شرير المسرحية » الذى يريد أن يتخلى عن دوره قبل رفع الستار ، ولا بد من زجه إلى المسرح ولو مضروباً بحكم الفن أو بحكم القافية التى لا تعذر أحداً حتى يمتد عذرها إلى الشيطان . .

وقد رحم الأستاذ الحكيم « آل كابونى » الشرير الأمريكى المشهور كما رحم أستاذه الأكبر إبليس .

فى قصة « نخب العصابة » يختطف آل كابونى هذا جماعة العلماء الذين اخترعوا القذيفة الذرية ويولم لهم فى قصره وليمة فاخرة ثم يجلس بين أيديهم فى تواضع وخجل ويشرب نخبهم قائلا : « إنى أخاطبكم وفى نفسى شعور من الخجل والمذلة والضآلة . فكل عملنا بالقياس إليكم عبث صبية ولعب صغار . . »

ولست أريد أن أنقد هذه القصة ولكنى أضيف إليها سطوراً من الحوار فى قصة تضاف إليها ، ومدارها على الأستاذ الحكيم فى وظيفة الملك المختص بالمخترعات الأرضية ومعه برومنيوس الذى علم البشر صنع النار وهما يتحاوران على هذا المثال فى عالم الغيب . .

الحكيم : ما هذا الذى تضعه أمامى وأنت خائف يابرومثيوس . . ؟

برومثيوس : قذيفة ذرية . . !

الحكيم : قذيفة ذرية ؟ ولماذا تخاف منها هذا الخوف وأنت لم تخف من نار الآلهة يوم أن سرقتها من السماء ؟

بروميثيوس : إن النار يا سيدى الأستاذ ليست بجانب هذه القذيفة غير « عبث صبية ولعب صغار »

الحكيم : وما بالك إذن تعطى هؤلاء الأشقياء ما هو شر من النار؟

بروميثيوس : أترى إذن أن أعود إلى الأرض فأسحب منهم النار وأحول بينهم وبين شرورها وشرور هذه الهدية الجديدة ؟ . .

الحكيم مفكراً متردداً : لا . طيب . أظن أن سحبها . . ماذا أقول ؟ لا. لا : لا تسحب النار بل دعها الآن إلى أن تعيد التفكير . .

بروميثيوس : لماذا . . ؟

الحكيم : لأنها نافعة . . لأن حرائقها جميعاً تهون فى جانب مصالحها وخدماتها . . أما هذه الهدية الجديدة . . ؟

بروميثيوس : أما هذه الهدية الجديدة يا سيدى فهى الهدية التى تليق بالقرن العشرين ، ويخجلنى بعد مائة ألف سنة أن أعود إليهم بتلك الألاعيب القديمة ، ولك أن تصدقنى إذا قلت لك يا سيدى المدير إن النسبة محفوظة بين الاختراعين . فمصائب النار عظيمة وخبراتها أعظم وستكون الذرة المغلوقة أجربة أخرى على هذا المثال ، فما تنفع فيه الناس أعظم جداً من مصابهم بها فى الحروب وأهوالها فى الحروب خليقة أن تحذرهم من ذلك المصاب ، وأنت بعد وما تشاء . . . فإن أمرت هبطنا إلى الأرض ، وأن أبيت طويناها فى ذرتها وطوينا معها سر الذرة وكل سر من أسرار هذا الاختراع .

* * *

وللأستاذ الحكيم أن يكتب بيده جوابه على بروميثيوس . . . الشهيد المسكين .

أما القصة التى ننقدها حقاً ونود لو خلت منها المجموعة فهى القصة التى أطلق عنوانها على المجموعة كلها ، وهى قصة « أرنى الله » .

وخلاصتها أن رجلا تعود أن يحادث ابنه الصغير وأن يصغى إلى أسئلته المعهودة

من الأطفال وأن يستجيب لكل ما يستجاب ، وسأله الطفل يوماً عن الله ثم قال له : إنه يريد أن يراه ، فذهب الرجل إلى ناسك صالح فى جيرتهم وتوسل إليه أن يريه ربه فقال له الناسك إنه لن يراه إلا إذا ظفر بمحبته وإنه لن يطيق من هذه المحبة أكثر من نصف مثقال ذرة . ثم تفقد الناس الرجل على عادته بينهم فلم يجدوه ؛ وتعقبوه فبصروا به قائماً على صخرة شاخصاً ببصره إلى السماء ، وناداه الناسك فلم يجب ، ثم ناداه الطفل بصوته الصغير الحنون : يا أبت . . ألا تعرفنى ؟ . فلم يبد حراكاً . فقال الطفل : الذنب ذنبى ، أنا الذى سألته أن يرى الله ، والتفت إليه الناسك وقال وكأنه يخاطب نفسه : أرأيت؟ إن نصف ذرة من نور الله تكفى لتحطيم تركيبنا الآدمى ، وإتلاف جهازنا العقلى .

ونحسب أن ذرة هيروشيما لم تكن غائبة عن ذهن الحكيم حين كتب عن هذا « النصف من مثقال الذرة » من الحقيقة الإلهية .

ونحسب أن القصة كانت تستساغ على اعتبار واحد : وهو أن نعتبر الابن كما كانوا يعتبرونه من قبل قنية مملوكة لأبيه ، كل الفرق بينه وبين ما يملكه الأب من أمواله وذخائره أنه أمر المقتنيات فعلى هذا الاعتبار يصح أن يقال إن الأب يتجرد من أنانيته ومن أعز ما يملك حين يتخلى عن وليده .

أما الوليد الذى هو روح حى يصور لنا المحبة الإلهية الخالصة فإن حب الله بعيد جداً ممن يصم أذنيه عن استغاثته ولن يكون فى حضرة الله من يغيب عنه هذا المخلوق الضعيف من مخلوقاته .

ولكننا نعود فنقول إن الذنب كله على الذرة التى تحطم التركيب الآدمى وتتلف الأجهزة جميعاً ، ومنها أجهزة العقول !

ساعة فى ألف ليلة . . *

سحر الشرق

دارت فى الشهر الماضى مناقشة متشعبة على صفحات « التيمس » الأدبية ، موضوعها ترجمة ألف ليلة وليلة إلى اللغة الإنجليزية .

هذه المجموعة القصصية التى يعرفونها فى الغرب باسم الليالى العربية ، قد ترجمت مراراً فى كل لغة من لغات الغرب الحديثة ، وقد ترجمت أربع ترجمات إلى اللغة الإنجليزية ، أحسنها فى رأى النقاد المشرقيين والمغربيين ترجمة شارل برتون صاحب الرحلة المشهورة إلى الحجاز ، وصاحب الأسلوب الأدبى الذى يضارع أجمل الأساليب بين أدباء عصره .

وموضوع المناقشة الأخيرة أن الأستاذ أربرى ترجم من هذه القصص طائفة مختارة فاستخدم الكلمات السوقية فى مقابلة الكلام الذى ينقل على لسان العامة ، وأغضب بذلك فئة من المفتونين بسحر الشرق لأنه أفسد هذا السحر ، كما قالت إحدى القارئات السيدة « دورا ياتس » فى تعليقها على نقد الكتاب .

وعند هذه السيدة أن الأسلوب الذى ترجمت به الكتب المقدسة هو أجدر الأساليب أن ينقل إلى الغرب سحر الشرق وروعته وأخبار الجن والطلاسم والحريم التى تفيض بها رواياته وكتبه ، وهى تقول إن الترجمة العامية قد تركت هذه المائدة المشتهاة طعاماً بغير بهار ؟ وماذا يبقى من نكهة المائدة الشرقية إذا خلت من البهار ؟

استوقفتنى هذه المناقشة طويلا لأنها تفتح لنا أبواباً كثيرة للتأمل فى أسرار البلاغة والتأثير بالعبارة فى اللهجات المختلفة .

فنحن الشرقيين نقرأ ألف ليلة بأسلوبها المعروف ، أسلوب اللغة الفصيحة التى تحاكى العامية ، أو اللغة العامية التى تحاكى الفصيحة ، فليس فيها صفحة واحدة أرفع من أن تفهم فى السوق وعلى لسان شاعر الربابة ، ونحن نقرأها بهذا الأسلوب فلا نستغربها ،ولا يخطر لنا أن تغيير الأسلوب يزيد شيئاً

---

* أخبار اليوم ١٣ / ٣ / ١٩٥٤ .

فى تأثيرها وتشويقها ، بل لعلها لو كتبت بأبلغ من عبارتها المعهودة لكان هذا هوموضع الاستغراب عندنا . وهو الذى يتركها أمامنا طعاماً بغير بهار . .

فمن أين نشأ اختلاف النظر إلى مسألة الأسلوب أو مسألة المحافظة على جو المشرق فى هذه الأقاصيص ؟

نشأ من الفارق بين الابتذال والسحر فى نظرة المشرقيين والمغربيين إليها .

فنحن إذا قرأنا ألف ليلة حضر فى أخلادنا أننا نقرأ أخبار اللهو واللغو ونعيش بين ذوى البطالة والمجانة ، ولا ننتظر من هذا الجو شيئاً من السحر والغرابة ، فهناك مواءمة تامة بين اللغة والموضوع ، وما كانت أخبار الملاهى المبتذلة لتكتب بلهجة أرفع من لهجة السوق والحانة .

أما قراء الغرب فهم يتوقعون الغرابة قبل كل شىء ، ويزيدهم شعوراً بالغرابة أنهم ينظرون إلى شىء بعيد فى الزمن والمكان وشىء خفى عن البصر والخيال ، وليس بين هذا الجو المسحور و بين لهجة الابتذال مواءمة ولا امتزاج .

ولهذا نقول كلما تكلمنا عن اللغة الفصحى واللهجة العامية أن المعول كله على تهيئة « الجو » حول الموضوع ، فلا يأتى يوم يكون فيه جو التعليم والمتعة المنتقاة كجو الهزل وتزجية الفراغ .

وعلى سبيل الامتحان يستطيع القارئ أن يختار صفحة من كتاب تاريخ أو كتاب علم أو كتاب أدب رفيع ثم ينقلها إلى اللغة العامية. وينظر إلى الفارق بعد ذلك بين الأثرين والمعنيين .

فأما تجربتنا نحن فقد أسفرت عن رأى لا نرتاب فى صوابه ، وهو استحالة الاكتفاء باللغة العامية فى جميع موضوعات الكتابة العلمية والأدبية ، وإذا دعانا الأمر إلى استخدام العامية وجدنا أنها تصلح للموضوعات الموقوتة فى بيئة محدودة ، ثم تنتهى لساعتها بانتهاء غرضها السريع .

تجربة تيمورية

ونحن نقرأ المناقشة عن ترجمة ألف ليلة وقد وصلت إلينا المسرحية العصرية « المزيفون » التى ألفها الكاتب الكبير الأستاذ محمود تيمور باللغتين الفصحى

والعامية ، فكانت حكماً عمليًّا بين أنصارالفصحى وأنصار العامية من المسرحيين والنقاد .

خذ مثلا فى أول الفصل الخامس من النسخة العامية كلام أبى حجاب وهو يخاطب خادم القهوة :

(خدمة زفت . شغل بايظ . . إيه التأخير دا ؟ ساعة وأنا مستنى النار ؟)

ثم ننتقل إلى النسخة الفصيحة فإذا بأبى حجاب يقول :

«خدمة رديئة . إهمال . فوضى . . ما هذا الإبطاء ؟ ساعة مضت وأنا أنتظر ؟ »

والحكم العملى هنا أن ما يقال بالعامية يمكن أن يقال بالفصيحة دون أن نخسر شيئاً من « الجو » أو المعنى . . فإن لم يكن بد من العامية فلنحسب حسابنا على موضوع لا يعيش أكثر من عامه أو عاميه ، ولا يمكن أن يعيش كما تعيش الآداب الخالدة مئات السنين بين مختلف الأقطار .

ونحن نرى أن تجربة الأستاذ تيمور «حكم عملى» فى صلاح اللغة الفصيحة للتعبير عن (جو) الحياة العامية . ولكننا لا نعرف تجربة واحدة يصدق فيها العكس وهو صلاح العامية لموضوعات الأدب الرفيع والفلسفة والعلم ومختارات البلاغة ، فإن هذه الموضوعات تخسر كل شيء لا محالة إذا انتقلت من جو العقل الخالد إلى جو السكك والحارات وأحاديث المعيشة كل يوم .

وبودنا لو يتكفل الأستاذ تيمور بهذه التجربة فنرى كيف نقرأ الكتاب الذى يؤلفه ابن سينا وإقليدس والشريف الرضى ومحمد عبده مكتوباً بأسلوب القهوة والسوق .

وأبو نواس فى المعمل

أما أبو نواس فى المعمل فهو مفارقة لا يسأل عنها الأستاذ محمود تيمور ، بل يسأل عنها الدكتور طه حسين .

وإنها لمفارقة لا يعيدها إلى السواء إلا أن نخرج صاحبنا من المعمل بأمر الطب وبأمر الأدب متفقين .

لما احتفل العلماء والأدباء ببلوغ « فرويد » سن السبعين وقف أحدهم يحييه فقال : « إننا نحيي الرجل الذى كشف لنا الوعى الباطن . . »

فلم ينس فرويد فى جوابه أن يقول : كلا . إن الفلاسفة والشعراء هم الذين كشفوا العقل الباطن من قبلى ، وما صنعت أنا غير تطبيق علم النفس على ما كشفوه .

تلك هى حقيقة الموقف بين الدراسات الأدبية والدراسات النفسية ، لا يدعى النفسانيون أنهم انتزعوا دراسة الأدب من الفلاسفة والشعراء ، ولكنهم يفهمونها مستعينين بهم ولا يزالون بحاجة إليهم كلما استعصى عليهم النفاذ إلى سريرة شاعر أو أديب .

والعلماء النفسانيون ، على خلاف ما يعتقد الدكتور طه حسين ، يتحاشون المعمل جهد المستطاع فى بحوثهم الأخلاقية والفكرية ، ومن كتبهم التى أمامى كتاب علم النفس والأخلاق لمؤلفه الأستاذ هادفيلد Hadfield من أساتذة كلية الملك بلندن . وفى مقدمته يقول : « إن بحوثى هذه ليست نتيجة عملى فى المكتب أو المعمل بل هى ثمرة الخبرة سنوات »

They are the result not of work in the study or laboratory but are the outcome of many year's experience.

ومن المؤلفات المعدودة فى هذه الدراسات كتاب « الجنس والرمزية والنفسانيات فى دراسة الأدب » لمؤلفه الأستاذ روى باسلر Basler وهو معلم لغة وتاريخ ولا شأن له بالمعامل والعيادات .

وتتجه العناية الكبرى اليوم إلى تعميم الحقائق النفسية وتبسيطها للقارئ المتوسط ومن هو دون المتوسط ، تطبيقاً للآراء الأساسية فى هذه النفسانيات ، ولا يخفى على الدكتور طه أن هذه الآراء الأساسية تقوم على كشف العلة المكبوتة للمصاب ، فلا علة حيث يعرف المرء كيف يراقب نفسه ويحول بينها وبين آفات الكبت والكتمان التى تتسلل إليه على غير انتباه منه إلى بدايتها ، ومن ثم يجتهدون فى تعميم المصنفات التى تعين كل قارئ على الملاحظة والانتباه لما يجرى بين طواياه .

وفى مكتبات القاهرة عشرات من الكتب التى تقرب علم النفس إلى الجماهير كما تدل عنواناتها عليها .

ومنها كتاب للدكتور أوكنور يسميه « علم النفس بغير بكاء » مجاراة للمؤلفات التى يتعلم فيها القارئ ما شاء من اللغات الأجنبية بغير عناء أو بغير دموع .

ومنها كتاب الدكتور إدوارد ويجام : « دعنا نكشف لك عقلك » وهو من مطبوعات الجيب التى يتداولها عشرات الألوف .

ومنها كتاب « قابل نفسك على حقيقتك » وهو رقم ٣٨٢ من مطبوعات بنجوين التى تنفد وتعاد .

ومنها كتب « علم النفس لكل يوم » و « كيف تحلل نفسك » و « علم نفسك علم النفس » وغيرها وغيرها مما لا نحصيه .

ونود أن نقول : إننا نقرأ هذه الكتب ولكننا نعتمد على الأمهات ولا نتقبل منها إلا ما هو جدير بالقبول ، ولا نزال نرى كلما أمعنا فى تتبع المراجع الكبرى أن الطبيب الذى يفوته الاعتماد على كتب الأدب كالأديب الذى يفوته الاعتماد على دراسات الأطباء — كلاهما ناقص الميزان فيما يعرض له من الأحكام .

وقد جاءنا أمس خطاب من طالب بقسم اللغة العربية ومعه كتاب من تأليف الأستاذ حامد عبد القادر الأستاذ بكلية دار العلوم ، جمع فيه محاضراته فى تطبيق علم النفس على الأدب والأدباء وافتتحه بقوله : « هل هناك علم يساعد الأديب الناقد على دراسة عقلية الأديب المنتج غير علم النفس الذى بمعونته يعرف القارئ مدى صدق إحساس الكاتب أو الخطيب أو الشاعر ؟ . . »

قال الطالب النجيب فى خطابه : « إن الأستاذ حامد عبد القادر من أصحاب اللغة والأدب وليس من أصحاب المعامل والعيادات » .

ونحن نشكر الطالب لعنايته بهذا البحث وحسن ثنائه ، ويسرنا أنه هو وإخوانه يعرفون هذه الحقيقة التى عم العلم بها كل معهد من معاهد الدراسات الأدبية ، ولا يصرفهم صارف عن أدوات النقد الأدبى التى لا غنى عنها لباحث فى العصر الحاضر ، وكل ما يعنينا أن نقرر الرأى الحاسم فى هذا الموضوع ! هل يجب على

الناقد الأدبي دراسة التحليل النفساني أو عليه أن يترك ذلك للأطباء وأصحاب المعامل والعيادات ؟

أما الدكتور طه حسين فيقول : إن هذه الدراسة غير واجبة ، وأما نحن فنقول : إنها واجبة وشاهدنا الأول على ذلك الدكتور طه حسين نفسه ، فإن إعراضه عن هذه الدراسات قد ساقه — وهو من هو علماً واطلاعاً — إلى أخطاء واضحة في نقد أبي نواس بصفة خاصة ، كان خليقاً أن يتجنبها لولا إعراضه عن تلك الدراسات ؛ فما بالنا بالناشئين المبتدئين من الأدباء وهم في دور الطلب والتحصيل ؟

فمن أخطاء الدكتور طه أن ينسب أبا نواس إلى الشعوبية لأنه يستنكر وصف الطلول ، وبين أبي نواس والشعوبية ما بين المشرق والمغرب كما يقولون .

من هم الشعوبيون ؟

فالشعوبيون هم الأعاجم والموالي الذين لا ينتسبون إلى العرب بالحق أو بالباطل وفي مقام الجد أو في مقام المزاح ، ولكنهم يفخرون بأصولهم الأعجمية ويقولون إن العربي لا يفلح إلا ومعه نبي ، ويترفعون عن النسبة العربية اعتزازاً بما لهم من أنساب الفرس والديلم والترك وسائر الشعوب .

وأين من هذا أبو نواس ؟

إنما كان أبو نواس يحتال على النسب اللصيق ويتنقل فيه بين الأصول عسى أن يقبله أحد من المنتسبين إليها ، فلما أنكره أصحاب النسب راح يهجو النزارية تارة واليمانية تارة أخرى ولم يخطر له قط أن يدع النسبة العربية إلى النسبة الأعجمية ، بل كان يركن إلى مجالس العجم الذين لا يفخرون بنسب ولا يسألون العربي بياناً عن نسبه وهم يهابونه ويبجلونه ، ومن ذلك قوله :

لا يبذخون على النديم إذا انتشـــوا ولهم إذا العرب اعتدت تسليم
وجميعهم لي حين أقعـــد بينهم بتذلل وتهيب موسوم

فلا هو شعوبي ولا العجم الذين يلوذ بهم شعوبيون ، ودراسة علم النفس هي التي تبين لنا ولعه بهجو الطلول لأن هذا الهجو هو حيلة المحروم فهو يفسر لنا وقوفه على الطلول كما يفسر لنا إنكاره للوقوف عليها .

ويتصل الأمر اتصالا وثيقاً بتقويم الكلام فى ميزان النقد الأدبى فلا تقف جدواه عند تفسير الأخلاق والنوازع النفسية .

مثال ذلك أن مشكلة الغزل المؤنث فى شعر النواسى قد واجهت الدكتور طه فلم يتخلص منها إلا بقوله : إن غزل المؤنث فى هذا الشعر مصنوع لا يساوى غزل المذكر بصدقه وجودته ، وإنما اضطر الدكتور طه إلى هذا المخلص لأنه فهم من شذوذ أبى نواس أنه الشذوذ الذى يولعه بأبناء جنسه ، فمن الواجب إذن أن نخلق الفرق بين الغزلين خلقاً ولا فرق فى الحقيقة هناك .

ولو فرضنا أن الفرق موجود بين الغزلين وأن هذا الفرق يفسره شذوذ أبى نواس بهذا المعنى ؛ فكيف نفسر اهتمامه بالمجاهرة ؟ وكيف نفسر أنه فاعل منفعل ؟ وكيف نفسر لجاجته بالخمر مع ذكر الطلول على الدوام لهذه المناسبة ، وكيف نفسر هذا التوافق بين أحواله الجسدية وأطواره النفسية ؟

إننا لم نخترع أعراض النرجسية ولم نبتدع وصف هذه الآفة فى كتب الدراسات النفسية ، ولكنها أوصاف موجودة مقررة فى مواضعها عرضناها على سيرة أبى نواس فانطبقت عليها ، ولم نزد من عندنا شيئاً على السيرة ولا شيئاً على أعراض النرجسية ، فلا مناص من فهم أبى نواس على هذه الصفة ولا يقبل من الدكتور طه أن يقول هذ صواب وهذا خطأ فيما فاته أن يطلع عليه ، وإنما يحق ذلك لمن اطلع وتوسع فى الاطلاع فهو يخالف وصفنا للنرجسية أو يخالف وصفنا لأبى نواس ويذكر أسباب المخالفة معتمداً على مراجعها .

ومن تفضل بهذا التصحيح فنحن لتصحيحه منتظرون ، وكل شرطنا — بل شرط البحث عليه — أن يستند إلى دليل معلوم .

ولقد غظتمونا يا ناس

ومرة أخرى نلتفت إلى أدعياء التجديد ونظنهم يعتقدون اليوم أنهم تركوا العقاد يتقلى من الغيظ بعد ما كتبوه فى تلك الرطانة الجوفاء حيث يكتبون .

ولم لا يتقلى العقاد ويجفوه طيب الرقاد ؟ ألم يقل الأدعياء البارعون إنه مدح

فاروقاً ، وأنه ألف كتاب هتلر فى الميزان، وأن الدكتور طه حسين عميد الأدب العربى على الرغم من أنف العقاد ؟

غظتمونا أيها الناس . . .

لكننا فى هذه المرة أيضاً نضبطكم ولا نناقشكم ، ونكشف أمركم لمن يتفرج عليكم فى الدبوس الذى نشككم فيه ، فلا كتابة لوجه الأدب ولا لوجه الأمانة الثقافية ، ولكنها مماحكة صبيانية يستهان فيها بالحق والخلق والتاريخ ، ولا ميزان لها غير الميزان المعهود عند أصحاب مايكوفسكى وايسنين وإخوانهم أجمعين من منتحرين أو فى حكم المنتحرين .

أما فاروق فقد « لعنا أباه » حرفياً فهل سمع أحد أننا زحفنا على بطوننا إلى عرشه يوم كان له عرش تزحف إليه البطون ممن تعلمون ولا تعامون ؟

إنه على هيامه بذكرى أبيه قد تقرب إلينا ولم نقترب إليه ، وسئلنا أن نستقبله فى بعض المناسبات يوم كان الناس جميعاً يمدحونه ولم يكن أحد يعيبه سراً ولا علانية ، فقدمنا له النصح فى قالب المدح ووصفناه بما ينبغى أن يتصف به من تفدية الرعية وصيانة الاستقلال والحرية ، ولم نطلب قط أن نلقاه إلا وقد كان هو قبل ذلك طالب اللقاء ، وهذه سجلات القصر محفوظة يرجع إليها من يشاء .

فلو كان مدح فاروق ما تنكرونه لأنكرتم قبل ذلك على من مدحوه فى أسوأ أيامه وإلى آخر أيامه ، ولم تنكروا منا موقفاً تعلو به الرءوس .

أما كتابنا هتلر فى الميزان فهو شرف العقل وشرف الأخلاق ، لأننا كتبناه غير مأجورين كصاحبكم الصهيونى أهرنبرج الذى أنحى على النازية شفاء لحزازة وتنفيذاً لسخرة ، وكتبناه يوم كان الساسة من أشباه الأميين يحسبون أنه قد ملك الدنيا وما عليها، واستوثق من النصر الأخير بغير كلام .

ولو كانت الحملة على النازية هى التى تعنيكم لعظمتموها فوق تعظيمكم للخواجة أهرنبرج الأجير ، ولكنها المماحكة ولا شىء غير المماحكة ، وكل ما عداها عندكم فضول .

أظنكم تهمسون أو تجهرون بخدمة الدعاية البريطانية وليس الافتراء من أمثالكم بعسير .

فإن يكن الافتراء منكم يسيراً فهو علينا عسير جد عسير ، ودونه وتنقطع الألسنة وتخرس المكابرة ، بالقول القاطع لا بالاختلاق والتشهير .

اللواء شوقي عبد الرحمن حي موجود كان في أيام الحرب ضابط الاستعلامات بوزارة الدفاع المصرية ، وهو الذى يعلم أن الإنجليز سألوا عن الكتاب وطلبوا منه نسخاً لتوزيعها بعد طبعه وتداوله ، فكانت النسخ التي اشتراها لا تزيد على ثلثمائة نسخة — وهي كل ما وصل إلى الإنجليز ولم يصل إليهم إلا من طريق الحكومة المصرية .

ومرجع آخر ترجعون إليه لأنه مكتوب ومحفوظ ، ذلك هو مرجع المكافآت البريطانية بعد نهاية الحرب العالمية . . فإذارجعتم إليهاوجدتم فيها أسماء سادتكم ولم تجدوا فيها اسماً لكاتب هذه السطور ، لأن كاتب هذه السطور يكتب لوجه الأدب ولوجه الإنسانية ، ولا ينسى أن ينحى على الاستعمار كلما أنحى على النازية والفاشية .

وهذه حقائق مجهولة يسوقكم الله إلى كشفها فضيحة لكم وتشريفاً لنا ، فزيدوا نزدكم مما تجهلون ولا يعلمه إلا الأقلون ، في بلد تجوز فيه الأضاليل ولا تنكشف فيه الحقائق إلا بألف دليل . .

وحكاية العمادة الأدبية حكاية هايفة دوروا على غيرها ، فهي لعبة أطفال ليست على كل حال بشغلة رجال .

إنكم إذا قلتم : « إن الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي على الرغم من العقاد » لم يجهل أحد من الذى يغيظكم من الرجلين ،ولم يخف على أحد ممن أنتم مفلوقون ومخنوقون .

ولا أحسب أن الدكتور طه حسين يسره أن يكون اسمه ذريعة للمماحكة وشفاء الضغينة على حسب الظروف .

لكنني أنا يسرني أن أغيظكم وأعلم أن غيظكم حقيقة لا تستطيعون أن تزيفوها إذا استطعتم أن تزيفوا الثناء المقلوب ، وهل تحسبون أنني ألفت عشرات الكتب

تحطيماً للمادية والحيوانية كي أظفر منكم آخر الأمر بألقاب الرضى والثناء ؟

ضاع إذن ما صنعنا نيفاً وثلاثين سنة ، وما كنا لنقيس نجاحنا بالحملة على مذاهب الدمار إلا بمقياسين اثنين أحدهما عندنا أصح من أخيه .

فالمقياس الأول هو الإقبال من الراضين الشاكرين ، وهو بحمد الله عظيم .

أما المقياس الآخر — وهو الأصح عندنا — فهو الغيظ الذى يتأجج فى صدوركم أو صدور سادتكم من ورائكم ، وعتبنا عليكم أنه لم يبلغ بعد غاية مداه فإننا والله لنستحق من غيظكم فوق ما تبدون وتضمرون .

زيدونا بالله . .

لا بل زيدونا ، نستغفر الله ، بحق أهرنبرج ومايكوفسكى وايسنين ، وسائر الرفقاء الأحياء والمنتحرين ، من أقطاب الأدب الحى فى سبيل الحياة . . إلى يوم الدين . .

الأخ الذى تزوج أخته فى ألف ليلة وليلة*

علم النفس فى هذه الأيام متعب أشد التعب ، لكثرة ما يعرض عليه وقلة مما يفيده فى الحالات التى تزدحم بها (عياداته اليومية) للكشف والعلاج .

أخ يعاشر أخته ، وقبل ذلك أم تعاشر ولدها ، وبين ذلك زوجات يتنقلن فى الشهر الواحد من زوج إلى زوج بغير طلاق ، ومع هذا كله حوادث الإجرام التى يقع فيها العدوان من الأمهات على أطفالهن الصغار ، أو من الأبناء على الآباء .

وليس أسهل من «توصيف» هذه الحالات بالمصطلحات المتفق عليها بين الأطباء النفسانيين .

وليس أصعب من إثبات هذا «التوصيف» بالأعراض البينة التى لا تقبل الخلاف .

* * *

نكسة

فأول ما يسبق إلى اللسان فى جميع هذه الحالات كلمة النكسة Atavism أو الارتداد Reversion .

إنها حالات أناس رجعوا إلى الوراء بضعة آلاف من السنين ، وخرجوا على المجتمع الذى يعيشون فيه اليوم ليرتدوا إلى مجتمع عاش فيه آباؤهم قبل ثلاثة آلاف سنة ، أو عاش فيه آباؤهم على عهد الهمجية والسكنى فى الكهوف .

والسهولة هنا فى كلمة النكسة السريعة إلى اللسان ، والصعوبة بعد ذلك فى عدة أمور ، لا فى أمر واحد .

الصعوبة الأولى أنك تبحث الاختلاف بين زمن وزمن وبين مجتمع ومجتمع لتطبقه على بنية إنسان واحد .

والصعوبة الثانية أن المجتمع الذى تبحث عنه لا يلزم أن يكون هذا المجتمع الكبير الذى يشمل الأمة بجميع أبنائها وطوائفها ، بل يجوز أن يكون مجتمعاً صغيراً

---

* أخبار اليوم ٢٠ / ٨/ ١٩٥٥ .

محدوداً ينشأ فيه الإنســان من طفولته فيستمد منه العادات والأخلاق التى تخالف عادات الأمة وأخلاقها فى جملتها ، فلا يكون « الإباحى » منكوساً « بالاصطلاح النفسى Psychosis أو الاصطلاح العصبى Neurosis الذى يطلقونه على الأمراض وضروب الاختلال ، بل يكون إنساناً عادياً غير مصاب فى بنيته لأنه ينقل أحوال البيئة التى يعيش فيها نقلا صادقاً بغير تحريف ، كأنه المرآة التى لا عيب فيها لأن الصورة القبيحة منقولة فيها على حقيقتها ، وإنما القبح من الصورة لا من المرآة : ولا يقال إن المرآة معيبة إلا إذا كانت تخطئ فى نقل الصور أو لا تنقل شيئاً منها منحرفاً أو غير منحرف ، فهى لا تتلقى الشعاع ولا تعيده إلى الأنظار .

قبل ثلاثة آلاف سنة لم يكن يخطر لأحد أن الزواج من الأخوات مرض يستدعى البحث عن أعراضه النفسية أو الاجتماعية ، لأن العرف كان يجيزه أو يسكت عنه ولا يراه مستحقاً للتمييز بحكم خاص فى علاقات الزواج .

ثم جاءت الشريعة بتحريم هذا الزواج ومضى الزمن على ذلك عصوراً بعد عصور ، فإذا وقع من أحد بعد هذه العصور الطويلة خلاف للشريعة فليست المسألة هنا « جريمة قانونية » وحسب ، ولكنها مرض نفسانى يدل على اختلال « الموصل » العقلى بين الإنسان وبين المجتمع الذى يعيش فيه ، كجهاز الإذاعة الذى لا يؤدى الأصوات على حقيقتها ، فهو محتاج إلى الإصلاح والعلاج ، أو إلى التأديب والتقويم بلغة القانون .

والصعوبة الكبرى حين ينقسم المجتمع إلى مجتمعين مختلفين : أحدهما المجتمع الكبير بعاداته وأخلاقه الشائعة على الإجمال ، والآخر مجتمع صغير ينطوى على نفسه بعادات غير تلك العادات وأخلاق غير تلك الأخلاق ، فلا يلزم من المخالفة أنها دليل على اختلال أو على موصل ردىء . . وإنما تكون الرداءة من المجتمع الصغير كله لأسباب ترجع إلى ظروف الاجتماع ولا ترجع إلى النفسانيات والعصبيات : تكون الرداءة فى عائلة أو مجموعة من العائلات .

* * *

من إبراهيم إلى داود

ولم يكن المصريون الأقدمون منفردين بين الأمم بإباحة الزواج فى المحارم وبين الأقربين من الأخوة والآباء ، بل كانت هذه الإباحة عامة بين الأمم التى نزلت فيها الشرائع الكتابية بعد ذلك ، وأولهم العبرانيون الذين نزلت بينهم الشريعة الموسوية

فنى الإصحاح العشرين من سفر التكوين يقول إبراهيم الخليل عن زوجته سارة : « وبالحقيقة أيضاً هى أختى ابنة أبى غير أنها ليست ابنة أمى ، فصارت لى زوجة » .

وفى سفر التكوين أيضاً يقول لابان ليعقوب : « ألأنك أخى تخدمنى مجاناً ؟ أخبرنى ما أجرتك ؟ . . . وأحب يعقوب راجيل ابنة أخيه لابان فقال : أخدمك سبع سنين براجيل ابنتك الصغرى » .

ثم جاءت الشريعة الموسوية بتحريم هذا الزواج ولم تستثن الأخوات من الآباء أو الأخوات من الأمهات ، فانقطع زواج المحارم ولم يحصل بعد انقضاء القرون على هذا التحريم إلا من قبيل النكسة المعيبة ، كما حصل فى أيام داود بين ابنه أمنون وبنته ثامار ، وهى قصة من أحفل القصص بمواضع الدراسة والتأمل للمشتغلين بالنفسانيات و « تشخيص » العواطف بفن من الفنون .

* * *

بين أمنون وثامار

إذ جاء فى الإصحاح الثالث عشر من كتاب صمويل الثانى أن أمنون أحب ثامار أخته لأبيه . . « وقال أمنون : أخرجوا كل إنسان عنى . فخرج كل إنسان عنه ، ثم قال أمنون لثامار ائتى بالطعام إلى المخدع فآكل من يدك ، فأخذت ثامار الكعك الذى عملته وآتت به أمنون أخاها إلى المخدع وقدمت له ليأكل فأمسكها وقال لها : تعالى اضطجعى معى يا أختى. فقالت له : لا يا أخى لا تذلنى . لأنه لا يفعل هكذا فى إسرائيل . . فلم يشأ أن يسمع لصوتها بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها ، ثم أبغضها أمنون بغضة شديدة جداً حتى إن البغضة التى أبغضها إياها كانت أشد من المحبة التى أحبها إياها ، وقال لها أمنون : قومى انطلقى ،

فقالت له : ألا سبب ؟ إن هذا الشر بطردك إياى هو أعظم من الآخر الذى عملته فى . فلم يشأ أن يستمع لها ، بل دعا غلامه الذى كان يخدمه وقال : اطرد هذه عنى خارجاً واقفل الباب وراءها . . »

ونقول إن قصة أمنون وثامار من أحفل القصص بمواضع الدراسة والتأمل لأن هذه « البغضة » الشاذة تقترن على الغالب بأمثال تلك العاطفة الشاذة التى تدفع « المصاب بها » وراء رشده ثم يثوب إلى الرشد مع « رد الفعل » المفاجئ فتنقلب العاطفة الجامحة إلى بغض شديد ونفور من النظر إلى « الشخص » الذى ابتلاه بهذا التقلب الأليم بين الاندفاع والنكوص ، وتلاحظ مع هذه الظاهرة النفسية ظاهرة أخرى من شعور المرأة المهانة بعد اغتصابها ، فإن شعور المغصوبة المطلوبة أهون عليها من شعور المرأة المهانة بعد اغتصابها ، سبب ، كما قالت ثامار .

* * *

بعد الإسلام

وقد حرم الإسلام ضروباً كثيرة من الزواج لم تكن محرمة فى الديانات الكتابية التى سبقته ، ولكن الكثير منها كان محرماً أو مكروهاً بين العرب الجاهليين ، فلم يستبيحوا زواج الأخت أو امرأة الأب إلا من كان منهم على دين المجوس إلى جوار فارس بالبحرين ، ومنهم لقيط بن زرارة الذى تزوج بنته وسماها بالاسم الفارسى « دختنوس » . . وكانوا فى العرف الشائع يمقتون الزواج من المحارم ويسمون الأبناء الذين يولدون منه « بالمقيتين » من المقت وهو أشد الكراهية ، وأطلقوا اسم « الضيزن » على الولد من الزواج المحرم . ثم مضى الزمن ولم تعهد فى المجتمعات الإسلامية نكسة مرضية من تلك النكسات الممقوتة فى الجاهلية والإسلام ، وبلغت من المقت مبلغاً يذهل الأب عن الرحمة فى موقف الموت المرهوب ، كما يؤخذ من قصة الأخوين العشيقين فى روايات ألف ليلة وليلة المعروفة ، وهى أصدق سجل للعادات والأخلاق فيما بعد الإسلام ببضعة قرون .

* * *

من ألف ليلة وليلة

في إحدى قصص ألف ليلة قصة الأخ الذى أحب أخته وبنى له ولها قبراً محفوراً تحيط به الجدران ويعلوه قبو يهبط منه النازل خمسين درجة ليموتا فيه ، وتوسل إلى ابن عمه أن يصحبه ليغلق عليه وعليها فتحة القبو وهى محجبة لا يعرفها . . ثم أراد أن يعود إلى القبر بعد اطلاع عمه على جلية الخبر فلم يهتد إليه . قال : « ثم ذهبت أنا وعمى إلى الجبانة ونظرت يميناً وشمالا فعرفتها — أى التربة — ففرحت أنا وعمى فرحاً شديداً ودخلت أنا وإياه التربة وأزحنا التراب ورفعنا الطابق ونزلت أنا وعمى مقدار خمسين درجة فلما وصلنا إلى آخر السلم إذا بدخان طلع علينا فغشى أبصارنا، فقال عمى الكلمة التى لا يخاف قائلها وهى : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ثم مشينا وإذا نحن بقاعة ممتلئة دقيقاً وحبوباً ومأكولات وغير ذلك ورأينا فى وسط القاعة ستارة مسبلة على سرير فنظر عمى إلى السرير فوجد ابنه هو والمرأة التى قد نزلت معه صارا فحماً أسود وهما متعانقان كأنهما ألقيا فى جب نار ، فلما نظر عمى ذلك بصق فى وجهه وقال تستحق يا خبيث فهذا عذاب الدنيا وبقى عذاب الآخرة وهو أشد وأبقى . . ثم إن عمى ضرب ولده بالنعال وهو راقد كالفحم الأسود فتعجبت من ضربه وحزنت على ابن عمى حيث صار هو والصبية فحماً أسود ، ثم قلت بالله يا عمى خفف الهم عن قلبك فقد اشتغل سرى وخاطرى بما قد جرى لولدك وكيف صار هو والصبية فحماً أسود، أما يكفيك ما هو فيه حتى تضربه بالنعال ؟ فقال : يا ابن أخى ! إن ولدى هذا كان من صغره مولعاً بحب أخته وكنت أنهاه عنها ، وأقول فى نفسى إنهما صغيران فلما كبرا وقع بينهما القبيح وسمعت بذلك ولم أصدق ولكنى زجرته زجراً بليغاً وقلت له : احذر من هذه الفعال القبيحة التى لم يفعلها أحد قبلك ولا يفعلها أحد بعدك . . ثم حجبته عنها وحجبتها عنه وكانت الخبيثة تحبه محبة عظيمة وقد تمكن الشيطان منهما . . فلما رآنى حجبته فعل هذا المكان الذى تحت الأرض خفية . . إلخ إلخ » .

وأسلوب هذه القصة يدل على فرط الاستنكار وندرة هذه الرذيلة وتردد القصاص فى روايتها حتى يسوغها بالنفور الذى لا حد له من أحق الناس بالشفقة على الجانبين ، وهو أبوهما الذى يراهما أمامه جسدين محترقين .

* * *

نكسة الجماعة

وقد تصاب بهذه النكسة جماعة من الناس ولا ينفرد بها أخوان منعزلان ، وهذا أقرب إلى طبيعة التمرد على العرف فإنه يتطلب من المتمرد جرأة تتعاون عليها الجماعة ولا يطيقها الفرد على حدة .

ولكن الجماعات التى أصيبت بهذه النكسة فى المجتمع الإسلامى لم تقترفها إلا بعد التحلل من أحكام الدين كله ، وأشهر هذه الجماعات طائفة القرامطة التى ظهرت قبل عشرة قرون وانتحلت لها نحلة الباطنية حيناً ونحلة الرافضة حيناً آخر ، ولم يكن لأصحابها من خلاق فى المجتمع لأنهم أشتات من الزط « أى البوهيميين » والعبيد وأراذل العجم المشردين ، ومن المنتسبين إلى بعض طوائفهم شاعرهم الذى يقول فى خطابه للفتاة :

تولى نبي بنى هـاشم   وهـذا نبى بنى يعـرب
فـلا تمنعى نفسك المعر   سين من الأقربين أو الأجنبي
فـكيف حللت لهـذا الغـر   يب وصرت محرمة للأب
أليس الغـراس لمـن ربـه   ورواه فى الزمن المجدب ؟

وليس أدل على استنكار هذه الرذيلة من قدرة المجتمع فى ذلك العصر على سحق هذه النحلة الباغية مع انحلاله وتفكك أوصاله واضطراب أمر الحكم فيه بين الدولة العباسية والدولة الفاطمية وعشرات من الخوارج الثائرين على الدولتين فى المشرق والمغرب ، من تخوم فارس إلى أطراف الشام .

* * *

وفى الغرب الحديث

وقد جاء فى الأنباء البرقية أن قصة الأخوين اللذين استباحا هذه الرذيلة فى القاهرة وقعت من صحافة الغرب موقع الاستغراب فنشرتها مع التعليق عليها والتوسع فى ذيولها وحواشيها ، فلا يفهم من ذلك أن الرذيلة غريبة عندهم نادرة بين شعوبهم ، بل يفهم منه أنهم يستغربونها من الشرقيين ويستكثرون أن تحدث فى أمة لم تشتهر بخلق من الأخلاق فى المسائل الجنسية كما اشتهرت بالغيرة على الأعراض والإقدام

على الموت فى سبيل الذود عن الحرمات .

أما الواقع الذى سجلته ظروف التشريع عندهم فالمفهوم منه أن هذه الرذيلة قد شاعت بينهم حتى اضطروا إلى التشريع لها بعد إهمالها والسكوت عنها ، لما سبق إلى ظنهم من غرابتها وخروجها عن المعقول .

* * *

شاعر القرن التاسع عشر

فقد كان اللورد بيرون شاعر القرن التاسع عشر فى القارة الأوربية يعاشر أخته ويربى وليدته منها ، وقد كبرت هذه الوليدة وتزوجت وأعقبت بنتاً معروفة بهذا النسب نعاها البرق وأشار إلى انتسابها للشاعر منذ سنوات .

ثم فعلت القدوة السيئة فعلها فتكررت ظواهر النكسة فى المجتمع الإنجليزى حتى اضطر المجلس النيابى عند أوائل هـذا القرن (سنة ١٩٠٨) إلى وضع قانون يعاقب عليها بالسجن ويخول القضاء أن يحكم بالسجن مدى الحياة إذا كانت الأخت أو البنت أو القريبة التى تستباح دون الثالثة عشرة .

* * *

ولا بد من قانون

ولابد لنا من قانون كهذا القانون ، لأن حادثاً واحداً يكفى لتقرير العقاب عند وقوع الجريمة ، وإن كانت من الندرة والغرابة بحيث لا تتكرر أكثر من مرة فى كل جيل .

ونحن — على هذا — نعتقد أنها فى العصر الحاضر أندر مما كانت فى العصور الماضية ، وإنما الجديد فيها أن أخبار هذا العصر تنشر وتذاع يوماً بعد يوم ، وأن نموذجاً واحداً كنموذج ألف ليلة ليطوى وراءه نماذج لم تحصرها الروايات

ولا جديد فى الطبيعة ! . .

والإنسان إنسان حيث كان .

سومرست موام فى الثمانين

تقليد محترم

من عادة الغربيين أن يحتفلوا ببلوغ أدبائهم المعروفين سن الثمانين ، وهى عادة تقليدية كواجب التحية فى البيئات المهذبة يطالب بها الإنسان المهذب ، وإن كان على نفور أو كراهية لمن يحييه ، وله أن يشوب تحيته بما يعن له من الفتور أو الغمز المستور ، ولكن ليس له أن يهمل هذا الواجب فى مجتمع « محترم » .

وقد كان معروفاً منذ شهور أن الكاتب العالمى « سومرست موام » سيبلغ الثمانين فى مطالع هذه السنة ، فلم يستشرفنى خبر من أخبار الأدب الغربى فى هذه الآونة كما استشرفنى أن أعلم كيف تمر هذه « المشكلة الدبلوماسية » بعالم الأدب ، لأن الاحتفال بالكاتب العالمى واجب ولكنه فى الحق مشكلة دبلوماسية أدبية لغرابة الموقف بينه وبين قرائه أو بينه وبين المجتمع الأدبى كله فى بلاده . . إذ هو موقف لم نعرف له مثيلاً فى سيرة أحد من الأدباء الأحياء .

مشكلة دبلوماسية فى عالم الأدب

فالقراء يعجبون بكتابة موام ويقبلون عليها ، بل يتخطفونها كلما ظهر له تأليف جديد فى القصة أو الحكاية الصغيرة أو المسرحية . .

ويحدث أحياناً أن تمثل له أربع مسرحيات فى أسبوع واحد ، فتمتلئ المسارح الأربعة وتطول مدة العرض أسبوعاً بعد أسبوع . .

ونعتقد أن هذا الإقبال مستحق من الوجهة الفنية بغير خلاف ، وأقيس ذلك على نفسى فأذكر أننى لا أعرف غير أديبين أتناول كتبهما فى كل وقت وعلى ثقة من القراءة بغير ملل ، أحدهما هنريك هاينى الشاعر الألمانى والآخر هو هذا الكاتب سومرست موام .

وكل ما بينهما من الفرق عندى أن الأول أحبه وأشعر بالعطف نحوه ، وأن الثانى « أعامله » معاملة فنية ، ولا أجاوز ذلك إلى المحبة والعاطفة . .

ولم هذا . . ؟

* أخبار اليوم ٦ / ٢ / ١٩٥٤ .

تلك هى المشكلة الدبلوماسية ، وهذه هى حلولها كما خطرت للناظرين فيها وفى حلولها .

إن التحفظ الذى يحيط بسمعة هذا الكاتب يرجع فى رأى المعجبين به وفى آراء الآخرين إلى فروض كثيرة ، لأنه غير معروف على وجه اليقين .

فنهم من يرجع به إلى قصة ألفها وظن القراء أنه يلمح فيها إلى سيرة الشاعر الكبير « توماس هاردى » ويتحدث عن علاقته مع زوجته ، وقد نفى موام هذه الشبهة نفياً شديداً، ولكنها لم تزل عالقة بالأذهان كدأب جميع الشبهات .

ومنهم من يرجع به إلى اشتغاله بالجاسوسية أثناء الحرب العالمية الأولى وهو قد اشتغل بالجاسوسية لمصلحة دولته ولكنه عرض أناساً للهلاك من جراء ذلك ، فلم تسلم سمعته من غبار هذه الصناعة المحرجة .

ومنهم من يرجع به إلى نشأته الفرنسية ، لأنه ولد فى باريس وتربى فيها ولم يألف المعيشة فى عاصمته كما ألف المعيشة فى العاصمة الأجنبية .

ومنهم من يرجع به إلى سبب غريب ولكنه غير مستبعد ، وذلك هو الاتفاق على كفاءته واقتداره حتى لا يوجد من يشذ عن هذا الاتفاق فيقول : « لا » حين يقول الناس « نعم » ويدور النقاش على هذا بين المعجبين والمنكرين وبين المحبين والمبغضين ، فقد بطل الكلام عنه إذن لأنه من قبيل تحصيل الحاصل أو من قبيل البديهيات التى تعرف مرة واحدة ولا تستعاد . .

ومنهم من يرجع به إلى « الكلبة » وهى الترجمة الحرفية لكلمة Cinoism المأخوذة من اليونانية للدلالة على مذهب الفلاسفة الذين يعيشون عيشة الكلاب ويصفون الناس بخسة الكلاب ، ولكنها تطلق فى العصر الحديث على من يهزأ بالفضائل الإنسانية ويعرضها على علاتها مهتوكة النقاب .

من العشرين إلى الستين

وصاحبنا لا تخفى عليه خافية مما يقال عنه ، لأنه أذكى وأحصف من أن يغالط نفسه فى شىء .

فمنذ عشرين سنة بلغ الستين وخيل إليه أنه يختم حياته فألف كتابه المسمى بالخلاصة وأطلق عليه الاسم الذى يطلق على خلاصة المحاكمات فى قضايا الجنايات. Summiug up .

وردد آراء النقاد عنه منذ افتتح حياته الأدبية فقال . « إنهم وصفونى فى العشرين بالقسوة والوحشية ، ووصفونى فى الثلاثين بالذلاقة، ووصفونى فى الأربعين بالكلبية ، ووصفونى فى الخمسين بالمقدرة الكافية ، ووصفونى وأنا فى عشرة الستين الآن بالسطحية . . ولكننى مضيت فى طريقى . . »

قال بعد ذلك : ولكنه النجاح .

أى نعم . . إنها آفة النجاح بل النجاح الجارف ، وهو عند موام مصيبة حقيقية ، لأنه يختم حياة الأديب ولا يختم حياة الإنسان . .

والواقع أن موام لم يختم حياته الأدبية بكتاب الخلاصة ، بل أظهر بعده كتابين وطائفة من الحكايات التى برع فيها ، ثم أدرك الثمانين هذه السنة وانتظر حتى ينظر إلى قومه وهم يعالجون مشكلته الدبلوماسية الأدبية .

بعد هاردى وشو

فالشاعر هاردى بلغ الثمانين ولم يكن مقروءاً كموام فقصد إليه ولى العهد فى كوخه الريفى وحياه لهذه المناسبة ، وجاءته من الشعراء والكتاب وثيقة جامعة يهنئونه فيها ويندبون منهم كل من استطاع السفر إليه حيث يعيش فى الريف ليحمل إليه تلك الوثيقة مع تحية الإكبار والتبجيل .

وبرنارد شو قد شغل البيئات القارئة فى « ثمانينه » كأنها فى احتفال قومى وتلقى من أقطار العالم تحيات الأدباء والفلاسفة والعلماء ، وانقضت على المسارح أيام وهى تمثل مسرحياته وتستدعى الخطباء للتحدث عن أعماله وأطواره وملكاته . .

ومستحيل أن يكون الاحتفال بموام على هذا المثال أو على ذلك المثال ، ومستحيل كذلك ألا يكون احتفال على الإطلاق . لأن المسألة قد أصبحت فى المجتمع الثقافى مسألة كياسة وجنتلمانية .

فماذا يصنعون بين المستحيلين .

حل المشكلة

إن الدبلوماسية الأدبية عند القوم لا تقل عن الدبلوماسية الاستعمارية ، فقد حلت المشكلة على الوجه الملائم وكانت أول خطوة فى حلها أنهم قالوا عن اليوم إنه عيد ميلاد « غير رسمى » .

وجمع بعض الناشرين مقالات الناقدين التى كتبت عنه فى أوقات مختلفة فجعلوا لها عنواناً يناسبها وهو لغز موام أو عقدة موام Enigma .

وكتبت التيمس افتتاحيتها فى الصفحة الأدبية عن هذا العيد « عير الرسمى » فلم تبخس الرجل حقه من الوجهة الفنية ، ولكنها لم تفارق التحفظ فى أسلوبها كأنها مغصوبة على أداء واجب أو وفاء دين لا يقبل المماطلة ، وعلى هذا الأسلوب المتحفظ تقول : « ليس فى وسعنا إلا أن نعجب بالفن الذى أنجز تماماً كل ما تحراه من الدقة » .

وعلى هذا الأسلوب أيضاً تقول : « إنه كتب كثيراً من الأقاصيص والحكايات التى تدعى بصناعتها المحكمة أنها بلغت كمالاً لم تبلغه فى الحقيقة ، فهى تسلينا وهى تدهشنا وتفاجئنا ، وهى تعجبنا وتسرنا ، ولكن مع كل ما فيها من أحكام الصنعة تتركنا غير قانعين ولما تستوف رضانا . . »

ثم تختم هذا الفصل « المحكم » قائلة : « ومهما يكن حل هذا اللغز أو هذه العقدة فما من ناقد بالغاً ما بلغ اشتداده فى الصرامة يأبى الاعتراف له بأنه قد أضاف الكثير إلى متعة النفس الإنسانية » .

والحل فى رأينا

والحل فى رأينا لا ينفى سائر الحلول ولا يبطل العلل التى أجملناها ولا يخالف هذا الذى ألمع إليه ناقد التيمس الأريب .

إنما هو الرأى فى « الكلبية » أو فى التشاؤم على التعميم . فإن الناس لا ينكرون التشاؤم وربما التذوه وطلبوا المزيد منه ، ولكن على غير طريقة موام . . .

فما الذى ينكرونه من طريقة موام ؟

هل هو قلة البراعة فى الوصف والتصوير ؟ كلا ... فليس فى كتاب العالم من هو أبرع منه وأقدر على التصوير فى ذلاقة وسلاسة لا يشبع منهما من قرءوه وأعادوه .

فهل ينكرون عليه إذن قلة الصدق فى حكاية الرذائل والشرور ؟ . . كلا . . . فليس فيما رواه عن أبطاله وبطلاته رذيلة واحدة يشك القراء فى شيوعها واستضافتها بين جمهرة الناس من العلية والسفلة على السواء .

إنما ينكرون منه أنه يروى هذه الرذائل ويستكثر من روايتها ولا يلوح عليه أنه آسف لها أو محزون لوجودها ، بل لعله أقرب إلى الشماتة بها والرغبة فى ترديدها ، ويخيل إلى القراء أنه لو خير بين بقائها وزوالها لكان أسفه للزوال أكبر من أسفه للبقاء.

إن هناك متشائمين ينعون على الإنسانية رذائلها وعيوبها كأنهم الأب الذى يقول لابنه إنك لن تفلح ، وهو أول من يفرح لكذبه فى هذه النبوءة .

وهناك متشائمون يرددون المساوئ كأنهم الطبيب الذى يتتبع العليل خضوعاً لحكم الصناعة وتيسيراً للعلاج .

أما صاحبنا موام فليس تشاؤمه من هذا ولا ذاك ، ويبدو عليه كأنه يغوص على الرذائل طبقة تحت طبقة ولسان حاله يقول : أليست هذه رذائلكم يا أولاد الحرام . . ؟ أيعجبكم هذا أو أنزل عليكم إلى حضيض دون هذا الحضيض . .

هذا التشاؤم هو الذى ينكره أبناء آدم وحواء . .

قل لهم بلسان كلسان آدم وحواء : إنكم لا تفلحون ، فيردون ما قلت بغير ألم وبغير غضب . .

ولكنك إذا قلت لهم راضياً مغتبطاً إنكم لا تفلحون ، فابلغ الثمانين وانتظر منهم رد التحية بمثلها ، ومثل هذه التحية ما قالوه لسومرست سوام فى عيده غير الرسمى . .

إننا نعجب بأدبك ، ولكن لا يرضينا ولا يغبطنا أن نبذل لك هذا الإعجاب عن رضاً وارتياح . .

رسالاتهم وثقافاتهم

ومن المصادفات فى هذه الصفحة الأدبية من التيمس أنها نشرت مقالها عن سومرست موام ونشرت بعده مقالاً عن المجلات الأدبية تنعى فيه حظ هذه المجلات

وسرعة اختفائها ، وتكرر فيه ما تواتر فى دوائر الأدب من أن هذه المجلات « مقضى عليها بالفناء » ثم ترجو أن يكتب للمجلات الجديدة حظ أسعد من حظها فيعزز بعضها بقاء بعض بدلاً من تنازع البقاء بينها .

وإحدى هذه المجلات التى سميت بمجلة لندن ، يفتتحها الشاعر العالمى « إليوت » صاحب جائزة نوبل منذ سنتين فيقول : إنه يعلق دوام كل مجلة (أولاً) على الوجوه الجديدة التى تقدمها و (ثانياً) على تقريرها القواعد الصحيحة للأدب المعتمد بين جمهرة القراء والنقاد و (ثالثاً) على العناية بالأدب فى اللغة الإنجليزية وفى غيرها . .

ولا يخفى أن « إليوت » نفسه كان صاحب مجلة من أهم المجلات المحتجبة وهى القسطاس ، وقد احتجبت على الرغم من أنها كانت على الشرط الذى فصله لدوام أمثالها فى فاتحة المجلة الجديدة .

أما الذى نراه نحن من الأسباب التى زعزعت مكان المجلات الأدبية بين هذه الأمم القارئة فهو شيوع المبسطات الأدبية وشيوع التعليقات الثقافية العامة فى الصحف الكبرى . .

فالقارئ المتفرغ لقراءة الأدب يستطيع أن يقتنى مائة كتاب من دواوين الشعر والقصص ومجاميع الفصول الأدبية ببضعة جنيهات يؤديها مفرقة فلا يثقل عليه احتمالها .

أما القارئ الذى يعمم قراءته ويطلع على أخبار الأدب كما يطلع على غيرها من الأخبار العامة فالتعليقات فى الصحف الكبرى تغنيه فلا يلتفت إلى المجلات التى تنحصر كتابتها فى موضوع واحد .

وبعبارة أخرى أن المطعم الذى يقدم لزواره صنفاً واحداً من الطعام لا يعيش ، أما المطعم الذى يقدم هذا الصنف بين أصناف فهو أقدر على البقاء ، وبخاصة حين يتيسر تدبير هذا الصنف لكل من يشتهيه على انفراد .

وكلما تتبعنا ظواهر الصحافة الأدبية المحض فى العالم ثبت لنا أن العلة كلها علة نظام التوزيع لا علة نظام الكتابة قديمة كانت أو جديدة ، فالصحافة الأدبية تبقى لو كانت هى أسهل الوسائل لتوزيع المطالعات الأدبية ، ولكنها لا تصبر على المنافسة إذا غلبتها المبسطات الشعبية وسبقتها إلى أيدى القراء المتفرغين لموضوعها .

ولولا ذلك لما احتجبت جميع صحف الأدب التى ظهرت خلال السنوات الأربع الأخيرة بين أناس يقرءون ويكثرون القراءة. ومن تلك الصحف ما لم يكن له شغل غير نشر الجديد ونقله من الأمم الأوربية عامة، غير قانعة بالجديد فى بلادها.

ومن قراء الآداب الأوربية من لا يعرف اليونانية أو الإيطالية أو الإسبانية أو الألمانية. ولكنه كان يتبع الجديد بهذه اللغات مترجماً على صفحات تلك المجلات؛ واحتجبت كلها مع هذا . . .

أليست العلة إذن علة توزيع وليست علة تجديد؟

سيكوباتية أو ماذا؟

لو أقيمت مباراة لمناقضة العلم الحديث فى عشرين سطراً من الكتابة لما استطاع أحد أن ينال الجائزة مع الأستاذ سلامة موسى فى السطور العشرين التى كتبها عن أبى نواس.

والأستاذ سلامة موسى على هذا هو أكثر كتاب مصر ترنماً بالعلم والمناهج العلمية.

قال الأستاذ عن أبى نواس «إنما هو عندى شخصية سيكوباتية، أى أنه مجرم . .»

ثم قال: «لو أن أبا نواس كان يعيش فى مجتمع يختلط فيه الرجال والنساء، ولو أنه كان قد تعلم الرقص لما كان قد وقع واستسلم لشهواته الشاذة. ذلك أن الشاب الذى يرقص مع فتاة وينظر إلى وجهها ويتشمم شعرها ويضع ذراعه على خصرها .. لا يمكنه أن يفكر حين يحب إلا فى الجنس الآخر ... وهذا هو العيب الأصيل فى المجتمع الذى عاش فيه أبو نواس من شعراء العرب الذين تغزلوا بالصبيان.»

ولا يستطيع أحد أن يجمع من مناقضات العلم ما جمعه الأستاذ سلامة موسى فى هذه السطور.

فإذا كان أبو نواس شخصية «سيكوباتية» شاذة فمعنى ذلك أنه مخالف فى تكوينه للمجتمع الذى عاش فيه، وأنه لا يشبه الملايين الذين عاشوا فى ذلك المجتمع.

وإذا كانت آفة المجتمع العربى قلة الرقص فمن اللازم أن يتشابه أبو نواس وملايين الخلق فى هذه الآفة العامة، فلا شذوذ فى هذه الحركة ولا سيكوباتية.

والأستاذ سلامة موسى يعلم أن مجتمعات الغرب العصرية لا تشكو قلة الرقص بل لعلها تشكو إفراطه وتهافت الشبان والشابات عليه فى الأندية والبيوت بل فى الميادين والساحات ، فلماذا أصيب أربعة فى المائة بالشذوذ الجنسى مدى الحياة عدا المصابين به فى أطوار دون أطوار ؟

إن هذه النسبة مثبتة فى تقرير كنسى Kinsey وزملائه عن العلاقات الجنسية ، وقد كتبه العلماء الخبراء عن مجتمع عصرى ليس أكثر من اختلاط جنسيه فى كل مكان ، ولا نحسب أن الأستاذ سلامة يجهل هذا التقرير أو يجهل الكتب التى خصصت لموضوعه من مؤلفات الأطباء النفسانيين ، ومنهم من يرتفع بالنسبة إلى أحد عشر فى المائة أو يزعم مع كبيرهم فرويد أنها أخطر من ذاك .

وبعد فما هو خطب « أوسكار وايلد » إن كان ذلك خطب أبى نواس ؟

إن أوسكار وايلد لم يلده مجتمع كمجتمع أبى نواس بل ولد فى عصر الرقص والاختلاط ونشأ فى بيئة الترف وتزوج من بيئته وولد له أبناء .

فلماذا ينفرد مجتمع شعراء العرب بالآفة لأنه محروم من الرقص والاختلاط بين الجنسين ؟

على أن أبا نواس لم يعتزل قط معاشرة المرأة ، بل قضى معظم حياته بين القيان والغوانى اللاهيات ونظم الغزل فى أكثر من عشر حسان معروفات بأسمائهن ، ومنهن جنان ودنانير ومنى وعنان وعريب ومكنون ، وهؤلاء غير الصويحبات اللواتى لم يذكرن بالأسماء .

فلا ذنب للمجتمع العربى ولا عصمة للمجتمعات الأوربية أو الأمريكية التى تمتلئ بالمراقص ويختلط فيها الجنسان ولا معنى للسيكوباتية مع تعليل الشذوذ بقلة الرقص أو قلة الاختلاط ، وليست هنالك قلة اختلاط فى حالة أبى نواس على الخصوص . . .

ونعود فنقول إننا لم نقرأ عشرين سطراً تنال الجائزة متحدية أن تناقض العلم بكل كلمة كتلك السطور العشرين ، ولعله تعمدها فقال :

وفوق كل ذى علم عليم . . .

فنان « الجنس » مصاب بالعجز الجنسى

اشتهر الدكتور (هافلوك أليس) Ellis بدراساته الضافية فى المسائل الجنسية ، وبلغت صفحات كتبه فى هذه الدراسات ثلاثة آلاف صفحة من القطع الكبير ، جمع فيها كل ما يخطر على البال من أحوال الجنس فى الرجال والنساء ، وفى الصحة والمرض ، وفى السلامة والشذوذ ، وفى الحضارة والهمجية ، واستحق من نقاد عصره أن يلقبوه بفنان الجنس تارة أو بفنان الحياة تارة أخرى ، وقضى نحبه فى الثمانين عند نشوب الحرب العالمية الثانية وهو أشهر مؤلف وباحث فى مسائل علم النفس التى تتصل بالعلاقات الجنسية ، ولا تزال كتبه إلى اليوم مرجعاً مفيداً للباحثين وإن كانت المباحث العصرية تتكشف عن أخطاء كثيرة فى تفصيلاتها ، ولا تنكر أمانته واستقصاءه مع الاعتراف بهذه الأخطاء .

ومضت مائة سنة على مولده فى أوائل السنة الماضية ، فكتب المختصون بالمسائل الجنسية والنفسية فصولا متتابعة حول ذكراه وحول آرائه وأخطائه طوال العام ، وظهرت ترجمة حياته المسهبة لكاتب من مريديه المعروفين هو (جون ستوارت كوليس) الذى اطلع على كل ما كتبه أستاذه مطبوعاً ومخطوطاً فى هذا الموضوع ، وفى غير هذا الموضوع .

وكانت الترجمة أعجوبة من أعاجيب الدراسة ، وحالة من حالات الفن تستدعى وحدها أن يخصص لها كتاب وأن تعقد لها حلقة من الدراسات . .

إن أعلم أبناء عصره بالجنس كان مصاباً بالعجز الجنسى من أيام شبابه ، وكانت له زوجة تعاهده على الأمانة والوفاء وتفهم من هذا العهد أنه يحرم عليها معرفة الرجال ولكنه لا يحرم عليها أن تعرف بنات جنسها ، فكانت هى أيضاً حالة من أغرب الحالات !

إن هذه الظاهرة حقيقة بالتنبيه فى هذه اليومية التى نكتبها للإجابة عن أسئلة القراء ممن اطلعوا على تعقيبنا وتعقيب الصحف على رواية (لوليتا) وأرسلوا يستفسرون

* الأخبار ١٥ / ٢ / ١٩٦٠ .

عن مواضع الشبهة فى تلك الرواية وعن الحرية الفكرية التى توجب – على رأى بعضهم – أن تباح الكتابة فى كل ما يصنعه الناس ، وإلا كان الحجر عليها ضرباً من النفاق أو ضرباً من الحجر على الأفكار .

فحكاية الحرية هذه هى نفسها ضرب من النفاق يستر وراءه السبب الصحيح أو السبب الأكبر لهذا الولع بالمسائل الجنسية ، وهو الحرمان الجنسى على أنواعه من حرمان العجز أو حرمان الفاقة أو حرمان الحظ والتوفيق ، ولولا ذلك الحرمان فى هذا العصر المتأنث لما راجت كتب الجنس وفضائحه كل هذا الرواج الذى لا يستطاع تعليله بطلب المعرفة ومجرد العلم الأفلاطونى البرىء !

وليس أسخف من حجة القائلين إن كتب الشهوات والفضائح ينبغى أن تنشر لأنها تصف أموراً واقعة لا يجهلها أحد . . فإن الناس لا يكتبون عن ضرورات الجسد وهى واقع لا ينقطع فى مكان يسكنه إنسان ، ولا يكتبون عن النقائص التى اصطلحت الأذواق على سترها والسكوت عنها ، ولا نعلم أن قانوناً وضع من قبل أو يوضع اليوم لتحريم الكتابة فى هذه الأمور ، فلا حجر على الحريمة هنالك ولكنه الحجر على فساد الذوق وابتذال الخلق وسماجة الحديث .

وقصة (لوليتا) تدور على فضائح مخلوق مدخول العقل مقترف لجريمة القتل يتحدث عن غرامه بالبنات .

وأغلب الظن أن الكاتب مغامر أراد أن يستغل قدرته على الكتابة باللغة الإنجليزية فاختار موضوعاً من موضوعات الفضائح ليستدر به الرزق وينفق به عند الناشرين والقراء ، وأحكم صنع الحبالة للبيئة الإنجليزية لأنه عرف كيف يستغل إعجاب المثقفين من أبنائها بمن يتقن الكتابة بلغتهم ، كما ضمن الإقبال من الأحداث والجهلاء بإثارة الشهوات والإغراب فى وصف الفضيحة والإجرام .

ثلاث كلمات أخرى يمكن أن تفسرها بظواهرها وخوافيها : وهى كلمات النصب والحرمان والابتذال ، ولا تعدم الدنيا ألف قصة من قبيل لوليتا كل يوم ما دام فيها النصابون والمحرومون والمبتذلون .

عشيق اللادى شاترلى *

بعد ثلاثين سنة من وفاة « لورانس » مؤلف رواية « عشيق اللادى شاترلى » عاد البحث فى أدب هذه الرواية على نطاق أوسع من بحوث النقاد والقراء عند طبعها فى حياة صاحبها ، لأن الأمر انتهى يومئذ بتحريم طبعها فى البلاد الإنجليزية والولايات المتحدة ، وتهريبها للطبع سراً فى المطابع الفرنسية والألمانية ، حيث يقوم بصفها على الأكثر عمال يجمعون حروفها ولا يفهمون كلماتها .

أما اليوم — لمناسبة ذكرى المؤلف — فقد جازفت إحدى شركات النشر بطبع أربعين ألف نسخة من الرواية وإعداد مائتى ألف نسخة أخرى لإصدارها على الأثر بعد مناقشتها فى المحكمة وإبداء رأى المحكمة والمحلفين فيها .

وقد سمح للشركة الناشرة أن تستدعى خبراءها وشهودها ، فاستدعت خمسة وثلاثين خبيراً وخبيرة من المؤلفين وأساتذة الجامعات والنقاد والقراء المثقفين ، تتابعوا واحداً بعد واحد ليشهدوا بأنهم لم يجدوا فى الرواية ما يمنع تداولها ، وأن المؤلف لم يقصد بمواقفها الجنسية أن يثير الشهوات ويتجر بعرض المناظر المحرضة للغرائز الجنسية ، ولكنه قصد إلى إبراز عيوب فى الحياة الزوجية والعلاقات الاجتماعية لابد من إبرازها ، لعلاجها وتدارك أسبابها .

وبعد مناقشات طويلة بين الاتهام والدفاع سئل المحلفون — وهم تسعة رجال وثلاث نساء — فأجمعوا على تبرئة الرواية من التهمة ، وكان قرارهم المتفق عليه « أنها غير مذنبة . . » . أو كما شاءت إحدى الصحف أن تنقل الخبر بعناوينها الكبيرة فقالت مبشرة لقرائها بين الجد والتهكم : « إن السيدة شاترلى سيدة ! » .

وأظرف من هذا العنوان أن بعض الحاضرين فى المحكمة خرجوا يتحدثون بهذا القرار وبهذا الحكم الذى بنى عليه وركبوا السيارة الحافلة وهم ماضون فى الحديث ، فلم يلبث أن قال أحدهم لصاحبه : صه صه . يا هذا . . لسنا الآن فى ساحة المحكمة » . .

وقد كان من تعليق ناقد « الجارديان » على المسألة كلها ، وهو من المحافظين

* الأخبار ٢١ / ١٢ / ١٩٦٠ .

المتحرجين ، أن مواقف الجنس فى الرواية تنفر الأزواج من هذه المواقف ولا تحرضهم عليها .

ومن تحصيل الحاصل أن يقال إن مؤلف الرواية كان يتمنى أن يسمع هذا الحكم بعد إعادة روايته للطبع فى حياته ، ولكنه — ولا ريب — لم يكن ليستريح إلى تعليقات طلاب الإفراج عن الرواية من نقاد العصر ومفكريه . . . فليس مما يسره — مثلاً — أن يسمع أكبرهم (سير ألان هربرت) يقول : إنها من الوجهة الفنية لم تكن لتستحق هذه الضجة التى أحاطت بها وليست هى بالعمل الأدبى الذى يساوى أن يطبع منها (٢٠٠٠٠٠) نسخة .

وقد يرضى لورانس أن تروج روايته الممنوعة هذا الرواج فى لغته وفى اللغات الأخرى ، ولكنه لا يرضى بأية حال أن يقال إن قانون المطبوعات هو صاحب الفضل الأول فى هذا الرواج .

* * *

« . . . تنتابنى بين الحين والآخر حيرة لا أجد لها مخرجاً ، وخطابى هذا هو أملى فى أن تخرجنى من هذه الحيرة بيومية من يومياتكم المحبوبة على صفحات الأخبار .

« كلنا يعلم أن آدم أبو البشر وأمهم حواء ، ولكن العالم اليوم منقسم بين شعوب عديدة تتكلم بلغات كثيرة تختلف كل منها اختلافاً كلياً وجزئياً عن الأخرى؟ وهل من الأفضل أن يتفاهم العالم بلغة واحدة لتقريب وجهات النظر وحفظ السلام بين ربوع الدنيا ؟ . .

لطفى أحمد عبد الشافى
كلية الآداب — جامعة الإسكندرية

هذا سؤال برىء أتلقى أمثاله فيما يشبه معناه من الشباب المثقف الذى تستقبله الحيرة من مشكلات العالم التى تسرى فى جذورها إلى مشكلات التكوين فى الأعماق ، وأحسب أننى أجمل «فلسفتى» التى سألنى الطالب الأديب عنها حين أروى

له ولإخوانه خلاصة الفلسفة التى انتهى إليها كلما واجهتنى مشكلة من هذا القبيل .

إذا شعرت بالحيرة من تعدد أشتات الناس سألت نفسى عن الحالة الأخرى التى يكون عليها العالم البشرى لو لم يوجد على هذه الحالة ، فهل نراها أقرب إلى الفهم وأبعد من الحيرة ؟ أو نعود إلى حالتنا هذه لأنها أوفق للإنسانية مما عداها ؟

أمامنا عالم ، نتخيله ، لا تختلف فيه اللغات ولا الأفكار ولا العواطف ولا الأجسام ! كل شعب فيه كغيره من الشعوب ، وكل فرد فى الشعب كغيره من الأفراد ، وكل كلمة يقولها هذا الفرد يكررها ذاك بغير اختلاف ، وكل أسلوب من أساليب التعبير بتلك الكلمات ينتظم فى قالب واحد غير قابل للتبديل . . .

وقبل أن أسترسل إلى الغاية أحس أن الطالب الأديب يصيح فى قرارة نفسه : حسبك . . حسبك إن عالمنا الذى نحن فيه أشبه بالإنسان وبالمرايا الإنسانية من ذلك العالم الذى نتخيله كأنه مجموعة من الآلات أو أشتات من الحجارة مفرغة فى قوالب اللبنات .

أما استقرار السلام بتوحيد اللغة فى العالم فالحقيقة فيه يدلنا عليها تاريخ قبائل الجاهلية يوم كانت لا تعرف بينها لغة غير اللغة العربية ، ويدلنا عليها تاريخ الثورات الداخلية بين الشعوب التى تتكلم اللغة الواحدة وتقيم على الوطن الواحد ، فإن العبرة من هذه التواريخ جميعاً أن الوحدة فى الشعور والأمل شرط للسلام لا تغنى عنه وحدة الكلام ، وكثيراً ما يكون الكلام فاتحة الحروب إن لم يكن كلاماً بين متفاهمين مشتركين فى الأمل وفى الشعور .

فليختلف الناس ما شاءوا ولا خوف عليهم ، إلا أن يكون اختلافهم فى النيات قبل الكلمات ، فليس بعاصمهم من الحرب أن يعيشوا فى حجرة واحدة وأن يقولوا يومئذ إنهم يطلبون السلام ، ثم يفسر كل منهم هذه الكلمة تفسيره الذى لا معنى له غير القتال والبغضاء .

* * *

يلاحظ الدكتور « فؤاد حسنى » أن المذيعين عندنا يقعون فى أخطاء نحوية وغلطات فى اللغة ليس من الصعب إصلاحها لو أنهم كلفوا أنفسهم مراجعتها والتحقق من قواعدها المشروحة فى أبسط كتب اللغة بين أيدى المتعلمين ، ويسرد الدكتور فؤاد أمثلة من تلك الأخطاء نوافقه عليها ونخالفه فى بعضها لأنها — كما يقال — مما يجوز فيه القولان على أننا نستطيع أن نكتم كل سر واجب الكتمان إلا الأسرار التى تذاع وتستمع إليها جمع الآذان ، وأفشى هذه الأسرار — مع الأسف — أن الأخطاء كثيرة فيما يقرأه عندنا بعض المذيعين أو فيما يتحدثون به من كلامهم للتسهيد والتعقيب ، ولا نحب أن نزيد على عبارة قصيرة نشفع بها ملاحظة الدكتور فؤاد وملاحظات المئات من المستمعين .

إن إذاعتنا ينبغى أن تكون أصح وأفصح من جميع الإذاعات العربية فى جميع الأقطار .

فهل هى كذلك بشهادة اثنين فقط من المذيعين ، أو شهادة اثنين فقط فى المستمعين الذين يقسمون اليمين وتقبل منهم الشهادة فى هذه القضية ؟

نرجو أن نسمع الجواب بالقول الصحيح الفصيح ! . .

الإخوة المشهورون فى الأدب مرة أخرى *

« قرأت لكم بالأخبار تحت عنوان الإخوة المشهورون فى الآدب » مقالكم القيم . . . وتذكرت أشهر ثلاث أخوات فى الأدب الإنجليزى ، بل الأدب العالمى الكلاسيكى على وجه العموم ، وأعنى بذلك الأخوات (برونتى) ... ولعلنى كنت منتظراً منكم أن تكتبوا بإفاضة عن الشقيقات الثلاث وقصتهن أروع مما دبج يراعهن فى قصصهن المشهورة ، وأخال أن معجزة المعجزات أن تظهر ثلاث أديبات شقيقات فى وقت واحد ، وأن يظهرن فى بيئة دينية متزمتة لا يمكن أن تكون تربة خصبة للأدب على وجه العموم ، ولا أعتقد أن إغفالكم ذكر الشقيقات الثلاث — برونتى — تأييد لما يردده شانئوكم من حملتكم على المرأة عموماً أو أنه امتداد لهذه الحملة ، ومن ثم أرى أن هذا الإغفال سهو غير مقصود ، وجل من لا يسهو ، ولنا عليكم . . . حق التذكير كما أن للسهو عليكم حق التنويه بالشقيقات الأديبات الكبيرات .

السيد عبد القادر شمالة
المحامى بالاستئناف العالى

أشكر للأستاذ الفاضل تذكيره ، وأود أن أقول له إننى لم أكتب مقال اليوميات عن الإخوة المشهورين فى الأدب ، ولكننى كتبته عن الأخوين : إبراهيم وأحمد المازنى ، واستطردت منه إلى أقرب المشهورين فى الأدب المعاصر والمناسبات العصرية ، ثم جاء العنوان عاماً على هذا الحيز المحدود من توفيقات قلم التحرير .

ويرى الأستاذ الفاضل أن أقدم من ذكرناهم — وهما الأخوان جونكور — قد افتتحت أكاديميتهم عند أوائل القرن العشرين ولا تزال تذكر كل سنة فى هذه الأيام من شهر أكتوبر تمهيداً لإعلان جائزتها فى الشهر المقبل ، كما أعلنت قبل الآن مقترنة باسم (بروست) ومرة أخرى مقترنة باسم (مالرو) وغير هذه وتلك

---

* الأخبار ١٩ / ١٠ / ١٩٦٠ .

مقترنة بأسماء الأدباء والأديبات من مستحقيها فى كل عام ، وقد كان البحث فيمن يرشحون لهذه الجائزة أمامى ساعة كتبت اليوميات ، وكانت آخر الكتب التى وردت بالبريد من مؤلفات لورنس دوريل وجيرالد دوريل تصل إلىّ فى ذلك الأسبوع .

أما الأخوات « برونتى » فهن من شواهدى التى أشرت إليها منذ سنوات دليلا على استعداد المرأة فى فن القصة وفن التمثيل ، ولكن أقربهن إلينا قد توفيت قبل أكثر من مائة سنة ولا يشملها الكلام إلا إذا قصدنا به الاستقصاء فى جميع العصور ، وهو ما لم نقصد إليه .

وليس يخفى على « الأستاذ شمالة » أن الأخوات الشقيقات لا يخطرن ، مع هذا على البال فى هذا السياق ، لأن موضوع الاشتراك فى الاسم الواحد لا يصدق عليهن ، إذ كان الأخوات ينشرن مؤلفاتهن الأولى باسم مستعار ، وكانت حقيقتهن تخفى على النقاد حتى قال أحدهم عن أميلى « إن مؤلف هذه الرواية رجل ذو ملكة موهوبة ولكنه متعنت قاس لدود » .

ولما ظهرن بأسمائهن لم يطل بينهن أمد الاشتراك فى الاسم الواحد الذى قصدناه بموضوع اليوميات ، لأن إحداهن أميلى ماتت فى الثلاثين وأختها آن ماتت دون الثلاثين ، وعاشت شارلوت بعدهما بضع سنوات ثم توفيت دون الأربعين .

أما الإخوة الآخرون الذين ذكرناهم فنهم الأحياء اليوم ومنهم من اشتركوا فى الاسم عشرات السنين ، يذكر أحدهم مع الفلاسفة ويذكر أخوه مع الروائيين ، أو يذكر أحدهم مع العلماء ويذكر أخوه مع الآدباء والنقاد الاجتماعيين ، وتلك هى الظاهرة التى سميناها بالظاهرة السعيدة وأردنا بها أن اسم الأخ المشهور لا يكون حجاباً لاسم أخيه ، وإن اتحدا فى العنوان .

إن الأستاذ شمالة يقول فى رسالته إنه « لا يعتقد أن إغفال أسماء الشقيقات الثلاث تأييد لما يقوله الشانئون عن رأينا فى المرأة . . »

وللأستاذ أن يعتقد الآن أنه على حق تام فى تقديره ، وأن الكلمة فى رسالته ليست من قبيل « الحيطة القانونية » وحسب ، بل هى ظن جميل وحكم صحيح .

التجاوب بين الأديب والحياة*

كان مصرع همنجواى مثاراً للبحث فى قضية من أكبر قضايا الأدب والفن فى عصرنا الحاضر ، وهى قضية التجاوب بين نفس الإنسان العصرى وبين الحياة .

إن الأدب هو أصرح الفنون تعبيراً عن حياة الإنسان فى عصره ، فهل يعتبر انتحار الأديب الكبير اعترافاً عملياً من أدب العصر بفقدان قيمة الحياة ؟ وهل يعتبر صنيع همنجواى ترجماناً لأدبه الممثل لعصره أو هو ترجمة خاصة بالرجل لا علاقة لها برسالة الأدب ولا بجانب التعبير منها عن رسالة الحياة .

لقد كانت شهرة همنجواى توقع فى أذهان الناس أنه مثال الرجل العصرى الذى ينبغى أن يرضى عن حياته وأن يكون شهادة للحياة العصرية بحق التفاؤل وحق الثقة والطمأنينة إليها .

وكان يبدو للنظر نموذجاً للرجل الرياضى فى صحة البنية ودفعة النشاط والإقبال على الحركة والاستعداد للكفاح بقوة البدن وقوة الروح .

وكانوا يسمونه أحياناً بالرجل المذكر He-man وهو اصطلاح عندهم للدلالة على الرجولة الحقة التى برئت من آفة (التأنث) الغالبة على بعض أدعياء الرجولة بين محترفى الأدب فى العصر الحديث ، وتمم هو هذه الصورة فى الأذهان بإطلاق لحيته على نحو غير معهود بين أبناء قومه ولا بين الكتاب باللغة الإنجليزية على التعليم .

وشوهدت له صور كثيرة وهو يقتحم الأمواج بزورقه البخارى السريع ، ويصيب الهدف البعيد فى صيد السباع من الوحش والطير ، كما شوهدت له صور أعجب منها وأدل على الإقدام والاقتحام وهو يمتطى الطيارة صاعداً هابطاً فوق آجام القارة الإفريقية وبروزها المقفرة من الإنسان والحيوان .

وتجمعت لديه الثروة التى كان ينفق منها بغير حساب ، ويقتنى بها كل ما صادف هواه من متع السباحة والسياحة والطيران ، فكان يمتلك الزورق والطائرة والسيارة والجواد من الطراز الأول ، ويغامر بها فى حلبة السباق فلا يتخلف بها عن شأو الأسبقين المتقدمين .

---

* الأخبار ٢١ / ٣ / ١٩٦٢ .

وهذا عدا النجاح البالغ فى ميدانه الأصيل وهو ميدان الكتابة والأدب ، فإن نجاحه فيه كان أكبر من أن يسمى نجاحاً لكاتب واحد بين نظراء يساوونه فى الشهرة القومية والعالمية وينالون حظاً كحظه من إعجاب القراء والنقاد ، ولكنه نجح فى ميدان الكتابة والأدب نجاح النموذج الذى يقتدى به ويطبع الأساليب بطابعه، فصح فى أدب جيله بين قومه أن يقال إنه أدب همنجواى وأنه صنع للجيل لغة من البلاغة النثرية توافق « طابع الزمن » الصناعى الذى عاش فيه .

فإذا عز على هذا الأديب (النموذجى) أن يشعر بالمجاورة بينه وبين الحياة فهل يخطئ الناقد الذى يتخذ من قضائه على نفسه بيديه حجة على إفلاس الحياة فى نظر أبنائها المعاصرين وآية عن فقدانها الثقة التى تستحق من أجلها أن تعاش ؟

إن زوجته كانت تأبى أن تصدق أنه تعمد قتل نفسه وتعتقد أن حادثاً من الحوادث العارضة قد طرأ له فى اللحظة الأخيرة فأجرى يمينه وهو يتناول سلاحه على غير ما يريد .

وهذا موقف لا يستغرب من الزوجة التى تأبى أن تشعر بزهد قرينها فى حياته وهى إلى جانبه ، وتأبى فوق ذلك لسمعته ومجده ختاماً كختام الفاشلين وهو فى طليعة الناجحين المفلحين .

ولكن الكتاب الذى ظهر أخيراً بقلم أخيه الصغير صريح فى تقرير هذه الواقعة بتفاصيلها ، فلا شبهة فى انتحار هذا الأديب بعد الاطلاع على سيرته بقلم أخيه « ليسستر » الصغير الذى كان له بمثابة ولد من ذريته ، وكان الأخ الأكبر يدلله ويلقبه بالبارون ، ويعطف عليه عطف الآباء على الأبناء .

ولكن هذه السيرة المفصلة تجلو لنا حقائق تلك الخاتمة التى انتهت إليها حياة الأديب الناجح من ناحيتها الأدبية ، فتنقلها من قضية الأدب والحياة إلى قضية المرض والموت . . . لأننا نعلم منها أن أمراض همنجواى وآلامه كانت أشد عليه وعلى الطاقة الآدمية عامة مما يرى على ظاهر حياته ومما قيل عن مرضه الموروث ، وهو تصلب الشرايين .

فقد كان يشكو الارتفاع المطرد فى ضغط الدم ، وكان يشكو معه تليف الكبد

واستعصاءها على العلاج ، وكانت مغامراته الرياضية قد خلفت فى جسده آثاراً من الرضوض والصدوع تعاوده بالوجع الأليم وتفسد عليه وظائف جسده السليم ، واعتراه مرض السوداء — الوجوم — من جراء ذلك كله فعاف الطعام والشراب والحركة ، وهبط وزنه من مائتى رطل إلى مائة وخمسة وخمسين . وفقد نشاطه للحركة الرياضية التى كانت أحب « الشواغل والتسليات » لديه ، فترك قيادة سيارته وهو عائد من المستشفى لبعض أصدقائه طوال الطريق وكان قد ذهب إلى المستشفى لموالاة العلاج بالهزات الكهربية فاحتمل منها خمس عشرة نوبة ثم زادها عشراً قبيل وفاته ، فلم يفده ذلك غير قليل من الراحة المنشودة ، وهى راحة « الارتفاع » بالحالة النفسية من وجوم اليأس والسآمة إلى شىء من نشاط الرغبة فى شواغل الحياة .

ويقول الأخ الصغير إن أخاه المعذب أحس آخر الأمر أن جسده قد خانه فلم يشأ أن يتلقى منه الخيانة بعد الخيانة إلى غير نهاية ، وآثر أن يهب لنفسه نعمة الموت التى وهبها للكثيرين من أبطال رواياته ، وحشا بيده السلاح الذى كان يحشوه ليلهو به لهو الرياضة والكفاح .

فليست خاتمة هذا الأديب مسألة « أدبية فكرية » من مسائل التجارب بين النفس الإنسانية وحياة العصر الحديث ، وليست هى إعلاناً لرفض الحياة وهى موفورة المتعة بين يديه وعليها مزيد من متعة الشهرة والنجاح ، ولكنها كانت فى باطنها وظاهرها إعلاناً لقيمة الحياة الغالية التى يحال بينه وبين الانتفاع بها كما يشاء .

وإذا لاح لنا من ترجمة الأخ الصغير لأخيه الكبير شىء من أثر النظرة الفكرية إلى الحياة يمكن أن يمتزج بأسباب تلك الخاتمة ، أو يمكن أن يضاف إلى أسباب المرض فى الإقدام على الموت ، فربما كان ذلك الشىء هو لقب « البارون » الذى أضفاه الأديب على أخيه ، ولو من باب العبث والدعابة .

فإن بقاء هذا اللقب يحوم فى ذهن الكاتب الأمريكى يذكرنا بحنين المهاجر إلى العالم الجديد ، وهو يستبقى فى ذهنه عصر الفروسية من العالم القديم ، ويبدى ذلك الحنين أحياناً بما كان يجيش فى نفوس السراة الأمريكيين من التطلع إلى مصاهرة أرباب الألقاب والأحساب ، وكأنما ذهب همنجواى إلى ساحة الحرب الأهلية فى بلاد

الإسبان وهو يستعيد لخياله أسماء الدونات والبارونات ويطلق لحيته كما كانوا يطلقونها أيام المغامرات والمبارزات ، وساقه العالم الباطنى الذى كان يعيش فيه بخياله إلى ختام للحياة أشبه بخواتيم الفروسية « بيده لا بيد عمرو » . . . كما فعل من قبله اليائسون ، ممن خيرتهم قسوة الداء بين المذلة والمنون .

* * *

نعود إلى موضوع الكتب المعارة فى يوميات الأسبوع الماضى ، لأن العنوان الذى اختاره زميلنا المحرر لتلك اليوميات يحتاج منا إلى بعض التفسير .

سأل الزميل فى عنوانه : لماذا لا تفرض ضريبة على الكتب المعارة ؟

والتفسير الذى يحتاج إليه هذا السؤال من جانبى أن الضريبة واجبة ولكنها تضاف على تكاليف الطبع والنشر ولا تضاف على القراءة والقراء ، فإذا أنشئت للإعارة مكتبة تجارية فمن الواجب أن تطلب منها الضريبة كما تطلب من مكتبات الطبع والبيع والتوزيع ، وإذا كانت مكتبة الإعارة تابعة للدولة فمن حقها أن تمولها الدولة بمحصول ضرائب الإعارة كما تمولها بمحصول الضرائب الأخرى على التأليف والطباعة .

ولهذه المناسبة نروى للقراء قصة طريفة على الكتب المعارة أرسلها إلينا صديقنا الأديب المطلع الأستاذ راشد رستم جزاه الله عن الكتب المهددة بالخطف والاختلاس أحسن الجزاء .

قال الأستاذ راشد : رأيت منذ مدة صورة فى إحدى المجلات الفرنسية عن مكتبة فخمة واسعة : وفى صدر المكان مكتب كبير يجلس إليه رجل ضخم وأمامه شاب يخاطبه فى تأدب وخضوع ويدور بينهما هذا الحديث :

الأب : أما وقد نلت شهادتك العليا فإننى أهدى إليك هذه المكتبة العظيمة على شرط واحد : وهو أنك لا تعير لأحد منها كتاباً .

الابن : ولماذا ؟ وقد ينتفع بما فيها بعض الزملاء الباحثين ؟

الأب : ألم يسبق أن طلبت منى ذلك ورفضت ؟

الابن : بلى . . . وقد عجبت لذلك وأنت الثرى العظيم والقانونى الكبير .

الأب : نعم . . . ذلك لأننى جمعت هذه المكتبة التى تراها كلها من الكتب التى أستعيرها . . !

والحكاية من نكات الفكاهة التى لها مغزاها . . .

فعندهم كما عندنا — ولو من أرباب القانون كما يقولون — أناس يحسبون أن الكتاب مباح حيثما وجد لأنه وسيلة المعرفة والمعرفة حق للجميع . . . وعندهم شاع ذلك المثل الذى يجوز أن يشيع عندنا بواقعه ومعناه وإن لم يشع بلفظه ومبناه : وذلك هو المثل القائل إن الذى يعير الكتاب أحمق وأحمق منه الذى يرده إليه .

وأكرم من هذه « الشريعة » المغتصبة أن يباح الكتاب للجميع لأن الحصول عليه فى مقدور الجميع، وقد وجدت فى بلاد المكتباب والمطالعات كتب تباع النسخة منها بما يساوى خمسمائة قرش وتباع هذه النسخة من طبعة أخرى بما ليس يزيد على خمسة قروش .

* * *

دستيفسكى الذى لم يكتشف ! *

من أحدث المؤلفات فى النقد الأدبى باللغة الإنجليزية كتاب ألفه الدكتور رونالد هنجلى عن الكاتب الروسى الأشهر تيودور دستيفسكى سماه (دستيفسكى الذى لم يكتشف) .

وخصص معظم دراساته فيه للكلام عن دستيفسكى « الفكاهى » أو دستيفسكى « المازح » الذى يقرن باثنين لا ثالث لهما من طبقتهما يتم بهم جميعاً ثالوث الأدب الفكاهى الساخر فى اللغة الروسية ، وهم : هذا الكاتب موضوع الدراسة الأخيرة ، وجوجو ، وشيخوف .

وفى ظهور هذه الدراسة صيف سنة (١٩٦٢) باللغة الإنجليزية — عن كاتب روسى مات منذ نيف وثمانين سنة — شيء يتعلم منه أدعياء التجديد عندنا بعض دروس الهجاء والمطالعة فى صناعة النقد « العصرى » التى يدعونها ، بل يحتكرونها لو استطاعوا . أو لو كانت الدنيا « سايبة » على ما يظنون !

وأول هذه الدروس أن التجديد فى النقد الأدبى إنما يقاس بطريقة النقد لا بتاريخ الأديب المنقود ولا بعنوان الموضوع المكتوب على الغلاف .

ولو كان أدعياء التجديد عندنا يفقهون حديثاً ، أو قديماً ، لكانت لهم فى وضوعات البحث العصرى مئات من الدروس الحية المتدفقة تغنيهم عن هذا الدرس من نقد الأدب الروسى فى لغة أجنبية عنه وهى الإنجليزية ، لأنهم يقومون ويقعدون وينامون ويستيقظون فى عالم يدرس الشمس والفضاء وليس أقدم منهما ولا أحدث من البحوث العصرية عنهما فوق الأرض ولا تحت السماء .

ولكن هؤلاء الأدعياء كما عرفوا الناس بأنفسهم آخر من يتنبه إلى معنى الجديد من حوله ومعنى القديم من قبله ، وهم فى ثرثرتهم اللاغية قد أذابوا حرف الجيم والدال من تكرار الجديد والتجدد والتجديد والمجددين والجديدين والجديدات . . . وكل ما تألف من جيم ودال معهما حرف مضارعة أو واو جماعة أو حركة تشديد .

---

* الأخبار ٢٤ / ١٠ / ١٩٦٢ .

فلا غنى لهؤلاء « المجددين » عن كل درس يلقنهم شيئاً نافعاً فى فهم الجديد على حقيقته ، ويعلمهم مرات بعد مرات أنه « لا قديم تحت الشمس » ما دامت العين التى تنظر إليه تنفذ إلى أعماقه بشعاع نافذ بصير .

دستيفسكى — إذن — ليس بالموضوع القديم فى الأدب الروسى ولا فى الأدب الإنجليزى ، ولكنه من موضوعات (سنة ١٩٦٢) وقد يكون غداً من موضوعات ٧٢ و٨٢ و ٩٢ و ٢٠٠٢ وهم ينظرون إن شاء الله .

وموضوع الكتاب أهم من عنوانه فى هذه الدروس النافعة التى يستفيدها أدعياء النقد فى كل بلد وفى كل لغة ، ولا تخص الفائدة منها أدعياء « التجديد » عندنا بأرقام السنين .

أولئك هم نقاد العناوين والأشكال أو نقاد القوالب المفرغة عند الغربيين ، ومن ورائهم مقلدوهم بين الشرقيين ، وما أكثرهم ، وأقل فائدتهم ، هنا وهناك !

فى كل بلد جمهور وافر غزير العدد جداً ممن يفهمون الأدب والفن على السماع ، ويسمون أنفسهم بالقراء . . ثم يسمون أنفسهم ويسميهم غيرهم أحياناً بالنقاد .

هؤلاء الفهماء الألباء السماعيون هم هم الذين تراهم عندنا على أبواب المسارح الفكاهية يضحكون سلفاً قبل رفع الستار . . . لأنهم يحللون القرش الذى اشتروا به التذكرة ويخشون أن يقال إنهم لا يفهمون « الواحدة » بعد أن تواتر فى أسماعهم أن الفنان الذى سيتفرجون عليه هو « ابن البلد الوحيد » أو هو « البربرى الوحيد » أو هو « الفشار » الوحيد على خشبة التمثيل .

ولقد عاشت القاهرة نحو عشرين سنة تضحك على « بربرى وحيد » لا يمثل طائفة واحدة من طوائف النوبيين فى البلاد المصرية أو السودانية ، ولعل هؤلاء الضاحكين الذين « سخسخوا » بالضحك أعواماً طوالا يستغربون أن يسمعوا بعد ذلك أن الشخصية النوبية تتمثل فى ستة نماذج على الأقل إن لم تزد عليها ؛ وهى نماذج أبى الريش البحرى والقبلى ، ونماذج الجزيرة ، ونماذج المتوكيين ونماذج الكشاف ونماذج المحسيين من الدناقلة ووادى حلفا ، ولم يكن « بربريهم » الوحيد يمثل نموذجاً

واحداً بين هؤلاء جميعاً كما نعرفهم ويعرفون أنفسهم فى بلادهم أو فى بلاد الريف .

وهل هؤلاء وحدهم هم « المسخسخون » على السماع بعد شراء التذكرة عند الشباك ، وبين المعجبين والمعجبات بالإشاعة قبل رفع الستار ؟

معاذ الله، والبركة فى « الوراثة القردية » العميقة فى بنى آدم وحواء !

فعندنا كتاب اشتهروا بالفكاهة ، ولعلهم اشتهروا بإمارة الفكاهة ، لا يبذلون للقارئ جهداً أكثر من علامات التعجب المنثورة بالعشرات ، وأكثر من كلمة « نسوانية » هنا وكلمة « فلاحية » هناك وكلمات بلدية بمعنى أو بغير معنى تتخلل السطور من العنوان إلى التوقيع . . . وكان الله يحب الضاحكين والمسخسخين !

هؤلاء « القراء أو النقاد » على السماع هم أكثر القراء والنقاد فى جميع البلاد وفى جميع الأبواب ، ودعك من الأبواب وراء شباك التذاكر فى مسارح التهريج .

وعبرة الدراسة الأخيرة عن أدب دستيفسكى هى إحدى العبر النافعة لمن يعرفون هذا العبقرى أو يعرفون أمثاله على السماع .

فقد عرفه « الجمهور » الغربى بملكة نادرة بين ملكاته الكثيرة وهى ملكة التحليل النفسانى للشخصيات السقيمة والشخصيات المصابة بالعلل العقلية التى تشيع بين الأمم المحرومة من العدل والحرية، وقد اتفق ظهور رواياته فى وقت واحد مع ظهور المذاهب التحليلية عن النفوس المعتلة وعلى رأسها مذهب فرويد وما انطوى عليه بصفة خاصة من الإطناب فى عقدة « أوديب » . . . فما هو إلا أن كتب النقاد الأوائل مقالاتهم الباكرة عن تحليلات دستيفسكى « الفرويدية » حتى غابت كل صفة أخرى من صفات هذا الكاتب فى غمار تلك التحليلات ، وحتى أصبح الرجل وكأنه لم يباشر فى حياته عملاً ولم يكتب على الورق سطراً غيره تسويد « التطبيقات » لمعمل فرويد وتلاميذه ومرضيه . . .

ثم استلم خيط الإشاعة أولئك الببغاوات السماعيون من نقاد الدرجة الثانية والثالثة وأولئك « السريحة » المحترفون بأحاديث الوعى الباطن والعقد النفسية والأحلام الجنسية، فأصبح « دستيفسكى » كله نسخة « روائية » من تقارير معمل فرويد وأصحابه طوال هذه الفترة التى نسى فيها كل حديث غير حديث الجنس والخلل

والعوج والاضطراب ، فإذا جاءهم اليوم ناقد من غير « جوقة » الإشاعة والسماع فهو على حق حين يتحدث إليهم عن دستيفسكى مجهول لم يكتشف قبل اليوم بين نقاده الإشاعيين وقرائه السماعيين ، لأنه يحدثهم حديثاً عجباً إذا أعادهم إلى كاتبهم القديم ليطلعهم على صور من الفكاهة ومواقف من المضحكات وفنون السخرية لم يطلعوا على مثلها فى كتبهم المأثورة عن مضحكات الحياة ، بالإشاعة أيضاً وعلى السماع فى جميع الأحوال . . .

وقديماً قيل إنه « ليس بين الجليل والمضحك » غير لفتة واحدة .

ولكن « دستيفسكى الذى لم يكتشف » يلتفت بقرائه هذه اللفتة من موقف إلى موقف ، ومن شخصية إلى شخصية ، ومن فاجعة إلى فاجعة ، فيكاد القارئ أن يحمل « اللافتة » بين يديه وهو يقلب الصفحات لكيلا يصطدم بالمضحك وهو يخوض فى الفجيعة ، أو يصطدم بالفجيعة وهو يحار بين الضحك والبكاء . . . ولكنه يعتصم بالنقد الواعى من جرائر نقد الإشاعة والسماع ، فينظر إلى الفن الصادق كما ينظر إلى صميم الحياة حيث يتعلم الإنسان الفانى كيف يضحك كما تضحك الأقدار ، وحيث يروى بيت أبى الطيب مع هذا التعديل اليسير :

وكم فى الحيـــاة من المضحكا ت ، ولكنه ضحك كالبكا

أو يتعلم أن « شر البلية ما يضحك » كما علمتنا الحوادث من الزمن القديم : الزمن « المتأخر » المسكين الذى لا يجرى على هوى الجديد والتجدد والتجديد والجدود والأجداد ، وعلى هوى الجدل والجدال ، وكل جيم ودال فى تمرينات الهجاء والمطالعة عند أولاد الحلال !

المخلوق الهمجي في ضمير الإنسان! *
إبسن . . . في قشرة بندقة!

أشرنا في اليوميات إلى الحملة التي يشنها بعض العلماء النفسانيين على فرويد ومذهبه لمناسبة انقضاء مائة سنة على ميلاده .

ويبدو لنا مما كتب إلى اليوم — منذ الاحتفال به — أن سمعة الرجل العلمية لم تكسب شيئاً بهذه الذكرى ، وأن خطوط الدفاع عنه قد وصلت إلى خط الدفاع عن شخصه وعن مزاجه ، وعن سلوكه مع أصحابه وعشرائه ، ولجأ المدافعون عنه إلى خبرتهم الخاصة لتبرئته مما يقال عنه ويعزى إليه .

ونحن — والحق يقال — نعتقد مما تصفحناه أن الحملة أشد من الحقيقة التي تستند إليها ، وأنها امتداد للحملة التي بدأت منذ خمسين سنة ولم يجهلها فرويد في حياته ، بل قال عندما تجددت لمناسبة الاحتفال بعيد ميلاده الثمانين وعلم من كتابه بعض الناس أنهم يمقتون مذهبه .

الحمد لله . لا يزال في الدنيا أمناء!

ونظن أن الرجل قد أصابه حظ العلماء الذين يجرحون الإنسان في غروره وكبريائه ، وهو في هذا الحظ جدير بحق الثلث بعد كوبر نيكوس وداروين ، ولا يكون مغالطاً إذا طمع في أكثر من حصة الثلث بقليل .

لم يثر غرور الإنسان على أحد قبل فرويد كما ثار على كوبر نيكوس وداروين . .

كوبر نيكوس أخرج الأرض من مركز الكون وجعلها سيارة صغيرة من سيارات المنظومة الشمسية .

وداروين أوقع في أذهان كثير من الناس أنهم ينتمون إلى أجداد من القرود .

وقد أفلح كوبرنيكوس في رد اعتباره بعد الصدمة الأولى ، لأن الناس يعلمون اليوم أن الأرض — بمكانها الذي وضعها فيه — أصلح الأجرام السماوية لسكنى الإنسان ، إذ كانت ملائمة للحياة بتوسطها في الحرارة وقوة الجاذبية وصلاحها لظهور

---

* أخبار اليوم ٩ / ٦ / ١٩٥٦ .

العناصر اللازمة للحياة ، ومنها الأملاح السليمة ، أى التى لا سموم فيها .

وأفلح داروين فى رد اعتباره بعد أن علم الناس أنه لا يفرض على كل منهم جداً من طوائف القرود ، وأنه يكفى أن يكون الإنسان والقردة من أصول متقاربة لتسقط عنه جريمة القذف فى حق أبناء آدم وحواء .

أما فرويد فلم يفلح فى رد اعتباره بعد ، لأنه يركب فى ضمير كل إنسان مخلوقاً همجياً من آكلى اللحوم البشرية ، ويستشهد ببعض الشعائر والقرابين على صحة هذا التركيب .

ولهذا كاد القوم أن « يأكلوا لحمه » بعد وفاته بسبع عشرة سنة ، لو لم يكفر عنه تلاميذه بقرابين المعاذير !

بين الأدب والتاريخ

يسأل الأديب المطلع الأستاذ « إدوار منسى » عن حدود التصرف الذى يسمح به للفنان حين يكتب عن التاريخ ، ويدعوه إلى هذا السؤال تنقاض الوصف والرواية بين أقوال المؤرخين عن فتح القسطنطينية وأقوال ستيفان زفايج عن هذه الفترة فى إحدى قصصه التى قرأها الأديب واستغرب مناظرها التى « رسمها » المؤلف رسماً لم يعلم أين مصدره فى كتب التاريخ .

ولم أراجع قصة زفايج التى ذكرها الأستاذ منسى ، ولكننى أعتمد فى وصف مناظر فتح القسطنطينية على مؤلف يونانى يكاد يحسب من شهود العيان ؛ كان من موظفى الحاشية فى عصر محمد الثانى فاتح القسطنطينية ، وهو كريتوفولس Kritovoulos الذى ترجم كتابه من المخطوطات اليونانية إلى الإنجليزية فى العهد الأخير

وليس فى أوصاف هذا الكاتب المعاصر ما يؤيد « رسوم » زفايج على التعبير الصحيح .

ولكننا لا نحتاج إلى أمثلة زفايج لتقرير ما يجوز وما لا يجوز من التصرف والتنميق فى الروايات التاريخية .

فلا يجوز أن يوصف المنظر الذى رسمه زفايج لمحمد الثانى فى كنيسة « أيا صوفيا » إذا لم تكن له حقيقة ثابتة ، لأن معرفتنا بأخلاق محمد الثانى تتوقف على أمثال هذه الحقيقة الصغيرة ، ويتوقف عليها العلم بنزعاته ومحرضاته على الفتح والطموح إلى المجد من طريقه .

وقد يذكر فى هذا الصدد أن المؤرخ اليونانى كرر فى مواضع كثيرة من كتابه أن السلطان كان يبكى كلما مر بعمارة خربتها هجمات الحصار وغارات النهب والسلب بعد اقتحام المدينة، وأنه بحث عن رجالات المدينة ليوليهم إصلاح ما تخرب منها .

يقول الأستاذ إدوار منسى فى ختام خطابه : « ألا ترى معى أن الأدب يجنى كثيراً على التاريخ وأن الجملة الحلوة الرنانة — إن الباب المنسى قد حدد مجرى التاريخ — ليس لها معنى وليس إلى الأخذ بها من سبيل ؟ »

نقول : نعم . إن الأدب يجنى على التاريخ إذا تعمد الكذب عليه ، ولكن الأدب الحق يخدم التاريخ إذا أضاف البلاغة إلى الصدق فى تصويره وإبراز مؤثراته، ويستغنى بالأثر الصادق إذن عن أثر الزخرفة والتمويه ، لأنه ما من خيال يفوق الحقيقة المطبوعة فى الذهن والنفس حين تظفر بالفهم الصحيح والحس الصحيح والتعبير الصحيح مجتمعات .

بين فلسفتين

وبين فلسفتين يختلف رأيان من آراء « لفيف من الشبان » يقولون فى خطابهم : « إنهم دار بينهم نقاش حول الفلسفة الميتافيزيقية — أى فلسفة ما وراء الطبيعة — والفلسفة الوضعية ، وأن أحدهم كان يتشبث بالفلسفة الوضعية ويصر على إلغاء كل شيء لا يمكن إثباته بالرياضة أو التجربة . وحين سألناه عن وجود الله ووو . . . قال: إن الحقائق قسمان ، قسم ذاتى وهذا لا يهمه أن يؤمن به الناس جميعاً أو ينكروه جميعاً، وقسم آخر وهو الحقائق العلمية وهو ما يثبت بالرياضة أو التجربة . »

يقول « لفيف من الشبان » فى خطابهم ما يتلخص فى هذا السؤال :

« ما موقفنا إذن بين الفلسفتين ؟ »

ومن حق شبابنا المشتغلين بالفلسفة أن يجابوا عن هذه الأسئلة فى أصولها العامة، لأنها من مسائل البحث والمناقشة فى معاهد التعليم وفى مجالس الأندية التى يجتمع إليها المثقفون .

ورأينا أن الفلسفة الوضعية تحكم على نفسها بالزوال وتلغى وجودها قبل أن تلغى وجود الفلسفات الأخرى ، لأنها إذا كانت تعتمد على الرياضة والتجربة ولا تعرف

لها مرجعاً غيرهما فالعلوم التجريبية تغنى عنها والرياضة لا تزداد شيئاً بما يقول عنها الفلاسفة الوضعيون .

ويظهر لنا أن اعتراف الفلسفة الوضعية بالرياضة إنما هو حيلة المضطر الذى يخشى أن تصدمه قواعد الرياضة فيعقد الصلح معها على وجه من الوجوه ، ولو كان وجهاً غير مقبول ولا مفهوم .

إن النقطة الهندسية ليس لها وجود فلماذا يقبلها الفلاسفة الوضعيون ؟

يقولون إنهم يقبلون لأن التجربة أثبتت صدق النتائج التى تقام عليها .

وعندنا أن هذا ينقض الفلسفة الوضعية بالتجربة . لأن التجربة أثبتت شيئاً لا يقع تحت الحس ولا يمكن تصوره بمجرد الخيال .

والفروض فى العلم محل خلاف كبير ولا تبطل نتائجها على كلا الوجهين ، فسواء قلنا إن أشعة النور ذرات صغيرة أو موجات متلاحقة فالنتائج العملية سواء لكل من الفرضين .

وقد ذكرنا فى مقدمة هذا المقال حديث كوبرنيكوس ودوران الأرض حول الشمس ، ولابد أن نذكر هنا أن الفلكيين كانوا يحسبون حساب الكسوف والخسوف على فرض دوران الشمس حول الأرض ويحسبونه على فرض آخر وهو دوران الأرض حول الشمس ، ولا اختلاف فى التقدير على كلا الفرضين فلا يلزم من النتيجة التجريبية أن تكون حكماً قاطعاً على الفرض العقلى ، ولا يلزم من ذلك إلغاء الفرض العقلى لأنه عمل من أعمال العقل لا سبيل بغيره إلى تحقيق العلوم .

قرأت أخيراً فى سلسلة من المحاضرات بعنوان « الثورة فى الفلسفة » تفرقة بين السؤال الفلسفى الصحيح والسؤال الفلسفى الباطل ، ومثل السؤال الأول أن تقول : كيف كان جلادستون يفكر فى الاشتراكية ؟ . . ومثل السؤال الثانى : كيف يفكر الإنسان فى شئون الماضى ؟

وهذه التفرقة نفسها تدل على صواب السائل عن كيفية التفكير فى الماضى دون سؤال عن هذا الشخص أو ذاك ، لأننى لابد أن أعرف « العشرة » المجردة قبل أن أعد الكتب العشرة والأرقام العشرة وأعرف كم عشرة فى العشرين .

وهناك حقائق مطلقة لابد من التسليم بها لأن إنكارها هو الادعاء الذي يحتاج إلى برهان .

فما هو رأى الوضعيين مثلاً فى الوجود المطلق ؟ إن سلموه فقد سلموا شيئاً لاسبيل إلى حصره ، وإن أنكروه وجب أن يبرزوا لنا الحدود التى تنفى الوجود المطلق وعليها يعتمدون فى إنكاره . . أما إنكار النقيضين معاً فليس من مبادئ الرياضة ولا من مبادئ العلم ولا من مبادئ المنطق كيفما اختلفوا بأسمائه وقضاياه .

ولعلنا لا نحمل الفلسفة الوضعية فوق ما نطيق حين نقول إنها تثبت أن العقل مطبوع على التفكير فى غير الرياضة والعلوم التجريبية ، لأن تجربة العمل العقلى منذ وجد العقل شىء مطرد بغير انقطاع ، وليست حركة الأجسام أثبت من حركة العقول فى مسائل التفكير .

شخصية فرويدية

إذا قلت عن هنريك إبسن الكاتب النرويجى المشهور إنه « شخصية فرويدية يخلق شخصيات من طرازه » فأنت قد وضعته فى قشرة بندقة كما يقول الغربيون فى تعبيرهم عن التعريف بإنسان فى كلمات معدودات .

وهذا هو ذا إبسن يعاد إلى معرض الدرس والتحليل مع فرويد فى سنة واحدة : إبسن لانقضاء خمسين سنة على وفاته ، وفرويد لانقضاء مائة سنة على ميلاده . ولا يعود القارئ إلى روايات أبسن ليراجع مشكلاتها الاجتماعية أو مشكلاتها الفلسفية إلا أمكنه أن يعلق على كل شخصية من شخصيات الرجال أو النساء فيها بالإحالة إلى عبادة « فرويد » . . على وجه الاستعجال .

من هؤلاء الشخصيات من يقتل نفسه لسبب لا يدعو إلى كسر فنجال قهوة .

ومنهم المهووس الذى يجعل شعاره فى الحياة « كل شىء أولا شىء . . » .

ومنهم المخبول الذى يعيش بين الأشباح والأساطير ويهيم بين أبى الهول وأطياف الخرافات اليونانية ، ولا تخرج من قصته إلا بكلمة ببغاوية فحواها « أن تحقيق الوجود فى إنكار الوجود » .

ومنهم من تترك زوجها وأولادها لأنها تريد أن « تحقق وجودها » لا تريد أن تنكره على طريقة زميلها بين أبطال إبسن — بير جنت — !

ومنهم من تحرق مخطوطات عشيقها لأنها تريد أن تحرق طفله غير المشروع .

وكان النقاد يسألون إبسن : ماذا يريد بتصوير هذه الخلائق المشوهة ؟ فكان

جوابه الذى لاجواب فيه : أن عملى أن أطرح الأسئلة والمشكلات وليس علىّ أن أجيب عنها . . !

وعندنا أن إبسن يمكن أن يوضع فى قشرة بندقة أخرى بغير صعوبة كبيرة ، فهو فى الحق « مصلح مسرحى » باقتران الكلمتين معا دون أن تنفرد إحداهما عن الأخرى.

ليس هو بمصلح فى الحياة العامة لأن الحياة العامة لو عمرت بأمثال أبطاله لهبطت إلى الدرك الأسفل من الفساد .

وليس هو بمسرحى من المسرحيين الذين يعملون لفن التمثيل ، ولكنه مسرحى لأنه يريد أن يجعل المصلح الاجتماعى لعبة تمثيلية تؤثر فى الناظرين باللعب والمظهر . وعلى الإصلاح بعد ذلك ألف سلام .

وقد كان بعض النقاد يحسبون من ضعف النظام الفنى فى رواياته أنه يترفع عن هذا النظام ولا يبالى — مع الجوهر — بالإعراض والقشور .

ولكن الناقد البارع الدكتور جون نورتام Northam يهدم هذه المظنة ، ويشرح فى كتابه عن « أسلوب إبسن الدرامى » حيلاً كثيرة كان المؤلف يحرص عليها أشد الحرص فى الوصول إلى « الأثر المسرحى » من طريق الإضاءة ووضع الستائر وترتيب الدخول والخروج ومفاجآت الحديث والسكوت وقد اعتمد فى بحوثه على مسودات إبسن وتعليقاته وعادات التمثيل فى زمانه . وبدا من هذه الحيل التى كان المؤلف يحرص عليها « أن أخاك كان مكرهاً ولم يكن بطلاً » فيما لوحظ عليه من ضعف النظام الفنى أو فيما سماه بعضهم ترفعاً عن حيل التأثير والتشويق .

آفة الإصلاح الاجتماعى أن يكون إصلاحاً مسرحيًّا كما كان إصلاح هذا المؤلف المخبول .

وليس المقصود بالإصلاح المسرحى أن يمثل المؤلف مشكلات المجتمع على المسرح كما فعل كبار الشعراء من أيام الإغريق ، ولكن المقصود بالإصلاح المفسد أن نجعل الإصلاح « بهلواناً » يعمل للتأثير بالمظاهر والمناظر ، ولا يعمل للوصف والتصوير والإيحاء بموضع الداء وموضع التصحيح .

من إبسن . . إلى هيكل *

روايتان

هما روايتان لا تتشابهان في لمحة من ملامح الأشكال أو الأوضاع الفنية .

فإحداهما ألفها صاحبها « هنريك إبسن » في أواخر القرن التاسع عشر ، والأخرى ألفها صاحبها الدكتور محمد حسنين هيكل في أواسط هذا القرن العشرين وبينهما في تاريخ التأليف نحو ثمانين سنة .

والأولى مسرحية من نوع الدرامة والثانية قصة من القصص المرسل ، وإن كانت تصلح كل الصلاحية للتمثيل .

والأولى تصف المجتمع الأوربي بأقصى الشمال من بلاد النرويج ، والثانية تصف المجتمع المصري بين الربع الأول والربع الثاني من القرن العشرين .

وبطلة الأولى هي الدائنة في المعاملات المالية ، وبطلة الثانية هي المدينة في هذه المعاملات .

فليس بين الروايتين شبه واحد من مشابه الأوضاع الفنية والأشكال الظاهرة .

وإنما الشبه بينهما في المدلول ، أو الفكرة التي توحي بها كل من الروايتين وأنهما — مع هذا — تتشابهان في جوهر المدلول بجملته ، ولا تتشابهان في شيء من تفصيلاته العرضية .

فلا يسعك أن تقول إن الدكتور هيكل قد نظر إلى عمل إبسن إلا كما يسعك أن تقول إن إبسن قد نظر إلى عمل الدكتور هيكل .

لاشبه بين العملين إلا كالشبه الذي يجمع بين الشجرتين من نوع واحد تزرع إحداهما في الشمال الأوربي وتزرع الأخرى في الشمال الأفريقي ، وكلتاهما ظاهرة طبيعية منفردة بوجودها قائمة على جذورها .

فرواية إبسن ورواية هيكل قائمتان على فكرة واحدة ، وهي الحالة النفسية التي تطغى على نفس المرأة حين تملك زمام (شخصيتها) وحين تريد أن تثبت لنفسها

---

* أخبار اليوم ١٦ / ٧ / ١٩٥٥ .

أنها مالكة لهذا الزمام ، ولا يقع فى خواطرها أن تصدق ذلك إلا بعمل خطير تستطيع أن تقدم عليه ولا تبالى بعقباه .

فالبطلة فى رواية (إبسن) تقدم على جريمة التزوير لتقترض مبلغاً من المال ينفقه زوجها فى رحلة إلى الجنوب للاستشفاء من داء ينذره بالموت إذا بقى فى بلاده وهو مصاب بدائه ، ثم يعلم الدائن بهذا التزوير فيستغله فى إكراه زوجها على الإذعان لمشيئته والإغضاء عن غشه واختلاسه ، وكان زوجها فى ذلك الحين رئيساً لذلك الرجل المريب فى مصرف كبير .

ويشعر زوجها بالحرج من ذلك الإذلال ، وذلك الإرغام ، فيعتب على امرأته أنها لم تطلعه على جلية الأمر فى حينه ، وتغضب هى فيبدو لها فجأة أن زوجها ينظر إليها كما ينظر الطفل إلى لعبته المدللة ، ولا يحس بها كما يحس (بشخصية) مستقلة ذات « روح » ومشيئة إنسانية ، وتعتزم أمراً لا ترجع عنه ، وهو ترك المنزل والمجازفة بمصير الأسرة ومصير الأطفال الصغار .

وهذه هى المسرحية التى سماها إبسن ببيت اللعبة ، لأنه جعل البطلة فيها تشكو من نظرة الزوج إليها كما تنظر الطفلة إلى الدمية أو العروس التى تلهو بها وتحاول أن تحكى بهذا اللهو عطف الأمومة ، ولهذا أخرجها من البيت لتقتحم العالم حرة طليقة من قيود الزوجية وقيود الأمومة ، ولم يقل لنا إبسن بعد ذلك كيف وجدت أولئك الناس الذين لم يعاملوها معاملة اللعبة والدمية الخشبية ! .

* * *

وهكذا خلقت

أما قصة الدكتور هيكل التى سماها « هكذا خلقت » فالبطلة فيها تحطم حياة زوجين لتثبت لنفسها أنها ذات شخصية وذات مشيئة حرة .

زوجها الأول طبيب أحبها ولم يبخل عليها بقليل أو كثير من كسبه ليظهرها فى المظهر الذى تحبه بين لداتها .

وبلغ من إيثاره لها على نفسه ، أنه كان يأذن لها بالسفر إلى الأقصر، بل إلى

خارج القطر ، إذ تبين له أن حالتها أوحالة أطفالها الصحية تستلزم ذلك ، وكان يبقى فى القاهرة صيفاً ليجمع المال الذى تنفقه فى رحلتها . وربما استدان بعضه ولجأ إلى أصدقائه ليضمنوه وهى لا تدرى بما يتجشمه فى سبيلها ، وحدث مرة أنها قبلت فى الأقصر هدية من رجل مصرى وهدية أخرى من رجل ألمانى ، فلم يغضب ولم يمنعها أن تدعو الألمانى إلى وليمة شاى عندها حين أبلغها قدومه إلى القاهرة .

وتقوم فى ذهنها فكرة الانفصال من هذا الزوج فتمضى فيها حتى تمضيها ولا تبالى ما يصيب الزوج ولا ما يصيب ولديها من جرائر هذا الانفصال .

وما سبب هذا كله ؟

سبب خطير ، أو ينبغى أن يكون سبباً خطيراً بالغاً من الخطر غايته القصوى .

لكنه فى الواقع لم يكن كذلك، ولم يكن فيه شيء من الخطر ولا شيء يستعصى على المرأة أن تطرده من هواجسها بغير اكتراث ، لأنه من الأوهام التى لا سند لها على الإطلاق ، وقد يكون السند الواقعى مما ينقضه وينفيه .

كانت لها صديقة مات عنها زوجها وترك لها ميراثاً ينازعها فيه أهله، وعز عليها أن يتغلب أهله على صديقتها فاستحثت زوجها على مساعدتها وإنقاذها من مطامع شركائها فى الميراث ، ففعل الرجل وأخلص فى المساعدة .

وهذه هى الجريمة التى لا تقبل المغفرة .

فإن الصديقة كانت جميلة ساحرة الجمال تلقب فى بيئتها بفاتنة الرجال ، وكانت الزوجة تغار من تهافت الرجال على مصاحبتها وتشفق أن تكون أجمل منها فى رأى من يقبلون عليها ويود كل منهم أن يخطبها فترضى به قريناً لها بعد موت قرينها ، وتشتد بها الغيرة حتى تسعى بالوقعة بينها وبين رجل من أصدقاء الأسرة يميل إليها ويتقدم لخطبتها .

أفلا يكون الزوج إذن قد أخلص فى مساعدة الأرملة لأنه يحبها ؟

ألا يكون تسريحه لها إلى خارج القطر إحدى الحيل المتفق عليها « لإخلاء الجو » منها ؟ . .

إن الأخبار التى تعلمها تنفى هذه المظنة ، لأنها تعلم يقيناً أن زوجها استدان ما يكفى لسفرها ولا يكفى لسفر الأسرة كلها ، مع حاجته إلى العمل صيفاً لتعويض الدين وسداده فى موعده خشية الفضيحة ، وقد رأت بعينها بعد ذلك أن صديقتها كانت تسافر معها على الباخرة نفسها ويبقى زوجها فى وقدة الصيف لا يسمح لنفسه براحة ينعم بها غير راحة العطلة آخر الأسبوع يقضيها فى الإسكندرية .

وتلح عليها فكرة الطلاق أو تلح بها على نفسها فلا ترجع عنها ولا تعمل للتراجع خطوة واحدة ، بل تعمل للإصرار عليها خطوات بعد خطوات .

ويمرض الزوج وتسوء حاله ، وهى مصرة على ذلك الوسواس الذى لا مهرب منه ، ويتم الطلاق آخر الأمر قسراً فيواليها الزوج بنفقتها ونفقة ولديهما ، وتعلم عرضاً أن هذه النفقة الكبيرة مستدانة من بعض كبار الأغنياء ، لأن ذلك الغنى الكبير فاتحها فى الأمر لتضمن مطلقها ولو بكلمة تقولها ، ولعله فاتحها بهذا السر لأنه أراد أن يتقرب به إليها ، فلم يتغير مسلكها مع ذلك الزوج المنبوذ ، ولم تفكر فى مراجعته بعد طول القطيعة . . ، ثم تزوجت أحد أصدقائه فطالبها بضم الولدين إليه وصدر الحكم بإجابة طلبه ، فلما أرسلت إليه الرسل تتوسل وتتضرع ليترك لها الولدين قبل الرجاء بعد تردد وممانعة ، وكافأته على ذلك بحرمانه من « اسم الأبوة » على إثر موته ، لأنه مات بعد مرض طويل من أمراض الانهيار العصبى فنسبت الولدين إلى اسم زوجها الجديد ، وظلا منسوبين إليه حتى كبرا وجاوز أكبرهما العشرين ، فاستعاد — مع أخته — اسم أبيه .

ولم يكن حظ الزوج الجديد بأسعد من حظ الزوج الراحل ، لأنها خيل إليها أنها ندمت وأنها تستغفر الله بالحج إلى بيته الحرام ، ويلحق بها الرجل حين أمكنته الفرصة ، فتأبى أن تعود معه، وتقول له إنها تعود إذا أمرها، فلا يأمرها ولا تنثنى عن نية البقاء بالمدينة المنورة ، ويأتيها الخبر فى حجها بما يخيفها على حياته ، فإذا هو قد أصيب بنوبة قلبية لم تلبث أن قضت عليه .

* * *

واقع أو خيال

ويسأل القارئ الذي يطالع هذه القصة : هل هي قصة واقعة أو هي قصة موضوعة ؟ هل هي مما سمعه المؤلف فسرده في هذا الأسلوب من القصص على لسان « الشخصية » الحقيقية في هذه الحوادث ؟ أو هي مما تخيله فخلق له الشخصيات وحوادثها ؟

من المحقق عندى أننى أعرف ثلاث شخصيات وردت الإشارة إليها في سياق الرواية ، ومن الراجح الذى لا يبلغ درجة التحقيق أننى أعرف شخصيات أخرى لا تنطبق عليها الحوادث كل الانطباق ، ولكنها شخصيات لا تتغير كثيراً بما يدخله عليها الفن القصصى من التحرير والتعديل .

ولا نشك في أمانة المؤلف للطبيعة وعلم النفس وإن لم ينقل وصف الحوادث والشخصيات نقل المسطرة كما يقال .

فالبطلة في هذه القصة — ولا خفاء في الأمر — مخلوق غير سليم أو « غير عادى » في تفكيره وشعوره وتصرفاته ، ونحن نقرأ خلال الحوار مرة بعد مرة أنها ضحية الغيرة والغرور ، وهي بلا ريب مصابة بغيرة مفرطة وغرور لا يقل عن غيرتها في إفراطه ، لأنها كانت جميلة لا ترى حولها من هو أجمل منها ، وكانت تنظر إلى وجهها وإلى أعطافها وقوامها في المرآة فيسحرها جمالها وتؤمن بأنها ساحرة لغيرها كما هي مسحورة بما تراه من خيالها ، ثم يلوح في الأفق كوكب آخر إلى جوارها يوشك أن يكسف نورها ، فتملأها الحفيظة وتساورها الشكوك ، ولا تدرى على من تصب النقمة التى ملأت نفسها إن لم تصبها على إنسان يعيبها وتعنيه عليه وتشعر بآثار هذه القدرة فيها وفيه .

* * *

هل هي طراز وحدها ؟

يقول المؤلف عن بطلة القصة التى سردها بلسانها : « إنها تروي حكاية حياتها في بساطة ويسر يكاد يميل إليك معها أنها حياة عادية لأية امرأة تعرفها ، ولكنك تقف بعد قليل دهشاً تتساءل ما هذه المرأة ؟ ومن هي ؟ إنها فريدة في طرازها بل

هى نسيج وحدها . إنها تحب الحياة ولا تريد مع ذلك أن تسلم للحياة أمرها ، بل تريد أن تصوغ الحياة كما تشاء هى ، فإذا صدمها الواقع لم تذعن لصدمته بل حاولت أن تواجهه فى كبرياء المعتز بنفسه » .

على أننا نخالف المؤلف فى تمييز هذه المرأة بطبيعة خاصة بين أخواتها من بنات حواء .

فما نراها إلا قد عملت ما تعمله كل امرأة ملكتها نزوات الغيرة والغرور واستبد بها تصوير (الشخصية المستقلة) فى صورتها الخاطئة التى تفهمها من دعوة الحرية النسوية فى مجتمع يعانى نزعاتها الأولى ، أو لا يجيزها على الأقل إلى الحد الذى يسمح للزوجة أن تولم الولائم فى الدار وتأمر ضيوفها — والزوج داخل على غرة — أن يلزموا أماكنهم ولا يفسحوا له محلاً بينهم لأنه « لا محل » له فى الوليمة !

ولولا أن هذه المرأة طراز شائع غير فريد لما اتفق خيال إبسن وخيال هيكل على تصويرها بهذه الصورة أو لما اتفق الواقع الذى شهداه فصوره أحدهما فى أسلوب المسرح وصوره الآخر فى أسلوب القصة المرسلة .

ولقد أوشكت بنت هذه السيدة أن تسلك مسلكها مع قرينها ، لأنها كانت تفهم من حقوقها أنها تملك أن تختار ملابسه ولا يملك أن يختار ملابسها .

وكانت هذه البنت تقول لأمها إذا سألتها عن الخلاف بينها وبين زوجها : « لقد أصبحت حياتنا لا تطاق . . . فإذا أردت أن أبدى له ملاحظة عن لون ثيابه أو زيه قال : مالك أنت وذاك ؟ . . هى ثيابى أنا . . ! متناسياً أن ما يوجه إلى ثيابه من نقد موجه إلى ذوقى وحسن عنايتى ، وهو يريد مع ذلك أن يكون صاحب الرأى فى ثيابى ! فى لونها وقماشها وتفصيلها ، وأنت يا أماه تعرفين أن الرجال لا يعلمون شيئاً عن ثياب النساء ، فالنساء يغيرن أزياءهن والرجال معجبون دائماً بكل ما يصنعن . . حسب المرأة أن تتملق غرور الرجل فتسأله رأيه فى ثوبها ليبدى غاية الإعجاب بالثوب وبها . . »

ولا يقال إن هذه الفتاة بنت أمها وأنها ورثت هذه الخلة من خلالها أو تعلمتها بالقدوة على غير قصد منها ، فإن الكلام الذى تقوله هذه الفتاة فى القصة تكرره

فتيات كثيرات ممن يفهمن حق المرأة على الزوج كما تفهمه، أو يردنه كما تريده .

ومهما يكن من داء الغيرة والغرور فإنهما لا يصنعان هذا الصنيع فى كل زمن .

إنهما لا يصنعانه فى زمن يسلب المرأة كل حريتها لأنها تغار وتغتر فى هذه الحالة وتروض نفسها على الرضى بما يقسرها المجتمع عليه .

وإنهما لا يصنعانه فى زمن قد ألفت فيه المرأة حريتها وأصبحت مطمئنة لها غير محتاجة إلى دليل محسوس يثبتها لها فى أعماق وجدانها .

وهذا الدليل المحسوس هو النكبة المدمرة ، لأن المرء حين يريد أن يثبت لنفسه « شخصيته » لا يثبتها بكسر فنجال أو تحطيم كرسى أو تمزيق ثوب ، ولكنه يثبتها كلما تفاقم الضرر وعظم الخطب من حوله، وهذه المرأة لم تكن مستطيعة أن تتحكم فى حياة إنسان غير زوجها، ولم يكن شقاؤه مما يثنيها عن شرة طبعها ، بل كانت ترضى عن قدرتها كلما تعاظم أثرها من البؤس والشقاء .

وعلة أخرى من علل النفس الإنسانية ومداخلها الخفية تسول لهذه المرأة أن تتمادى فى الإيذاء والنكاية، فإنها تحب أن توهم نفسها أنها على حق فى غيرتها وأن زوجها يستحق كل هذه النكاية منها ، فتمضى فى الشر إلى غايته ولو وقفت فيه دون الغاية لقتلها التردد والوسواس وفتحت على نفسها أبواباً لا تقوى على إغلاقها من تبكيت الضمير .

* * *

وكبرياء الرجل

وكأنما أراد الدكتور هيكل أن يبسط أمامنا فى قصته الصادقة معرضاً لداء الكبرياء والغرور فى نفس الرجل ونفس المرأة، وفيما يعرض للجنسين وما يقدر عليه كل منهما من ضروب التحكم فى الآخرين .

فمن أبطال الرواية رجل من أصحاب الملايين يلذ له أن يترك رئيساً كبيراً فى حجرة الانتظار فترة طويلة لغير ضرورة ، ويقول له محدثه : « ليس بيننا حديث ذو شأن حتى تنتظر رجلاً فى مقام صاحب الدولة . . » فكان جواب صاحب الملايين :

« بالله خبرني . أتحسب أني ولى من الثراء ما لى آكل خيراً مما تأكل أو ألبس خيراً مما تلبس ، أو أنام فى فراش أوثر من فرش نومك ؟ . . لاشيء من كل هذا . . فأى قيمة للثراء إذن إذا لم أشعر أنى أستطيع بفضل سلطانه أن أدع صاحب الدولة هذا وأمثاله ينتظرونني إن أمرت ويدخلون على إن شئت » .

هذه هى الكبرياء حقاً .

والكبرياء الحق نوع مزيف من الثقة بالنفس واعتداد الإنسان بقدره وعرفانه بحقه .

إنها نوع مزيف لأن العارف بقدره لا يهمه ما يراه الناس منه ولا يجعل قدره متوقفاً على انتظار هذا أو خشوع ذاك، وإنما يفعل ذلك من لا قدر له عند نفسه إلا أن يرى له أثراً فى شعور الآخرين .

وإن كبرياء هذا الرجل لنسخة « رجالية » من كبرياء تلك المرأة ، وإنما يغتر هو بالمال ، وتغتر هى بالجمال . .

* * *

والعبرة للمعتبرين

والدكتور هيكل لا يكتب القصة للعبرة لأنه يقول أو يلقى على لسان البطلة أن تقول: « لا أحسبنى أبالغ حين أذكر أن العبرة بما يصيب الغير كلمة لا مدلول لها فى الواقع . فنحن لا نعتبر إلا بما يصيب ذاتنا . . »

وصدق الدكتور أو صدقت بطلة الرواية، ولكن تمام هذا الصدق أننا نعتبر للغير بما يصيب الغير ، ونعتبر لأنفسنا بما يصيبها فى وجودها .

ومن عبرة هذه القصة التى أبدع فيها الدكتور صدقاً وفناً أن حرية المرأة والمرء معاً خطر عليهما حتى تروضها الألفة وترجع بها إلى حالة الثقة بها والطمأنينة إليها.

كله عند العرب صابون *

الدانمرك تحتفل بذكرى صديق الأطفال

بعد مواسم عيد الميلاد ورأس السنة الشمسية ، تتدفق الكتب من دور النشر والطباعة فى الغرب ، ويصعب على القراء ملاحقتها لولا أنهم قد تشعبوا وتخصصوا فأصبح لكل منهم شأن يعنيه من الكتب والكتاب ، حتى قراء القصص الذين يسبق إلى الظن أنهم طائفة واحدة قد أصبحوا فى الغرب طوائف متعددة تقبل طائفة منها على القصة التاريخية وأخرى على القصة الاجتماعية وغيرها على القصة البوليسية وغير هؤلاء جميعاً على قصص المجون والخلاعة أو قصص الإباحة والأدب المسمى بالأدب المكشوف .

ولولا ذلك لغرق القارئ عندهم كل عام ، فى طوفان من المقروءات لا قدرة له على السباحة فيه .

أما نحن فى الشرق فكل ما نملكه أمام هذا الطوفان ، أو هذه الطوفانات ، أن نرجو لبلادنا طوفانات مثلها فى زمن قريب تزخر بالقراء والمقروءات ، وأن نختار من كل بريد فى هذه الصفحات نخبة تناسب المقام ، لأنها متصلة بمصر والديار الشرقية ، أو لأنها قراءة عامة يشترك فيها القراء المختلفون من غير المتخصصين للقراءة المستقلة فى فن من الفنون .

وكشكول هذا البريد كتب ثلاثة . قصة حدثت وقائعها فى الإسكندرية وكتاب يبحث فى علم الضحك ، ودراسة صيفية يكتبها أديب من مملكة السماء السابقة ، ليقارن فيها بين حضارة قومه وحضارة الأمريكيين ، وهو يعيش بينهم ويكتب الكتاب لهم قبل غيرهم ، لأنه مكتوب باللغة الإنجليزية !

* * *

---

* أخبار اليوم ٢ / ٤ / ١٩٥٥ .

قصة فى الإسكندرية

أما قصة الإسكندرية فعنوانها « السنة الجامعية » أو السنة الأكاديمية Academic year إذا توخينا الترجمة الحرفية .

ومؤلفها د . ج إنرايت Enright كان محاضراً بجامعة الإسكندرية ثلاث سنوات ، وحصل منها على إجازة الدكتوراة فكان الإنجليزى الوحيد الذى حصل على هذه الإجازة من تلك الجامعة وهو الأن يدرس الأدب الإنجليزى فى جامعة كوب اليابانية ، كما جاء على غلاف الرواية .

والمكان كما هو ظاهر فى مدينة الإسكندرية .

والزمان كما هو ظاهر من حوادث الرواية حوالى سنة ١٩٤٥ وما بعدها بقليل ، لأن المؤلف يذكر فيها حوادث إضراب الشرطة والتطوع لحملة فلسطين .

وأبطال الرواية ثلاثة من المدرسين الإنجليز ، أحدهم كهل والثانى بين الشباب والكهولة ، والثالث فى مقتبل الشباب .

وتقرأ القصة فيخيل إليك أن الإسكندرية بلد لا تقع فيه العين على غير المتسولين والمرضى والنسوة المتسكعات فى الطرقات والحانات وسهرات الشراب والمجون .

وإذا تكلم المؤلف عن غير ذلك وصف لنا سهرة فى بيت طبيب شرقى متفرنج ينظم الشعر بالفرنسية ويقول إنه لايهتم بالموضوع وإنما يهتم بشىء واحد وهو الأسلوب ، ويترك الاهتمام بالموضوعات لكتاب الصحافة لأنهم لا يعرفون الأسلوب . وديوان شعره مطبوع فى نسخ قليلة مختارة على ورق سميك يشبه « حشية الغانية » كما جاء على لسان أحد المدرسين الثلاثة .

أو يتكلم عن مصورفى منصب محترم فيقول إن صوره من وحى الحشيش .

أو يتكلم عن سماسرة لا تنقطع لهم صلة بعالم الفساد ، وإن اشتغلوا بالتجارة أو بالصحافة أو بالتدريس .

والحق يقال إن المؤلف قد عدل بعض العدل على غير قصد منه ، فتحدث إلينا عن أبطال الرواية حديثاً لا يشرف ولا يسر ولا يعطيهم الحق فى انتقاد خلق من الأخلاق ، على الإطلاق .

أحدهم وأكبرهم يسكر فى البيت وفى النادى وفى الجامعة ، ويحدث من نوادره فى السكر أن تقيم الجامعة احتفالا عاما بالمركز الثقافى تهتم بتنظيمه وتعميم الدعوة إليه ويحضره وزير المعارف وطائفة من العلماء والمشتغلين بشئون التعليم ، ويندب الأستاذ للكلام فى موضوع يختاره فيختار موضوع « الجانب النفعى للتعليم والتربية ». ثم يأتى اليوم الموعود بعد طول الاستعداد فلا يحضر فى الساعة المعينة ولا يعتذر بكتاب ولا بحديث فى التليفون ، فيهرول إليه أحد زميليه فيلقاه فى حجرة نومه لا يعى من السكر وحوله القنانى الفارغة والصحاف المبعثرة يخطب فيها ويردد آراءه بينها عن الجانب النفعى للتعليم والتربية ! . . ثم يجتهد زميله بما فى وسعه لتنبيهه فيعود إليه بعض صوابه ويندفع مع الزميل إلى مكان الاجتماع فى سيارة أجرة ، ثم يرتقى المنصة فى غير دوره ويبحث عن أوراقه فإذا هو قد نسيها فى السيارة وإذا فى جيبه ظرف قديم كتب عليه مسودة قصيدة من شعره ، فيقرأها ويقلب الظرف أخيراً ليقرأ على صفحته الأخرى عنوانه واسمه ، ثم يدرك غلطته فيهبط من المنصة إلى الباب مسرعاً كأنه يحاول الهرب ، ويتوقف عند الباب قليلا ليخاطب الجمع قائلا : إن كانت لديكم أسئلة فالزملاء على المنصة يتفضلون بالجواب عنها .

وهذا الأستاذ الكبير — أكبرهم — يغشى المراقص وينتقى منها واقصة تساكنه وتستقبل ضيوفه ، وينتهى به الأمر إلى الموت قتيلا من جرائها ، لأن ثلاثة من أبناء قريتها يعلمون بمكانها فيساومونه على شرفها ويطلبون عشرين جنيهاً ويرضى هو بستة جنيهات جنيهين لكل واحد من الثلاثة . . فيطعنه أحدهم بمدية وينزف دمه فيموت قبل أن يسعفه الطبيب ، وقد كان معه أحد الزميلين من مبدأ الحوار إلى منتهاه !

والمدرس الآخر يصف لنا سهرة فى بيت أحد الطلاب ، أعدها لتدخين الحشيش وأشباه ذلك من المحظورات ، فيدخن الحشيش حتى يفقد وعيه ويحاول بعد هنيهة أن يفتح عينيه ليرى الراقصة العارية فلا يطيق أن يفتح عينيه ولا أن يحرك قدميه .

ومنهم من يذهب إلى القسم ليتشفع لفتى إغريقى متهم فى قضية شيوعية ، فيغمز له الضابط بعينه ويسأله : أتراك تحب أندريا ؟ فينفى الشبهة ضاحكاً ، ويعود الضابط فيقول : إن لم تكن تحبه فأنت تحب أمه أو أخته . . فيكون جوابه أن أمه عجوز وأن أخته لم تولد مع الأسف . إذ ليس له أخوات .

هؤلاء هم نقاد العالم !

ونقاد العالم فى اصطلاحنا هم أولئك الذين يحسبون أنهم خلقوا بوظيفة مفتشين على الأمم ، وعملهم فى التفتيش كله أن يخرجوا منه بمجموعة العيوب والخبائث التى تكشف عن نفسها أو تختبئ من المفتشين فى الجحور والسراديب .

ولم نعرف أحداً قط من هؤلاء النقاد العالميين أو هؤلاء المتفشين المتطوعين إلا وجدناه « جديراً » بالسطر الأول من القائمة ، حتى استقر فى يقيننا أن الكشافين لعيوب الأمم من هذا القبيل إنما يشتغلون بهذا الشاغل تعزية لأنفسهم من عيوبهم وشعوراً منهم بالحاجة إلى مقارنة بينهم وبين من هو على شاكلتهم ترضيهم عن مساوئهم وتوحى إليهم أنهم معذورون . . وإلا فماذا يصنعون ؟

إسكندرية مدينة عريقة كبيرة لا تحيط بها تلك الصورة التى انحصرت فيها أوصاف الرواية ، ولكن الأساتذة — نقاد العالم — قد أحاطت بهم صورهم التى رسمها لهم زميلهم فلم تدع شيئاً من محاسنهم أو مساوئهم ، فمن يا ترى أحق بالخجل فى هذا الخليط من الأوصاف والأشكال ؟

* * *

علم الضحك

وفى عالم المضحكات المبكيات ، لا ضير علينا أن يدخل الضحك فى عداد العلوم ، وأن يستطيع الإنسان مع تقدم هذا العلم — أن يوصى على صنف من المضحكات بعينه ، فلا يخلط له بصنف دونه ، ولا يباع له بثمن أغلى من ثمنه المقدور له فى معايير الضحك والمضحكات .

ما القفشة ؟ وما النكتة ؟ وما العثرة ؟ وما الربكة ؟ وما المفارقة ، وما اللغو ؟ وما المفاجأة ؟ وما المبالغة ، وما الجناس بالحروف ؟ وما الجناس بالمعانى ؟ وما اللغز ؟ وما المحاكاة بالحركات ؟ وما المحاكاة بالأفكار ؟ وما هو سوء التفاهم المنفرد ، أو المتبادل ، أو المشترك بين الحاضرين ، أو المشترك بين الحاضرين والغائبين ؟

كل هذه موضوعات للضحك ، وكلها مختلفة الأسباب والتعريفات ، وكلها ذوات فوارق محدودة وإن حسبنا أحياناً أنها كصابون العرب « كله صابون ! »

ولا متسع للتعريفات والفوارق فى مقال ، ولكن النماذج الآتية أشتات من هذه الأنواع يراجعها القارئ ليختبر « درجته » من هذا العلم الجديد القديم ، ويتخذ من الضحك موضوعاً للجد، ومن الجد موضوعاً للضحك ، إن شاء .

« إذا أصبت لم يذكرك أحد ، وإذا أخطأت ذكرك جميع الناس .

« حماتى تقضى اليوم كله حزينة ، لأنها لا تملك ثروة تحرمنى منها .

إذا كانت حبيبتك كتاباً مفتوحاً ، وضعتها سريعاً على الرف .

عندما يهتدى الحكيم إلى الوقت المناسب للزواج يكون الأحمق أباً ينفق عليه ابناه .

قبل الزواج تقبل الفتاة الفتى لتربطه ، وبعد الزواج تربطه لتقبله .

إنه محدث لطيف : إنه الوحيد الذى نجوت منه .

قال لصاحبه : أخلاقى هى كل ما أنا مدين به لأمى ، وقال له صاحبه : أرسل إليها بضعة دريهمات واخلص من دينك .

لا تستمع لنصيحة ، حتى هذه النصيحة

ولماذا يأكل الخنوص كثيراً ؟ ليصبح خنزيراً ؟

جلس الضابط الألمانى ، والمسافر الفرنسى ، وفتاة حسناء ، وسيدة نصف ، فى مقصورة القطار ، ودخل القطار فى نفق مظلم ، فارتفع صوت قبلة ولطمة ، وخرج القطار من النفق فإذا بالضابط الألمانى محمر العين ، وكل منهم يقول فى نفسه غير ما يقوله الآخرون .

الفتاة : عجبى لهذا الضابط الألمانى . . لماذا قبل العجوز ولم يقبلنى ؟

العجوز : يا لها من فتاة عفيفة جريئة .

الألمانى : إن هذا الفرنسى ليس بأحمق . . إنه ظفر بقبلة وظفرت أنا باللطمة !

الفرنسى : الحمد لله . قبلت ظهر يدى ولطمت الألمانى ، ولم يسألنى أحد .

وهذه نماذج من مئات فى الكتاب الذى يبلغ مائتين وخمسين صفحة ، واسمه تطبيق لما فيه ، لأنه يسمى The Humour of Humour ويصلح أن يترجم بفكاهة الفكاهة

كما يصلح أن يترجم بمزيج الفكاهة أو تركيب أجزائها ، وليست تعريفاته ولا فوارقه مبرأة مما يضحك إذا شاء القارئ أن يضحك من السخف والحذلقة ، ولكنها فاتحة موفقة فى هذا النمط من دراسة الضحك ، على وجه السرعة كما يقول الشرقيون وعلى قدم السرعة كما يقول الغربيون .

أما دراسة الضحك على غير هذا النمط فهى أقدم من المؤلف ومن آباء الفلسفة الأقدمين ، لأنهم ضحكوا من تعريفات كثيرة سبقهم إليها الأولون .

* * *

بين حضارتين

وتعجبنا من كتاب الأمريكيين والصينيين صراحة المؤلف الذى يعمل فى إحدى جامعات « الينواز » بالولايات المتحدة ويفاضل بين الحضارتين فلا يجامل القوم إلا بلباقة التعبير !

الأستاذ « هسو » صاحب هذا الكتاب عالم من علماء الأجناس الإنسانية — أنترويولوجى — يطبق علمه على البلاد والتى يعيش فيها والبلاد التى ينتمى إليها .

وخلاصة آرائه أن حضارة أمريكا تبالغ فى المسائل الجنسية التى تبالغ الحضارة الصينية فى مداراتها وسترها ، وأن الأمريكيين فرديون ولكن الصينيين عائليون ، وأن الإله عند الأمريكيين صاحب حظوة تتزاحم عليها الطوائف لأن الحضارة كلها طبيعتها الزحام والتنافس والعداء ، ولكن العبادة الصينية تتسع لجميع العباد ويتجه فيها كل متدين إلى محرابه بغير تنافس ولا زحام ، ويرى الأستاذ أن التعصب الدينى خلة غير مألوفة فى الأمة الصينية وأن المذابح التى وقعت فى القرن الماضى إنما كان الباعث الأكبر عليها تنازع المبشرين وتشهير كل مذهب منهم بالمذهب الذى ينافسه ويحاول أن يصرف الصينيين عنه ، وتكلم الأستاذ « هسو » فى مواضع متفرقة من كتابة عن العلاقة بين المسلمين والبوذيين ، فقال إنهم يعيشون جميعاً فى سلام ووئام ، وأن المعارك التى نشبت بينهم لا تدور على الخلافات الدينية بل على تنازع السلطات بين الأمراء المسلمين والدولة الطامعة فى التوسع وإخضاع ولايات الأطراف .

قال : والمسلم يتزوج من الأسرة الصينية وإن كان لا يزوج بنته من رجل على غير دينها ، وتعليله لذلك أن المسلم يضمن فى بيته طهارة الطعام والشراب من المحرمات وليس ذلك بمضمون فى البيوت التى ينفق عليها أزواج يستبيحون ذلك الطعام أو الشراب .

ويقول الأستاذ « هسو » : إن الشيوعية لم تنتشر فى بلاده إلا لأن المستعمرين يطمعون فيها ويدسون دسائسهم بين أهلها ، وإنها عارض يزول متى زالت سيطرة الاستعمار على الأقطار الشرقية .

قال : والمبشرون على الدوام ينظرون من علٍ إلى الشعوب التى يدعونها إلى الإيمان بعقائدهم ، وقد عاش ابن فضلان المبشر المسلم بين الإسكندنافيين من أهل الشمال فى القرن العاشر وهم على الوثنية فقال عنهم : « إنهم كالحمر المستنفرة » وأنهم قذرون مبتذلون فى المسائل الجنسية ولهم عادات شهوانية فى تقديم القرابين من الضحايا البشرية .

ونظر الإنسان إلى مستقبل الإنسانية فقال إن توجيه هذا المستقبل أكبر جداً من طاقة الأمة الأمريكية وحدها ، وأن أمريكا نفسها لا تأمن ضياع الحرية إذا لم تتفق مع الإنسانية فى وجهة واحدة تعادل بين مشكلات الفرد وعلاقات الجماعة .

وختم الكتاب بكلمة أبراهام لنكولن التى قال فيها لقومه : « انقذوا الإنقاذ النبيل أو تراجعوا تراجع الخسة عن الأمل الأعلى والأمل الآخير » .

* * *

صديق الأطفال والشيوخ

ووصل البريد الأخير وفيه أنباء الاستعداد فى الدوائر الأدبية ودوائر التربية — للاحتفال بذكرى هانس أندرسون أديب الدانمرك الكبير الذى اشتهر فى الغرب باسم صديق الأطفال ، ومن حقه أن يسمى كذلك بصديق الشيوخ ، لأن الطفل الذى يسر بقراءته وهو فى العاشرة أو ما بعدها بقليل ، يعود إلى السرور به أضعافاً مضاعفة حين يفهمه حق الفهم بعد الخمسين أو الستين .

واليوم — الثانى من شهر أبريل — هو اليوم الذى ولد فيه هذا الصديق المتنازع

عليه ، أو صديق الجميع ، قبل مائة سنة فى قرية من قرى الدانمرك مجهولاً فى قرية مجهولة ، فلم تدركه الشيخوخة حتى كان اسم تلك القرية من أسماء الأعلام العالمية ، وحتى أصبح من تقاليدها أن تضاء فيها المشاعل كل عام وأن يمشى فى موكبها الكبار والصغار تكريماً للصديق المحبوب فى كل دار .

ومن الخير أن يذكر أندرسون فى الحضارة الغربية لأنه رد للطفولة اعتبارها ، وجعلها فى تلك الحضارة شيئاً محسوباً له حساب فى المطبعة والكتاب .

ولا نعنى هنا التعليم فإن الناس علموا أطفالهم منذ ولد لهم أطفال ، ولكننا نعنى كتب المطالعة التى يقرأها الطفل باختياره كما يقرأ أبوه الكتاب الذى ينفعه أو يسليه .

والأمم الغربية آخر الأمم التى عرفت للطفولة هذا الاعتبار ، وإن كانت دعواها العريضة أنها سبقت جميع الأمم إلى المناداة بالحقوق فى البيت وفى الندوة وفى السوق .

ولغاتهم كلها — أو معظمها — شاهدة عليهم بالحقيقة التى لا فرار منها .

إن الضمير الذى يشار به إلى الطفل فى اللغات الغربية هو ضمير الجماد أو الضمير الذى يشار به إلى الأشياء .

واللغة العربية — على كثرة الفروق بين ضمائر العقلاء وغير العقلاء فيها — لا تذكر الطفل إلا بالضمير الذى يذكر به الكبار من الذكور أو الإناث .

فاللغات الغربية إما أن تذكر الطفل بضمير الجماد أوتسوى بينه وبين الجماد ، ولكننا نقول هو الطفل وهى الطفلة ومن كان من الأطفال ، لا ما كان !

وقبل أن تؤلف كتب الحكمة على ألسنة الحيوان فى أمة من الأمم الأوربية ، كانت هذه الكتب من مطالعات الأطفال بين الشرقيين من الهند والصين إلى وادى الفرات ووادى النيل .

هذا القياس من مقاييس الحضارة لم يذكره الأستاذ الصينى وهو يقارن بين الحضارتين .

ولكنه فى ذكرى صديق الأطفال والشيوخ أحق شىء أن يذكر للوفاء بحق الكاتب الذى كان فى هذه الخصلة شرقياً من الشرقيين .

نزهة سقارة *

قصة أخرى عن مصر

ظاهرة جديدة

هذه القصص التي تكتب باللغة الإنجليزية عن المجتمع المصرى ظاهرة جديدة فى الأدب الإنجليزى الحديث .

فلا نذكر أن قصة واحدة من هذا القبيل كتبت فى عهد الاحتلال وقد استغرق نحو سبعين سنة .

وإنما ظهرت قصتان أو ثلاث من الحوادث المصرية بعد الثورة العرابية وثورة السودان ، ثم سكت الكتاب القصاصون عنها وانحصر الكلام عن مصر فى كتابات الصحف وتقارير العمداء السياسيين ، أو المذكرات التى يكتبها هؤلاء العمداء ويتحدثون فيها عن مصر بطبيعة الحال لأنها المسرح الذى يظهرون عليه بأدوارهم ورواياتهم ، ويؤلفون فيه ما يؤلفون من مهزلة أو مأساة .

وتغير هذا بعض التغير فى الأيام الأخيرة ، فظهرت الحكايات القصيرة عن مصر كما ظهرت القصص الكبيرة ، وإحدى هذه القصص الكثيرة قصة « السنة الجامعية » التى لخصناها منذ أسابيع ، وهذه قصة أخرى من نوعها تصل إلى مصر فى الأسبوع الأخير ، وعنوانها نزهة سقارة ، لأن المؤلف كاد أن يقتل فى تلك النزهة !

ونظن أن هذا التغير فى موضوعات الكتابة الإنجليزية عن مصر إنما يفسره شىء واحد ، وهو الاعتراف « بشخصية الأمة المصرية » التى تجاهلها المحتلون نحو سبعين سنة ، فلم ينظروا إلى مصر إلا من زاوية الإدارة الإنجليزية ، ولم يهتموا بها إلا ليهتموا قبل ذلك بحكومتها وسيطرتهم عليها ، فلما أصبحت للأمة « شخصية » تغلبت على وجود الحكومة المحتلة ، قسرت كتابهم على تصويرها وتسجيل حوادثها ومظاهر شعورها فى القصص الأدبية .

* أخبار اليوم ١٤ / ٥ / ١٩٥٥ .

ولا يبعد أن نقرأ كثيراً من هذه القصص فيما يلى من أيام هذه السنة ، وفيما يليها من السنوات .

بطل القصة

كان بطل القصة السابقة أستاذاً للأدب الإنجليزى فى جامعة الإسكندرية ، وكانت حوادثها كلها تدور على البيئة المصرية أو البيئة الأوربية التى استطاع ذلك الأستاذ أن يتصل بها سرًّا وعلانية .

أما بطل هذه القصة — نزهةسقارة — فاسمه إدجار بيرى وعمله تدريس الأدب الإنجليزى فى جامعة القاهرة، وله رحلات إلى مدن الأقاليم يلقى فيها بعض المحاضرات على الروائيين الإنجليز، ولعلها مدينة واحدة هى مدينة الزقازيق .

وأخلاق الأستاذ هنا تخالف أخلاق الأستاذ هناك ، فلا مراقص ولا خليلات ولا إدمان للخمر ولا زيارات مختلسة لتدخين الحشيش ، ولكنه زوج غير مطمئن فى زواجه ، تلاحقه امرأته إلى القاهرة لتبلغه أنها تحب رجلا آخر وتريد أن تطلقه أو تريد منه أن يطلقها ، وتصل إلى القاهرة فتجده فى شاغل عن هذه النكبة أو فى تشاغل عنها ، وبمشروع من مشروعات الإصلاح يتعلق بمساكن الطلبة ، ويريد أن يقنع به بعض الرؤساء وبعض ذوى الجاه والمكانة من الأسرة المالكة، أيام فاروق .

أميرة معروفة

ويكاد القارئ أن يعرف أبطال القصة جميعاً بالأسماء لأنهم موصوفون بصفاتهم المشهورة فى زمن محدود ينتهى إلى أواخر سنة ١٩٤٦ .

فالمؤلف يتحدث عن أميرة مصرية فى نحو السبعين مع زوج أصغر منها بخمس وعشرين سنة، ويقول عن هذا الزوج إنه ليس بمصرى وليس من الأسرة المالكة، ولكنه تركى كان يعمل فى وظيفة من وظائف المصارف الكبرى ثم ترقى فيها إلى الإدارة أو الرئاسة ، ويصف وجه الأميرة فيقول إنها تحتفظ بمسحة من الجمال فى سنها العالية ، وإن أجمل ما فيها أنفها الذى تحاول أن تظهره دائماً فى صورها الجانبية ، ومن شواغلها الكثيرة تشجيع الحركة النسائية وتأليف القصص وإعدادها

للنشر فى مجلة خاصة كانت فى ذلك الوقت تعد العدة لإصدارها ، وتطلب من الأستاذ الإنجليزى أن يترجم لها قصتها لتنشرها فى القسم الإنجليزى من عددها الأول.

بنات النيل

قال المؤلف : « وكان قد بقى على موعد الصدور نحو شهر ، وحضرت امرأتان شابتان تتوليان النيابة عن الرئيسة فى جماعة بنات النيل ، ووقفتا أمام نموذج كبير لصفحات المجلة. فهنا صورة المحررة الكبرى فى جواهرها الماسية وهنا صور شمسية من مجموعتها المدخرة ، وهنا مقالة عن كليوبترا المرأة السياسية والبطلة الوطنية ، كتبتها المحررة الكبيرة فى اللحظة الأخيرة . . . ولكن أين الترجمة الإنجليزية للمادة المهمة التى هى أهم من كل هذا ؟ أين قصة الفرعون أمنحوتب الفاجعة وجاريته الصغيرة ؟ لقد كانت أقراط اللؤلؤ تهتز فى آذان النائبتين عن الرئيسة ، وهما تعملان المقص على النموذج المبسوط بين أيديهما . . »

وهكذا يفهم القارئ بغير عناء من هى الأميرة المقصودة ، فإن المؤلف يسميها تسمية بهذه الصفات وبهذه الأخبار.

ولا بد من الخلط

ولكن لابد من الخلط فيما يكتبه هؤلاء المؤلفون الإنجليز — والأوربيون عامة — عن التاريخ المصرى حديثه وقديمه . . . وإنهم ليخلطون فى الحوادث القريبة التى يسهل التحقق منها بسؤال صغير يجيبهم عنه الكثيرون فى مصر ، وإن لم يكونوا من المطلعين على دخائل الأمور .

فالمؤلف يقول لنا فى الصفحة الثانية والتسعين من القصة : « إن الأميرة قد استمتعت فى حياتها المديدة بكثير من المواقف المثيرة ، ففى سنة ١٩٠٥ أطلقت الرصاص على قدم زوجها الأول ، وفى سنة ١٩٢٢ أقنعت زوجها الثانى وعشيقها بالعدول عن المبارزة . وقالت لهما إنها تهب نفسها لمن يستطيع منهما أن يسبق الآخر فى تجرع جالون من البيرة الإنجليزية » .

ويمضى المؤلف فى أحاديث كثيرة عن الأميرة وعلاقاتها بالقصر الملكى وعلاقاتها بالوزارة القائمة ، فإذا توقع أحد منها أن تتشفع للأستاذ الإنجليزى عند اعتقاله فى

إحدى المظاهرات صاحت بزوجها الواقف أمامها: « يا عزيزى إنهم يعتقلون هذا الرجل القصير لأنه هدف حسن لتوجيه الضربة إلينا وتوجيهها من ثم إلى القصر الملكى . فإنهم يعلمون جميعاً أن الأستاذ بيرى فى حمايتى ، ولكننى لا أبالى . . . فليشنقوه إن أرادوا . . فكل ما يسعون إليه أن أركع أمامهم متوسلة ، إنها حكومة من النيام نيام والبلاشفة ، وليس فى وسعهم أن يرغمونى . . . إننى أتحداهم » .

والبطل السجين

أما المظاهرة التى اعتقل فيها الأستاذ الإنجليزى وأودع السجن فى قسم من أقسام العاصمة ، فقد ثارت من جراء البحث فى مشروعه الكبير .

ذهب إلى مساكن الطلبة فى كلية الزراعة ليجمع الإحصاءات ويتفقد الأحوال ويتقصى البيانات اللازمة، فلما سئل عن مشروعه قال لهم: إنه يريد أن يسعى عند ولاة الأمر لبناء مساكن حديثة يأوى إليها الطلبة وتتوافر فيها الشروط الصحية ووسائل المعيشة ، وأصغى إليه أحدهم ثم قال : إنك إذن تريد أن نأوى إلى فراشنا فى منتصف الساعة الثامنة على نظام المساكن الأزهرية » .

وظن بعضهم أنها دسيسة . وظن بعضهم غير ذلك ، وصيحة من هنا وصيحة من هناك وتتحرك المظاهرة للهتاف وإعلان الاحتجاج والثورة على الاحتلال. ويضبط الأستاذ فى وسطها فيتهمه الشرطة بالتحريض على التظاهر ، ويحسبونه روسيًّا أو ألمانيًّا من دعاة الشغب أو سماسرة المذاهب الهدامة ، فيلقون به فى الحبس الاحتياطى للتحقيق !

ولا يعرف أحد أنه فى الحبس ، ويصر هو على البقاء فى مكانه إلى أن تثبت براءته ويعتذر إليه الضابط والمحافظ والوزير ، ثم يتصل الخبر بالأميرة وزوجها فتثور الأميرة تلك الثورة ويتركها زوجها حتى تهدأ وتنصرف إلى مخدعها فيخرج مع زوجة الأستاذ إلى القسم الذى حبس فيه زوجها ، ويحاولان عبثاً أن يقنعاه بالخروج معهما فلا يخرج ولا يتزحزح من عناده ، ويبقى فى الحبس ليأنس بصحبة نشال بارع يجرب معه صناعته وينجح فى سرقة محفظته بعد تخديره . ثم يساومه على الإفراج والاعتذار إليه بثمانية جنيهات ، لعلها كل ما رآه فى محفظة الأستاذ !

ملك حارس أو عفريت راصد

ولكن الأستاذ الذى أبى أن يخرج مع زوجته وزوج الأميرة يعود فيقبل الخروج مع تلميذ من تلاميذه فى الجامعة يتكرر الكلام عنه فى فصول الرواية ، ويلقاه الأستاذ حيث كان فى مأزق الخطر أو يلقاه ليكون هو نفسه خطراً عليه يهم بقتله ويصوب إليه المسدس فلا ينجيه منه إلا اقتراب الرفاق فى الرحلة .

وذلك التلميذ يسميه المؤلف « معاوية خلصت » ويقول عنه إنه عضو فى جماعة سرية وأنه دخل الجامعة بأمر من زعيم مشهور لأنه مدحه بقصيدة ألقاها بين يديه فى محطة باب الحديد . ويجعله شفيعاً مقبولا فى كل مكان ، بل يجعل حادثة الاعتداء مقدمة الخلاص من مشكلته البيتية ، وسبيل الإصلاح بينه وبين زوجته التى أرادت أن تطلقه أو تقنعه بتطليقها .

وعلى كثرة الخلط فى أخبار هذا « المعاوية » ينجح المؤلف فى تسخيره لإتقان الحبكة الروائية ، وفى التوسل به إلى المناسبات البعيدة التى لا علاقة لها بمجرى الحوادث فى الرواية .

وكان معاوية هذا هو الذى هم أن يقتله فى رحلة سقارة تنفيذاً لأوامر الجماعة التى ينتمى إليها ، فلما نجا من الرصاصة وأحس كلاهما بأصوات القادمين من رفاق الرحلة راح معاوية يصيح كالمستغيث : إن الأستاذ يبرى هم بالانتحار . . . يا للمسكين ، إنه أراد أن يقتل نفسه بيديه !

وتحسب الزوجة أن زوجها يتخلص من آلامه بقتل نفسه ، وأنه يفارق الحياة باختياره حزناً لفراقها واقتراب موعد طلاقها ، فتشعر بتبكيت الضمير وتؤمن بحب هذا القرين الوفى الأمين ، وتعدل عن طلب الطلاق وتكتب إلى عشيقها تصارحه بانقطاع العلاقة بينها وبينه ، ولا يتبدل هذا الموقف بعد انكشاف الحقيقة واطلاع رؤساء الجامعة على جلية الخبر ومناقشة كبير الأساتذة الإنجليز إياه فى تحقيق المسألة أمام زوجته . . . فقد علمت أنه لم يقدم على قتل نفسه وأنه لم يحزن على طلاقها ، ولكنها كانت يومئذ فى طريق الأمومة !

سلاح مرتجع

ويختم المؤلف علاقة الأستاذ بتلميذه وبالجامعة كلها فلا يدرى القارئ أهى أضحوكة وضعت فى قالب مأساة أم هى مأساة وضعت فى قالب أضحوكة ، فهى لا تصدق جملة ولا ترفض جملة ولكنها بين بين تأخذ من الجد كما تأخذ من الهزل ، وتقارب الواقع كما تقارب الخيال .

بعد أيام من حادث سقارة يعترض الأستاذ زوجته عند مصلحة البريد شاب مصرى لا يعرفانه ويقول لهما : إنه صديق معاوية وأن معاوية الآن يلقى جزاءه لأنه متهم فى إخلاصه ، وقد حامت حوله الشبهات لعلاقته برجل من أعداء البلاد وأريد منه أن يدفع الشبهات عنه بقتل ذلك الرجل ، فلما لم يفعل تأيدت التهمة ولا تزال لاصقة به حتى يبرأ منها ، والمطلوب الآن هو رد المسدس الذى كان فى حوزة معاوية وإلا . . .

وبعد التهديد المتبادل يقول الأستاذ إنه قذف بالمسدس فى النيل ، ويذكر المكان الذى قذفه فيه ، ويذهب الشاب المعترض بعد ذلك لشأنه بين الزمجرة والحملقة من كلا الطرفين !

ويدق الجرس على مسكن الأستاذ بعد يومين فإذا هو معاوية نفسه يفاجئ الأستاذ بتلك الزيارة غير المنتظرة ، ولا يماريه فى هذه المرة بل يلعنه أنه جاء ليبلغه عداوته ويسمع منه اعترافه بمثل تلك العداوة ، وأنه كان يضمرها له قبل حادث سقارة .

ويسأل الأستاذ تلميذه : ولم اعتقدت أننى أضمر لك العداوة ؟

فسرد له معاوية سلسلة من الإساءات مذكورة ومنسية ، وقال له إنه لا ينسى أنه أهانه لملاحظاته على شكسبير فى رواية عطيل ، وأنه أهانه مرة أخرى حين روى له خبر القصيدة التى دخل الجامعة بفضلها فكذبه وشك فى صدقه ، وأنه أهانه ولم يشكره حين أنقذه من أيدى المتظاهرين حول الجامعة ، وأنه . . .

فاقتضب الأستاذ عليه سلسلة التهم وأنبأه سواء كان يعاديه أو لا يعاديه لن يبقى فى مصر طويلاً ، وأنه تلقى أمراً من مجلس الجامعة بوقفه عن العمل على أثر

الإشاعات المتطايرة عن اشتراكه فى المظاهرات واتصاله بالطلاب ودخوله فيما لا يعنيه .

ويفترق الأستاذ والتلميذ على جفاء وبغير وداع .

ولا تنقضى فترة طويلة حتى يكون الأستاذ وزوجته فى القطار المسافر من مصر إلى الإسكندرية فى طريقهما إلى إنجلترا ، وينفتح الباب فجأة عن الملك الحارس أو الجنى الراصد — معاوية خلصت — وفى يده سلة مملوءة بالدجاج المحمر والبيض المسلوق والتوابل والثمرات وزجاجات البيرة ، ويسلم مودعاً فيسألانه ، ألا تأكل معنا ؟ فيقول : إذا دعوتمانى إلى المائدة . . . ويشترك الثلاثة فى أكلة الوداع فلا يفترقون إلا بعد المحطة التالية .

الغيرة على ديدمونة

ويعلم القراء من شهود المسارح أن عطيلا توفاه الله منتحراً قبل أربعة قرون ، وأنه قتل ديدمونة خنقاً قبل انتحاره بسويعات معدودات ، غيرة عليها وانتقاماً منها ويأساً من الحياة .

ولكنهم لا يعلمون أن عطيلاً ترك بعده من يغار على الزوجة المتهمة بغير جريرة وأنها تتلقى التهم فى قبرها إلى الآن .

كان الأستاذ بيرى يشرح مواقف الرواية إلى أن بلغ منها موقف الصلاة حيث يشترك عطيل وياجو فى الدعاء .

وتنبعث من صفوف الطلاب ضحكة عالية وينظر الأستاذ إلى الطالب الضاحك فإذا هو معاوية ، ويسأله : ما هذا يا معاوية ؟ أى شىء فى هذا الموقف يبعث على الضحك ؟

فيجيبه معاوية : ألا ترى يا أستاذ أن ياجو يلعب بعطيل ؟

ويقول الأستاذ : طبعاً . فالرواية كلها قائمة على موقف الدسيسة .

ويعود معاوية قائلاً : لكن عطيلا أحمق !

فيسأله الأستاذ : وما ظنك بياجو ؟

فيجيب معاوية بإعجاب ظاهر : إنه رجل بارع !

ويستأنف الأستاذ الشرح ثم يوجه سؤاله إلى الطلاب جميعاً :

أتراكم معجبين بياجو ؟

فتبادره إحدى الطالبات مستنكرة : كلا . كلا . . من المستحيل أن يوجد إنسان يبلغ منه الشر مبلغ ياجو . . إنه غير صحيح .

ويكاد معاوية أن يتغنى بقوله : بل هو ممكن جداً . . ثم يضيف كلمات بالعربية لا يفهمها الأستاذ ولكنه يرى الطلاب جميعاً يعودون إلى الضحك ، فيسأل معاوية :

— أتظن أن ديدمونة كانت تخون عطيلا ؟

فتصيح الطالبات : كلا كلا . بالطبع لا .

ولم يوافقهن معاوية بل صاح قائلاً : نعم . كانت تخونه مع كاسيو ، وقد أفسد شكسبير الرواية ولم يجعل ياجو يحاول إغراءها ، ولو قد فعل لبلغ بالموقف حد التمام .

وهذه هي الملاحظات التي هاجت صاحبنا وأثارت غيرته على سمعة ديدمونة ، ودعته إلى توبيخ معاوية وتزويده بالسابقة الأولى من السوابق الكثيرة التي سوّغ بها الشروع في قتله .

شيء من الصحة

ونرجح نحن أن المناقشة حول هذا المنظر من رواية عطيل قد حدثت يوماً ما في كلية الآداب ، لأنني أذكر أن بعض الطلاب سألوني يومئذ عن شخصية ياجو واستغربوا أن يوجد إنسان يشغل عقله ووقته بهذه المكائد الجهنمية لغير سبب ، فكان جوابي لهم أنني لا أستغرب مسلك ياجو ولا أرى أن الدنيا خلت من أمثاله أو أنها خالية منهم الآن ، وما كان الحسد قط رذيلة معقولة حتى نبحث لها عن سبب معقول ، فربما رأينا النجار والحداد والإسكاف يحسدون الفيلسوف على شهرته وهم لا يفهمون الفلسفة ولا يطمعون في شهرتها ، ولكن الحاسد يحس الضغينة لأنه لا يحب الخير لأحد ، لا لأنه ينتقم لإساءة أو يأسف على خير منزوع من يديه .

ومهما يكن من عيوب الرواية فالعيب الواضح فيها أنها تخلط الواقع بما لم يقع ، وتقيس الموقف المتخيل على الموقف الطبيعى لإتمام السياق فلا تحسن القياس . . أما أنها باطلة كلها فليس فى طاقة مؤلف أن يتكفل لروايته بهذه النقيصة النادرة فى عالم التأليف ، على ازدحامه بالنقائص فى جميع الشئون ، وجميع اللغات .

وسافر بطل القصة وهو لا يذكر الأميرة وزوجها ، أو لعله يذكرهما ليقول إنهما لا يذكران .

كان « الباشا » زوج الأميرة قد لقيه بعد حادث سقارة فلم يكترث للخبر إلا من ناحية واحدة ، وهى — كما قال — ناحية التحقيق النفسانى فى أطوار الطبيعة الإنسانية .

— بم كنت تفكر فى اللحظة التى وضعت فيها أصبعك على زناد المسدس ؟

فتشاغل المسئول عن السؤال ، وكرره الباشا لأن المسألة فى رأيه فرصة لا تعوّض ، فلم يدر « المنتحر المزعوم » كيف يجيبه ، لأنه فى الحقيقة لم يضع يده على الزناد .

فلما أراد أن يكتب إليه خطاب الوداع وضع يده على الزناد ليطلق منه هذه القذيفة :

لم يكن الباشا ولا أميرته مما خطر لى فى تلك اللحظة على بال . . !

وكان فصل الخطاب .

البجعة السوداء*

وهذه قصة من قصص الخيال لا من قصص الفلسفة التى يكتبها ديورانت وأمثاله من الشراح .

هذه قصة يكتبها « توماس مان » أشهر الكتاب الأحياء من أعلام القصص الألمان .

وتدور القصة على شاب أمريكى وكهلة ألمانية لها فتى يتعلم الإنجليزية وفتاة عانس جاوزت سن الزواج لأنها ولدت عرجاء .

والشاب الأمريكى يعلم ابن الكهلة الألمانية كيف يحسن النطق بلهجة الأمريكيين .

والكهلة تحب الشاب الأمريكى وهو فى عمر ولدها ، وقد نضب منها معين الأنوثة وعقمت عقم الشيخوخة فلا أمل فى الزواج ولا ثمرة ولا سرور .

وتتحدث الكهلة بمعجزة « سارة » امرأة الخليل إبراهيم التى ضحكت حين بشرها الملك بالنسل لأنها شيخة كبيرة وزوجها شيخ كبير ، ثم شاء الله أن تلد فسمت ولدها « إسحاق » أى « يضحك » باللغة العبرية ، فما بال هذه المعجزة لا تعود ؟ . . .

ولقد عادت المعجزة سريعة تجرى !

إلا أنها كانت فى هذه المرة معجزة أيام ، ثم تبين بعد قليل أنها السرطان وأن الشيخة انخدعت به فحسبت أعراضه زوالاً للعقم وعودة للشباب .

وماتت وهى تهمس فى أذن فتاتها : « لا تقولى إن الطبيعة خدعتنى . . فإنه الربيع ، ولا ربيع بغير موت ! »

واتهمت الشيخة المسكينة « بجعة سوداء » بالفاجعة كلها ، لأنها صفرت لها وهى تعانق معشوقها فى إحدى الخلوات .

ماذا فى هذه القصة مما يستحق عناء الكتابة من أديب تسنم ذروة الشهرة وتخطى الثمانين ؟

* أخبار اليوم ٢٢ / ١ / ١٩٥٥ .

كل ما هو صالح للقراءة منها فى هذا العصر قد ينحصر فى مكاشفة الأم لبنتها بحب الفتى وصراحة المرأتين وهما تتحاوران فى قسمة المرأة وقسمة الرجل ، وزعم الأم أنها ترثى للرجال الذين يشفقون على المرأة من أوجاعها وهى تشفق عليهم من معيشتهم الخاوية فوق سطح الحياة ، ومن دونها تلك الأعماق التى تضطرب بالأوجاع والأشواق .

هذا فيما نظن . . أما النقاد الذين استخفوا بالأقصوصة فى عباراتها الظاهرة فقد ذهبوا يفسرونها تفسير الرموز والألغاز .

الشاب الأمريكى يمثل الدولة الشابة أى الولايات المتحدة فى ريعان صباها الذى يجذب إليها الأمم الشائخة .

والشيخة وبنتها تمثلان ألمانيا العجوز وألمانيا الفتاة .

ولكن ألمانيا العجوز عقيمة هالكة ، ويقظتها المزعومة للتجديد ونبذ القديم إنما هى سرطان ينذر بالفناء .

وأما ألمانيا الفتاة فهى عرجاء لا تلاحق الدنيا الحديثة فى خطواتها العاجلة .

وقد يرجى للمستقبل جيل آخر متمثل فى الابن الناشئ الذى يتعلم اللهجة الأمريكية ويتطلع إلى النجاح فى ميدان أرباب الأعمال !

رموز وألغاز . . .

وعلى هذا التفسير يلعنون « توماس مان » لأنه خان ألمانيا ومثلها بهذه القصة على تلك الصورة المرذولة .

وبهذا التفسير تحسب الرواية من المطالب الأدبية التى تجمل بالكاتب الكبير فى سن الثمانين ، فهل فى وسعه أن يرفض التفسير الذى يلقى عليه شبهة الخيانة ويبرئه من تهمة اللغو والهذر لغير قصد معلوم ؟

إنه لأعلم بما يختار لنفسه بين قومه وبين الغرباء عنهم من الأصدقاء والأعداء ، ويعنينا نحن فى هذه التعليقات شىء واحد وهو إفلاس القصة كما ذكرنا فى مقال الأسبوع السابق ، فلو لم تكن قد أفلست وأعلنت إفلاسها لما احتاج نقاد الأدب إلى الرموز والتأويلات ليخلعوا حلة المعنى على أقصوصة يكتبها أشهر الأعلام من كتاب الأقاصيص والروايات .

الشبان الغاضبون *

يسأل الأديب (على عبد الهادى حسنين) عن الكاتب دوريل صاحب الرباعية الإسكندرية هل هو من زمرة الكتاب المحدثين الذين اشتهروا فى الأدب الإنجليزى العصرى باسم الشبان الغضاب ؟ وهل لهذه الزمرة رسالة فكرية أو اجتماعية تستحق من أجلها الاهتمام بترجمتها ؟ وما هى هذه الرسالة ؟

ولا يعتبر دوريل من زمرة الشبان الغضاب Ongryyoung Menofcglond الذين أشار إليهم السيد (على عبد الهادى) لأنه قد جاوز الخمسين وبدأ حياته الأدبية قبل أكثر من عشرين سنة، ولكن روايته الأولى المسماة بالكتاب الأسود ، تعتبر مقدمة سابقة لأسلوب الجيل الذى نشأ بعده فى عالم القصة والمسرحية وأطلقوا عليه اليوم اسم الشبان الغضاب .

ودوريل يعتبر نفسه تلميذاً للكاتب الأمريكى هنرى ميلر خريج المدرسة القصصية الفرنسية التى تعودت أن تصدر رواياتها من المطابع السرية ، وعلى يديه ظهرت رواية الكتاب الأسود قبل نحو عشرين سنة فى طبعتها المهربة بباريس ، فقد كان هنرى ميلر يعيش عيشته البوهيمية بالعاصمة الفرنسية وفيها طبع روايته الأولى وسماها مدار السرطان ، فكتب دوريل روايته على أسلوبها وأرسلها إليه ليطبعها على طريقته (المهربة) أو يلقى بها فى نهر السين ، ثم ظهرت الرواية بوساطة الكاتب الأمريكى المتفرنس ، فكان ظهورها مشجعاً للجيل الناشئ على الاقتداء بهذا الأسلوب أو اتباع الأسلوب فى موضوعه ولبابه مع شىء من الاعتدال عند استخدام الألفاظ النابية ، طمعاً فى إجازة النشر والتمثيل بالبلاد الإنجليزية .

وقد كان هنرى ميلر يناهز العشرين حين ولد دوريل (سنة ١٩١٢) فهو من حيث النشأة يشابه الشباب الغضاب بعض المشابهة ، لأنه نشأ مثلهم نشأة مهملة فى غيبة الآباء والأمهات المشغولين بأعمال الميادين والمصانع ، فكان لهذا الإهمال أثره الواضح فى أخلاق الجيلين مع الفرق بين ظروف الإهمال حول أيام الحرب العالمية الأولى وظروف الإهمال حول الحرب العالمية الأخيرة .

---

* الأخبار : ٢٠ / ٦ / ١٩٦٢ .

ولا يخفى أن ظروف الحربين قد أنشأت طائفة من الكتاب (الجديين) الموهوبين يصح أن ينسب إليهم رسالة فكرية، أو أخلاقية ، تسترعى النظر وتستحق العناية وتحسب من مدارس التفكير الحديث ، وإن اصطبغت بصبغة ذلك الإهمال الذى أشرنا إليه .

ولكنها زمرة أخرى غير الزمرة التى يطلق عليها اليوم اسم الشبان الغضاب ، لأنها جادة غير هازلة فى ثورتها أو فى محافظتها على السواء ، وبخلاف ذلك هؤلاء الغضاب الهازلون الماجنون ، لأن الجانب الوحيد من الجد فى دعوتهم أنها ظاهرة مرضية محققة معروفة العلل والأعراض، وليست لها رسالة « جدية » تصدر عن فكر موهوب أو خلق إنسانى فعال .

وكل ما فى ثورة هؤلاء « الغضاب » من التمرد فهو ضرب من الهوس لا ينسبه أحد إلى فرط الحرية أو فرط الحيوية التى تدفع صاحبها إلى تحطيم التقاليد والعبث بالآداب واحتقار المثل العليا المتفق عليها لأنها أضعف من أن تثبت طويلاً أمام الهجمات المتلاحقة من أولئك الغضاب المتمردين .

فإن ثورة الغضاب المتمردين على « النظافة » الجسدية لا تقل عن ثورتهم على نظافة الخلق وطهارة الضمير ، فليس لهم فى دعوتهم اندفاع من قبيل اندفاع العقل الجامح وهو يتخطى حواجز العرف وقوانين السلوك ووصايا العقائد والأديان ، ولكنهم عاجزون عن دفعة الجسد الحى السليم كعجزهم عن دفعة الفكر المتوثب المجترئ على القيود والعقبات .

عداوتهم لنظافة الجسد كعداوتهم لطهارة الأخلاق ونزاهة المثل العليا .

وإنك لتقرأ فى السطر الرابع من رواية أستاذهم الأكبر وصفاً للعاشق بلسان معشوقته؛ فإذا هى تقول عنه: إنه «مقمل» وإن حكته التى لا تنقطع من سريان القمل بين خبايا جسمه هى التى ألفت بين العاشقين وأحكمت روابط الألفة بين ذينك القلبين ، فإذا مضيت تقرأ فى الرواية لم تجد بين صفحاتها تكراراً متناسقاً غير تكرار أسماء النفايات الجسدية بأقذر تعبيراتها التى يعافها أراذل السوقة فضلاً عن أصحاب الكناية من المهذبين . . .

وليست رواية دوريل من النماذج المختارة عندهم فى الولع بتكرار هذه التعبيرات ، فإنه يصطنع الكياسة أحياناً قبل التصريح بما يغنى فيه التلميح ، ولكنك تستطيع أن تعد بين سطور صفحاتها التى تزيد على المائتين ألف كلمة من قبيل « قيح الجيفة » و « البلابل الباصقة » والمرأة التى تقذف بما فى جوفها من صديد الشهوة ، والأصوات التى تطلقها منافذ الأجساد ، والأوضاع التى يوحيها الشذوذ وتجرى بين أبطال الرواية وبطلاتها مجرى المألوف والمعهود ، لا مجرى المكروه والمنبوذ .

ولا محل هنا للنقد الأدبى ولا للمذاهب الفكرية ، فإن هذه « الحالة » المتحكمة فى طبائع تلك الزمرة هى إحدى الحالات المرضية المقررة بأسمائها فى كل مرجع من مراجع الأمراض العقلية يسجل أحوال المصابين بها بين نزلاء السجون والمستشفيات .

فلا خفاء بحالة (الكوبروفيليا) Coprophilia التى تحبب إلى المصابين بها روائح النتن وأقذار النفايات .

ولا خفاء بحالة (الثانتبسيس) Thanatopsis ولا بحالة النكروفيليا Necrophilia وكلتاهما تغرى المريض بالإكثار من أوصاف الجيف والقبريات ومناسبات التلف والموت والعفونة ، وتشتد الحالة الثانية منهما حتى تزين للمصاب بها أن يواقع الرفات الميت بين حنايا القبور .

فهذه نفوس ممسوخة لا محل فى « ثوراتها » للتحدث عن جموع العقل أو عن الحرية المفرطة أو عن الجرأة البالغة على نزاهة الضمائر والأخلاق ، فإنما الثورة هنا ثورة على كل نظافة مستحبة حتى نظافة الماء والصابون التى لم تبطلها قضايا الفلسفة على مذهب الغضاب ولا غير الغضاب ، وإنما أبطلها المسخ السقيم والطبع العقيم .

ولو ظهرت هذه الزمرة فى عصر غير عصرنا هذا لماتت عند مولدها بين قراء كل أدب وأنصار كل أسلوب ، ولكنها ظهرت فى عصر يختلط فيه المريض التافه الذى يتحدى النظافة والسلامة بالناقم الاجتماعى الذى يتحدى الوجاهة والترف ويحسبهما من « خصائص » الثروة الغاصبة والسلطان العسوف ، ولولا ذلك لما شاع من كتب هذه الزمرة كتاب واحد بين أناس سلموا من تلك العلل وخلصت عقولهم وضمائرهم من أدران تلك العاهات .

ولقد ذكرنا « الصهيونية » فى هذه اليوميات فلنذكرها إذن بحقوقها كاملة غير منقوصة فى هذا الباب ، فإن البيئة الصهيونية ظاهرة فى كل فصل من فصول مدار السرطان لمؤلفها الأستاذ الأكبر عند هؤلاء الغضاب ، وأن البيئة الصهيونية لتظهر كذلك فى مساعى الناشرين « المهربين » لرد الاعتبار إلى كل كتاب محظور من قبيل هذه النفايات .

وصفوة القول فى صرخات أولئك الأحداث الغضاب أنها هى بعينها صرخات الأطفال الكسالى ساعة الحمام . . . ، لولا أن الكسل قد تذهب به علقة تزول ، ولكن العلقة التى تشفى من ذلك الغضب « حمام » لم يسعد به أولئك الهاربون أعداء الماء والصابون .

المرأة المسكينة
التي لا يفهمها أحد ..! *

من مطالعات المصيف قصة كتبتها الأديبة العربية « كوليت سهيل الخورى » سمتها « ليلة واحدة » وأهدتها إلى « الإنسانة الكبيرة » فرجينيا دوزياس.

أسلوب القصة فصيح سلس قليل الأخطاء ، وربما جرت أخطاؤه على قاعدة مطردة كأنها مقصودة ، وهى التأنيث بالتاء حيث يستغنى عنها أو يكون التأنيث بغيرها، من قبيل حنونة وعطشانة وطموحة . . إلى أشباه ذلك ، مما يحسب أخيراً من أصل المشكلة كلها ، وهى علامة التأنيث!

والكاتبة الأديبة كثيرة العناية بالتفصيلات الحسية أو العاطفية ، ربما استغرقتْ الصفحات فى وصف ساعة صمت أو مساجلة بالأعين ، أو ذكرى خفية ظاهرة ، تغيب عن الفكر على عمد أو تحضر لماماً كأنها مغيبة فى الزمن البعيد ، وهى على مدى لحظات .

ويساعد الكاتبة الأديبة على هذه العناية بالتفصيلات سلاسة التعبير وملكة التصوير بالكلمات ، وأحياناً بالحروف :

ومن أمثال هذا التصوير بالكلمات والحروف قولها فى عبارات متفرقة :

« تبخرت روحى على النظرات

« وكنت أضطر إلى تحطيم نفسى لابنى على أشلائها قوتى .

« الممرات تلوكنا وتجترنا

« أنا أبكى مع أننى لا أشعر بحاجة إلى البكاء

« لم أجد ما يضايقنى فى ماضى ، وهذا ما يضايقنى

« الزوجة . . . التى اشتريتها كى تكمل أثاث بيتك

« اقتربت من العينين . . . العينين اللتين ملأتا وجهه النحيل ، وغدت فى

---

* الأخبار ٢٣ / ٨ / ١٩٦١ .

« هاتين العينين اللتين سكبت الطبيعة فيهما ربيعها . . »

وأمثال هذه الصور المكتوبة كثيرة ، يقل فيها التكلف ، أو يمحو عنها مآخذ التكلف أنها اصطلاح مفهوم من الصفحة الأولى .

وفن التشويق فى سرد حوادث القصة ملحوظ يدل على براعة ضرورية فى أمثال هذه القصة ، لقلة الحوادث فيها وحاجتها إلى اجتذاب القارئ بإغراء التشويق وإغراء العنوان . . . ولعل اسم الرواية (ليلة واحدة) مثل حسن لتلك البراعة الفنية التى يحتاج إليها قارئ الرواية ، إن لم تقنعه تلك الصور المكتوبة بعد أن وزعتها المؤلفة جزافاً بين الصفحات ، والسطور .

أما موضوع الرواية فهو موضوع زمان . . .

وموضوع زمان هو موضوع المرأة الشكوى من حياة « التفاهة » التى قيل كثيراً إن المرأة الشرقية — على الخصوص — تحياها وراء الحجاب أو أمام الحجاب وموضوع زمان هذا هو موضوع المرأة المسكينة التى لا يفهمها أحد وتأبى هى إلا أن يفهمها كل إنسان ، بغير قاموس .

وموضوعه هو موضوع الفراغ الذى لا تملؤه حياتها ، وموضوع المضايقة لأنها لا تذكر أن شيئاً ضايقها فى تلك الحياة .

مسكينة !

مسكينة جداً هذه المرأة الموصوفة فى عالم الورق أو عالم الخيال .

فكيف امتلأ هذا الفراغ كما علمنا من الرواية ؟ وكيف زالت تلك التفاهة وزالت معها تلك الملالة وزالت معها تلك « اللامفهومية » فأصبحت بعد ذلك فاهمة مفهومة ؟ وكيف أصبحت المرأة أمينة لنفسها وبرئت من وصمة الخيانة لوجدانها ؟

حدثت هذه المعجزة بسفرة من مارسيليا إلى باريس ، وجدت فيها بطلة القصة — واسمها رشا — رجلاً يغازلها ثم يهملها أو يهملها ثم يغازلها ويعرف بذلك كيف يسترعى اهتمامها ويملأ فراغها ويحقق لها « انعتاق » ذاتها . فانتهت السفرة إلى سهرة وانتهت السهرة إلى علاقة ، وانتهت العلاقة بكتابة الرواية بحذافيرها ، لأن الرواية كلها اعتراف صريح من الزوجة إلى زوجها .

كل المشكلة النسوية — إذن — تحلها تذكرة سكة حديد من مارسيليا إلى باريس ، أو من محطة فى مثل ذلك الميناء ، إلى محطة فى مثل تلك العاصمة الهوجاء !

وما من تفاهة ، ولا فراغ ، ولا مضايقة ، ولا انعتاق ولا استرقاق بعد هذا الترياق .

فرأس مال القضية « كلها ».تذكرة فى قطار ، أو مشوار بلا قطار ، من آخر الليل إلى آخر النهار .

إن الفكاهة لا تزيد شيئاً عن الجد فى قصة « رشا » بطلة هذه الرواية .

وما من بطلة غيرها قرأنا عنها قصة كهذه القصة لو لم يكن لها حل كهذا الحل أو أقرب وأطرب ، بين قاع زورق ، أو منعطف طريق أو رغبة — لوجه الله — كيفما كانت وكيفما كان الحال ، للانعتاق وفك الخناق وطلب الطلاق والانطلاق ، ولو إلى جزائر واق !

ونحب أن نقول متفكهين أو جادين ، فكلاهما سواء فى هذا المقام . . .

نحب أن نقول لحاملات الراية فى معركة التحرير أن يتركن تلك الراية لأيدى غيرهن من النساء المظلومات ، فإن المصادفة الخبيثة تشاء من باب المكايدة النسوية ، أن تسقط حجة المتحررات جميعاً ، فلا توفق إحداهن لقضية واحدة تستحق هذه « الضجة » باسم التحرير والإنصاف .

ولعل صاحبة « القضية » الحقة من بنات حواء تسكت ولا تتكلم ، أو لعل قضية حواء — على أساسها الأول — إنما هى قضية الشكوى حيثما وجدت إلى الشكوى سبيلاً .

فإذا تركتها تشكو ذهبت تشكو وتنسى موضوع الشكوى ما دامت تتكلم ، فإذا سكتت وسكنت نسيت فيم كان كل هذا الكلام ، وكل هذه الثورات ؟

كان حافظ إبراهيم يقول عن عبد العزيز البشرى رحمهما الله : إنه يحالف ويحلف ثم ينسى علام كان يحلف . !

وأخشى ، أو لست أخشى أن أقول : إن المتحررات يتحررن ويتحررن ، ثم لايدرين فيم كان القيد المكروه ، وفيم كان التحرير المحبوب .

* * *

« ما قولكم فى الشعر الذى يتعب قارئه ولا يلذه أو يعطيه اللذة ولكن بعد تعب — هل هو شعر أو فلسفة أو معادلات رياضية ؟

زاهد محمد منصور »

هذه الأسطر خلاصة أسئلة كثيرة فى خطاب السيد زاهد ، نجيب على كل منها بما يستطاع من الإيجاز فى الأسطر التالية :

إن الأمر يتوقف على القارئ الذى يشعر بلذة الشعر حين يقدر عليها ، فإن « السيد زاهد » خليق أن يعلم أن لذة الشعر ليست بالحكاية الهينة التى يستطيعها كل من يريدها وكل من يظن أنه يقدر عليها . وما من خلاف بين أساتذة الموائد على لذة الديك الدسم بتوابله المشتهاة ، ولكن الطفل الرضيع الذى يزدرد لقمة منها ينتقل من لذة الطعام المشتهى إلى بلاء السموم القاتلة ، وقاك الله !

فالقارئ الأمى المحدود فى شعوره وفهمه يتعبه جداً كلما تضطره إلى فك الخط قبل أن يضطره إلى فهم الكلام المكتوب .

وشبيه به ذلك الآكل الأمى فى صناعة المائدة المنتقاة ، فإن الحلاوة الطحينية ألذ عنده وأشهى من أفخر الفطائر المحشوة على يد عزوز أو على الدلة ، ولا ذنب فى ذلك للطاهيين الكبيرين ، ولكنه ذنبه هو وذنب الحلاوة الطحينية التى تغرى أمثاله وتغنيهم بصناعتها السهلة عن أفخر الحلاوى وأطيبها فى التغذية وفى المذاق .

وقديماً قال صاحب البردة رحمه الله :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

فإذا سألنا « الأرمد » عن ضوء الشمس فقال إنه متعب مؤلم فلا لوم على الشمس ولا على الضوء ، وإذا سألنا المعمود المسكين عن ماء النيل فقال لنا إنه يعافه ولا يسيغه فالنصيحة التى نبذلها له أن يذهب إلى الطبيب أو إلى الصيدلية ،

ولا نصيحة عندنا نبذلها للنهر المبارك ولا لمن ينقلون ماءه فى الجداول والأنابيب .

ومن واجب طلاب اللذة الشعرية أن يذكروا أنهم مسئولون عن كل ما يدعون ، فليس لطالب اللذة الشعرية أن يعيب هذا الشعر أو ذاك كما يشاء حيث شاء ، لأننا فى هذه الحالة نعود إلى نهر النيل فنقول : إنه من حقه أن يحتكم إلى ميزان الحرارة ومجس النبض ولون اللسان لعل الحكاية كلها من معدة بعض الناس وليست من ماء النهر، ولا من الجداول والأنابيب ، وذلك حق لنهر النيل بلا خلاف قبل الحكم عليه بالردم أو الحكم على الشاربين باجتناب موارده وتحريمها على الأفواه والمعدات !

أما حكاية الصعوبة والتعقيد التى وردت فى عرض الكلام على اللذة الشعرية من خطاب السيد زاهد فهى حكاية أخرى يجاب عليها بجواب آخر .

وجوابها أن الناقد الذى يعيب كلاماً بالصعوبة أو التعقيد عليه أن يكتب ذلك الكلام بالأسلوب الذى يرتضيه ، فإذا استطاع أداءه سهلا ليناً فهو على حق فى نقده ، وإذا أعياه ذلك فليتواضع قليلا أو كثيراً وليدرب نفسه على الفهم قبل أن يتطاول إلى مقام الانتقاد .

الشعور العدائى لرواية « سارة » *

يقول الأستاذ (العوضى الوكيل) فى خطاب كتبه إلى أنه قرأ فى العدد الأخير من « المجلة » مقالا للدكتور على الراعى عن قصة (سارة) قرر فيه أنها قصة ليست نامية ولا متطورة ، وأنه وجد فيها موقفاً واحداً يواجه فيه الجسد الحى العقل الصاحى ، وأن الحب فى هذه القصة حالة ثبتت بالدبابيس وسلطت عليها أضواء لا ظلال لها إلى آخر ما قال . .

ويرى الأستاذ العوضى أن (سارة) توشك أن تكون ترجمة نفسية صادقة لقطعة من حياة رجل عبقرى وامرأة فذة ، ومن ثم فإن الوصف التقريرى الذى عابه الناقد على الكاتب — إذا صح — لا يعتبر عيباً ، وإنما العيب أن يبحث موضوع سارة بمعزل عن دواوين العقاد .

وقد رجعنا إلى المقال الذى أشار إليه الأستاذ العوضى فلم نجد فيه رأياً يحتمل المناقشة ، وإنما وجدنا فيه الذى يسميه كاتبه « حالة » مشبكة بالدبابيس كما قال ، أو مدقوقة بالمسامير كلما حاول أن يشبكها بالدبوس فأعوزته الدقة اللازمة لهذه الصناعة .

والحالة البارزة من عنوان المقال هى حالة الشعور العدائى للرواية وأبطال الرواية وموضوع الرواية ، لأنها ليست من روايات « المجتمع » على رأى الناقد ، وخل بالك يا سيد عوضى من حكاية المجتمع هذه فى رأى أخينا المشار إليه ، فإنها تدلك على تلك الحالة النفسية كلما دلت على إلغاء التجارب الإنسانية فى موضوعات الفنون وحصرها فيما يشتقونه من الجيم والميم والعين فى كلمات مجتمع ومجتمعات واجتماعيات واجتماعيين . . . إلى آخر هذه الحكاية المعروفة التى أوشكت عندهم أن تعزل النفس الإنسانية عن النفس الاجتماعية ، وهى لا تنعزل عنها بحال من الأحوال غير تلك الحال!

أما تلك الحال من الشعور العدائى نحو أبطال الرواية وموضوع الرواية فظاهرة من العنوان الذى ينادى فيه الناقد على « المرأة الغزلة وكيف أنقذت الرواية من البوار » .

---

* الأخبار : ٢٩ / ١١ / ١٩٦١

فلولا الشعور العدائى نحو الرواية وموضوعها لما كان هنالك من معنى لذكر البوار فى هذا المقام .

فإذا كانت الرواية حية فلماذا تذكر الموت الذى كانت ستصير إليه أو سوف تصير إليه ، إلا إذا كنا نتمنى أن تصير إليه ؟

من الذى يقول — مثلا — إن روايات شكسبير ميتة لولا الصدق فى رسم شخصياتها ؟

ومن الذى يقول إن روايات دستيفسكى لولا التحليل النفسانى لم تحسب من الروايات ؟

ومن الذى يقول إنه لولا الفحم لما انتقل القطار من المحطة ؟

ومن الذى يقول وهو يرى المصارع الظافر فى حلبة الصراع إنه لم يكن لينتصر لو لم يتنفس الهواء ، أو لم يكن لينتصر لو لم تتوافر له وسائل الانتصار.

يقول ذلك ناقد واحد لا يستند إلى رأى ولا نقد، ولكنه يستند إلى شعور دخيل يبدر منه على الرغم منه ، فيخطر له الموت والبوار من وراء الحياة والنجاح ، ويبرز له الجانب الحسن واضحاً فيقول له متأففاً : ما هذا أيها الجانب الحسن الفضولى الذى يواجهنا من حيث لا نبغيه ؟ . . تنح قليلا لنرى أين يكون الجانب السيئ الذى كنا نترقبه هنا لو لم تقطع علينا الطريق . . !

ونعيد إلى الناقد « البوارى » بضاعته فنقول له عن نقده إنه النقد الذى كاد أن يستتر لولا أنه مكشوف !

ويلحق بهذه الحالة الدبوسية أو المسمارية حالة الوصف التقريرى المزعوم ، فإن الناقد الذى يصف رواية سارة بهذا الوصف يشهد لها هذه الشهادة ليجرد بطلها هماماً من الإحساس والعاطفة أو ليسمح له بتنصيب منهما يجعله إحساساً مهدداً بالجمود أو عاطفة مهددة بالجحود ! . . .

وواحدة من اثنتين : إما أن أخانا المشار إليه يفهم الإحساس على السماع ، وإما أنه يحسه ويلمسه ولكنه يغطيه بشهادة الوصف التقريرى لتكون شهادة « ألعن » من الاتهام .

ولولا ذلك لكانت الرواية أحق باتهام آخر لا يرتضيه أخونا المشار إليه ، فإنه

ليصدق جداً لو أنه قال إن الرواية فيها من الإحساس فوق ما تحتمله فصولها وصفحاتها ، ونبدأ من فصلها الأول ، بل سطرها الأول ، حيث تقول الرواية عن بطلها همام :

« مضت خمسة أشهر قبل أن يجرؤ على عبور ذلك الشارع مشياً على قدميه .

« وليس الشارع مقفراً أو مخيفاً . . . ولا هو بالبعيد عن طريقه . . ولكنه كان شارعاً يلتقيان فيه . . فلما وقعت الجفوة بينهما وانقطع طريقهما إلى تلك الدار كانت كل خطوة فى تلك الطريق كأنما تثقل النفس بآكام فوق آكام من الذكريات والآلام ، وكانت كل زاوية من الزوايا كأنما تخفى فيها رصداً من الشياطين الثائرة والعقبان الكاسرة ، وكان اجتناب تلك الطريق أسلم الأمور وأهون المحذورات » .

وعند أخينا الناقد البوارى أن هماماً الذى تثير الخطوة فى الطريق بركاناً من الإحساس فى نفسه لا تثيره الشياطين — الثائرة هو المتهم بالإحساس الضعيف والعاطفة الفاترة !

ويلك ، أو ويلاك ! . .

ولا لزوم للباقى فإنه غنى عن البيان .

الكتابة تحت اسم مستعار

« أمر لا غرابة فيه أن يضع الكاتب مؤلفاته باسم مستعار تحت ضغط الظروف غاشمة تجنباً للإرهاب وإيثاراً لأسباب السلامة ، ولكن الأديب المناضل — أريك ماريا ريماك — يكتب اليوم تحت اسم سيرام ، فهل هنالك أسباب تحفزه إلى ذلك وقد ذهبت دولة النازية وقضى زعيمها ؟ . . . سؤال كان موضع نقاش بينى وبين بعض الزملاء وآمل أن نطالع تفسيراً له فى يومياتكم بصحيفة الأخبار » .

سمير أحمد ندا

شبرا — مصر

إننى لم أطلع على مؤلف للكاتب المعروف (أريك ماريا ريمارك) بغير هذا التوقيع ، ولا أدرى ما هو الباعث له على الكتابة باسم مستعار ، ولكن الاسم

المستعار يختار أحياناً لأسباب كثيرة غير اتقاء السطوة الغاشمة ، وقد يختاره الفنان كما يختاره الكاتب والشاعر ، بل يختاره الممثلون والممثلات وهم ظاهرون على المسارح لا يتوارون بأسمائهم ولا بأشخاصهم عن الناظرين إليهم من أصحاب السطوة أو النقاد أو عامة المتفرجين ، وكثيراً ما يشتهر الأديب والفنان باسمه المستعار فى حياته وبعد مماته ويسمى فى عرف الاصطلاح الشائع باسم الريشة Nomc dc plum أو اسم المسرح Nome de theure كما نرى عندنا فى أسماء الممثلات على الخصوص ، وربما بدا الكاتب أو الفنان باسم مستعار لأسباب اجتماعية أو عائلية ، أو لامتحان النقاد والقراء والتدرع من حملات الأهواء وشبهات النيات بدرع من دروع التنكر الموقوت ، ثم يشتهر بهذا الاسم فيعز عليه أن يفقد شهرته ويرجع إلى اسمه الأصيل ، ومنهم من يتخذ الاسم المستعار لأنه ينتمى إلى طائفة معرضة للتعصب والكراهية لأسباب دينية أو سياسية يخشى أن تجور عليه وتدفع فريقاً من النقاد والقراء إلى غمط حقه وإنكار حسناته ، تعصباً على طائفته أو حزبه . . وقد حدث منذ سنوات أن شاعراً إسكندرياً مجيداً أراد أن يداعب القراء ويستخدم الحيلة المقبولة لتنبيههم إلى قراءة شعره فجعل يرسله إلى الصحف باسم (زينب توفيق) وجعلت الصحف تنشره وترحب به لأنها اعتقدت أن ظهور شاعرة بهذه الدرجة من الإجادة ، وبغير مقدمات متدرجة فى الظهور ، أمر نادر يتلقاه قراؤها بالقبول والاستزادة ولا يلتفتون إلى الشعر هذا الالتفات لو جاءهم من شاعر بين نظراء غير قليلين ، ثم ندم الشاعر على اختفاء هذا النقاب بعد انكشاف الحيلة ، لأنه ضيع به شعور الغرابة وإن لم يضيع به شعور الاستحسان .

وقد يكون للأديب (أريك ماريا ريمارك) سبب من هذه الأسباب فى اختيار اسمه الأول ثم اختيار اسمه الأخير ، إذ ليس لقبه هذا باللقب المكتوب فى دفتر المواليد ، ولكنه كان يسمى (بول كرامر) قبل هذا الاسم العلمى المشهور ، ولعله أحس بعد عرض رواياته على اللوحة البيضاء أنها أصبحت لوناً قديماً على عادة المعروضات فى الولايات المتحدة حيث يقيم منذ نيف وعشرين سنة ، فاختار أن يطلع على المتفرجين باسم جديد .

أسلوب القصة القصيرة *

« للقصة القصيرة ، عربية وعالمية ، قواعد وقوالب اتفق النقاد على ضرورة استكمال القصة لها لتكون وحدة فنية متكاملة البنيان ، فتبدأ مثلا بالتمهيد أو الجو ثم العقدة ثم لحظة التنوير . . . ولكن ما رأى سيادتكم فى منهج كاتب عالمى كأنطون تشيكوف — ومن المحدثين من سار على دربه — لا يعبأ كثيراً بتلك القواعد والقوالب وأدبه مع ذلك خالد متجدد الحيوية على الرغم من أن جانباً كبيراً من قصصه تكاد تكون خاطرة طائرة لا أكثر ، فما هو المقياس الحق والقول الفصل فى هذا المضمار ليكون أدبنا فى القصة القصيرة معتداً به بين آداب العالم » .

محمد الخضرى عبد الحميد — ملوى

الواقع كما يقول الأستاذ محمد الخضرى أن أدب تشيكوف خالد متجدد فهو إذن مستغن عن تلك القواعد التقليدية التى فرضها بعض النقاد على كتاب القصة القصيرة ، وتلك القواعد إذن تتسع لقواعد أخرى يتحقق بها الغرض المقصود من كل قصة قصيرة تبقى وتتجدد وتصلح أن تكون مثالا تستمد منه قواعد الكتابة على منهج من مناهجها الكثار .

إن بعض الكتاب الملهمين قد يودع موضوع القصة رسالة يتخيل أنها كتبت من مجهول أو معروف ، ويتممها الرد عليها أو تتم بغير حاجة إلى ردود .

وبعضهم قد يسوقها حواراً بين اثنين يتكلمان ويتساءلان ويجهل أحدهما شيئاً فينكشف له من كلام محدثه أو ينكشف لهما من كلا الحديثين .

وبعضهم قد يجعلهما لغزاً ينتظر الحل ولكنه ، فى الواقع ، يكون قد حل اللغز بطريقة الاستفسار عنه أو بوصفه للذين يسردونه ويصغون إليه .

وربما كانت أضعف الوسائل الفنية وسيلة « يحكى أن » ومعها وسيلة « المقصود من هذه الحكاية » لأنها الوسيلة التى لا فضل لمن يتوسل بها فى خلق الجو وترك الأثر يتولد بغير انتباه إليه ولا انتظار للتمهيد والتنوير .

---

* الأخبار ٢ / ١١ / ١٩٦٢ .

وأيًّا كانت القواعد المزعومة فليس من الجائز أن نفرض طريقة كاتب عبقرى على كاتب عبقرى آخر ، لأن كل كاتب من عباقرة هذا الفن له حقه فى اختيار أسلوبه واجتناب المحاكاة لغيره من أمثاله وأنداده ، وحسبه أن يعطينا الأثر المطلوب من « الموقف الاجتماعى » أو « الحالة النفسية » أو « تداعى الخواطر » أو أشباه ذلك من مادة القصة القصيرة ، ليكون قد وفىّ المقام حقه وأضاف قاعدة إلى القواعد التى اختارها سواه ، دون أن يكون لهذا أو ذاك سلطان مطلق فى إغلاق حرية الاختيار على الآخرين .

وأذكر أننى قرأت مرة فى إحدى المجلات إعلاناً على غير صفحات الإعلان فإذا هو قصة قصيرة وافية بالغرض المقصود من القصص القصار .

وقد يذكر الأستاذ « محمد الخضرى » أن تشيكوف كان يوهم القارئ أنه يصف حركات كلب ولا زيادة ، ويمضى ليعطينا إحدى قصصه القصار فى هذا الوصف السريع ، وقد يذكر الأستاذ قصص جى موبا سان التى لا تزيد على حديث سهرة يتأمله القارئ فيعلم أنه انتهى وهو يظن لأول وهلة أنه قد أرسله بغير انتهاء ، فليس لهذا الفن من قاعدة غير التوسل بأسلوب من الأساليب إلى الأثر النفسانى والحيوية المتجددة التى أشار إليها السيد الخضرى فى وصفه لفن تشيكوف .

القصة البوليسية *

« . . . هل تعتبر القصة البوليسية حقًّا قطعة من صميم الأدب القصصي لا تقل عن القصص الأخرى الحافلة بالعواطف الإنسانية والمغزى العميق ؟ . . . وهل من شأنها حقًّا أن تشجع على الإجرام . . ولو من قبيل القصص النظيف الذى ابتدعه كونان دويل ولم يرفع فيه من قدر الجريمة أو يتجاهل مكانها فى الحياة الاجتماعية؟».

فتحى أمين
طالب جامعى

يبدو من تفاصيل خطاب الطالب الأديب أنه على اطلاع حسن فى موضوع القصة البوليسية ، فلا يخفى عليه — من ثم — أنها مجال فسيح يتسع لكل عنصر من عناصر القصة الفنية كيفما كان المحور الذى تدار عليه .

فى القصة البوليسية مجال للحادثة التى يهتم بها كل قارئ يتشوق إلى أخبار الحوادث الإنسانية .

وفيها مجال « السر » ومعه مجال البحث والمطاردة ، وهما وسيلة من وسائل التشوق الذى يطلبه قارئ كل قصة .

وفيها مجال للتحليل النفسانى يتناول المقابلة بين أخلاق الضحايا وأخلاق المجرمين وبواعث الجريمة عند كل فئة من فئات القتلة والسراق والمعتدين على الأعراض الأرواح .

وفيها مجال لامتحان دقة الملاحظة وبراعة الحيل عند المعتدين والمعتدى عليهم ، وعند الباحثين عنهم والمحققين معهم وسائر المشغولين بأحوال الجريمة معهم وسائر المشغولين بأحوال الجريمة مكلفين من قبل المجتمع أو غير مكلفين .

وفيها مجال للإحاطة بمشكلات الحياة الاجتماعية التى تبعث على الإجرام والاجتراء على الحقوق والحرمات ، كما تبعث أحياناً على التعاون لمنع الجريمة أو على التواطؤ المقصود ، وغير المقصود ، لتيسير الإفلات من جرائرها وعقوباتها .

* الأخبار ٢ / ١١ / ١٩٦٠ .

وفيها معرض للأساليب العلمية التى يستعان بها على ارتكاب الجريمة أو على كشف أسرارها وتعقب مرتكبيها قبل ارتكابها وبعد وقوعها .

وفيها مجال فسيح جداً لشرح العواطف الإنسانية التى يثيرها الحب والبغض والقلق والانتقام والمسامحة والخوف والاقتحام .

فلا عيب فى موضوع القصة البوليسية على إطلاقها ، وإنما يعرض لها العيب من سوء التأليف كما يعرض لكل موضوع يطرقه المؤلف للتهويل والتلفيق وينسى فيه كرامة الفن والذوق ، وما من موضوع قط يعاب لذاته إذا أحسن المؤلف أداءه وتورع عن استخدامه للتزييف والتمويه .

التأليف على ضوء القمر . . . *

« سؤال ورد فى ذهنى عندما قرأت فى أخبار الأدب بجريدة الأخبار أن رواية الطريق التى يكتبها نجيب محفوظ ستقع فى حجم رواية اللص والكلاب ، والسمان والخريف . . فهل يحدد الكاتب مقدار ما سيكتب فى مؤلفه ؟ أو يكتب الكاتب — على ما أظن — فى موضوع معين وفكرة معينة قدر ما يكتب من صفحات إلى أن ينتهى من موضوعه وفكرته ، ويعرف عندئذ — لا قبل ذلك — مقدار الصفحات التى كانت كافية لإتمام مؤلفه ؟ . . وإننى أكتب إليكم ، ولكم نيف وسبعون مؤلفاً ، عسى أن أعرف هل ينطبق عليكم ما ظننت فى طريقة التأليف ؟ وما هى الخطة الغالبة على مؤلفى الروايات والكتب فى الجملة ؟ »

صلاح عيد
ليسانس حقوق — عين شمس

وهذا سؤال جديد عن مسألة العدد والمقدار فى صناعة التأليف .

وكل سؤال من هذا القبيل — فى عصر الإحصاء — يعيد إلى البحث جملة هذا الموضوع وهو لا يزال مفتح الأبواب على جميع المصاريع ، وربما فتح له كل يوم باب جديد .

وقد يسمى عصرنا هذا بأسماء كثيرة ، تصدق عليه فى بعض جوانبه ، إن لم تصدق عليه كلها فى جميع الجوانب ، ولكن الاسم الذى يتقدم بين هذه الأسماء إلى الصف الأول وتنطوى فيه كل ناحية من نواحيه هو اسم « العصر الإحصائى » لا مراء . . لأن الإحصاء ألزم اللوازم اليوم لتحقيق كل بحث وإبداء الرأى فى كل عمل وتقدير الجهود الضرورية للتوفر على البحوث وإنجاز الأعمال .

ولقد أوشكت جداول الحساب أن تصبح مقاييس للنقد الأدبى والتمييز بين فنون البلاغة ومذاهب الصدق والكذب فى شواغل النفس الإنسانية !

---

* الأخبار ٥ / ٢ / ١٩٦٤ .

فكم ينبغى أن يكون عدد الكلمات فى الجملة البليغة أو الجملة التى تؤدى غرضها وتبلغ أثرها ويتيسر فهمها لأكثر قرائها ؟

وهذا الكاتب يكرر ضمير المتكلم أو ضمير المخاطب أو ضمير الغائب بين كل عشرين أو خمسين نقطة فى كلامه ، فما دلالة ذلك على بواعثه الفكرية وعلى مكانته من اللغة وأسلوب التعبير ؟

ومجموعة الكلمات فى « قاموس » كاتب من الكتاب تزيد على عشرة آلاف من الأسماء والأفعال ، ولكن كاتباً آخر يكتب فى موضوعات ذلك الكاتب ولا تزيد الكلمات فى قاموسه على ألفين ، فما هو مداول ذلك عند المقارنة بين الكاتبين فى جوهر الموضوع وفى مقدرة التأليف وفى وجهة القراءة ؟

وتتوارد أمثال هذه الأسئلة أحياناً على عدد حروف الجر وعدد أسماء الإشارة وعدد الأسماء أو عدد الأعلام ، وكل عدد يختلف به موضوع من موضوع وأسلوب من أسلوب ، ويمكن أن يعتمد عليه الناقد فى الموازنة بين الكتاب وبين ما يكتبون .

ولا نحسب أن الحساب على نحو من هذه الأنحاء يضيع بغير فائدة .

فكل حساب له فائدته عند من يحسن الاستفادة منه .

ولكن « الحساب » — فيما نعلم — لا يتم بالأرقام وجداول الإحصاء ، وإنما يسمى « حساباً » بما « يحسبه » الناظر فى تلك الأرقام والجداول . .

فإذا وقفت الإحصاءات وحدها فقد تدل على الشيء ونقيضه ، وقد ينفى إحصاء منها ما يثبته الآخر ، وقد تكون قلة الشكاوى فى عهد نيرون — كما أسلفنا فى بعض المناسبات — دلالة على أفحش الظلم وأعم أسباب الشكاية ، لأنها علامة اليأس من الإنصاف والخوف من عاقبة الشكوى ، ولا يخطئ من يستدل بكثرة الشكايات فى عهد عمر بن الخطاب على العدل الشامل الذى علم الناس أن يرفضوا أيسر الظلم وأن يأمنوا ضياع الشكاية من أيسر الأمور .

وقد جعل بعض « العمرانيين » استخدام الصابون والملح علامة على ارتقاء المجتمع ، لشيوع الحضارة ودلالة ذلك على العناية بالكساء والطعام .

ولكن الهمج العراة على ضفاف الأنهار أنظف من أبناء الحضارة الذين يستنفدون

الأطنان من الصابون حيث يكثر العرق والغبار فى مزدحم الأعمال ، وربما استنفدت القرية الجاهلة التى تحرق الملح فى المباخر والتعاويذ مقداراً منه يكفى مدينتين من مدن الحضارة العالية .

والإحصاء لازم للكاتب المؤلف لزومه فى جميع مقاصده عند المؤلفين وغير المؤلفين ، ولكنه يفيد أو لا يفيد بالحساب والتقدير ، لا بالأعداد والأرقام .

وإذا كانت الأمور معروفة بأقدارها فالتقدير لازم للكاتب واجب عليه ، وليس بالكاتب من لا يقدر موضوعه ويقدر الكفاية الفكرية واللفظية للتعبير عنه .

ولكن التقدير غير التقييد .

فالكاتب الذى يعرف موضوعه ويعرف وسائل التعبير عنه بالإسهاب كما يعرف وسائل التعبير عنه بالإيجاز يقال عنه إنه مقدر حسن التقدير ، إذا شرع فى الكتابة وهو يعلم عدد الصفحات التى يريدها وانتهى منها وهو لا يزيد عليها فى حدودها التى تتسع للفارق الصغير .

ولكن التقدير يسمى تقييداً لا محل فيه للقدرة المختارة إذا فرضت عليه أعداد الصفحات وأعداد الكلمات وفرضت عليه الموضوعات معها لينجزها فى أعداد من اللحظات لا اختيار له فيها .

ولا يصبح هذا التقييد « تقديراً » جديراً بكرامة التأليف إلا فى حالة الثقة بمقدرة المؤلف والعلم بهذه المقدرة فى غير حاجة إلى الرجوع إليه .

فليس بالمقيد للفارس السابق من ينتظر منه أن يعبر الجسر الضيق فى حدوده إلى غايته القصوى خلال ساعات معدودات ، وليس اللاعب « الرياضى » مقيداً فى اعتباره ولا فى اعتبارنا إذا انتظرنا منه أن يعبر المسافة بين قطبين على سلك دقيق لا يتسع لموضع القدم بعد لحات معدودات .

إلا أن التقديرات جميعاً تصدق على الأعمال التى تقبل التقدير ولا تصدق على غيرها من الأعمال .

و « غيرها من الأعمال » هذه تنتقل بنا إلى مجالات « الإلهام » أو مجالات « الخلق الفنى » الذى لا سيطرة للفنان عليه كلما أراد وحينما يريد .

وقد شبهت الأفكار التي تخطر للمؤلفين بالنجوم والكواكب وشبهت كذلك بالبروق والشهب ، فوضحت بينها مواضع الحساب ومواعيد الإشراق والإضاءة ، بل مواعيد الطلوع التي تحسب بالساعات واللحظات من وراء الغيوم والستور ، كما وضحت بينها مواقع الإشراق بغير حساب ولا انتظار على حالة في المطلع والمغرب كحالة البرق الخاطف والشهاب الثاقب والنيزك الذي يبهر البصر ولا يملك الناظر إليه أن يستمهله لمحة عين أو يستعجله قبل انطلاقه من ظلامه المجهول .. وأكثر ما يكون نور الفكر من قبيل النور المحسوب بالمطالع والمواعيد ، فلا صعوبة على المفكر في تقدير أوقاته ولا في تقدير الموضوعات على حسب تلك الأوقات حيث يستمد الفكرة من ودائع ذهنه وتجارب نومه وأمسه ، وليس بكاتب من لا يملك هذه الودائع أو يتمرس بهذه التجارب كلما استطاع أن يجري القلم على ورقة بين يديه . . ولكن الأمر يختلف كثيراً فيما يومض له من بروق ويتألق فوقه من شهب على غير موعد . . وليس بكاتب كذلك من تخلو سماؤه بين تلك المطالع في كل أثر من آثاره ، فإذا عوّل عليها ــ ولا غنى له عن التعويل عليها ــ فلابد أن يحسب حساباً لحصتها المجهولة ، وأن يترك لها الفراغ الذي تملأه في أوانها ، ولا علم له بأوانه قبل أن يحين إلا على نحو من الظن والتخمين .

على أن الصعوبة هنا في تقدير ما سيعمله ويفكر فيه قبل الشروع فيه .

أما إذا كان شروعه في تنفيذ عمله بعد اتخاذ العدة له والتعويل فيه على نجومه وبروقه ، فلا صعوبة في تقدير الوقت ولا تقدير الصفحات ، ولا محل هنا للأنفة التي يحق للكاتب « الخلاق » أن يترفع بها عن تسخير الآلات وحساب الإحصاء « بالعداد » .

وقديماً عرف المؤلفون هذا التقدير قبل عصر الآلة وعصر الإحصاء ، وأخذهم الناس به كما أخذوا به أنفسهم قبل أن تأخذهم به المطابع التي تديرها الكهربا وتحسب لها الموضوعات بألوف الكلمات أو الصفحات .

وعلى هذه السنة سارت أقلام المؤلفين بين البسيط من كتبهم والوسيط والوجيز ، على حسب المتبسطين أو المتوسطين أو الموجزين من القراء .

وعلى هذه السنة ألفوا للمتعلم الناشئ الذى تقدر له مطالعاته بالصفحة والجملة والحصة والأسبوع ، ويعادله هذا التقدير من عام إلى عام كلما تقدم فى مراحل التعليم .

وعلى هذه السنة ألف الأقدمون من المؤرخين تاريخ العصر الواحد فى كراسة واحدة وفى عشر كراسات قبل أن يقتدى بهم كبار المؤرخين من المحدثين ، وآخرهم « توينبى » فى كتابه الضخم عن تاريخ الحضارات .

فلا حرج على كاتب الرواية أن يستعد وأن يزن استعداده بميزان قدرته وتقديره ، وليس من المفروض فيه أن يجهل ما يستطيعه فى الزمن المقبل وأن يقصر علمه على ما استطاعه من قبل وما هو مستطيعه الآن . لأن حسن التقدير شرط من شروط التفكير ومن شروط التحرير .

* * *

أما سؤال الطالب الأديب عما ينطبق علىّ من هذه السنة فله جوابان : جواب على حساب البروق وجواب على حساب النجوم .

وحساب البروق هو حساب الشعر وما إليه ، فليس من الميسور عنده أن يقترح قصيدة من الشعر فى موعد محدود فأستبيح لنفسى أن أرتبط بالموعد على سبيل اليقين ، وإنما أبدى الرغبة فى قبول الاقتراح وأسأله أن يرجئ الإعلان عنه إلى حين . . . وقد تتم القصيدة فى يومها أو يتراخى الزمن بمطلعها وختامها إلى الأسبوع الأخير .

وحساب النجوم هو حساب المقالة والفصل والكتاب ، فإن التقدير هنا ميسور بل واجب مقدور ما دام العمل فى الإمكان ، ويعنينى التقدير فى حجم الورقة كما يعنينى فى سعة الوقت وسعة الموضوع ، فلا أكتب المقالة على رزمة من ورق الكتاب ، ولا أكتب حديث الإذاعة على رزمة الصحافة أو رزمة التأليف .

وعلى هذا النحو يخصص الورق المقدور لهذه اليوميات .

* * *

فى خطاب من الطالب الأديب « ميسرة عبد الوهاب أحمد خليفة بكلية الصيدلة جامعة القاهرة » سؤال عن كلمة « صيدلى » ما معناها الأصيل ومن أين نشأت ؟

وهل هى صيدلى أو صيدلانى أو صيدنانى كما وردت فى بعض المعجمات ؟

ويبدو من خطاب الطالب الصيدلى أنه تتبع أصل الكلمة فى أهم المراجع العربية التى ذكرتها أو أشارت إليها ، وليس فيها ما نحسبه جواباً صحيحاً عن سؤاله ، لأنها تضطرب بين الأقاويل والروايات الشائعة بغير سند، ولم ينته اجتهاد أحد من واضعى المعجمات إلى أصل للكلمة يربط بين لفظها ومدلولها فى العصر الحاضر ، وهو يقابل كلمة « الأجزخانة » فى اللهجة العربية المتركة .

فمنهم من يقول : إن « الصيدلانى » فارسى معرب ، ولا يتتبع المادة الفارسية إلى أصولها التى ترتبط بهذه الدلالة .

ومنهم من يذكر الصيدنانى والصيدنانة والصيدانة بمعانيها المختلفة ولا علاقة لها بالعقاقير والأدوية من قريب أو بعيد .

ولكننا نرجح ترجيحاً قوياً أن الكلمة منسوبة فى أصلها إلى مدينة « صيداء » التى كانت أشهر الموانئ على الشاطئ الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، وقد ذكرها هوميروس ولم يذكر غيرها من الموانئ فى جوارها ، واشتهرت بموقعها هذا للصيد فى البحر وبيع المستخرجات من صيده ، كما يدل عليه اسمها باللغة الفينيقية ، ثم اشتهرت أكثر من ذلك بهذا الموقع الذى تلتقى عنده تجارة العطور والعقاقير فى طريقها من الشرق إلى الغرب محمولة من الهند وجنوب الجزيرة العربية على طريق البحر الأحمر أو طريق البادية من وادى النهرين .

وليس أيسر من نسبة التجارة إلى المدينة التى تقصد لبيعها وشرائها ، ولا أقرب من إطلاق اسم العقاقير والعطور على المواد التى تباع اليوم فى مخازن الأدوية .

والنسبة باللام مألوفة من قديم الزمن فى كثير من الأسماء التى تتداولها الألسنة فى هذه « المنطقة » لاختلاط الكلمات الطورانية فيها باللهجات المحلية منذ مئات السنين ، ومنها اسم « العثمانلى » و « الشاملى » و « الخربوطلى » و « القوتلى » و « الموصلى » بتشديد اللام ، وما إليها من أسماء المدن والأعلام .

وليس للكلمة أصل نعرفه يعين لنا معناها بما هو أقرب من هذا التعيين إلى القبول .

أليس فى العالم العربى من يستحق جائزة « نوبل » ؟ *

أبرع ما كتب عن « شتينبك » فصل كتبه الناقد الأمريكى الكبير ، إدموند ولسون ، ولعله أكبر نقاد الأدب الأحياء فى اللغة الإنجليزية ، فكانت خلاصته أن ملكة شتينبك مولعة بتغيير الموضوع ، فكلما رفع الستار عن فصل ينتظر المتفرجون تفسيراً منه للمنظر السابق إذا بهم ينظرون إلى رواية جديدة .. ولكنه — على هذا — لا يخلو من قرار ثابت بين جميع أعماله المتعاقبة وهو ناحيته البيولوجية الزواوجية ، أو الناحية التى نطلع فيها على شخصياته الحيوانية إلى جانب شخصياته الإنسانية ؛ ولكنه لا يولى الحيوان عطفاً يزيد على العطف الذى يوليه الحيوان للحيوان . . . فإذا كتب عن حيوان من حيواناته الكثيرة فهو لا يكتب عنه ليقرب بينه وبين بنى آدم وحواء، ولكنه — على خلاف ذلك — يكتب عن بنى آدم وحواء ليقربهم إلى تلك الحيوانات وينزل بهم إلى عالمها ..

وموضع الغرابة فى اختيار الكاتب لجائزة نوبل الأدبية هذه السنة ، هو هذه الناحية البيولوجية الزولوجية كما قال الناقد الأمريكى ، لأنها تناقض خطة « المثالية » التى اشترطها نوبل لمن يستحق جوائزه فى خدمة السلام والمثل الأعلى ، فهى إمعان فى الواقعية يقابل المثالية الروحية الأخلاقية من الطرف الآخر !

وقد وصل البريد الأوربى بتعليقات النقاد على اختيار هذة السنة، وفيه كلام منسوب إلى الدكتور « أوزو ويلرز» أمين اللجنة الأول ، يعترف فيه بأن اختيارات اللجنة فى السنوات الأخيرة تتعرض للنقد الكثير ولكن النقد الذى تعرضت له هذه السنة « أثقل » وأجمع !

وسئل شتينبك نفسه — كما روت مجلة تايم — هل تشعر بأنك تستحق هذه الجائزة ؟

فقال : كلا . بصراحة !

---

* الأخبار ٧ / ١١ / ١٩٦٢ .

وهى إجابة يكسب منها المجيب ولا يخسر على حسب التقاليد العرفية المشهورة!

ولكن الواقع أن « شتينبك » يظلم نفسه فى سبيل العرف أو يظلمها فى سبيل الحقيقة التى يعتقدها إن كان هذا هو اعتقاده الصحيح.

فليس هذا الأديب بأقل من « مستوى » الجائزة إذا قيس هذا المستوى بأمثال « كوزميدو » وسيلابا ولاكسنس ومن فى هذه الطبقة ممن تختارهم لجنة نوبل لجوائزها الأدبية فى سنواتها الأخيرة . وهو — فيما نعتقد — أولى من هؤلاء بجائزته منذ سنوات ، لأن مزاياه الأدبية تحققت أمام اللجنة من نحو عشرين سنة ولم يزد عليها شىء ذو بال فى الزمن الأخير ، ولا سيما السنوات العشر التى أصبح اسمه فيها مقروناً باسمي فولكنر وهمنجواى السابقين له إلى ذلك التقدير ، كما كتبنا منذ حين .

وإنما انتقدنا عمل اللجنة لأنها عادت تبحث عنه هذه السنة بعد العلم بجميع مميزاته منذ سنوات ، وما دامت المسألة مسألة بحث وتفتيش فى الدفاتر القديمة فلماذا يا ترى تتكلف اللجنة هذا البحث فى كل جانب من جوانب المعمورة ولا تمتد به مرة إلى العالم العربى بما رحب؟ ولماذا تقرر اللجنة أن هذا العالم العربى لم يظهر فيه منذ ستين سنة قصاص لا أديب ولا مؤرخ ولا شاعر يساوى كوزميدو ولاكسنس وشتينبك وغيرهم وغيرهم من إخوان هذا الطراز ؟

نخشى أن نقول : إن العالم العربى مستثنى من خريطة اللجنة الموقرة Out of Bounds لغلبة النفوذ الصهيونى على محافل الأدب وبعض محافل الاقتصاد أو مصارفه حول النطاق البارد من أجواء الشمال ، ولا سيما جو السويد ،.. وقد تبينت درجات هذا (الجو الصهيونى) عند قطب الشمال البارد بعد زيارة شيخ إسرائيل واستقباله بين أحضان محافله الأدبية استقبال الرسل المنتظرين .

وليس بالعسير تعليل هذا (الجو الصهيونى) الذى تسرب إلى الشمال من القارة الأوربية الوسطى منذ ثلاثة قرون .

فنى ذلك العصر أخذ الصهيونيون يهربون من بلاد الكنيسة الكاثوليكية إلى البلاد الأرثوذكسية تارة والبلاد البروتستانتية تارة أخرى ، فاجتمعت منهم عدة ملايين فى أقاليم روسيا ، واجتمع منهم عدد يربى على ذلك إذا قيس بنسبة عدد السكان إلى أمم

الشمال ، ولو روجعت أسماء اليهود وأنصاف اليهود (من أمهات يهوديات) الذين ميزتهم اللجنة السويدية بجوائزها منذ وجدت ، لما نقصت نسبتهم عن مائة وخمسين فى الألف من مجموع الفائزين بها فى العالم بأسره ، ولا يجاوز عدد اليهود الصهيونيين وغير الصهيونيين عشرين مليوناً بين سكان القارات جميعاً ، فإذا حسبنا العالم الثقافى ألف مليون فلا ينبغى أن تزيد نسبة الصهيونية على خمسين فى الألف !

وقد تظهر هذه العصبية (النوبلية) لأبناء صهيون بطريقة أخرى إذا سألناهذا السؤال : من هو (المشهور) الصهيونى الذى لم يظفر بجائزة نوبل حتى الآن ؟

ستبحث اللجنة عشر سنين حتى تهتدى إلى ذلك المشهور المجهول ! !

من كتابنا أحق بجائزة نوبل*

أذيع اليوم أن جائزة نوبل الأدبية فى هذا العام كانت من نصيب الكاتب الأمريكى (جون شتينبك) صاحب الروايات التى عرض بعضها عندنا مع أفلام الصور المتحركة .

وشتينبك هو الذى قلنا عنه قبل عشر سنوات فى كتاب « ألوان من القصة » للمقارنة بينه وبين زميليه السابقين له إلى الجائزة : فولكنر و همنجواى .

«يأتى ثالث هذين نمطاً مخالفاً لكل منهما فى أدبه ووجهته وسيرة حياته ، فليست آفات النفس ورذائل المجتمع هى هم شتينبك وهجيراه فى قصصه كفولكنر ، ولا هو ممن يعرفون شكوكهم وقضاياهم العقلية فى دوامة من الحركة الرياضية كهمنجواى . ولكنه يكتب أحياناً ليصلح كما صنع بروايتيه « عناقيد الغضب » و « المعركة المريبة » وكلتاهما كان لها أثر عاجل فى إنصاف العمال المهاجرين بكاليفورنيا ، ويكتب أحياناً ليثير الثائرة على طغيان الفتح والاستبداد كما صنع بروايته « القمر ينزل » التى حيا بها الأمة النرويجية فى مقاومتها للسيطرة النازية ، وأبطاله كلهم أرضيون واقعيون تتساوى عنايته بهم على اختلاف الطبقات ، وهو مع مساهمته فى تأييد بعض المذاهب ومقاومة بعضها لا يذهب إلى حد الاستغراق والحصر ، سواء كان من المناصرين أو من المنكوبين. وقد زار روسيا واصطحب معه مصوراً خاصاً لالتقاط المناظر والشخوص ثم كتب رحلته فلم تعجب أصحاب المذاهب ذات اليمين ولا ذات اليسار ، وكتب فى ختامها يقول :

« إن اليسارى يحسبها حملة على روسيا واليمينى يحسبها تشيعاً لها وتعصباً على ما عداها . ولابد أن يقال فيها شيء كهذا لأنها سطحية.. أما خلاصة القول فى الروسيين فهم ناس كسائر الناس . . . ولكن الطيبين من جمهرة الشعب أكثر من الأشرار » .

---

* الأخبار ٣١ / ١٠ / ١٩٦٢ .

ذلك ما قلناه عنه قبل عشر سنين ، وهو بعض ما كتبناه عن مزاياه الأدبية ، وكله كان معلوماً محفوظاً أمام لجنة نوبل من قبل ذلك التاريخ

فالظاهر من رجوعها إليه الآن أنها أخذت تبحث عن المرشحين حتى اختارته بعد الإعراض عنه مرات فى السنوات الأخيرة .

فالآن يحق لنا أن نقول : إذا كانت المسألة مسألة بحث بعد مجهود ، فلماذا يقف هذا البحث دون البلاد العربية من أمم العالمين فلا تهتدى اللجنة ، أو لا تريد أن تهتدى ، إلى واحد منهم . . . وهم على هذه الطبقة غير قليلين .

إننى أذكر منهم أربعة من كتاب القصص الطوال أو المسرحيات — وهى مجال شتينبك — يفضلونه فى بعض المزايا ولا يقصرون عنه فى واحدة من مزاياه ، وهم : توفيق الحكيم ، ومحمود تيمور ، ونجيب محفوظ ، وميخائيل نعيمه .

وميخائيل نعيمه أرفع منه إلى الذروة فى فن المثل العليا والحياة الروحية ، ومحمود تيمور أقرب منه إلى السماحة الإنسانية والفكاهة الطيبة الخفية ، وتوفيق الحكيم أوسع منه ثقافة وأجمل فكرة وأقدر على إتقان النسق والأداء ، ونجيب محفوظ يضارعه — وقد يفوقه — فى تصوير شخصياته — من أولاد البلد والسذج و « البدائيين » العصريين .

فلماذا وقف البحث باللجنة دون هؤلاء ولم يقف قط دون أمثالهم هناك ؟ سؤال لا يعنينا أن تجيب عنه اللجنة أو لا تجيب كما تشاء . ولكننا نسأله لأنه لا يسكت عنه ، وليست بنا حاجة إلى الإطالة فى تذييله بكثير أو قليل من المعاذير لنبرئ أنفسنا من مظنة الغرض « الشخصى » . . . فإننا نتكلم عن كتاب القصة ولم يخطر لنا أن نحتكم إلى اللجنة فى أمر يعنينا ، وقد كانت الفرص « الرسمية » للترشيح ميسورة لنا منذ ثلاثين سنة على أهون سبيل ، فلا مطمع لنا من وراء هذا السؤال ، ولا ننسى حقنا إذا اتفقنا أن نقف موقف التبرئة من مظنة الغرض ولم نزد عليه « إن مساواة الكثيرين من المختارين عند اللجنة أمر لا نتطلع إليه ! »

الأديب البشناقى الفائز بجائزة نوبل هذا العام*

عادت لجنة نوبل فى هذه السنة إلى اختيار الكاتب البشناقى «إيفو أندريك» لجائزتها الأدبية وقد ذكرنا فى مثل هذا الموعد من السنة الماضية (١٦ نوفمبر ١٩٦٠) أن اللجنة تحولت عنه فى اللحظة الأخيرة إلى اختيار الشاعر الفرنسى سان جون بيرس ، لأن السيد همرشولد الذى كان أميناً عامًّا للأمم المتحدة توسط له عندها ، بعد أن اشترك فى ترجمة كتابه مجرى الأحوال إلى اللغة السويدية وعنى مع بعض زملائه بتعريف السويديين بأدبه وتاريخ حياته ، ولم تكن فى هذا الاختيار محاباة لسان جون بيرس لأنه كان فى الحقيقة من أحق المرشحين فى السنوات الأخيرة لتلك الجائزة . وكانت وجهة نظر السيد همرشولد أن الشاعر ربما فاته هذا التقدير أبداً إذا فاته فى سنة ١٩٦٠ ؛ فكان من مصادفات القدر أن الحذر قد أغنى غناءه فى هذه الحيطة لأن السيد همرشولد هو الذى وافاه الأجل بعد أن أدى واجبه لصديقه وموضع إعجابه وتقديره .

أما صاحب الجائزة فى هذه السنة فهو فى طليعة الكتاب السلافيين الذين ظفروا بالشهرة العالمية منذ زمن غير قصير ، وله كفاءته التى ترجحه على كثير من أدباء الأمم الكبرى المشهورين ، لأنه أديب قصاص له مساهمة فى الشعر والفلسفة والحركة الوطنية ، وقد كان أحد الشبان الذين حملوا لواء المقاومة للدولة النمسوية واتفقوا على تلك المؤامرة التى انتهت باغتيال ولى عهد النمسا ونشبت الحرب العالمية على أثرها ، ولكن الكفاءة الأدبية أو الوطنية ليست هى المرشح ولا المرجح الوحيد عند اللجنة ، إذ كانت لها على الدوام اعتباراتها التى تلاحظ بها توزيع جوائزها بين الأمم الأوربية الصغيرة إلى جانب الأمم الكبيرة ، وقد أخذت فنلاند وإيسلاند وبلجيكا وسويسرا أنصبتها من هذه الجوائز الأوربية . ولم تنس اللجنة الكتلة الشرقية ممثلة فى بسترناك الأديب الروسى المعتدل إلى ناحية اليسار ، فأصبح اسم البلاد اليوغسلافية منتظراً

---

* الأخبار ١٥ / ١١ / ١٩٦١ .

على رأس القائمة بعد ذلك ، ولولا أن كازانساكيس اليونانى توفى قبل منحه الجائزة لكانت المزاحمة شديدة بين الأمتين المتجاورتين إلى الجانب الشرقى من القارة الأوربية .

وعندنا أن ظهور هذا اللون من ألوان الأدب الممتلئ بالحياة الذى اشتهر به الكاتب البشناقى — نسبة إلى البشناق موطن ميلاده — سوف يوازن حركة الأدب الأوربى المصاب فى الغرب بداء الأنيميا — فقر الدم — من جراء التحليلات النفسية المريضة التى غلبت عليه وعلى بعض مدارس الفنون الخنفشارية من طراز فن الدون بيكاسو شفاه الله ، لأن الكاتب البشناقى يصطنع التحليل النفسى أيضاً ويعتمد على الوعى الباطنى كثيراً ، ولكنه لا يجعله وسيلة إلى الفوضى والتشويه ، بل يعرضه حيًّا مطبوعاً بطابع الحس الصادق والفطرة السليمة كما يشاهد بين الأحياء الذين خلقهم الله .

وقد جمع الأديب البشناقى عشرات من الشخصيات المنوعة فى مجاميع قصصه وحكاياته القصيرة ، ولم يدع جنساً من الأجناس يعيش فى القارة الأوربية الشرقية إلا وفاه كل حقه من التصوير والتحليل ، فجاءت مجاميعه تلك معرضاً حافلا بالرجال والنساء من السلافيين والترك واليونان والطليان واليهود على تفاوت الأمزجة ، ولم يحرم أحداً منهم صورته الطبيعية مرضاة للوعى الباطنى ، وعى المسخ والتلفيق فى مدارس الأدعياء الخنفشاريين ، وإذا كان انحلال الحضارة المتداعية قد أحدث ما أحدث من التلف الوبيل بين أبناء الغرب فلعل هذه « الحفنة » من الشروق الأوربى علاج حسن للقوم من أدواء التحلل والتحليل .

« أبو كيفه » كسب الجائزة*

« أبو كيفه » كسب الجائزة !

و « أبو كيفه » هو الترجمة البلدية لكلمة « كواسيمودو Quasimodo » اسم الشاعر الإيطالى الذى اختارته لجنة نوبل لجائزتها الأدبية عن هذه السنة .

ويذكر قراء فيكتور هوجو أن كواسيمودو هو اسم الأحدب « المزاجى » فى رواية أحدب نوتردام المشهورة ، وهو اسم مركب من كلمتين إيطاليتين : كلمة Quosi بمعنى « شبيه » أو مقارب ، وكلمة Modo بمعنى حالة أو مزاج ، ومعنى الكلمتين معاً « صاحب حالات » أو صاحب مزاج أو « أبو كيفه » كما يقول أولاد البلد عن صاحب الأهواء والبدوات ومن لا يستقر فى أطواره على حال .

وتسمية « الأحدب » فى رواية نوتردام بهذا الاسم معروفة السبب من سيرته فى الرواية ، فهو « طالع نازل » فى برج الجرس لا يهدأ من الدق العنيف إلا ليتخبط بين المرح والهياج فى طريق الذين يعاكسهم ويعاكسونه من خلق الله .

ويظهر أن عائلة الشاعر ذات نصيب موفور من هذه « الحالات » الأحدبية ، إن لم يكن هو الذى استحق هذا اللقب بين عارفيه فأطلقوه عليه منذ صباه .

كان إلى زمن قريب شيوعيًّا من غلاة المؤمنين بالماركسية على غير علم بها ، وكان إلى عهد القمر الصناعى القريب يهلل لمخترعيه ويقول : إنهم يسابقون « جبار السماوات » فى ميدانه ، ثم تحول عن حزبه وراح يقفز من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين فى الأدب ، مترنحاً بين شعر النخبة المختارة وشعر السوق والطريق .

وعاودته حالاته بعد سماعه بخبر الجائزة فجعل أول كلامه تعليقاً على اختيار السنة الماضية وحملته على الشاعر « باسترناك » لأنه — كما قال — لا يعيش فى هذا العصر الحاضر ، وبينه وبين زماننا هذا ما بيننا وبين القمر .

---

* الأخبار ٩ / ١١ / ١٩٥٩ .

والظاهر من مسلك اللجنة السويدية فى السنوات الأخيرة أنها تبنى اختيارها على قاعدتين من القواعد التى يمكن أن توصف بالعموم وتتسم فى النهاية بسمة المساواة ، إحداهما تشجيع الابتعاد من اليسار إلى اليمين ، والأخرى تشجيع العودة إلى بساطة الطبيعة أو بساطة الطفولة فى بعض الحالات ، لأن « كواسيمودو » يوشك أن يكون شاعراً من شعراء الرعاة Pastoral فى موضوعاته وأوزانه ، ويكاد أن يكون فى طبقتهم لولا أنهم أقرب منه إلى الموسيقية الريفية وأوضح منه فى الشعور والتعبير .

ولا شك أن اللجنة قد هبطت هذه السنة إلى مستوى الطبقية الثانية من النظامين على أحسن تقدير ، فلا نذكر لهذا « الأبو كيفه » قصيدة من مختاراته ننشرها بغير تردد لو كانت لنا صحيفة أدبية ، ولا تكون لها من شفاعة يومئذ غير شح البريد وفراغ الجعبة ! ..

أما لجان العلم التى تجيز الباحثين فى العلوم ونظرياتها المنتجة فهى فى هذه السنة أكثر توفيقاً من زميلتها الأدبية ، لأنها وجهت جوائزها إلى اثنين من الباحثين فى تركيب المادة وخصائص البروتون ، مما اقترب بأصول الأجسام المادية إلى عالم المعانى المجردة ، وهو مبحث يسرنا أن نقول إننا ترقبنا له هذه « الأهمية » فيما كتبناه منذ سنتين عن حقيقة المادة وإمكان وجود الحياة فى قوام غير مادى Anti-matter كما بينا ذلك فى كتاب القرن العشرين (صفحة ١٦٥) .

ونعتقد أن النتيجة المنتظرة لهذه الكشوف أوسع نطاقاً وأبعد أمداً من كل فائدة مادية يطويها عالم الاختراع فى غيبه المجهول .

الترجمة . . مصلحة أدبية ! *

نشرت الصحف أن لجنة من لجان مجلس الفنون والآداب تنظر فى اختيار الوسيلة الملائمة لنقل المأثور من شعر اللغات الأوربية إلى اللغة العربية .

فكتب إلينا الأديب « محمد بشير » يسألنا رأينا فيمن ينكرون ترجمة الشعر من لغة إلى لغة ويلخص كلاماً كتبه الأستاذ « عبد المنعم مراد » لم نطلع عليه فى حينه ، ولكنه يتلخص فى استنكار الترجمة لأن الشعر يفقد كثيراً بترجمته نثراً ويتعذر على المترجمين أن يحافظوا على معانيه إذا ترجموه نظماً .

ثم جاءنا خطاب من الأديب « حسين نمر » يتساءل معترضاً : لماذا نحرص على الترجمة من اللغات الأوربية إلى لغتنا ولا نحرص مثل هذا الحرص على الترجمة من لغتنا إلى اللغات الأوربية ؟ أليس من الواجب أن يعرف الأجانب فضلنا كما نعرف فضلهم ؟ أليست لنا مصلحة أدبية فى نشر الثقافة العربية تضارع مصلحتنا فى اقتباس الثقافة من الأمم الأجنبية ؟

* * *

أما ترجمة الشعر فهى لا تمتنع بسبب من الأسباب التى ذكرها الأديب « بشير » تلخيصاً من مقال الأستاذ عبد المنعم مراد ، ولا حاجة بنا إلى حجة تعزز هذا الرأى أكثر من حجة الواقع ، فإن ترجمة الشعر لم تمتنع قط فى أمة من أمم الحضارة والثقافة ، وليس فى أمة من الأمم الأوربية اليوم غير آحاد معدودين يطلعون على الشعر اليونانى أو الشعر اللاتينى فى اللغتين اليونانية واللاتينية ، ولكن المطلعين عليه مترجماً يعدون بالألوف ، بل يوجد اليوم فى اليونان والطليان المحدثين من يقرأ شعر أسلافه مترجماً إلى الإنجليزية أو الفرنسية ولا يحسن قراءته بلغة أولئك الأسلاف .

ولا يزعم أحد أن الأصل والترجمة يتساويان فى جميع الأحوال ، ولا أن الترجمة تغنى القارئ عن الأصل إذا استطاع أن يطلع عليه فى لغته بأسلوب منشئه ومبتكر

---

* أخبار اليوم ٦ / ١٠ / ١٩٥٦ .

معانيه ، فإن الغالب على المترجمات كما قال الأستاذ مراد أن تفقد شيئاً من جمال الأصول ، ويصدق هذا على النثر البليغ كما يصدق على الكلام المنظوم ، بل يصدق أحياناً على الكتابة العلمية التى لا تحتاج إلى البلاغة اللفظية أو إلى طلاوة التعبير ، فإن الاطلاع على الكتب العلمية فى لغاتها أولى من الاطلاع عليها فى المترجمات .

إلا أننا نقول : إن هذا هو الغالب على المترجمات ولا نقول إنه قضاء مبرم لا فكاك منه وقاعدة مطردة لا استثناء فيها ، إذ يتفق لبعض المترجمات أن تساوى أصولها أو تفوقها ، وقد كان « جيتى » كبير شعراء الألمان وأبلغ البلغاء فى عصره يفضل أن يقرأ روايته « فوست » فى الترجمة الفرنسية على قراءتها بلغته التى أبدعها وارتفع فيها إلى الذروة العليا فى لسان قومه ، وسمعنا من يعرف الألمانية والإنجليزية يقول : إنه يفضل قراءة « وليام مايستر » فى الترجمة الإنجليزية على قراءتها فى أصلها الألمانى ، وعندنا نحن أبناء العربية فى عصرنا هذا مثل صادق للترجمة التى تساوى الأصل أو تفوقه فى الواقع . وحسن الأداء . فإن ترجمة صديقنا « المازنى » لرباعيات الخيام تفوق الأصل الإنجليزى الذى نقل عنه فى بعض الرباعيات ، ولم يكن فيها مع ذلك تصرف معيب لا يجيزه « فتزجرالد » لو نقل الخيام من الفارسية إلى العربية ولم ينقله من الفارسية إلى لغته الإنجليزية .

وبعد هذا يصح أن نقدر أن الترجمة تقصر عن الأصل على الدوام ثم لا يمنعنا ذلك أن نعتمد على الترجمة لنشر الثقافة بين الأمم وتعريف بعضها بمحاسن غيرها فى بلاغه المنظوم والمنثور ، فإننا إن لم نفعل ذلك كان البديل منه أن نجهل كل بلاغة لا نعرف لغتها أو أن نفرض على الناس العلم بعشر لغات أو أكثر من عشر لغات على درجة واحدة من الإجادة والإتقان ، ولا ريب أن الترجمة أيسر وأجدى من هذا وذاك .

وبعد ، فنحن ومن نعرفهم من إخواننا وزملائنا يحق لنا أن نقيس القراء على أنفسنا . ونحن لم نطلع على أشعار الأمم فى غير الترجمة الإنجليزية وقليل من الترجمة الفرنسية ، ولا نحسب أن القراء يقبلون منا التواضع الكاذب والرياء السمج إذا قلنا إن ما عرفناه لا يستحق الجهد من القارئ العربى لمعرفة نصيب مثله كما عرفناه ، ولا يتهم بالتقصير من يجعل القارئ العربى كنفسه فى وسيلة التحصيل .

نترجم الشعر إذن كما ترجمه الذين من قبلنا والذين يعيشون معنا فى عصرنا .

ومن أشار بغير ذلك فهو يشير بجهل ثقافة الأمم أو يلزم الناس أن يتعلموا جميع اللغات ، ولا نحسبه سيقنع أحداً بإيثار رأيه على ما رآه القائلون بالترجمة من قديم وحديث .

* * *

والترجمة من العربية

أما الترجمة من اللغة العربية إلى اللغات الأوربية أو اللغات الأجنبية على التعميم فهى كما قال صاحب الاقتراح « مصلحة أدبية » جديرة بالحرص عليها وهى — بعد كل ما ترجمه المترجمون من لغتنا — لا تزال ضرورية ولا يزال المعروف منها بين الأمم دون الكفاية بكثير لإبراز فضل الأدب العربى بين الآداب العالمية .

فالمنقول من الشعر العربى إلى سائر اللغات إما قليل ضعيف الدلالة على فضل الأدب العربى أو مشوه محرف لم يفهمه الذين ترجموه ولم يحسنوا نقل ما فهموه ، لأنهم على الأكثر من « فقهاء » اللغة أو من طائفة الحفاظ والمسجلين وليسوا من أصحاب الملكة الأدبية .

وإنك لتستطلع رأى الملمين بهذا القليل المنقول من شعرنا إلى لغات العالم ، فيخيل إليك أنهم يشهدون له شهادة العطف أو شهادة الولع بالغرائب والمفارقات ، ولو كان النقل من شعرنا القديم والحديث كافياً لاضطر هؤلاء اضطراراً إلى الشهادة له شهادة الإعجاب والإكبار ، ولعلم الناقد الخبير منهم أن الشعر الغنائى فى لغتنا يعلو على طبقة لم تجاوزها أمة من الأمم صعداً فى عصر من العصور ، ومنها ما يعلو إلى طبقة لم يدركها غير الأقل الأقل من المجيدين .

ولا نعنى بالشعر الغنائى ما يوضع للغناء خاصة أو يتقدم فيه التلحين على غيره من الأغراض ، ولكننا نعنى به ما يقابل عند الإفرنج كلمة الشعر الليريكى Lyric من الغزل والوصف والحكمة الحية والوجدانيات على الإجمال .

فنى هذا الشعر فى لغة العرب آيات قليلة النظائر بين المأثور عن أعظم الشعراء الغربيين المتقدمين أو المتأخرين ، ولا سيما المنظوم منه فى باب التشبيه والمثل السائر

وجوامع الكلم من صميم الحياة ، وقد تمثل بعض النقدة الغربيين بما يعدونه من معجزات التشبيه فى وصف « دانتى » لمناظر الفردوس والأعراف والجحيم ، وإنك لتقارن بين هذه المعجزات وبين التشبيهات المطروقة عندنا فى وصف ابن الرومى أو البحترى أو امرئ القيس فلا ترتفع بها إلى مرتقى أرفع من تمرينات الأطفال !

* * *

وبهذه الذخيرة عندنا لا ينبغى لنا أن نقنع بمنزلة المدين فى مبادلات النفائس الشعرية دون منزلة الند القرين الذى يعطى كما يأخذ ويعير كما يستعير .

ولا يفوتنا فى هذا السياق أن نذكر أن الغربيين يتعصبون على لغة العرب لسبب غير سبب العقيدة الدينية ، وأنهم يتقبلون من الأمم الشرقية ما لا يتقبلونه من الأمة العربية ، لأنهم يشعرون بحصة من الفخر فى أدب فارس والهند وما جاورهما من البلاد التى تتكلم بفرع من فروع اللغة الهندية الجرمانية على اعتبارها جذراً واحداً تفرعت عليه لغات اللاتين والسكسون والهنود والإيرانيين ، وقد ألف الغربيون أن ينظروا إلى لغات المغول كأنها لهجات أوربية من لهجات شعوب السلاف الذين سكنوا نصف القارة إلى المشرق ، فلا غرابة بين ينابيع اللغة فى الهند وفارس وتخوم المشرق والمغرب كالغرابة بين لغة الضاد وسائر لغات الغربيين ، وهذا عدا المنافسة بين الحضارتين منذ عدة قرون أوشكت فيها حضارة العرب أن تبتلع حضارة الأمم الأوربية وما توارثته من حضارة الرومان والإغريق .

فالغربيون لا يرحبون بذخائر الشعر العربى كما يرحبون بما يماثلها أو بما هو دونها من ذخائر الشرقيين ، ولا يفوتنا هذا ونحن نتحدث عن نقل الشعر من لغة العرب إلى لغات الغربيين ، ولكننا — مع هذا نعرف من سوابق الترجمة أن الجيد من الأدب فى لغة الضاد يشق طريقه بين جميع هذه الصعاب و يسترعى إليه التفات القراء حيثما اطلعوا عليه ، وقد ترجم الأديب اللبنانى «أمين الريحانى » طرفاً من لزوميات المعرى باسم رباعيات أبى العلاء فاشتهر بها واستطاع بهذه الشهرة أن يعيش من عمله الأدبى بين مزدحم الأقلام فى اللغة الإنجليزية ، ولولا أن فلسفة المعرى لا توافق روح العصر كما وافقته الأبيقورية « الخيامية » لراجت رباعيات أبى العلاء كما راجت رباعيات الخيام .

إننا لنؤيد الأديب الذى يرى أن الحرص على نقل الشعر العربى إلى اللغات الأخرى مطلوب منا كالحرص على نقل الشعر الأوربى أو نقل الشعر من كل لسان يشتمل على روائع البلاغة والبيان ، ولا اختلاف فى وجوب الغيرة على هذين المطلبين اللازمين ، وإنما الاختلاف فى القدرة والوسيلة بين ترجمة تملك قدرتها ووسيلتها ، وترجمة تتوقف على قراء غير قرائنا وعلى أدوات نشر غير أدوات النشر فى بلادنا .

وحيا الله من يقدم على هذا الواجب ويملك من قدرته ووسيلته ما يذلل صعابه بين قراء اللغات الأجنبية ، فليس فى الشرق العربى من يأبى عليه عمله أو يحجم عن معونة يقدر عليها .

ولنقل فى النهاية كما قلنا فى البداية إننا مطالبون بالترجمة كما ترجم الذين من قبلنا ، وإننا اليوم وغداً مسئولون أن نترجم كما ترجموا ويترجمون .

الشعر بين العرب المحدثين *

يقول القانونى الكبير الأستاذ حمادة الناحل فى خطابه تعقيباً على ما كتبته عن مهرجان الشعر بدمشق : « . . أنا معكم فى وصف هذا الإقبال بأنه يعبر عن سليقة جميلة وأنه شهادة جنسية عربية ، وأنه أريحية عربية فى الصميم . فلماذا لا تلقى المهرجانات الشعرية مثل ذلك فى غير دمشق ؟ أهو نقص فى هذه السليقة ؟ . . . أو هو عجز فى قدرة الشعر والشعراء عندنا عن التعبير والتجاوب معها . . ؟ »

وأقول للأستاذ الكبير إن ملاحظته تتكرر فى أحاديث الأدباء والصحفيين . وأننى خاطبت فيها فئة من قادة الصحافة عندنا بعد الاحتفال بذكرى مطران منذ شهور ، وإننى سمعت نقد الناقدين واجتهاد المجتهدين فى التعليل والاعتذار ، ولا بد أن يكون لهذا التساؤل أثره عما قريب .

ولست أعتقد أن الأمر يرجع إلى عجز شعرائنا عن التعبير والتجاوب ، فإن هؤلاء الشعراء هم بأعينهم شعراؤنا فى مهرجان دمشق ، وشعراؤنا فى معظم الحفلات .

ولكن البداوة والحضارة قد انفصلتا فى وادى النيل منذ مئات القرون ، ولا تزال الصلة بينهما تتجدد فى الفيحاء والشهباء كل يوم وكل ساعة ، وربما أضفنا إلى ذلك أن إحساس العصبية العربية بالخطر عليها أيام الحكم التركى المباشر كان أشد من هذا الإحساس فى وادى النيل ، إذ كانت غلبة التركية على العربية خطراً بعيداً لا يستثير العصبية ولا يستحضرها فى كل مقام .

ولا ننسى — بعد هذا — أن الخصائص الفنية قابلة للتنويع بين أبناء اللغة الواحدة ، وأن فن الغناء الشعبى من أقدم العصور ، كان من خصائص العامة والخاصة بين أبناء الوادى القديم إلى العصر الحاضر ، ويلحق بالغناء توابعه من الأناشيد الشعبية التى تشيع على الأثر بعد كل حادث من الحوادث الكبرى فى بلادنا ، ويذكر الأستاذ من قبيل ذلك :

---

* الأخبار ١٥ / ١٠ / ١٩٦٠ .

بلدى يا بلدى ، والسلطة خدت ولدى .

وسلم على كوبرى اسنا ، ضربنا الهوا نعسنا .

ودنشواى الحزينة ، وبورسعيد السعيدة ، وبناء السد ويوم الجد ، وغيرها وغيرها من الأناشيد المألوفة منذ خمسة آلاف سنة إلى هذه الأيام .

فإذا كان انفصال البادية والحاضرة قد جعل للسليقة الفنية ترجمانها فى هذه الأناشيد فهى إذن سليقة حية يعرض لها التنويع من حقبة إلى حقبة ، وتقبل الترجمة الصادقة بأقرب الفنون إليها ، وعلى حسب الدواعى والأوقات .

بين المعانى والألفاظ *

من رسالة عن معرض الكتاب بالإسكندرية يقول الطالب الأديب (أحمد موفق محمد إبراهيم جاد الله) :

« إنه فى ندوة الأستاذ يوسف السباعى وجه إليه أحد الحاضرين سؤالا عن ماهية الأدب الشعبى ، فأجابه الأستاذ يوسف بأنه الأدب الذى يكتب باللغة العامية ليفهمه جمهرة الناس على اختلاف طبقاتهم ، وأنه يخالف سيادتكم فيما ترونه من أن الأدب مهما بلغت لغته من الفصاحة ومهما كان الموضوع الذى يتناوله — هو أدب شعبى ما دام مقصوداً إلى الشعب ، وقد وجدت حسب نظرى أن إجابة الأستاذ يوسف السباعى مجانبة للصواب لأنه قد عرف أدب الدهماء ، مع أن للدهماء أدباً وأدباء ، ثم خلط بينه وبين الأدب الشعبى . . فاسمحوا لى أن أسألكم فى ذلك وأن أقرأ ردكم على صفحات الأخبار . . . »

ونرى أن الأستاذ يوسف السباعى قد قرب المسألة إلى الاتفاق بما قاله عن الأدب الذى يفهمه العامة أو الدهماء ، إذ ليس أيسر من التفرقة فى مسألة الفهم بين عمل اللغة وعمل الموضوع .

فكتابة الموضوع باللهجة العامية لا تجعله مفهوماً لمن يقرأه من العامة أو الدهماء ، بل لا تجعله مفهوماً عند أخص الخاصة إذا كان ذلك الموضوع غريباً عما تعلموه وتعودوا التفكير فيه .

وإذا عمدنا إلى مسألة من مسائل الهندسة العالية فكتبناها باللهجة العامية لم يفهمها العامى ولا القارئ المثقف المستبحر فى ثقافته الأدبية أو الفنية ، ما لم يكن على حظ كاف من العلوم الرياضية .

ومن مبادئ الفلسفة الاجتماعية ما يكتب بالفصحى وبالعامية على السواء بألفاظ واحدة .

* الأخبار ٢٥ / ١٢ / ١٩٦٣ .

فنقول مثلا عن فلسفة أرسطو فى طبيعة الإنسان (إنه مدنى بالطبع) أو إنه (اجتماعى بالطبع) ولانحتاج إلى تغيير كلمة من كلمات هذه العبارة إذا كتبناها باللهجة العامية ، ولكننا لا ننتظر من القارئ أن يفهم هذه الفلسفة لمجرد فهمه لكلمات الإنسان والاجتماع والطبع أو الطبيعة ، ولا فرق فى ذلك بين من يعرف العربية الفصحى ومن لا يعرف غير عبارات الخطاب بألفاظها الدارجة بين الأميين وأشباه الأميين .

فإذا كانت اللهجة العامية لا تغنى قارئها عن فهم الموضوع ، فهل المقصود من الكتابة بها أن نحرم قراء الشعب من كل موضوع يحتاج إلى الفهم والتعلم ، وأن نقصر الكتابة التى يسمونها بالشعبية على موضوعات الجهل والموضوعات التى يقف عندها الجهلاء بغير تعلم وبغير محاولة للفهم والتفهم ؟ وهل تكون هذه الكتابة شيئاً يسمى (أدباً) ويقترن بالتأديب والتهذيب على أى معنى من معانى التأديب والتهذيب ؟ أو يكون المقصود أن (الدهماء) ما دامت جاهلة فيكفيها هذا الجهل ولا يجوز للكاتب أن يقدم لها شيئاً يخرجها من جهلها ويدعوها إلى محاولة الفهم والانتفاع بمعرفة لم تكن تعرفها قبل قراءة الكتاب ؟!

وندع مسألة المفهومات العقلية إلى مسألة (المؤثرات) النفسية فنرى أنها مسألة لا تختلف عما قدمناه فى العلاقة بين التأثير ولغة الكتابة .

إن القارئ العامى يتأثر باللغة الفصحى كما يتأثر باللهجة الدارجة إذا كان للموضوع أثر فى حسه وأثر فى حياته المنزلية أو حياته الاجتماعية .

وقد كنا نسمع النشيج العالى من مقاصير السيدات ومن كراسى الدرجة الثالثة كلما تغنى سلامة حجازى بالقصيدة التى كان ينشدها على قبر جولييت ، ويقول فيها :

أجولييت ما هذا السكوت ولم أكن لأعهد فيك الصمت عنى فى قربى

وقد خطر لنا مراراً أن نسأل غيرنا كما سألنا أنفسنا : ماذا يكون أثر هذه القصيدة لو نقلها إلى العامية فقال :

يا جولييت !

ساكته ليه ، وأنا ما تعودتش منك السكوت وانت جنبى ؟!

فلم نجد أحداً يظن أن تأثيرها فى النفس يزداد بصياغتها فى هذه اللهجة التى يتحدث بها العامة ولا يستطيعون الحديث بغيرها .

وخطر لنا أن ننتقل من الرثاء إلى الحماسة فى أبيات كأبيات الفخر على لسان صلاح الدين حين يقول :

إن لم أصـــن بمهنـــدى ويميـــنى ملكى فلست إذن صلاح الدين

تحمى الممـــالك ربهـــا أما أنـــا فأرى يد أحمى الملك لا يحمينى

فأحسست إحساساً لاشك فيه أن أثر النخوة لا يزداد فى نفس السامع العامى إذا أسقط منها الإعراب ولفظ بها كما يلفظ بالكلمات السوقية .

وإذا قلنا إن الأمر على عكس ذلك وأن الكلمات الفصحى أوقع فى نفسه وأدعى إلى انتباهه وإعجابه فلا أظن أننا نخالف بذلك جملة الآراء التى يذهب إليها غيرنا بعد هذه المقارنة ، ولا نظن أن تعليل ذلك عسير على أحد يدرك الفرق بين الانتقال فى شىء من الأشياء من حالة الابتذال إلى حالة الندرة والامتياز ، وحسبنا أن نشاهد فرح الناس بحفلات الأعياد لأنهم يشهدونها بالملابس (المحتفل بها) ولا يشهدونها بملابس المطبخ والحارة أو ملابس اللقاء المتكرر فى جميع الأوقات .

إن العامية — مهما تكن — ليست بلغة الثقافة والأدب ، وليس معنى الثقافة والأدب إلا أن يتعلم الإنسان شيئاً لم يعلمه وأن يتعود شيئاً ليس من عادات الجهل ولا من عادات الإنسان (الخام) إذا اخترنا هنا تعبير العامة فى موضوعه .

فالقراءة التى لا تخرج من حدود (الخامات) إلى حدود الأشكال المصنوعة ، هى قراءة الخشبة المقطوعة من الشجرة ، وليست قراءة الباب أو النافذة أو المائدة أو غيرها من مصنوعات النجار ، والنجار الذى لا يصنع بالخشبة إلا أن يتركها تحت شجرتها قد يسمى جامع خطب أو خازن شادر بغير منشار ، ولكنه ينتظم بصناعته فى كل نقابة غير نقابة النجارين .

وخلاصة القول فى مسألة الفهم والموضوع أنها مسألة التعليم أو ترك التعليم ،

ولا محل للاعتراض إذن على الكتابة الفصحى إلا إذا شمل هذا الاعتراض كل موضوع يفهمه القارئ بعلم كان مجهولا لديه .

* * *

ومن باب الكلام فى كتابة القصة سؤال من الطالب الجامعى (حميدة الأزهرى) يقول فيه : « ما هى الطريقة المثلى لكتابة القصة ؟ هل هى كما قرر سير آرثر دريل ، أن يبدأ الكاتب بتدوين وقائع قصته بعد أن تختمر فى ذهنه ويتم ترتيب فصولها ؟ أو هى كما يبدو من تصريحات الأدباء الصحفيين الذين يدونون ما قد يطرأ على أذهانهم أولا فأول حتى يأتى اليوم الذى يضعون فيه خاتمة القصة كما تتفق لهم بعد وقت يطول أو يقصر على حسب الظروف؟ »

ورأينا فيما سأل عنه الطالب المجتهد أن المؤلف فى جميع الأحوال له موقف من القارئ كموقف الطاهى من الجالس على المائدة ، بلا اختلاف .

كل ما يحق للجالس على المائدة أن يجد بين يديه صفحة من الطعام السائغ بتكاليفها التى لا غش فيها ، وليس له أن يسأل الطاهى بعد ذلك عن طريقته فى تحضير اللحم أو الخضر أو الفاكهة من السوق ، ولا عن طريقته فى ترتيب التقشير والتنظيف أو خلط التوابل أو تقدير مقاديرها قبل النضج أو بعده كما يختار ، ولا عن طريقته فى استخدام الموقد وتركيب الماء بارداً أو فاتراً أو ساخناً عليه .

ولا يهم القارئ ، ولا يهم أدب القصة أو أدب الكتابة على العموم ، أن تجتمع فصول الرواية فى ذهن المؤلف على دفعة واحدة أو على دفعات متطاولة ، وأن يعرف المؤلف ختام قصته قبل تأليفها أو فى منتصف الطريق أو قبل النهاية بقليل أو كثير ، وكل ما يهمه أن يتلقى من المؤلف عملا يصلح لإخراج قصة ذات بداية ونهاية وذات فصول يتمم بعضها بعضاً من البداية إلى النهاية .

ولتكن هذه الفصول على نظام الرسائل المتبادلة أو على نظام الحوار أو على نظام الأجزاء المستقلة أو على نظام الذكريات المتجددة أو الفترات المتقطعة فإذا انتهى القارئ من القصة وهو لا ينتظر من المؤلف شيئاً بعد نهايتها فقد برئت ذمة المؤلف وأدى ما عليه لقصته ولقارئها وللفن ورسالته .

وفى وسع الطالب الأديب أن يكون على يقين من شيء واحد ، وهو أنه إذا اختار من عباقرة القصة مائة قصاص فى الطليعة بين أدباء العالم كله لم يجد بينهم طريقتين تتفقان كل الاتفاق فى وسائل إعداد القصة وتقديمها للقراء ، وربما اتفقا فى جمع الحوادث والأشخاص ، ولم يتفقا فى تدوين المشاهدات ومراقبة الناس ، أو لم يتفقا فى مبلغ الاعتماد على الواقع والاعتماد على الخيال ، أو لم يتفقا فى الاهتمام بالمناظر المحسوسة .

وبالدخائل الخفية التى لا تنكشف للعيان ، أو لم يتفقا فى الإسهاب والإيجاز ، أو لم يتفقا فى تعليق بعض الفصول ببعض واستقلال كل منها عن سابقه وتاليه ، وليس أفشل فى نقد القصة من أولئك النقاد الذين يرسمون للقصة قالباً واحداً تنصب فيه القصص جميعاً على نمط واحد ، وينفذ إليه القارئ من باب واحد . . فذلك ضرب من الحجر على العقول والملكات ينم على قريحة محجورة قد أصابها الحجر قبل أن تصيب به سواها ، ولا يفهم من ذلك أن كتابة القصة فوضى بغير نظام شامل للتأليف فى جملة منحاه ، فإن الناس يخرجون من الأرحام ألواناً وأشكالا وأرواحاً وأجساماً ، وطبائع وعادات ، ويعجز الإحصاء عن حصر ما بينهم من الفوارق والمشابهات ، ولكن قانون الحمل والولادة مفهوم معروف ، لا يحار فيه الآباء والأمهات ولا الأطباء والطبيبات ، ولا يمنعه استعصاء حصر المولودين فى قالب واحد أن يكون تناسل الأحياء قانوناً ينتظم على فطرته ولا تعرض له الفوضى فى خلية من خلايا الأجنة التى تحسب بالملايين .

* * *

وعن (المعنى) فى الكلمة يسأل السيد « محمد عبد الرؤوف » بالقاهرة .. ومن سؤاله بعد تمهيد وجيز :

. . هل المعنى بالنسبة لأى اسم من الأسماء هو (المسمى) الذى يطلق عليه هذا الاسم ؟ أو هو الصورة الذهنية لهذا المسمى؟ او إذا قلنا مثلا — سرير — فهل معنى هذه الكلمة ذلك الشيء المادى الذى نرقد عليه أو هو الصورة الذهنية له؟

والمشهور فى اصطلاح المناطقة وعلماء البلاغة أن الاسم والمعنى — كليهما — شيء منعزل عن المسمى ، موجود فى ذهن الناظر إليه .

فالاسم هو الكلمة الدالة على ذات المسمى .

والمعنى هو (ما يعنيه) القائل بتلك الكلمة .. وبعبارة أخرى هو ما يقصده حين يتكلم بها كائناً ما كان قصده .

ولهذا تختلف المعانى فى أذهان الناس والشيء واحد ، ويختلف مدلول ذلك الشيء على حسب اختلاف المقاصد عند المتكلم الواحد أو عند المتكلمين الكثيرين .

أما (الشيء المادى) الذى نذكر اسمه فهوالذى يقول عنه المناطقة إنه حقيقة المسمى أو جوهره أو يتجاوزون مادته ويقولون إنه هو صورته التى تميز وجوده المادى فيما يسمونه (هيولاه) .

وعلى قول فريق من المناطقة أننا لانرى ولا نعرف شيئاً من جواهر الأشياء إذ يقولون إن كل ما ينظر ويدرك بالحواس فهو أعراض حسية أو ظواهر محسوسة لحقيقة الشيء فى ذاته ، وهي وراء المحسوس والمعقول . .

أبو نواس والخيام *

الرياضة والخمر

قلنا فى التفرقة بين خمريات أبى نواس وخمريات عمر الخيام أن أبا نواس كان يحب الخمر لأنها شراب يسره ويلتذ طعمه ويجمعه مع طلاب السرور واللذة ، ولكن الخمر عند عمر الخيام شيء آخر لايطلبه لذاته ولا للذاته ، بل يطلبه لأنه مهرب من الحيرة التى لا حيلة له فيها ، وبديل من الحل الذى لا أمل له فى الوصول إليه .

ومثل هذا يقال عن الصراع ، أو عن الرياضة بأنواعها ، فى حياة همنجواى .

إنها ليست شيئاً مطلوباً لذاته أو للذاته ، ولكنها عمل لا مناص منه لطبيعة حيوية لا طاقة لها بالسكون والخمول ، ثم هى عمل لا مناص منه لعقل حائر لم يعرف مثله الأعلى الذى ينشده ويسعى وراءه ، ولم يكن من مزاياه سعة الآفاق ولا عمق الأغوار ، ولم يزعم هو قط أنه صاحب مزية من تلك المزايا الفكرية التى امتاز بها كبار العقول ، ولم يغالط نفسه قط فى حيرته أو فى حل من الحلول التى يلفقها الحائر لنفسه .

لم يكن له عقل كبير ولكنه ولا ريب ذو عقل صادق صريح .

ولم يعرف غاية الحياة ، ولكنه لم يبال أن يتحدى الموت .

ولم يدرس ما ينبغى ولكنه أدرك ما لا ينبغى فلم يكتف باجتنابه بل حاربه بكل قوته ولم يبخل عليه بالحياة .

واستطاع أن يجعل له شعاراً لا يحار فيه ، وشعاره هذا هو الواجب الذى ألقاه على لسان روبرت جوردان بطل رواية « لمن تدق الأجراس » حيث ألزم نفسه «الشعور بواجب محقق نحو جميع المظلومين والمضطهدين فى العالم » .

ورائده فى عمله : « إنك إن لم تستطع أن تصنع شيئاً ينفعك فقد تستطيع أن تصنع شيئاً ينفع غيرك »

---

* أخبار اليوم ٦ / ١١ / ١٩٥٤ .

وأمانة الرجل التي يستحق عليها كل تقدير أنه جهل المثل الأعلى فلم يسكت ولم يقعد ولم يعف نفسه من الجهد والمخاطرة بل راح يبحث عن العمل السلبي الذى بقي له بعد أن غابت عنه حقيقة العمل الإيجابي المنشود ، فبحث عن الجانب الذى يخذله وهو على ثقة بالصواب ، وأعتقد أن خذلان الظلم مساو لنصر العدل والخير والصلاح .

وهذا المجاهد الذى قلنا إنه لا يمتاز بالعقل الكبير قد ذهب إلى الحرب الأهلية فى أسبانيا وهو يعلم أن الفريقين معاً على خطأ وأن الجريمة المنكرة شائعة فى المعسكرين ، ولكنه أقنع نفسه بحق الجانب الضعيف من الجانبين . فنصره بقلمه وسلاحه وماله ، وحشد له من ينصرونه بالقلم والسلاح والمال.

ثم بدا له أنه منخدع فيمن ينصرهم وإن لم يكن مخدوعاً فيما ينصره ، فلم يغالط عقله وضميره ولم يتردد فى إعلان تجربته لمن يؤيدونه ولمن يخالفونه ، ونعتقد أن موقفه هذا هو الذى أرضى عنه « لجنة نوبل » واستحق عندها من أجله جائزة السلام .

إن لجنة نوبل تعادى الشيوعية ولا تدارى معاداتها ، وهمنجواى لم يكن يوماً من الأيام شيوعيًّا ولا مؤمناً بمذهب من المذاهب الاجتماعية إلى اليسار أو إلى اليمين ، ولكنه كان ضد الفاشيين ولم يكن نصيراً للشيوعيين ، فلما نضجت تجاربه فى الحرب الأسبانية الأهلية أصبح كذلك ضد الشيوعيين ، أو ضد فلان وفلان من دعاة هذا المذهب الذى يجهله كما يجهل كل مذهب غيره ، فهو فى هذه المرحلة أقرب ما يكون إلى مقاييس اللجنة السويدية ، ومقياسها الأكبر ألا تجيز أحداً من دعاة الهدم والإنكار ، فليس فى الذين أجازتهم قديماً وحديثاً أحد ينكر كل شيء ويجحد العاطفة الإنسانية فى العلاقات بين بنى الإنسان .

كان همنجواى من جيل من الكتاب يسمى « الجيل المفقود » لأنه يتيه فى بيداء الحيرة على غير هدى ، فمضى فى تجاربه حتى قيل عنه إنه وجد نفسه ، ووجد أن الحياة جديرة بأن يحياها ، وأن الموت أيضاً جدير بأن يتحداه ، وقد يكون جديراً بأن يطلبه كلما وجب تحديه ، أنفة من حياة الدعة والوجوم والاستسلام .

وقد أحسن ناقد الأمريكيين « ادموند ويلسون » حين قاس همنجواى بمقياس بوردن فى الطبيعة : إن الأنبوبة الملتوية تعتدل كلما اشتد الضغط على السائل الذى تحتويه .

وهكذا كان ظاهر همنجواى يعتدل كلما اشتد الضغط على باطنه ، وظاهره لحسن حظه قابل لتطبيق هذا المقياس عليه ، فليس وراءه عمق بعيد .

* * *

الجمهور المظلوم

أما التجربة التى تعنينا فى عالم الأدب فهى تجربته الوافية فى استقلال القلم أمام النقاد والناشرين والجمهور .

فلا يوجد فى أعلام الأدب العصرى كاتب واحد يثبت ضلال التفكير بالأمر وعلى حسب الطلب كما أثبته همنجواى .

كان يكتب ما يمليه عليه خاطره ويصف النعيم والشقاء وهو لا يعنى بوصف هذا أو ذاك تأييد مذهب من مذاهب الاجتماع أو تنفير القراء منه وتحويلهم إلى رأى من الآراء كائناً ما كان .

فلما ألح عليه النقاد والناشرون ليدخل هذه الدعوات فى حسابه ، مال إليهم دون أن يتورط فى دعوة مصطنعة باسم الإصلاح وألف قصة فى « المجدودين والمحرومين » أو فيمن عندهم ومن ليس عندهم .. فاغتبط به اليساريون وقرظوه ، ومجدوه وسقطت القصة إلى الحضيض فلم يبلغ أثر من آثاره مبلغها من السخف والابتذال .

وظلم النقاد والناشرون جمهورهم القارئ الذى يتهمونه بأخطائهم ويحتكرون المعرفة به على جهلهم بما يطلبه منهم وجهلهم قبل ذلك بصناعتهم ، ونشط الكاتب الأمين من عثرته حين استوحى من قريحته ما يطلبه منه الجمهور المظلوم .

وشهادتنا نحن لله وللجمهور الذى عرفناه بعد خمسين أو ستين كتاباً ألفناه أن هذا الجمهور المظلوم لم يرض عن كتاب قط كما رضى عن الكتب التى يقول النقاد والناشرون إنها ليست من كتب الجمهور .

الفكاهة فى شعر أدباء المهجر*

وزن وعدد

سؤالان عن الوزن والعدد فى أمر الشعر والشعراء ، وصلا إلىّ تعقيباً على مقال الأسبوع الماضى عن أدباء المهجر ، أحدهما من كاتب لم يذكر اسمه ووقع خطابه بإمضاء « مجدد متحرر » ينعى فيه على العرب أنهم لم يجددوا شيئاً فى أوزان شعرهم قبل اتصالهم بالقارة الأوربية فى الأندلس ، ثم اتصالهم بالعالم الجديد فى الأمريكتين الشمالية والجنوبية .

والخطاب الآخر من «أحمد فهمى يوسف» يسأل فيه عن الشعراء الذين لم يذكرهم الأستاذ «عبد الغنى حسن » فيما اختاره لشعراء المهجر ، ويقترح الكتابة عن منزلتهم من الشعر والأدب ومدرسة التجديد فى الآداب العربية .

* * *

أما المجدد المتحرر فإنه لم ينصف الآداب العربية حين نعى على الشعر العربى جمود أوزانه ، وأن شعراء العربية لم يجددوا شيئاً فى أوزان قصائدهم إلا بعد الاتصال بالبلاد الأوربية والأمريكية .

فالحقيقة أن أكبر تجديد فى أوزان الشعر العربى قد تم فى الجزيرة العربية فظهرت فيه أوزان غير الأوزان التى نظم فيها شعراء المعلقات ، وكانت بحور القصائد التى سميت بالمعلقات لا تزيد على ثلاثة أو أربعة ، فما زالت حتى بلغ عددها ستة عشر بحراً بين الجاهلية وصدر الإسلام ، ويغلب على الظن أن هذه الزيادات حدثت « أولا » فى مجالس الغناء بالمدينة والحيرة : لإنشاد الشعر وتوقيعه على نغمات الآلات وحركات الرقص فى البيوت والقصور ، ثم شاعت وتفرعت وأضاف إليها كل عصر وزناً جديداً للإنشاد والإيقاع .

وقد يظن أن بعض الأوزان التى نشأت فى قصور الحيرة مقتبسة من الحضارة

---

* أخبار اليوم ١٩ / ٣ / ١٩٥٥ .

الفارسية التى كان أمراء الحيرة يستعيرونها فى حياة القصور ويقتدون بها بالشاهات والأكاسرة ، ولكن الأرجح أن الفرس هم الذين اقتبسوا الأوزان العربية ولم يتصرفوا فيها بغير ما أضافوه إليها من أوزان « المثنوى » أو الدوبيت ؛ وقصائدهم المحفوظة تدل على وحدة الأوزان بعد الإسلام على الخصوص .

أما الاقتباس من بلاد الإسبان ، فالصحيح فيه كذلك أن الأوربيين الجنوبيين جميعاً هم الذين اقتبسوا من العرب وظهرت بينهم طائفة الشعراء الجوالين المعروفين باسم التروبادور Troubadour فى القرن الحادى عشر وما يليه ، ولم تظهر فى غير البلاد التى اتصلت بالحضارة الأندلسية من فرنسا الجنوبية إلى إيطاليا الشمالية ، وكانت قصائدهم تنتهى فى أكثر الأحوال بختام كختام ألف ليلة وليلة « حيث يسكت العاشقان فى الصباح عند طلوع الصباح » .

ويحسن بالأديب « المجدد المتحرر » أن يذكر أن أوزان الموشحات لم تنشأ فى الأندلس أول الأمر ؛ بل نشأت فى المشرق ورويت فيها قصائد لابن المعتز غير قصائد التسميط ومجزوءات الأبحر الطوال التى هى فى لبابها ضرب من التوشيح .

فإذا كان هناك تجديد فى أوزان الشعر فالمرجع فيه إلى تجديد البيئة سواء فى البلاد العربية أو فى غيرها ، وليس من اللازم أن يكون ذلك التجديد اتصالا بالأمم الغربية أو اختلاطاً بأمم العالم الجديد .

ولكن هذا القول لا يصدق على العصر الحديث كما يصدق على العصر القديم ، فإن شعراء المهجر لم يستفيدوا من أوزان الشعر الأمريكى فى قصائدهم ولا فى توقيع غنائهم . ولا يزال اعتمادهم فى هذا الباب على الشرق العربى الذى بدأ بالتصرف فى الأوزان قبل استقرار المهاجرين بالديار الأمريكية ، وهم — حتى اليوم — يطلبون « الأسطوانات » الغنائية من مصر والشام والعراق ، ولا يعرفون لهم مغنين أو مغنيات أحب إليهم من أعلام الغناء بين وادى النيل ووادى النهرين .

المنسيون المذكورون

أما السؤال عن عدد الشعراء المنسيين الذين يستحقون الذكر ؛ فالجواب عنه يحتاج إلى كتاب كبير فى مثل صفحات الكتاب الذى ألفه الأستاذ عبد الغنى حسن

أو يزيد ، لأن المنسيين أوفر عدداً ولا يقلون محصولا عن الشعراء الذين ذكروا فى ذلك الكتاب .

ولكننا نذكرهم مع الذين ذكرهم زملاؤهم فى معارض التنويه بفضلهم جميعاً، ونكتفى باليسير من نماذج الشعر التى تدل عليهم وندع استيفاء الترجمة والاختيار لكتاب يتوافر على تأليفه أديب فاضل من المعنيين بالأدب العربى حيث كان .

كتب « البدوى الملثم » إلى مجلة المواهب التى تصدر فى الأرجنتين ، يشيد بجهاد الشعراء الغيورين على العربية فأثنى على تلك الصدور والحناجر «التى استطاعت بإيمانها وإخلاصها أن تربط الماضى بالحاضر والشرق بالغرب وتحقق أندلس جديدة وتفتح آفاقاً فى أذهان الفرنجة » . . ثم قال : « إذا كان للشعر أعمار كأعمار الناس فإن الشعر المهجرى لهو أطولها عمراً لأنه غنى بآمال الأمة عند مطلع هذا القرن وما زال يغنيها حتى اليوم ، لأنه كان زيتاً فى مصباح الأمة بل دماً حاراً قوياً دافقاً فى عروقها . ومن كالقروى وفرحات والمعلوف وصيدح وميشيل مغربى ويوسف فاخورى ونصر سمعان وموسى حداد وشكر الله الجبر ووحيد شاوريه ويوسف الصارمى ، وغيرهم حملة المشاعل قد غنى أمته وبلاده بإيمان وإخلاص وصدق عقيدة ؟ »

وزار الشاعر القروى أمريكا الشمالية ونزل بولاية تكساس فكتب عن شعرائها وأدبائها يقول : « ماذا أحدثك عن إخوان الأدب الذين تكلف بعضهم مشقة زيارتى من ألوف الكيلو مترات كمعلمى الشاعر الشيخ قيصر وحيد وصديقى العربيين الصميمين راجى ظاهر صاحب البيان والكاتب المفكر حنا نصر . أما الأديب الذى أبقى فى نفسى أعظم وأجمل أثر فصبغ لى سماء تكساس بألوان قوس قزح وفرش أديمها بالرياحين ، فهو والحق يقال أبو الأدباء وأخوهم الأبر الطبيب الشاعر سليمان داود من وادى التيم . . وقد حالت ظروف قاهرة دون سياحة طويلة فى سائر الولايات . . فعدت آسفاً لحرمانى التعرف الشخصى إلى بعض أعلام الأدب الذين لم ينقطع معظمهم عن مراسلتى ولا سيما جار الوطن العزيز الشاعر نعمة الحاج » .

وكثيراً ما أقرأ فى الصحف التى أتلقاها من المهجرين أسماء شعراء ، كعبد اللطيف الخشن ومحمود صالح وجورج الكعدى ويوسف صارمى وقاسم عبد الله ومحمود صارمى

وزكى قنصل وطائفة من أدباء الشعر المنثور ، ممن ترحب بهم المجاميع المختارة كما رحبت مجموعة الأستاذ عبد الغنى حسن بمن ترجم لهم من أفاضل الشعراء .

نماذج متفرقة

والاستيفاء كما قدمنا غير ميسور ؛ ولكن النماذج المتفرقة تدل على الكثير مما يضارع هذا القليل المختار .

فمن شعرائهم من يستخدم الجناس والتصحيف فى معرض الفكاهة كما قال عبد اللطيف الخشن لصديقه جورج صيدح :

محوت نقطة « خانى » كى أصدقكم وصار « شينى » سين السيد الحسن
كأن وجهك قرص الشهد نلعقه وصلعة الرأس تحكى طاسة اللبن

ومن الفكاهة السائغة جواب صيدح فى وصف وليمة لعبد اللطيف :

عبد اللطيف صديق صادق الجود فليس يكذب إلا فى المواعيد
إنى أثمت بظنى أن دعوته كبيضة الديك شىء غير معهود
حتى أتانى ببرهان على كرم فى داره عربى فى التقاليد
تستملح الملح منه والعجين ولا ترضى بفالوذج من كف داود

ومن شعر التفاؤل الحسن قول محمود صالح :

دنيا من النور أجلوها وأرشفها رشف الضياء دموع الورد والزهر
للحب ، للنور ، للريحان عاطفتى وللخيال الذى يهفو مع السحر
وللجمال الذى فى القلب صورته وللصلاح صلاح الرأى والنظر
أفقى ونجمى وأحلامى وأخيلتى كون من النور ما أبهاه فى بصرى
لا الليل فى عالمى أرخى ستائره يوماً وما لبنات الوهم من أثر

ومثله فى التفاؤل قول جورج الكعدى :

طاردينى فى غربتى يا رزايا واهجمى هجمة تهد قوايا
ففؤادى او تعلمين حديد صهرت حسنه « صنوف » البلايا
هو أقوى من الهموم وأسمى من حقود تجتاح هذى البرايا

ومن شعر يوسف صارمى يخاطب «المتدينين بغير دين» :

أشكو إليكم سوء أفعالكم ... يا معشر الناس فهل تسمعون
قد كنت فى صدر الصبا « مؤمناً » ... بأنكم نحو العلا « صاعدون »
وأنكم لابد أن تبلغوا ... بجدكم فوق الذى تبتغون
أما وقد قوض تمدينكم ... إيمانكم واجتاح ما تبتنون
وصرتم كالذئب فى غدره ... همكم الأول ما تفرسون
فالآن مزقت يقينى لا بكم ... وصرت فيكم أول الكافرين

ومما نظموه فى قضية فلسطين قصيدة أنشدها الأديب قاسم عبد الله فى الاحتفال بتكريم الأديب الأرجنتينى الكبير «أمريكو باريوس» ولم يفته فى هذا المقام أن يؤلب العرب وغير العرب فى المهجر لنصرة هذه القضية الإنسانية :

هبت على فئة التهود ثورة ... سكنت لهيباً ، جمرها لم يخمد
لا تحتسب صهيون أن خيامكم ... تبقى على أرض المسيح وأحمد
وطناً زعمتم أن يطول بقاؤه ... خسئت مطامع تائه متشرد

* * *

وهذه النماذج ونظائرها من طبقة الشعر المهجرى فى محاسنه ومآخذه وما يبقى منه وما ليس بمقدور له البقاء ، وحقه فى النشر بين قراء العربية جميعاً كحق ما نشر منه فى الدواوين والمختارات ، فعسى أن تلحق المجموعة التالية بالمجموعة السابقة فى وقت قريب .

أدباء العربية فى العالم الجديد *

نحو عشرين شاعراً عربياً فى الأمريكتين الشمالية والجنوبية ، هاجروا من بلادهم فى أوائل هذا القرن ، وأقاموا زمناً فى العالم الجديد بين أناس يتكلمون كل لغة على وجه الأرض غير اللغة العربية ، فحافظوا على لغتهم ونظموا فيها الشعر الجيد وأقاموا لهم نهضة أدبية تقترن فى تاريخ الأدب بالنهضات المعدودة فى بلاد العروبة قديمها وحديثها .

وجاء الأديب المصرى الأستاذ محمد عبد الغنى حسن فأدى لهم وللأدب العربى واجب الوفاء والتقدير ، فاختار نخبة من قصائدهم ومقطوعاتهم وأحسن الاختيار لكل شاعر فيما يمثله ويميزه بين زملائه ، وقدم لهذه المختارات بفصول موجزة عن الهجرة وموضوعات النظم فى المهجر وعوامل التجديد والمناضلة بين القديم والحديث عند كل طائفة من شعراء الشمال أو الجنوب ، فيسر للقارئ مشقة التعريف بهم على اختلاف المواطن والمراجع .

وظهرت المجموعة باسم «الشعر العربى فى المهجر» مصدرة بدراسة تاريخية للشاعر المجيد الأستاذ عزيز أباظة ، ألم فيها إلماماً وجيزاً بنشأة الشعر عند العرب عامة ، ثم استطرد إلى شعر المهجر خاصة فلاحظ عليه ما لاحظ من دواعى الاستحسان أو المؤاخذة ، وعلل المحاسن كما علل العيوب بما ارتآه من وجوه التعليل ، وختم دراسته قائلا : «إن شعراء المهجر — مع تقديرى البالغ لكثير منهم — لم يفتحوا آفاقاً جديدة فى الفن عجز عن الصعود إليها إخوانهم فى لبنان ، وإن الأدب المهجرى لم يتبلور بعد ولم يتخذ له صورة واضحة المعالم، بحيث يفرد له أثر بعيد المدى فى تطور الأدب العربى المعاصر . . »

وهذا رأى يوافقه كثيرون ويخالفه كثيرون ، ونحن على الجملة من المخالفين .

* * *

* أخبار اليوم ١٢ / ٣ / ١٩٥٥ .

متفرقات

والكتاب بطبيعته مختارات متفرقة ، فنحن نتناول التعقيب عليه فى ملاحظات متفرقة، مجاراة لطبيعة الكتاب ، ومراعاة للمقام وحباً للإيجاز ، لأن الإفاضة فى الدراسات التاريخية والأدبية والنفسية وما إليها من الدراسات التى تمليها موضوعات الكتاب — لا تستوفيها المقالات ولا غنى فيها عن المطولات .

* * *

عصر التجديد

وأول ما نلاحظ على المقدمة رأى الشاعر المجيد فى عصر التجديد بين الأقطار العربية ، فنحن نرى أن هذا العصر متقارب بين تلك الأقطار وأن ابتداءه فى مصر يسبق ابتداءه فى سائرها بعض الأحيان .

يقول الأستاذ : « بدأت طلائع التجديد تغزو لبنان وتفتح فيه آفاقاً رحيبة للفكر والفن . ذلك أن لبنان كان أسبق الدول العربية إلى الاتصال باللغة الفرنسية، كما كان للإرساليات المسيحية فضل تغذية الأذهان بصنوف من العلوم والفنون » .

والتاريخ يخالف هذا كل المخالفة ، لأن اتصال مصر بالحملة الفرنسية سابق لكل اتصال بفرنسا الحديثة ، والطلبة المبعوثون إلى فرنسا من مصر تعلموا هناك قبل أن تصل إلى فرنسا بعوث المتعلمين من الشرق العربى ، وحركة الترجمة قد بدأت فى مصر قبيل منتصف القرن التاسع عشر وبدأت فى لبنان بعد ذلك بنحو عشرين سنة ، وأما أدباء « الإحياء » — ونعنى به إحياء القديم والاستعداد للجديد فهم متقاربون فى النشأة كما يظهر من تراجم رفاعة الطهطاوى وبطرس كرامة وعبد الله فكرى وسامى البارودى وعبدالله نديم وأسرة اليازجى والبستانى وسائر أبناء هذه الطبقة من رواد نهضة الإحياء

* * *

الثورة الدينية فى العالم الجديد

ومما نلاحظ على المقدمة كذلك أن الأديب الفاضل كرر فى غير موضع أن شعراء المهجر تمردوا على الدين اقتداء بشعراء القارة الأمريكية ، وقال بعد استطراد فى

هذا المعنى : « إن كثيراً من شعراء الغرب لا ينظرون إلى الأديان نظرة ملؤها القدسية والاحترام ، فكذلك نرى شعراء المهجر لا يأبهون بتعاليم الدين » .

والواقع أن جو المهجر كله كان ولم يزل إلى التشدد فى المحافظة أقرب منه إلى التمرد والإنكار ، فلا يزال بعض الجامعات هناك تحرم تدريس مذهب دروين ومذاهب الاقتصاد المادية ، ولا نزال نذكر ثورة القوم على الفيلسوف الإنجليزى برتراند رسل لما أبداه من رأى فى مسألة الزواج بين الطلاب ، ولم ننس قبلها ثورتهم على مكسيم جوركى لأنه كان يسيح مع خليلته فى الديار الأمريكية ، وأنهم مع هذا قد كانوا يعطفون على الثائرين الروس ويقاومون سياسة القياصرة فى الشرق الأقصى ، وهذا شاعرهم فى العصر الحاضر — إليوت — عميد من عمداء حركة الكثلكة الجديدة فى البلاد الإنجليزية ، وقديماً كانت بلاد المهجر من قبل الحرب الأهلية إلى ما بعدها تستمع إلى أصوات «الدينيين الحماسيين» قبل سائر الأصوات ، فمنذ حملة وليام رسل سميث إلى حملة جاكوب ليسلر Leisler وجون كود Coode إلى حملة تيموثى بكرنج Pickering لم يسمع صوت أقوى فى أرض المهجر من أصوات المحافظين المتشددين ، وقد كان بعضهم يشمل بحملته كل جماعة مشكوك فى مقاصدها الدينية كالماسون وأصحاب النحل السرية ، ولا شك أن الحرية الفكرية تجرى فى مجراها بين هذه الحملات المحافظة ، ولكنها على أقواها وأشدها لا تسوغ القول بغلبة الإنكار على التدين والإيمان .

ونحن نعتقد أن ثورة الأدباء المهجريين بدأت فى لبنان ، وأنها ثورة على السلطة التقليدية وليست ثورة على العقيدة فى جوهرها ، لأن حوادث سنة ١٨٦٠ قد انتهت بتقرير الحقوق الطائفية المعلومة ، وأسند تنفيذ هذه الحقوق إلى رؤسا الطائفة بطبيعة الحال ، فاجتمعت فى أيديهم سلطة سياسية وحكومية نافذة إلى جانب السلطة الدينية والكهنوتية ، وشق احتمال هذه السلطة على الجيل الجديد فتمردوا عليها وظهر ذلك فى قصص الكتاب وقصائد الشعراء ، فكان أكثر ما فيها ثورة على تقاليد المجتمع فى صميم لبنان ، وفضل اللبنانيين فى ذلك لا يحتاج إلى مدد من الخارج يعزى إلى العالم القديم أو العالم الجديد ، وبخاصة حين نعلم أن القائمين بالتعليم الحديث فى المدارس اللبنانية كانوا هم أنفسهم من رجال الدين ، وكان فريق منهم رهباناً أو مبشرين .

بين الفلسفة والشعر والدين

والأستاذ عزيز على حق حين لاحظ شيوع التساؤل عن حقائق الوجود وعما وراء الطبيعة فى أشعار المهجريين، وعلى حق حين قال: «إن تلك الأشعار يوشك أن تنقلب شعراً فلسفياً ميتافيزقياً ! » كما سماه .

إلا أن هذا التساؤل طبيعى من أناس فى مثل نشأتهم وثقافتهم وأطوار اعتقادهم وتقلبات حياتهم ، ويصح أن توازنه حقائق أخرى تحسب فى موازينهم ولا تنقص منها ، وإحدى هذه الحقائق أنهم قد انتهوا جميعاً من تساؤلهم إلى سماحة الدين ونبذ العصبية الذميمة ، فكان منهم كما لاحظ الأستاذ عبد الغنى حسن من يفخر بعروبة النبى محمد عليه السلام وهو مسيحى كما قال محبوب الشرتونى :

ومحمـــد بطل البرية كلهـــا هو للأعارب أجمعين إمـــام

أو كما قال رياض المعلوف :

يا رسول الأنـــام أنت وعيسى خير من يصطفى ويرجى ويقصد
وكفى العرب فخـــرهم بانتســـاب لنبى هو النبى محمد

وكما قال رشيد أيوب :

فمن يا ترى أعلى الورى كمحمـــد وأرفعهم مجداً وأسمى مناقبا

وكما قال الشاعر القروى عن العروبة جمعاء :

أو يستحى بأبيـــه من دمـــه دم شاعـــر وخليفة ونبى

وتلك « الميتافيزيقا » يوازنها ويزيد عليها أنها ليست باب الحكمة الوحيد الذى سلكه الشعراء المهجريون، فإنهم إلى جانب حكمة الميتافيزيقا قد نظموا فى حكمة الحياة فاجتمعت لهم من هذه الحكمة ذخيرة لا نظير لها فى بيئة أخرى من بيئات الشعر العربى الحديث ، وما أكثر ما تقرأ فى قصائدهم حكمة كحكمة أبى ماضى فى قصيدة ابتسم :

قال : السماء كـــئيبة وتجهمـــا قلت : ابتسم يكفى التجهم فى السما
قال : الصبـــا ولى فقلت له ابتسم لن يرجع الأسف الصبا المتصرما
قال : التى كانت سمائى فى الهـــوى صارت لنفسى فى الغرام جهنما

خانت عهودى بعد ما ملكتها قلبى ، فكيف أطيق أن أتبسما
قلت : ابتسم واطرب فلو قارنتها قضيت عمرك كله متألما

وما أكثر ما تقرأ فى تلك القصائد حكمة كحكمة نعيمه إذ يقول :

حدثينى عن القلوب التى كا نت قلوباً واليوم صارت ترابا
كيف كانت بالأمس تملى ولا تحـ ـسب للموت فى الحياة حسابا
نابضات حبًّا وبغضاً وإيما ناً وشكًّا ، وراجيات ثوابا
ها أنا ألمس التراب فلا ألمـ ـس همًّا أو غبطة أو عذابا

أو حكمة كحكمة نسيب عريضة فى قوله :

أخذت نفسى إلى طبيبى وقلت : يا طب ما العلاج
فراح يأسو سقام جسمى ويحسب الداء فى المزاج
فقلت يا صاح جف زيتى فباطلا تجبر السراج
إذا خبا النور فى الدرارى فما ترى ينفع الزجاج

على أن الرسالة التى توازن خير الرسالات الأدبية فى أشعار المهجريين أن أدبهم أدب الإيمان بالحياة والصبر على الشدة والإقدام بالعزيمة الصادقة على الكوارث والأخطار ، فكلهم فى كلامه وفى عمله قدوة نبيلة لهؤلاء المتأنثين من أدعياء الجيل الجديد الذين يحسبون أنهم خلقوا فى دنياهم ولا صناعة لهذه الدنيا غير أن تدللهم وتحمل الملعقة الذهبية إلى حلوقهم وتعفيهم من السعى والمثابرة والجهد ، وتكرار الجهد ، فى سبيل العيش وفى سبيل المجد ، وإلا فلا تسمع منهم غير الصياح والشكاية والتجنى على الخلق والخالق واتهام كل أحد وكل شىء غير أنفسهم ، وهى أحق بالاتهام .

رسالة نبيلة يؤديها الشعر حين يقول بلسان الشرتونى وقد احترق كل ما كسب بجهده وسعيه فى طوال السنين :

حلم جميل من ذهب ما زارنى حتى ذهب
أمسيت ذا نشب وقد طلع الصباح ولا نشب
يا نفس لا تتوجعى أخذ المهيمن ما وهب

و رسالة نبيلة مثلها قول إلياس فرحات :

أقول لنفسى كلما عضهـا الأسى ... فآلمها : صبراً فنى الصبر مكسب
لئن كان صعباً حملك الهـم والأذى ... فحملك منّ الناس لاشكأصعب

وحكمة مثلها قول رشيد أيوب :

أقلب طرفى برحب الفضـا ... وأمضى جزينا إلى مرقدى
أقول وأمسى خـان العهو ... د ويومى كأمسى : لعل غدى
فيا دهر إن أشك لا تغتـرر ... فـا أنا فى موقف المجتدى

وحكمة مثلها قول نعيمه :

سقف بيـتى حـديـد ... ركـن بيـتى حجر
فاعصـفى يا ريـاح ... وانتحـب يا شجـر
واسبحـى يـا غيـوم ... واهطـلى بالمطـر
واقصـفى يـا رعـود ... لست أخشى الخطر
سقف بيـتى حـديـد ... ركـن بيـتى حجر

وهكذا يؤدى الشعر الصادق المستمد من وقائع الدنيا ومن ينابيع الحكمة الخالدة رسالة من أرفع وأنفع رسالات الفنون .

* * *

فى معايير الأدب

ونعود إلى تقويم هذا الشعر بمعايير الأدب الخالص فنحسب ! بين الآداب العربية قيمة أعلى من القيمة التى سمح بها صديقنا الأستاذ عزيز حيث يقول : « إن شعراء المهجر لم يفتحوا آفاقاً جديدة . . . وإن الأدب المهجرى لم يتبلور بعد . . . »

ولست أحب أن نرجع إلى المعايير النظرية وعندنا معايير للحساب والحس مستعدة للتلبية ، إذا سألناها الحكم فى هذا الخلاف !

إن هذا الأدب المهجرى ثمرة أربعين سنة على الأكثر ، وعلينا أن نضعه أمام أربعين سنة تقابلها فى ميادين الآداب العربية ، فهل يخسر الأدب المهجرى بهذه

المقابلة ؟ وهل يخسر كثيراً إن كانت هناك خسارة على تقدير بعض النقاد ؟

بحكم الحساب الذى قلنا إنه أعدل الأحكام لا نرى أن أدب المهجر يخرج من المقابلة بصفقة خاسرة ، فإن عدد المجيدين من شعرائه وكتابه لا يقل عن عدد نظرائهم فى بيئة تضارعها ، وهذا مع الفارق بين أناس تؤاتيهم الأسباب فى مواطن اللغة وأناس يحملون مشعل اللغة إلى سماء لا يضار فيها بغير ما يضعونه من عصارة القريحة وعتاد الرزق وفروض الحياة .

بل هذا مع اكتفاء الأستاذ عبد الغنى مؤلف الكتاب بأقل من نصف الشعراء المعروفين فى الأمريكتين ، ولعله لم يكتب عن الآخرين ولم يقتبس من قصائدهم لقلة المراجع التى تحتوى ما نظموه ، وما كتبوه ، فإن الكثيرين منهم لم تطبع لهم دواوين .

وإذا تركنا حساب العدد إلى حساب القيمة الفنية فلا أحسبنى أغالى إذا قلت : إننى قرأت لشعراء المهجر شعراً يوضع إلى جانب الطراز المختار من شعر اللغة كلها ، ولا سيما فى القصائد الغنائية قصائد الغزل والحنين والأمثال السائرة .

ولا يتسع المقام هنا للاستقصاء فى نقل الشواهد والأمثلة ، ولكن الشاعر القروى يقول حين أراد أن يعانق جمال الكون كله فأعياه أن يحيط به وقنع بتمثيله فى شىء واحد يضمه :

من لنفس تود لو تغمــر الــكو ن هياما بحسنــه المعبــود
مثلوا لى هذا الوجــود بشىء أنا لا أستطيع ضم الوجود

فعلى هذا النحو نمثل لشعر المهجر بمثل مختصر فى بيتين يدلان على منهجه كله ، وهما من قصيدة لإلياس فرحات يصف فيها راهبة تصلى فيقول :

تصــلى فتحسبهــا دميــة من العاج ساجدة للدمى
وتلثم تلك الدمى فى خشــو ع فيوشكن يلثمنها من جوى

الراهبة الحسناء تصلى فى محراب الدمى فتحسبها دمية مثلها لجمالها واعتدالها ، وتكاد أن تبعث الحياة فى دمى العاج فتهم بلثمها .

هذه الروح « الفنية القدسية » هى روح أدب المهجر كله من شماله إلى

جنوبه ، فما خلا قط من نظرة إلى الجمال وما خلا قط من نظرة إلى القداسة ولسنا نزعم أننا واجدون فى كل قصيدة أبياتاً كهذين البيتين ، ولكننا نزعم ولا نغلو فى الزعم إذ نقول إننا نعانق محاسن الأدب المهجرى كله فى محاسن كهذه التى تعجبنا من هذين البيتين .

* * *

والمآخذ . . .

ولا نعنى أننا نبرئ شعر المهجر من العيوب ، فما كان لأدب إنسانى قط أن يبرأ من عيوب تلازم حسناته فى كل لغة من اللغات .

فضعف الأسلوب من عيوبه التى قل أن يسلم منها شاعر من شعرائه المجيدين أو المتخلفين ، ولكنه ضعف لا يختص به فى العصر الحاضر ، ولا يزيد كثيراً على الملحوظ من قبيله فى قصائد الشعراء المقيمين غير المهاجرين .

ونحب هنا أيضاً أن نتكلم بلسان الحساب أو ما يشبه الحساب ، فنذكر بعض الأمثلة لما ننتقده ،ونتبعها بما نقترحه من تعديل لها فى رأينا ، والحكم بعد ذلك لمن يحكمون

يقول أبو ماضى :

أحسن وإن لم تجــز حتى بالثنا   أى الجزاء الغيث يبغى إن همى

من ذا يــكافئ زهــرة فواحة   أو من يثيب البلبل المترنما

أليس أصلح من ذاك أن يقال :

أحسن وإن لم يحمــدوا لك نعمــة   من ذا يجازى الغيث يوماً إن همى

ويقول نعيمه :

أخى ! قد تم ما لو لم نشأه نحن ما تما

وقد عم البلاء ولو أردنا نحن ما عما

فلا تندب فأذن الغير لا تصغى لشكوانا

أليس أصلح من ذاك أن يقال :

فلا تندب فما فى الناس من يصغى لشكوانا

ويقول نعيمه أيضاً :

باب قلبى حصين من صنوف الكدر

فاهجموا يا هموم فى المسا والسحر

وازحفى يا نحوس بالشقا والضجر

أليس أصلح من ذاك أن يقال :

فاهجمى يا هموم فى الدجى والسحر

وازحفى يا نحوس بالأسى والضجر

ويكفى هذا لأننا لم نرد غير التمثيل بشاهد — كما قلنا — يشبه شواهد الحساب ، وعلم الله ما ندعى بذلك أننا نحسن ما لا يحسنون ، بل غاية ما ندعيه أننا نستطيع أن نشفع النقد بالدليل وهو فى وسع كل من يطالب نفسه بالحجة قبل أن يلزم بها سواه .

ويمتاز شعر المهجر بالشعور الصادق والحس المباشر والبديهة التى تحكى الفطرة المستقيمة فى بساطتها السلفية ، ولكنه لا يمتاز بالخيال المحلق أو الخيال المصور الذى يخلق للأشياء صورتها التى تلائمها ويجعلها ، إذا ألقى القول على لسانها ، متحدثة بما ينبغى أن يصدر عنها .

فجبران — مثلا — يقول على لسان الساقية :

ما الحياة بالهناء إنما العيش نزوع ومرام

ما الممات بالفناء إنما الموت قنوط وسقام

ما الحكيم بالكلام بل بسر ينطوى تحت الكلام

إلى آخر هذا الحديث المنسوب إلى الساقية ، فلماذا تقول الساقية هذا ولا تقوله الشجرة أو يقوله الجبل أو يقوله الطائر أو تقوله النسمة العابرة ؟

إن الخيال المصور هو الذى يخلق المقال لقائله فلا يلائم قائلا غيره ، وليس للساقية صورة خاصة تفردها بهذه الآراء والأحكام بين عامة الأشياء .

وبعد . . .

نعم . وبعد النظر فى الكفتين ماذا يقول الناقد العربى أو يقول الناقد الأدبى غير مأخوذ فى حكمه بالعصبية العربية ؟

يقول ، ولا جدال ، إن الرجحان فى جانب الحسنات ، وإن أدب المهجر مفخرة للعربية جديرة بالإعجاب والإجلال .

شكسبير .. ليس من الكماليات *
ابن الرومى . . فى جدول التسلية فى شهر رمضان

ماذا نترجم ؟

لما أعلن أن الدكتور طه حسين يتولى ترجمة الكتب الأوربية التى تفيد قراء اللغة العربية وتجمع أشتات الثقافة الإنسانية — سئلت عن الكتب التى ينبغى أن تترجم فذكرت فى مقدمتها روايات شكسبير ومراجع الفلسفة اليونانية وموسوعات التاريخ الشرقى التى لم تنقل إلى لغتنا ولايزال الكثير منها محجوباً عن قراء العربية فى لغاته المتعددة ، ومنها الألمانية والفرنسية والإنجليزية والإسبانية .

* * *

وقلت لمن سألنى : إن هذا المشروع ينبغى أن يعوض النقص فى المشروعات التجارية . فإن الناشر الذى يقيم عمله على التجارة معذور ، إذا هو تخطى الكتب التى ترهقه بتكاليفها وانتظار تصريفها ، وقد يطول هذا الانتظار سنوات بعد سنوات ، وليس المقصود بالمشروع الثقافى أن يزحم التجار والناشرين ولكنه مقصود للقيام بالعمل الذى لا يستطيعونه ولا يربحون منه ما يزيد على نفقات الترجمة والطبع والتوزيع .

واللغة العربية هى اللغة الوحيدة التى لاتزال بين اللغات الكبرى خلواً من مراجع الفلسفة الأولى وأمهات الكتب الفنية والأدبية ، وهى مع هذا أحق تلك اللغات باستيعابها جميعاً ولا سيما مراجع الفلسفة الأولى التى قدمتها للعالم الشرقى والغربى لأول مرة فى التاريخ على أحسن صورة أمكن تقديمها بها فى زمانها . فإذا سنحت الفرصة لاستدراك هذا القصور وجب انتهازها ، وعيب علينا أن نضيعها ولا نفهمها ، وهذه الفرصة سانحة للجامعة العربية . . أحق الهيئات أن تحفظ للعروبة سمعتها وتوفر لها ذخائرها وتتم لها ما فات غيرها

* * *

---

* أخبار اليوم ٢١ / ٥ / ١٩٥٥ .

نزاع فى غير منزع

ثم قرأنا بعد ذلك مناقشات المختلفين على اختيار الكتب الحقيقة بالترجمة دون أن يكتبوا لنا اسم كتاب واحد أو طائفة من الكتب يفضلونها ويعتقدون أنها أصلح للترجمة من سواها .

وعدنا نسمع عن الترتيب وعن التقديم والتأخير بين الكماليات والضروريات وبين العمليات والأدبيات ، وسيقت الطبيعة المسكينة إلى ساحة الجدل لتؤدى شهادتها فى الموضوع ، وهى — كان الله فى عونها — قد فرغت من أدائها منذ عشرة ملايين من السنين على أقل تقدير .

فالطبيعة منذ اختارت أن تخرج الزهرة أو النوارة على الشجرة قبل الحبوب والثمرات قد قالت لمن يريد أن يسمع إنها تفهم الكماليات والضروريات على وجه غير الذى يفهمه أصحابنا « الضروريون » فى العصور الحديثة ، ولم يكن فى ترتيبها هذا استثناء حتى لشجرة الفول وشجرة اللبخ ذات الظلال والفروع والأصول .

* * *

كلا . ليس هكذا

والمسألة بعد ليست مسألة المفاضلة بين العلميات والأدبيات أو بين الكماليات والضروريات ، ولكنها مسألة الموضوع المناسب ومقدار الحاجة إليه أو مقدار المحتاجين إليه .

وما من أحد ينكر فضل الطب والكيمياء والطبيعة والرياضة والعلوم الصناعية والزراعية وما إليها ، ولكن من هو صاحب الرأى الذى يشير بترجمة مرجع من مراجع الكيمياء لجمهرة القراء؟ ومن الذى يقرأه ويستفيد منه ويستعان به على خدمة العلم بسببه ؟

إن المختصين بالكيمياء عندنا من علماء ومتعلمين يعرفون هذه الكتب بين الدرس والتدريس ، ومايدعو الأمر إلى ترجمته منها فإنما يترجم لطلابه فى معاهد الدراسة ، ولا تطبع منه الألوف لجمهرة القراء من غير المختصين .

ويقال فى الطب والرياضة ما يقال فى الكيمياء، فإذا أشار أحد بترجمة كتاب أدبى ولم يشر بترجمة كتاب فى الطب فليس معنى ذلك أنه يجهل فائدة الطب ويرى أن الكتاب الأدبى أوفر منه فائدة وعائدة ، وإنما معناه أن كتاب الطب يجد من يترجمه حيث يفيد ، وأنه سواء بقى فى لغته الأصيلة أو ترجم إلى العربية يصل إلى المختصين من العلماء والمتعلمين وأما الآثار الأدبية فهى « أولا » صالحة للقراء أجمعين ، وهى « ثانياً » قليلة الحظ من الإقبال التجارى إذا كانت من الأدب النفيس الرفيع الذى لا يروج إلا بترويج وترغيب . وهى « ثالثاً » ناقصة فى اللغة العربية بين اللغات الكبرى .

* * *

وكلا ثم كلا . .

وكلا مرة أخرى حين يقال إن شكسبير من الكماليات أو من اللهو الذى لا نفع له غير تزجية الفراغ .

إن من يدرس شكسبير حق دراسته لا حاجة به إلى مرجع آخر للعلم بالطبيعة البشرية فى جميع الطبقات وفى جميع الأحوال ، ومن كلا الجنسين ، ومن الكبار والصغار .

إن من يدرس شكسبير حق دراسته لا حاجة به إلى قراءة التاريخ ، لأن نماذجه التاريخية أصدق من حوادث المؤرخين وأبطال التواريخ .

إن من يعلمون العلم ، ولا يفترون على العلم زوراً وغروراً ، يعلمون أن كبار الباحثين الثقات فى عصرنا هذا يعولون على شكسبير بعد ثلاثة قرون ويجدون فيه من الشواهد الصحيحة ما يتعذر وجوده فى الحياة ، لأن موجودات الحياة خامات تحتاج إلى صانع أو مصنف ، ولكن موجودات العبقرية قائمة بحقائقها الباطنة والظاهرة ، مصهورة فى البوتقة التى تخرج النفائس والجواهر من الخامات .

وليراجع من شاء كتب الثقات والنفسانيين ليرى فيها كيف يدرس هملت والملك لير ولادى مكبث وعطيل وغيرهم من « الشخوص » التى يقال إنها خيالية ويقول العارفون إنها مصححة لأمثالها فى معارض الحياة اليومية .

ولم يعرف المتفيهقون شيئاً يسمى تطبيق علم النفس على أطوار الجماهير إلا فى اصطلاح المحدثين .

ولكن شكسبير فى منظر واحد من مناظر يوليوس قيصر التى تدرس عندنا أحياناً يعطينا أطوار الجماهير كما خلقها الله وكما سجلها علم النفس الحديث فلا يخرم منها حرفاً يحتاج إلى تعريف ، وغير هذا المنظر المألوف مناظر شتى فى رواياته التاريخية أبدع من هذا المنظر وأدق منه وأوفى بدخائل تلك الأطوار وأحوج إلى التفهم والتعقيب .

* * *

والمرأة . . .

ورب أناس لايستغربون من رجل عبقرى أن يفقه طبائع الرجال وأن يصورها للأنظار والعقول تصويراً يطابق الواقع فى جميع الحالات وعلى جميع الأطوار .

وربما خطر لهؤلاء الأناس أن تصوير الرجال مزدحمين مجتمعين لا يحتاج إلى خبرة خاصة غير تصوير الرجال منفردين متفرقين .

ربما خطر هذا على البال فى أمر تصوير الرجال

فما القول فى تصوير طبائع النساء ؟

ما القول فى تصوير المرأة الفتية والمرأة الكهلة والمرأة المسيطرة والمرأة الخاضعة والمرأة الماكرة والمرأة الساذجة والمرأة التى تحب للعاطفة والتى تحب للفتنة والتى تحب للمتعة والتى تحب للحيلة والوصول إلى المطمع المأمول ؟

ما القول فى تصوير كليوبترا وأكتافيا ؟ وفى تصوير هلينا وجولييت ؟ وفى تصوير ديدمونة وأوفيليا ؟ وفى تصوير ميراندا وفيولا وفى تصوير كاترين الأرجونية وكونستانس البريطانية وبلانش القشتالية وفولينا الرومانية ، وأخريات وأخريات من النساء والبنات ؟

عشرات من نماذج المرأة لا تشذ طبائع النساء فى العالم كله عن واحدة منها ، ولا يستطيع دارس التاريخ أو علم النفس أن يلتمس شاهداً له فى فهم الطبيعة الأنثوية أصح منها وأوضح وأوفى . .

ومصيبتنا الكبرى — نحن فى مصر — أن جاهلا من الجهلاء يقال له أنت عالم فيصدق ويقولها له جاهل مثله أو أجهل منه فلا يشك فى صدق الدعوى من الطرفين ، ثم يجلس للفتوى فيما يجهله ولا يحيط به رأسه الصغير ولا وجدانه الكليل ، وينصح ويقرر ويشير فى مسائل الثقافة والتعليم وهو يحسب أنه يلقى بالقول الفصل والحكم الأخير !

أى والله ، ويحكم فيما هو ضرورى للعقول وفيما هو كمالى مستغنى عنه ، كأنه هو نفسه قد فرغ من الضروريات والكماليات واستغنى عن كل شىء إلا الإفتاء والتصويب والتخطئة وتناول القلم الأحمر للحذف والإثبات بين السطور .

وما من جهل يقال أجهل من ترتيب درجات الثقافة أو درجات الحاجة إليها باسم العلم والطبيعة افتراء على العلم والطبيعة ، وأقل نظرة إلى الترتيب الطبيعى تريهم أن العقل الذى يدعونه آخر ما تعطيه الطبيعة ، وإن الكلام الذى ينكرونه أول ما تعطيه الطبيعة للعاقل ومن قبله تعطى البكاء والضحك والحنين .. وأقل من هذه النظرة إلى ترتيب ظهور الكلا م والعقل فى الإنسان النامى — نظرة إلى زهرة الفول ، وكل مأكول ، وكل ضرورى للبطون قبل العقول .

* * *

تنبيه . . ضرورى

وفى سياق الضروريات والكماليات لا ننسى هنا التنبيه الضرورى فى هذا المقام ما دام الجاهلون يصدقون أنهم عالمون بشهادة الجاهلين .

نحن فى الشرق — للأسف الشديد — قلما نعقل أن إنساناً يغار على عمل إلا لمصلحة له فيه .

ووالله إن أناساً فهموا من حملتى على الشيوعية أننى من أصحاب الملايين ولم يفهموا من حملتى على الشركات أننى من الفقراء ، لأن الاتهام والإسفاف أقرب إلى طبائعهم من الإنصاف والكرامة .

ومن حق هؤلاء — بهذا الحق نفسه — أن يفهموا أننى أقترح ترجمة شكسبير والفلسفة الأولى وأغار على المشروع كله لأننى صاحب مصلحة فيه .

فمن حقنا نحن إذن أن نقول لهؤلاء : إننا لا نشترك ولن نشترك فى هذا المشروع وإننا إذا أردنا أن نترجم شكسبير أو أفلاطون أو أرسطو فلا حاجة بنا إلى سند نستمد منه الإذن بالترجمة أو نتلقى منه التزكية والتشجيع ، وليست غيرتنا على المشروع إلا كغيرتنا على كل مشروع نؤمن بجدواه ، وليست ثورتنا على الجهل والدعوى إلا كثورتنا على كل جهل وكل دعوى ، ولو كانت فى بلاد الجرمان أو بلاد السلاف وفى أقصى الصين !

وبعد هذا التنبيه الضرورى نقول إننا نرحب بالفرصة التى سنحت لتثقيف كثير من العقول تشجيع كثير من الأقلام ونتمنى اليوم الذى يكون فيه أدب شكسبير وفلسفة أرسطو من مدروسات كل قارئ يقرأ لأنه إنسان ولا يقرأ لأنه يضع يده على بطنه ليذكر أنه صاحب معدة وأحشاء ، كأنه ينساها بغير هذا التذكير .

* * *

حركة تنقلات

وبعد استئذان الدكتور طه حسين فى إجراء حركة تنقلات من قبيل الحركات الدورية التى يجريها بين أقطار العروبة فى الزعامات الأدبية .

وبعد الاستئذان من كل منكوب بابن الرومى ونوادر شؤمه وطيرته من الأموات والأحياء .

وبعد هذا وذاك ، نقرر نقل ابن الرومى من جدول الشؤم والتطير إلى جدول التسمية والضحك خلال شهر رمضان ، ويساعدنا على ذلك الأديب الأستاذ محمد عبد الغنى حسن الذى اجترأ على تأليف رسالة عن ابن الرومى فى الأشهر الأخير ؟ واجترأ مع هذا على نسبته إلى الزنج — لوناً على الأقل — لأنه عثر على بيت تائه من الشعر يقول ناظمه المجهول :

قد سـود الله بعـد القلب صورته　　فوجهه مظلم الأمطار كالسبج

ويرى الأستاذ عبد الغنى أن هذا الكشف جدير بالإعلان عنه فى التنويه بالرسالة التى ألفها ، لأنه تخطئة لما وصفناه به فى كتابنا حيث قلنا إنه أبيض اللون ، لأنه من سلالة رومية فارسية .

ولو كان هذا البيت التائه حجة ثقة ، وكان صريحاً قاطعاً فى وصفه باللون

الأسود لوجب الشك فيه أمام الواقع المتفق عليه ، لأن الشاعر الهجاء ابن جرجيس الرومى من ناحية أبيه وابن حسنة السحستانية الفارسية من ناحية أمه ، لا يكون أسود الجلد ويسلم من اتهام الخصوم له بالنسب المدخول أو يسكت عن الاعتذار بسواد جلده ، وقد اعتذر لما هو أهون من ذلك كالصلع وصغر الرأس وخفة العارضين واضطراب المشية ، ووصفه الواصفون بأنه كان إذا رؤى لأول وهلة أنبأ منظره على تغير حال ، . . وأولى من الالتفات إلى تغير الحال التفات الناظر إلى سواده الغريب الذى لا يبدو منه حال متغير ولا أصيل !

لو كان البيت صريحاً قاطعاً فى وصف الجلد الأسود لوجب إسقاطه أمام البداهة واتفاق الرواة ، ولكنه على نقيض ذلك صريح فى المعنى المقصود بالسواد ، لأنه يقول إن الله سود وجهه بعد أن سود قلبه ، وسواد الجلد لا يأتى بعد سواد القلب إلا إذا كان من الصفات المجازية كسواد وجه الكاذب فى اصطلاح المجازيين وهو اصطلاح نسمعه من الخاصة والعامة كل يوم .

وبعد فأين هو السامع الذى يحتاج إلى وصف لون السواد فى الوجوه ؟

ربما قال القائل إن هذا الشىء أسود كوجه زنجى ، ولكنه لا يصف الوجه الأسود بالخرز الأسود والوجوه السود أظهر من أن تحتاج إلى إظهار ، إلا أن تكون وصفاً من بعيد لمن لا يراها رؤية العيان !

وحسن بلا كلام ، أن ينتقل ابن الرومى من جدول التطير إلى جدول التسلية ، فى شهر الصيام .

* * *

والرسائل ؟

وقد جارت المسائل على الرسائل فى هذا المقال ، فلنقنع منها بما تيسر ولنترك بقيتها للظروف

إن الأستاذ المحامى الذى يسألنى من البصرة عن بعض كتبى يحسب أننى أقتنيها وأدخر نسخاً منها بعد نفادها من المكتبات ، والواقع أنها تنفد من عندى قبل نفادها من المكتبات العامة ، ولا تبقى لدى منها غير نسخ معدودات للمراجعة وإعادة الطبع ، فإننى لا أقوم بطبعها ونشرها بل يقوم به الناشرون كما هو معلوم .

والكتاب الذى يطلبه الأستاذ قد نفدكما ذكرت آنفاً فى جوابى للتلميذات الإسكندريات قبل شهور .

وهناك كتب لم تنفد يطلبها بعض الأدباء ويسرنى أن أرسلها إليهم بغير ثمن إذا ملكت من نسخها ما أستغنى عنه ، ولكن الكتب التى طلبها أديب من الصعيد وأديب من الدقهلية لا توجد عندى وإنما توجد عند ناشريها .

وأرجو أن يكون فى هذا الجواب عن هذه الرسائل غناء عن تجدد الطلب الذى لا حيلة لى فيه .

* * *

سوء نية ؟

والرسالة الأخرى عن رأيى فى أينشتين كما رواه متحدث صحفى سألنى عنه منذ أسبوعين .

ولست أظن أن المتحدث يسىء النية فيما نقل ، ولكنه ولاريب لم ينقل كلامى كما بسطته فى مجلس يضم على الأقل عشرة من الأدباء وقراء الأدب .

لم يكن رأيى قط أن أينشتين أعظم رجال العصر الحاضر على الإطلاق ، ومن المصادفات أننى كتبت عن برتراند رسل فى أخبار اليوم منذ أسبوعين فقلت إنه فى رأى بعض النقاد أعظم الفلاسفة الرياضيين ، حتى قبل موت أينشتين .

وقد سئلت عما أتوقعه من نتيجة الكشف على دماغ أينشتين فقلت إنه ربما أسفر عن نقص فيه . لأن بعض العباقرة يصابون بخلل فى الدماغ يسقط جانباً منه ويرفع جانباً غيره فوق الطبقة المعهودة عند سائر المفكرين .

ولكننى قلت إن الرجل كان يبحث مسألة لو نجح فيها لخلد اسمه فى التاريخ إلى مئات الأجيال ، ولاستحق أن يقام له تمثال فى كل بقعة من الأرض تعمرها الجاذبية .

تلك المسألة هى وحدة القوة بين الجاذبية والمغنطيسية والكهربية ، فهل هى مظاهر متعددة لقوة واحدة ؟ وهل يستطاع تحويل بعضها إلى بعض بمعادلة من المعادلات الرياضية ؟

يكفى أن يهتدى أينشتين إلى هذه المعادلة ولو لم يتبعها اختراع سريع فى الوقت الحاضر ، لأنها ستؤدى يوماً ما إلى استخراج القوة من كل بقعة فيها جاذبية ، وإلى تسخير الكهربا بغير حاجة إلى فحم ولا نار ولا ماء .

وهل كثير على من ينفع الناس هذه المنفعة تمثال يقترن بالجاذبية الأرضية فى كل مكان ؟

كلا . . إنه غير كثير . .

ولكن الرواية التى نقلها المتحدث الصحفى عنى جعلته كثيراً جداً على كل عالم ومخترع ، حذفت منه الشرط المعلق عليه فلم يستقم معناه بغير شرط وبغير تعليق .

ولا ضير فى خطأ الرواية إذا حسنت النيات .

الإمبراطوريات الأدبية تزول *

يشهد القرن العشرون طوراً جديداً فى تاريخ الإنسانية .

ما فى ذلك عندنا ذرة من الشك ، وأن الدلائل عليه أن الإمبراطوريات فى ميدان الأدب والفكر تزول ، كما زالت الإمبراطوريات فى ميدان الاستعمار والسياسة ، أو أخذت فى الزوال .

ولندع الزمن الماضى ولنبدأ من القرن السابع عشر ، وهو القرن الذى اصطلحنا على اعتباره فاتحة العصور الحديثة .

فمنذ القرن السابع عشر تعوّد الناس من أبناء الحضارة أن يدينوا الإمبراطورية فكرية أو أدبية ، على نحو من الأنحاء .

تعودوا زمناً أن يتكلموا الفرنسية فى البلاط والنادى والمدرسة ، ولو كان البلاط بلاط آل رومانوف أو آل هابسبرج أو آل هوهنزلرن ، بل حتى بلاط آل عثمان وآل قاجار من أمم الشرق المشرق .

وجاء زمن آخر كان اسم « بيرون » فيه اسماً أوربيًّا يتجه إليه فى عالم الشعر أدباء فرنسا وإيطاليا ، كما يتجه إليه أدباء الأمم الشمالية والجنوبية .

وافتتن الأدب الأوربى بالجرمنة فى حقبة من الحقب ، فكان يقال عن ترماس كارليل فى إنجلترا إنه « أيقوسى متجرمن » وكان كتاب الإنجليز يقرءون الأدب الألمانى بلغته ويستغنون عن ترجمته إلى الإنجليزية .

ووصل الأمر إلى روسيا القيصرية فلم تحرم نصيبها من إمبراطوريات الأدب إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى ، وندر من الكتاب الأوربيين فى ذلك الحين من لم يكن يتشبه بتولستوى أو دستيفسكى أو ترجنيف أو شيخوف من كبار الروائيين السلافيين .

* * *

---

* أخبار اليوم ١٢ / ١٢ / ١٩٥٣ .

لا شيء من ذلك فى العصر الحاضر .

ليس فى العصر الحاضر إمبراطورية فكرية واحدة من قبيل تلك الإمبراطوريات التى تعاقبت منذ القرن السابع عشر إلى أواسط القرن العشرين .

وإذا التفتنا إلى حركة الأدب فى الأمم الأوربية أمة أمة لم نجد بينها حركة واحدة تدين لإمبراطورية أدبية من ذلك القبيل .

حتى « الوجودية » التى يخطر على البال أنها تغزو ميادين الأدب الأوربى فى جميع أقطاره ، فليس هناك فى الواقع وجودية واحدة تدين بها أمم كثيرة لقيادة أمة غالبة عليها ، بل هناك الوجودية الفرنسية والوجودية الألمانية والوجودية الأسبانية والوجودية الروسية . . وعلى خلاف المظنون لأول وهلة كانت الوجودية الفرنسية آخرها ظهوراً بين الحركات الأوربية ، وهى على هذا ليست بمدرسة واحدة ولا بمذهب واحد من مذاهب السلوك . . . لأنك ترى فيها الملحد والمتدين، وترى فيها المثالى والواقعى ، وترى فيها المتفائل والمتشائم ، أو ترى لها أحزاباً فكرية لا تقل عدداً عن أحزاب السياسة .

كل حركة أدبية فى أمة من أمم الغرب هى على الأرجح مدرسة مستقلة تحاول أن تترك الاقتداء والتقليد بعد أن كان الاقتداء والتقليد طابعاً مشتركاً لجميع الحركات الأدبية إلى أوائل القرن العشرين .

وهذا جوابى للأديب الذى سألنى فى خطابه عن الكاتب الإيطالى الذى قلت فى الأسبوع الماضى إنه أحد الغزاة للمكتبات الأمريكية ، فهو واحد من طائفة كبيرة تمتاز بنزعتها الخاصة بعد الحرب العالمية الأخيرة ، وأمثال هذه الطائفة متعددون فى أمم الغرب من أكبرها إلى أصغرها ، فكلهم طوائف مستقلة أو تحاول جهدها أن تبرأ من مظنة التقليد والاتباع .

* * *

ونقصر الجواب هنا على الحركة الأدبية فى إيطاليا ، وعلى الكاتب الذى كان سبباً للسؤال ، وهو فارسكو برتولينى صاحب القصص التى يبلغ قراؤها بالإنجليزية أضعاف قرائها بالإيطالية .

أشهر هذه القصص هى قصة « الشوارع العارية » وقصة « بطل من زماننا» وقصة « العشاق البائسين » .

والكاتب « محلى » فى أوصافه وموضوعاته يكاد يحصرها فى موطنه فلورنسة لولا أنه يعرضها على بساطتها الإنسانية التى تتقارب فيها الطبائع على تباعد الأجناس والأزمان ، وهو الآن يناهز الأربعين من عمره لأنه ولد قبل الحرب العالمية الأولى بأشهر معدودات ، وله زملاء يضارعونه ويفوقونه وإن لم يبلغوا فى الشهرة مبلغه ، بعضهم شعراء كأنطونيو وريناالدى وروبرتو روفرسى ،وبعضهم مفكرون فلسفيون كفرانكو فورتينى وألفونسو جاتو وأيثليو برتولتشى وأنطونيو بلدينى وجورجيو مونيسلى، وكلهم ممن قاوموا الفاشية وعملوا فى حركة التحرير ، وغير قليل منهم كانوا يناهضون أدب دانسيو ودعوة المدجلين باسم « المستقبلية » .

هذا الجيل من الكتاب — ونعنى بهم الجيل الذى عاصر الحرب العالمية الأولى صغيراً ثم نضج على عهد الحرب العالمية الثانية — هم الجيل السليم فى حركة الأدب الإيطالى الحديث ، وخير ما فيهم أنهم مطبوعون غير متكلفين ، كذلك الفريق المعروف بفريق المظهريين أو الموقفيين Poseurs ومعظمهم من مواليد العشرة الثالثة فى القرن العشرين .

أما هؤلاء المظهريون فكلهم من سقط المتاع ، وأسخف ما فيهم أنهم يتكلفون لإظهار التفاهة فى موضوعاتهم وفى أنفسهم وفى قيم الحياة عندهم وعند غيرهم . . . ومن لم يقرأهم يستطيع أن يعرفهم كمن قرأهم ، لأن التفاهة شيء يتساوى فيه الاطلاع ومجرد التصور والتخمين .

يرى بعض الأطباء النفسانيين أن الذى يتكلف الجنون لا يخلو من الجنون ، وأن الجنون المصطنع فكرة لا تخطر للعقل السليم .

ومثل هذا يصح أن يقال عمن يتكلف التفاهة ، فإنه لا يتكلفها إلا وهو عاجز عن الجد غير مستحق للاهتمام ، ويصدق هذا ولا شك على جميع المظهريين من دعاة التفاهة والسآمة والضجر وقلة الاكتراث وما شابه هذا المزاج ، فإنهم لصادقون على الرغم منهم ، وإنهم لمتكلفون أطبع من المطبوعين !

ولكنهم لا فضل لهم فى صدقهم وانطباعهم . . .

حدثني بعضهم عن أضاحيك أديب كان رحمه الله يستثير الضحك فى كل ما يكتب ، فقلت إنه لو كان يضحك القراء بإرادته لكان أعظم عظماء الفكاهة ، ولكنه يضحكهم على غير قصد منه ، فلا ثواب له فيما لا يريد !

ويصح هذا فى المظهريين « البوزيين » . . فلا هم غنموا سهولة الطبع ولا جهد التكلف ، وإنما الأعمال بالنيات .

إلا أننا قبل أن ندع هذا التعليق على حركات الأدب المستقلة نود أن ندفع سلفاً بعض الأوهام التى قد تتسرب إلى الذهن على عجل فى هذا المعنى . . فليس المقصود باستقلال الأدباء الجادين أنهم ينقطعون عن ثقافة الأمم الأخرى ، فإن الأدباء الإيطاليين الذين أشرنا إليهم لم ينقطعوا عن ثقافة العالم الغربى ولا يزال منهم من ينقل المختارات من الأدب الإنجليزى والأدب الفرنسى والأدب الألمانى وغيرها من الآداب الحية التى يعرفون لغاتها ، ولكن المقصود بالاستقلال أنهم يستحسنون ما يرونه حسناً حيث كان ولا يدينون لضرب واحد من الإحسان ، أو لا ينضوون لعلم واحد كأعلام « الإمبراطوريات الأدبية فى القرنين السابقين » .

* * *

وقد يثبت لنا زوال« الإمبراطوريات » الأدبية من طرفى الصورة لا من طرف واحد . .

فقد أوشكت الآية أن تنعكس فى العصر الحاضر ، فيستورد الأدب من كان يصدره ويقنع بتصديره ، ويتلقى النفوذ الفكرى من كان يفرض فكرته ويستولى بها على « مناطق النفوذ » فى أقطار العالم .

ولا توجد اليوم أمة كبيرة ، كائناً ما كان شأنها ، تعرض عن محصول الأمم الصغيرة فى الأدب والفن وتتوانى عن نقله كلما استطاعت أن تنقله إلى لغاتها .

والغزوة الإيطالية للمكتبات الأمريكية التى ألمعنا إليها فى الأسبوع الماضى هى أحد الشواهد الكثيرة على ذلك ، ومن هذه الشواهد الكثيرة عليه أنهم يتطلعون إلى معرفة الشرق فى تصميمه ولا سيما الشرق الدينى أو الشرق الروحانى ، لأنهم يحارون فى سر هذه المقاومة الصامدة التى تخطى بها الشرق مهد السيطرة الإمبراطورية وأوشك

أن يتخطى عهد السيطرة الفكرية ، أو يحولها إلى معسكر من معسكرات تلك المقاومة الصامدة .

ومنذ شهرين ظهرت طبعة شعبية من ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية يحسبون النسخ المتداولة منها بمئات الألوف ، وقبل ذلك ظهرت طبعات مثلها لحكمة الصين والهند ، وتتبعها أمثالها بلا انقطاع .

على أننا نظن أن الرجة التى أحدثت هذا التطور أعمق وأشد مما يتناوله نطاق الإمبراطوريات السياسية أو الأدبية .

إنها رجة زلزلت غرور « الرجل الأبيض » الذى ساوره زمناً وخيل إليه أنه سيد العالمين وأن الأمم كلها مسخرة له مخلوقة لطاعته والاتكال على علمه ودرايته .

والأدب الشائع بين القوم هو عنوان هذا الزلزال النفسانى المتغلغل فى الأعماق ، وأعجب ما فيه شيوع قصص الحب بين البيض والزنوج ذلك الموضوع الذى كان الكلام فيه « محرمات » لا تليق بالمهذبين ، فضلاً عن الكتابة فيه ورواج قصصه بالملايين .

وإحدى هذه القصص — واسمها الفاكهة الغريبة — تؤلفها سيدة وتبسط فيها القول عن حب رجل أبيض لفتاة سوداء ، فلا تمضى فترة على ظهورها حتى ينفد منها أكثر من مليونى نسخة .

وأعجب منها قصة صغيرة نشرت فى مجلة « هاربر » المشهورة وضج لها المحافظون حين ظهورها فى المجلة المعروفة برصانتها .

عنوان هذه القصة يكفى . .

عنوانها : « بنتى تزوجت من زنجى . . . »

ولما قامت الضجة حول نشرها فى المجلة المحترمة سبق إلى الظنون أنها فلتة لا تتكرر ، فإذا بالمجلة تضعها فى مقدمة مختاراتها حين جمعت هذه المختارات على حدة ، وإذا بهذه المختارات تروج فى الطبعات الشعبية من أجل هذه القصة قبل غيرها من نخب الحكايات والنوادر والفصول .

إن دلالة الأدب أصدق من دلالة الأرقام والإحصاءات .

إن عهد « الإمبراطوريات » السياسية والأدبية قد زال أو هو آخذ فى الزوال وهذا طور جديد من أطوار الإنسانية الخالدة .

طور لا تستغنى فيه القوة عن التفاهم وقد تكون حاجة القول فيه إلى فهم الضعفاء ألزم من حاجة الضعيف إلى فهم الأقوياء .

* * *

حفنى محمود

كان فى ذهنى شخص واحد يوم نشرت بعض مقطوعات حافظ إبراهيم، وقلت إن الباقى منها قد ضاع لا محالة ، ما لم يكن قد سمعه من حافظ بعض عشاق أدبه .

كان هذا الشخص الواحد هو الأديب الظريف والناقد الاجتماعى الفيلسوف حفنى محمود رحمه الله .

وكنت أعلم أنه يأنس إلى حافظ وأن حافظاً يأنس إليه، وأنه لابد قد سمع من حافظ تلك المقطوعات ، ولا يبعد أنه قد وعى منها غير ما وعيت ، وكلاهما رحمة الله عليهما يعيش فى عالم الذاكرة ولا يعترف بعالم الأوراق .

ولم يكن حفنى راوية أدب وكفى ، بل كان شاهد عيان لكثير من أسرار السياسة المصرية التى لم تدوّن فى الأوراق ، فإن لم يكن قد ترك للأعقاب مذكرات عن معلوماته — خلافاً لما أعتقد — فقد ضاع من تلك الأسرار ذخر لا يعوض ، وعساه لا يضيع .

* * *

مصطفى كامل وتوفيق نسيم شاعران

وإنى بصدد المذكرات ومناسباتها أشكر للسيد « عبد العزيز شربى بشارع الدكتور عبد الوهاب بشبرا ، تفضله بالرجوع إلى مذكراته فى قصة المساجلات التى كانت تجرى بين حفنى ناصف ومريديه وتلاميذه ، وأفهم من هذه المراجعة أن رواية حمد الباسل عن « شم البطيخ من غير أسلاك » هى كما سردتها لا تزال أقرب الروايات إلى التاريخ الصحيح .

ومن طرائف تلك المساجلات أنها تضمنت أبياتاً لمصطفى كامل وتوفيق نسيم نظماها عند انتقال أستاذهما حفنى ناصف من وظائف التدريس إلى القضاء.

فقال مصطفى كامل :

حتام قلبى للوصـــال يميـــل وعلام سيف الصد لى مسلول

حكم الغرام بلوعتى وتذللى لك والتذلل للجميل جميل

وختم قصيدته بهذه الأبيات على عادة الأدباء يومئذ من تضمين شعرهم اسم المادح والممدوح :

بدر الوفا «حفنى» المعظم قدره صدر الأماجد «ناصف» المأمول

لا زلت فى رتب السعادة راقياً عرش العلا وشعارك التبجيل

ما لاح بدر أو ترنم (كامل) حتام قلبى للوصـــال يميـــل

وكان توفيق نسيم أشعر من زميله فى هذه المناسبة على الأقل كما يرى القارئ من قوله :

لأشكون لقاضى الحب مظلمتى عساه يرسل للمحبوب إنذارا

وإن أبى رحمتى فى ظل ساحته كلفته فى الهوى عطلا وأضرارا

لعل لى ناصفاً من ذاك ينصفنى ويصدر الحـــكم بالمأمول إصدارا

* * *

وأشعر منهما حمد

ولعل عروبة حمد قد أعانته فى مساجلاته فكان أشعر من الاثنين وأجاد فى شكره على هدية الرمان إجادة يرتضيها الشعراء «المحترفون» .

قال رحمه الله :

مانح الرمان من أقصى الصعيد دمت فينا مهدياً فى كل عيـــد

ثم قال :

هى فى مطعمهـــا فاكهـــة وهى فى باطنهـــا در نضيد

وهى فى التشبيه تحـــكى صرة من دنانـــير بطرد فى البريد

أو كنهـــد كاعب من غادة عمرها عن خمس عشر لا يزيد

إلى آخر هذه « الرمانية » التي أخذت غير قليل من فاكهتها الموصوفة .

* * *

وعلى ذكر الشعر

وعلى ذكر الشعر نود أن نشرك القارئ في بعض مطالعاتنا الشعرية الحديثة ، ونحن على عهدنا في هذه المقالات أن تكون المشاركة فيما استطلعناه فحمدنا طلعه على غير انتظار ، ولا علينا من الجيد المفروغ من جودته ولا من الفارغ الذى لا خير فيه .

في ديوان صغير للشاعر أوجدن ناش Ogden Nash عنوانه « حجرة المائدة الجوانية » يقول الشاعر المازح عن أخطار الطيران على الإنسان :

(١) تحذير

« انظر إلى طائر البطريق . .
« يكاد أن ينقرض لأنه عرف المشى ونسى الطيران
« ثم انظر إلى الإنسان
« غير بعيد أن ينقرض لأنه عرف كيف يطير .
وينسى اليوم كيف يمشى ، ولم يفكر بما يكون . . »

(٢) الحمار والأتان

وقال عن العيابين الغيابين ، يقصد الناس أو يقصد الحمير :

« هل أصغيت قط إلى حمار الوحش وهو ينهق .
« لكأنك تصغى إلى قهقهة مخلوق أبله
« أو إلى صرخة ناشزة في معزف متحرب
« فتمهل إذن ولا تسخر من الحمار الناهق
« فلو لم يكن في نهيقه مقام ينتظر الجواب

« لما أجابته الأتان من بعيد فى خجل وحنين :

« هى هاو . شى هاو . هى هاو . شى هاو ! ! »

(٣) طبيب قديم

وفى الديوان نصيحة من طبيب قديم لتلميذه يقول فيها :

« مرضاك الميئوس منهم سيعيشون

« ومرضاك الأصحاء المستبشرون سيموتون

« وهذه كلمتى لا أقول غيرها .

« عجباً . . أفتدرى لماذا يعجبون ؟

(٤) فى وقته !

ومن قصائده المطولة قصيدة بعنوان (فى وقته) يقول فيها عن علاقات الرجال والنساء قديماً وحديثاً :

« ما أبسط العلاقات بين الجنسين

« على أيام فرنسسكا دى ريمينى إحدى البطلات فى جحيم دانتى

« كان الرجال مخيفين ، وكانت النساء متأنثات

« وكان الرجل إذا التقى بالمرأة لا يحاول أن يفهمها أو يحل ألغازها

« بل تقبله فيأخذ يدها أو تأباه فيدع يدها وشأنها

« ألا ترى أن البلوى كلها فى زماننا

« إننا نتبع هذه النزوة المضللة . .

« مشغولين بهوى التفاهم والتعارف بين الجنسين ! ! »

* * *

وعلى هذا النمط كله شعر الديوان بين جيده ورديئه ، ولكنه لا يتكلم فى قصيدة واحدة عن مشكلات سوق الخضار أو ساحل أثر النبى أو قصابة سيدى

زين العابدين . . مع أن عنوان الديوان . ويا للعجب ! . . حجرة المائدة !

وليس هذا بالعجب الوحيد فى هذا الشعر الحديث ، بل فيه من أعجب الأعاجيب أن شعراءهم ينظمونه وقراءهم يروونه ولا يقول هؤلاء وهؤلاء إنه خيانة لأمانة القلم أو إنه ضرب من الفن العتيق ، كما نسمع عندنا من ببغاوات الأدب الجديد !

هممت بأن أبعث هذا الديوان وأشباهه صدقة على روح الأدب الجديد ، رحمه الله هو الآخر

لولا أن المسكين أدب بغير روح !

الصواريخ والشعر والحمير ! *

فى خطاب الطالب الأديب « فكرى محمد حسين خليل بكلية حقوق القاهرة » أسف شديد لتلك النزعة المادية التى تقترن بمعنى التطور فى أذهان بعض الناس ، ومنهم طائفة من كتاب الصحف يطالعوننا من حين إلى حين كما قال : « بعناوين ومقالات تنادى بأننا لا نريد شعراء فى عصر الصواريخ . . »

ويقول الطالب الأديب : « إننى مؤمن بالتطور ومرحب به ، ولكننا نريد التطور فى مذاهب الحضارة جميعاً ، وأن نرتقى بالمعنويات كما نرتقى بالماديات ، فلا ننسى الروح والوجدان بجانب العقل الإلكترونى . . . ونطمع فى معرفة الحقيقة متكاملة فى هذا الصدد . . عن مدى الأهمية الإيجابية للأدب والشعر بوجه خاص ومدى لزومه بين قطاعات التطور المادى فى العصر الحديث . . »

ولا شك أن هذا القلق على « المعنويات » الروحية كما سماها الطالب الأديب غيرة إنسانية محمودة تدعو إلى الطمأنينة على الشباب المثقف فى هذا العصر الذى وصفوه بين أوصافه الكثيرة بعصر الصاروخ .

ولكن الأمر لا يدعو إلى القلق إذا كان قصاراه أن يتصايح بعض « الأميين » من الكتاب بالاستغناء عن الشعر والأدب فى عصر الصاروخ ، فإنها صيحات لا خسارة فيها على الشعر ولا مكسب فيها للصاروخ ، إذ ليس من يصيح بمثل هذا الهراء معدوداً من أهل الشعر والفن ولا من أهل الصاروخ والصناعة ، وما كان هؤلاء الصائحون وأمثالهم محبين للشعر قبل اختراع الصواريخ ولا هم ممن يعرفون مكان الصواريخ من أطوار التقدم الحديث .

فليس مكان الصاروخ أن يحل محل الشعر أو محل فن من أخوات الشعر كفنون الموسيقى والغناء والتمثيل والتصوير ، إلى أشباه هذه المطالب الإنسانية التى وصفت بالجمال قبل أن توصف بالفائدة .

* الأخبار ٣٠ / ١٠ / ١٩٦٣ .

وإنما وجد الصاروخ ليحل محل الطيارة التى تتخلف عنه فى السرعة والمضاء ، وربما صح أن يقال فيه إنه قد وجد ليغنينا بعض الغنى — أو كل الغنى — عما دون ذلك من أدوات المواصلات .

ولو قال قائل : لا نريد حميراً فى عصر الصاروخ لكان فى قوله بعض المعنى المفهوم .

أما أن يكون الصاروخ بديلا من التعبير الجميل عن النفس الإنسانية فهو قول لا معنى له فى عصور الصواريخ ولا فى عصور الحمير .

وليست هذه « مادية » ولا حيوانية كما تنعت به فى بعض الأحايين ، ولكنها نقص فى كل حيوية صالحة يتصف بها الأحياء الأصحاء مما دون الحيوان الناطق بكثير .

إن الحيوان يشبع فيغنى ويطرب ، ويعبر عن شبعه من مادة الغذاء الضرورى بالشعر الذى يستطيعه : وهو شعر التغريد أو شعر الصهيل أو شعر المرح والخيلاء .

ومن حق الأنسان الحى « الناطق » أن يزيد على الحيوان الأبكم بقدرته على التعبير الجميل : تعبير بالغناء والكلم المنظوم .

من حقه أن يتكلم ليقول قولاً حسناً يليق بعقله وفهمه وقدرته على البيان ، ولا يقصر على الطائر الذى يقول قوله بالتغريد ، أو عن الحصان الذى يقول قوله بالصهيل .

والشعر — على هذا المعنى — ألزم للإنسان الحى الناطق من الصاروخ ، لأنه عاش ملايين السنين بغير صواريخ ولم يعش قط عصراً واحداً بغير فن من فنون الشعر ، أو فن من فنون التعبير الجميل كيف كان .

وسيعيش الإنسان دهوره المقبلة كما عاش دهوره الماضية شاعراً معبراً عن شعوره ، حيثما يعلق حياته بالقلب واللسان ، لا بالصاروخ الحديث ولا بالمطية الأولى من الحمير والخيل والبغال ، وشتى « المواصلات » وأدوات الانتقال .

فما شعر الإنسان قديماً من قلة الحمير وأخواتها ، ولا ترك الشعر بعد « اختراعه » الحمار بالترويض والتدجين .

وما كان الإنسان فى هذه الألوف من السنين ينظم الشعر لأنه كان يبحث

عن الصاروخ حتى يصل إليه فيسكت ولا ينظم ، ويحطم الطبول والأبواق ولا يطرب أو يتغنى .

ولكنه « شعر » لأنه كائن حي ناطق ، ولأن الحياة نصفان متقابلان : تأثير وتعبير . .

وما دام حيًّا فهو مؤثر ومتأثر .

وما دام حيًّا فهو شاعر ومعبر .

وشعره ألزم له من صاروخه ، لأن الصاروخ صناعة من عمل يديه . . أما التعبير فهو حياته وأثر حياته فى حياة غيره ، وكيف يكون إنساناً « متطوراً » إذا وقف بالتعبير عند حظ الحيوان من الصهيل أو النداء أو التغريد ؟

بل كيف يكون حيًّا متطوراً إذا وقف تعبيره عند حروف النطاق ولم يتطور بها عقله ووجدانه فى أطوار التحسين والتجميل ، تعبيراً يصدق عليه وصف الفن الجميل .

لا لزوم للشعر فى عصر الصاروخ !

لا يا بنى آدم !

أصح من ذلك أن يقول آدم من قبل ويقول بنوه من بعده إلى آخر الزمان : فى عصر الصاروخ لا لزوم للحمير !

* * *

ومن الإنسانية التى تحمد للإنسان أيضاً غيرته على اللغة ، لأن اللغة الصحيحة والنطق السليم مترادفان .

والسيد « حسن بهجت » الموظف « السابق » يغار على اللغة أن يقع فيها الخطأ فى كلمة يكررها المذيعون : وهى كلمة « الندوة » .

ويسأل « أهى ندوة بكسر النون أو ندوة بفتحها كما ينطقها المذيعون دائماً عندما يقدمون ندواتهم » ؟

يقول السيد حسن بهجت : وفيما أعلم أنها بكسر النون، ولكننى أحار فى سكوت النحويين عن هذا الخطأ الشائع . . إلا إذا كان رأيهم فيه أنه خير من الصواب المهجور .

ونطمئن السيد على هذه الكلمة بين كلمات اللغة التى تقبل الخطأ ، فإنها معصومة من الخطأ على اختلاف حركات النون ، وإن اختلفت المعانى باختلاف الحركات الثلاث .

فالندوة بفتح النون تغلب على مكان الاجتماع ، ما دام المجتمعون فيه .

والندوة بكسر النون تغلب على الجماعة الحاضرين فى المكان .

والندوة بضم النون تغلب على مورد الشرب ، وإن خصصها المعجم بشرب الجمال.

وبين اختلاف المختلفين رحمة للناطقين والمذيعين .

الوصول إلى القمر جناية على الشعر*

زميلنا المربى الكبير الأستاذ زكى المهندس آسف للشعراء والأدباء والحالمين المبدعين من أصحاب الآيات الفنية لما أصابهم فى قمرهم العزيز بعد اجتراء العلم والاختراع عليه بالصواريخ والألاعيب!

يقول أجمل الله عزاءه وعزاءنا: «وارحمتا لهذا الأدب الرائع الذى نسجته القرائح والأخيلة حول هذا الكوكب الجميل. أى أديب يستطيع بعد اليوم أن يسبح بخياله إلى القمر وهو يدرك أنه ليس إلا ولاية أمريكية أو دولة تدور فى فلك روسيا؟ إنى أعتقد أن ينبوعاً عظيماً من ينابيع الأدب قد غاض ماؤه ونضب معينه، وأن على القراء والكتاب والبلغاء بعد اليوم أن يسقطوا القمر من حسابهم وأن يولوا وجوههم شطر مصدر آخر يستمدون منه الوحى والإلهام.. ليت شعرى إلى أى مصير سينتهى بنا العلم بعد أن اقتحم كل مجهول وغزا كل منيع وضيق الخناق على العاطفة والخيال إنه ليخيل إلى أن العلم يتناسب تناسباً عكسياً مع إحساسنا بالجمال...»

ولو شاء لأضاف إلى ثارات الشعر قديماً شبيهاً بالحديث عن ثاراته فى عصر الصواريخ.

ألم يكن القمر وجهاً جميلاً كحيل العين فسخه العلم قبل ألفى سنة لهيباً يمده وقود من الفحم تبدله النار سواداً ببياض أو بياضاً بسواد؟

ألم تكن الشمس مصباحاً يطلع لنا إذا غاب القمر عنا فإذا نحن بأرضنا وقمرنا ذيول تدور حواليها ولا نعفى من دوار الحيرة والاضطراب.

ثارات قديمة لا نثير حسابها الآن لأنها تفوق العد والحساب.

ولكننا نتعزى فى المصاب بعد المصاب بحقيقة علمية يقبلها العلم قبل الشعر باختياره أو على اضطرار لا يملك فيه الخيار.

---

* الأخبار ٢٨ / ٩ / ١٩٥٩.

الحلم أقوى من العلم فيما غبر ، وأنه لأقوى منه فيما حضر ، وسيبقى متغلباً عليه بقوته غداً وبعد غد ، إلى آخر الزمان .

ماذا صنع العلماء بشمسهم التي تثبت وأرضهم التي تدور ؟

إنهم لا يزالون إلى اليوم يخطون بأيديهم في كتب العلم أن الشمس تطلع وأن الشمس تغيب وأن الدنيا هي الأرض وأن الأرض هي « الويرلد » وهي « الموند » وهي « الفيلت » وهي هي الدنيا ولا دنيا سواها في كل لسان .

والصاروخ يصنع بالقمر ما هو صانع ، فهل يصبه يا ترى بمصاب أفدح من مصاب أبي الهول في أنفه ؟

لا نظن ولا نخال ، ولكن أبا الهول هو أبو الهول رغم أنفه المهشم ورغم أنف المدفع الذي رماه . وقد أصبح المدفع الذي رماه نسياً منسيًّا وهوهو أبو الهول الذي يشمخ بغير أنف في وجه التاريخ !

مسكين هذا العلم إذا أراد أن يتطاول على قمر الأحلام ، فإن الأحلام لتخلق في خيالها قمراً جديداً وراء كل صاروخ يخلقه المخترعون ، وقديماً خلقت في الخيال قمراً لم يدركه قمر الفلكيين في مجراه ولا في سماه . ولن يعيبها بعد التجربة الأولى ، بل بعد التجارب الكثيرة ، أن تعيدها حين تشاء .

كان لحافظ إبراهيم رحمه الله صديق من زملائه في الجيش حضرته وهو يداعبه قائلاً : والله لو وليت الأمر لاستصدرت مرسوماً عالياً بهدم الرقمتين ولعلع ثم أنظر بعد ذلك ماذا تقولون وفيم تنظمون ؟

فما قالها حتى انطلقنا معاً نقول له : نرثيها ونهجوك . . فمضى وهو يقول : أعوذ بالله . . . لا سلامة من ألسنة الشعراء .

أصح من ذاك أن يقول : لا خوف على الشعراء ، ولهم خيال ، ولهم لسان . وحسب العالم الأديب ، وحسبنا ذلك جميعاً من عزاء .

اللفظ والمعنى *

« . . . هناك لدى الباحثين اللغويين – فيما أعلم – اتفاق على أنه توجد مناسبة بين الألفاظ والمعانى الموضوعة لها ، وذلك فى المحسوسات . وعلى رأس هؤلاء ابن جنى الذى وسع الدائرة حتى جعلها تشمل المعنويات أيضاً وإن خفيت المناسبة . . . والذى أريد أن أسأل عنه هو : هل المناسبة بين المعانى والمحسوسات خصيصة من خصائص اللغة العربية أم هى أمر عام فى جميع اللغات ؟ ولماذا اختصت بها اللغة العربية ، أو لماذا اختلفت اللغات إذا كانت هذه الظاهرة عامة فيها ؟ »

طه مصطفى أبو كريشة
كلية اللغة العربية

ابن جنى إمام لغوى فاضل ، وله آراء « منطقية » معقولة نظر فيها – على ما يظهر – إلى اللغة العربية وغيرها ، لأنه ينتمى إلى أصل يونانى كما يدل عليه اسمه ، وأصل هذا الاسم « جوهانى » .

ولا شك أن التناسب قديم بين الألفاظ والمعانى فى كل لفظ يرجع إلى الحكاية الصوتية أية كانت لغته الأولى ، ولكن اللفظ قد ينقل عن لفظ آخر لا وجود فيه لهذه المناسبة ، فتظهر فى اللغات كلمات تفترق فيها دلالة اللفظ ودلالة المعنى غاية الافتراق .

مثال ذلك كلمة الحسام بمعنى السيف ، فإنه لا شك فى رجوع معانى الحسم والحزم والحطم وما يقاربها لفظاً إلى صوت القطع والفصل . و يسرى هذا على القطع والقطم والقطف وعلى الفصل والفصم والقصد ، إلى أشباه هذا التناسب بين الألفاظ والأصوات .

ولكن الحسام يسمى « المهند » أيضاً نسبة إلى الهند ، ولا يرجع لفظ الهند إلى

* الأخبار ١٩ / ٤ / ١٩٦١ .

معنى يفيد القطع بلغتها ولا بلغة غيرها ، فلا يصح فى هذه الحالة وجود التناسب بين الكلمة ومعناها ، ولا تنتهى وجوه الاختلاف متى بدأت على هذه الصورة لسبب من الأسباب .

ومثال ذلك أن « اليوسف أفندى » اسم رجل ولكنه اسم فاكهة نقلت على يديه ، وأن البرتقال اسم فاكهة أخرى ولكنه اسم إقليم ، وقد سمى الرمان عند الفرنسيين باسم تفاح غرناطة ، وسمى الديك المعروف بالرومى والتركى والهندى والمالطى ، وتحرفت هذه الأسماء فى النطق حين نقلت إلى اللغة العربية فزالت كل مناسبة بينها وبين مصدرها ، وأين كلمة « الدندى » مثلاً من الكلمة الفرنسية التى تفيد أنه « من الهند » وتكتب بالحروف التى تدل على هذا المعنى ؟ وأين كلمة القاهرة من كلمة « كير » الفرنسية ولم يمض على الكلمة أكثر من بضعة قرون عند وقوع هذا التحريف ؟ وأين كلمة « محمد » من كلمة « مهيميت » التى ينطقها بعض الأوربيين وهم يذهبون ويعودون بين بلادهم وبلادنا ؟

فهما يكن من عدد الألفاظ الصوتية كثرة وقلة فهى لا تزيد بعد تطور الكلمات على عشر الألفاظ فى كل لغة ، وقد يؤدى التشابه اللفظى نفسه إلى تناقض المعنى بين الكلمتين المتقاربتين ، كالتناقض بين الكفران والغفران مع أن « الكف والكفر والغفو والغفر » ترجع كلها بالحكاية الصوتية إلى التغطية والحجب والمنع وما جرى مجراها ، ولكن تغطية النعمة كفران وتغطية الذنب غفران ، ولم يأت هذا البون الشاسع إلا من طريق الاستعارة كيف يختارها المختار .

وقد تحتفظ الكلمة بالمناسبة ولكنها تنقلب إلى ضدها مع احتفاظها بمناسبتها فكلمة الناهل قد تعنى « الظمآن » لأن طالب المنهل يطلب الرى ، وقد تعنى الريان لأن العائد من المنهل يرتوى منه ثم يعود .

وهكذا تكون المناسبة الواحدة سبباً لاختلاف المعنى من الضد إلى ضده ، وهذه سنة مطردة فى كثير من كلمات الأضداد ، وبعض هذا كاف لاختلاف الألفاظ والمعانى عندنا وعند غيرنا ، وعند المتكلم الواحد إذا التفت إلى العلاقة بين مناسباته ومعانيه.

ولا موجب للحيرة إذن فى اختلاف ألفاظ اللغات ، لأن الذى يحيرنا حقاً هو أن يمتنع هذا الاختلاف .

الشعب . . قبلة الأدب*

قرأت فى « الأخبار » كلمة بعنوان : « معنى الشعبية والملوكية عند سلامة موسى » للكاتب الأديب الأستاذ أنيس منصور ، وفيها يلخص الأستاذ أنيس رأى الأستاذ سلامة موسى فيقول : « فمن رأيه أن العقاد وطه حسين والمازنى وهيكل والحكيم وشوقى والجارم ، كل هؤلاء ليسوا أدباء شعبيين ولكنهم بطانة ملوكية إقطاعيون ساعدوا على الظلم والطغيان . . »

ويلى ذلك كلام فى هذا المعنى خلاصته أن سلامة موسى — فى رأى سلامة موسى — هو الأديب الوحيد الذى يكتب للشعب من الشعب ، وأن من عداه من الأدباء حاشية ملكية إقطاعية . . إلى آخر ما قال .

والأستاذ أنيس منصور لم يتابع كلام الأستاذ سلامة موسى من بداءة عهده ، ولم يفته فيما نعتقد ولا كان يفوته شىء لو أنه لم يقرأ تلك الصفحات التى نقل عنها خلاصة الرأى السلامى الموسوى فى الملوكية والشعبية ، ولكنه لو قرأ ما كتبه سلامة قبل عشرين سنة لعلم أن كلامه اليوم رأى جديد لم يكن يراه بالأمس ، بل كان يرى ما يناقضه مناقضة القطبين ، إذ كان يرى أن الثورة الحقيقية إنما تأتى من جانب الملوك والأمراء ، وأن الزعيم الثائر يكفى أن ينتسب إلى الشعب ليخيب ويستحق سخط الناقد الأديب اللبيب الأريب العجيب !

قال الأستاذ سلامة موسى فى فصل عن مبادئ الثورة : « إن أكبر ثائر قام فى مصر فى العصور الحديثة هو فى اعتقادى إسماعيل باشا . فقد حاول أن يجعل مصر الشرقية الآسيوية المستكينة النائمة أمة غربية حديثة يلبس أهلها لباس الغربيين لهم حكومة برلمانية مثل الحكومات الأوربية يأكلون ويشربون ويسلكون فى سائر شئونهم مثل الأوربيين بل لقد بلغت ثورته فى ذلك أنه حض المصريين على التزوج من الغربيات ، وذلك لكى يجعل بيوتنا وعاداتنا المنزلية غربية . . وقد وفق إسماعيل باشا إلى شىء كثير مما أراد ويجب ألا ننسى أن أول يد حركت الثورة العرابية كانت

* أخبار اليوم ٢٨ / ٤ / ١٩٥٦ .

يده ولكن عرابى كان من العامة فلم يفلح فى ثورته وانعكست على يده الغاية منها . وهذا ما نريد إثباته وهو أكبر أصل من أصول الثورة أن يكون القائمون بها من الخاصة سادة الأمة لا من العوام الصاخبين » .

وهذا الكلام منقول من الصفحتين الخامسة والخمسين والسادسة والخمسين من مجموعة مقالاته « فى الحياة والأدب » التى أصدرها من مطبعة المجلة الجديدة .

وليس كلامه هذا فلتة عرضية لم تتكرر فى غير هذا الموضع ، بل هو رأى مقرر أثبته فى الصفحة الثلاثين بعد المائتين من كتاب اليوم والغد إذ يقول « ثم استمررنا نتراوح بين الشرق والغرب حتى زمن إسماعيل حين رأى بنافذ بصيرته أنه لابد لنا من أن نتفرج ونقطع الصلة بيننا وبين آسيا . . »

وقال قبل ذلك عن محمد على : « ولكنه مع كل هذه الأعمال كان يؤمن بالحضارة الغربية فأسس المصانع على النمط الأوربى وأوجد فى الأهلين روح العمل بعد أن كانت طبائع الاستعداد الشرقية قد طبعت فى الناس حب الخمول والدعة ... »

وهذه الآراء المقررة — المكررة — صريحة فى معنى الشعبية السلامية الموسوية ، فهى شعبية لا تفلح حتى فى الثورة على سادتها ما لم يكن لها من أولئك السادة معين أو معينون ، ولم يفرط أحد فى تقديس الملوك كإفراط هذا الكاتب الشعبى الوحيد الفريد الجديد ، فى القريب والبعيد .

فالأستاذ أنيس منصور يجد كثيراً حين يحاسب الأستاذ سلامة موسى هذا الحساب . لأن الآراء السلامية الموسوية تدور على لوالب كثيرة لا تستقر على حال ، وربما استفاد منا الأستاذ أنيس فائدة تذكر بمقدار ما نذكر أية فائدة تتعلق بالأستاذ سلامة بن موسى ، وهى فائدة يفهم منها كيف يتكون رأى صاحبنا فى شأن من الشئون خلافاً أو وفاقاً لما كان يراه قبل حين .

يكفى أن يذم كاتب هذه السطور — عباس محمود العقاد — فى صفحة من كتاب ليطير سلامة بن موسى على الأبراج والهضاب منادياً من يسمع ومن لا يسمع : « الحق أنت وهو » . . طيروا يا خلق . . اركبوا القطارات والسيارات والدراجات والطيارات لتدركوا نسخة من هذا الكتاب . . فإن لم تدركوها فاستعيروها ، فإن

لم تستعيروها فتوسلوا بكل الوسائل إلى نقلها وحفظها وترتيبها كل صباح وكل مساء .

وأكاد أقول إنى أستطيع أن أجعل صاحبنا يعدل عن آرائه واحداً واحداً لو أننى أعلنت الإيمان بها وتأييدها ، بل أكاد أقول إنى لو مدحت سلامة بن موسى اليوم لأصبح سلامة بن موسى غداً وقد غير رأيه فى سلامة بن موسى وجعله غير ما أقول ونقيض ما أقول ، ولو خالف كل منقول ومقول ومعقول ! »

لا عليك إذن يا سيد أنيس من الجد فى متابعة هذه الآراء وهذه المذاهب وهذه الدعوات .

إن صاحبنا سلامة بن موسى لا يعنيها ولا يلبث أن يتحول عنها إذا تحولت دواعيها ، ولا أخاله يفهم معنى ما يقول ساعة يقوله . لأن بواعث القول عنده غير الفهم وغير التفكير وغير الدراسة ، وكلها تنبعث مما يطويه لهذا أو ذاك أو لهؤلاء وأولئك من خفايا الشعور .

الشعبية أبدية

وبعد هذا ننتقل إلى الجد فى تفسير معنى الأدب الشعبى منذ وجد الأدب وكما يوجد الآن ، وكما سيوجد وسوف يوجد إلى غاية ما ندركه من العهود .

لقد كان الأدب « شعبياً » منذ وجد فى أمة من الأمم الغابرة أو الحاضرة .

كان شعبياً فى بوادى العرب وحواضرهم . . وكان شعبياً فى الدولة العربية ، وكان شعبياً فى لغة الإغريق ، وكان شعبياً فى اللغات الأوربية الحديثة ، وهو غداً شعبى وبعد غد شعبى وفى كل عصر شعبى شعبى شعبى ، ولا يمكن أن يكون شيئاً غير ذلك وإن أريد عليه بالإكراه ، وإن يدوم إكراه للأدب ولو اجتمع عليه الثقلان ..

هل قال امرؤ القيس شعراً لا يتغنى به الأعرابى السوقة فى البادية والحاضرة ؟

وهل كانت قصائد المديح تستحق درهماً من الخليفة الأموى أو العباسى لو كان الخليفة هو قارئه الوحيد ، ولم يكن له من الشعب قالة ورواة ونقاد ومقرظون ؟

والمسرحيات الإغريقية ، من كان يشهدها ويمثلها ويحفظها ويتحدث بما فيها ؟

أكان ذلك مقصوراً على خمسة ستة من الفرسان أو الكهان أو الرؤساء والأعيان ؟

ومسرحيات شكسبير ، أكانت توضع لتسلية العامة أم لتسلية الملوك ؟

لقد كانت أوصاف الملوك فيها أقبح الأوصاف من الغدر إلى الخسة إلى الخطل إلى الجهالة والعدوان والخطف والانتهاب ؟

فمن كان يريد التشهير بالملوك فماذا كان عساه فاعلاً غير ما فعل شكسبير ؟ ومن كان يريد أن ينظر إليهم بالنظرة الشعبية فكيف كان ينظر إليهم إن لم ينظر إليهم بعين الشاعر المحسوب على الملوك والأمراء .

ولمن كتب دانتي قصيدته التي نظمها باللغة الشعبية ؟ ولمن كان يكتب فرجيل وهوراس وجوفينال يوم كانوا يكتبون باللاتينية الفصحى ؟

وعندنا في مصر — من كان يقرأ ملاحم الزير سالم وأبي زيد الهلالي وسيف ابن ذي يزن وأشباههم من أصحاب السير والغزوات ؟ أكانت للملوك تنظم وتنشد أم كانت تنظم وتنشد للشعب وجمهرة المستمعين؟ . . إن أمراء مصر يوم رواج هذه السير كانوا تركاً أو شراكسة أو أكراداً أو ألباناً لا يستمعون لشعراء القهوات ولا يفقهون ما يسمعونه لو أنهم أصغوا إليه .

فالشعب هو قبلة الأدب في كل عصر وكل أمة وكل لغة ، وليس من الأمناء المنصفين للشعب من يحسبه معرضاً عن كل معنى إنساني غير ما يقال عن حشو المعدات وغطاء الجلود . . إن الشعب « إنسان » وهؤلاء إنما يتكلمون عن مخلوق لا يحسب من بني الإنسان .

وبعد هذه الحقيقة التي نقررها لحضرات القراء نتبعها « بحقيقة » سلامية موسوية يجري عليها تطبيق المذهب الذي يذهب إلى اليمين حيث نذهب إلى الشمال ، ويغوص في جوف الأرض حين نصعد إلى السماء :

« الأدب لا يكون أدباً إلا إذا كتب باللغة العامية التي لا يفقهها أحد غير الأميين ولا يبدأ القارئ بالاطلاع عليها إلا خرج من عداد الأميين » .

وانتظر يا سيد أنيس شهرين أو سنتين فإنك سامع ولا ريب قولاً جديداً عن

الشعبية والملوكية من الثائر رقم (٢) سلامة موسى بعد الثائر رقم (١) إسماعيل ابن إبراهيم .

* * *

والأدب الجامعى وأبنة الإقليمى

أما الأدب الجامعى الذى يسألنا عنه الأديب « صابر غيث » فلابد من التفرقة فيه بين نوعين قد يقال عن كل منهما إنه « أدب جامعى » ولا وحدة بينهما على الإجمال .

فنهما الآدب الذى ينشئه أستاذ الجامعة أو طالبها صاحب الملكة الموهوبة فى الشعر أو النثر أو النقد أو القصة ، ويصدق عليه كل ما يصدق على الأدب تحت عنوانه العام . إذ قد ظهر من درس الأدب الذى ينتجه هؤلاء الأدباء الموهوبون أنه — على الأقل — ضعيف الصلة بالتحلة الجامعية .

والأدب الآخر الذى يفهم من عنوان الأدب الجامعى هو الأدب الذى يدرس أو يؤرخ فى المعاهد على اختلافها ، سواء نسب إلى الجامعة أو لم ينسب إليها .

وهذا الأدب قليل العمل جداً فى إنتاج الآداب ، لأن عمله مقصور على الترتيب والتبويب وإطلاق العناوين على الأبواب والأقسام . ويدور معظمه على إلحاق الخاتمة المعهودة ببعض الأسماء وهى الـ ISM أو الياء والسين والميم بالإفرنجية .

وإحدى لوازمه المعهودة أنه شديد الولع بالتطبيقات اللفظية لتى لا وجود لها فى عالم الواقع ، ومن ذلك تطبيق الآداب الإقليمية على الديار المصرية .

فالآداب الإقليمى معقول فى أمريكا الشمالية أو الجنوبية ، حيث يكون جنوب الولايات المتحدة مثلاً أرضاً زراعية يسكنها قوم محافظون يكثر بينهم الزنوج ونبلاء القارة الأوربية من بقايا القرن السابع عشر ، وحيث يكون الشمال بلاداً صناعية تجارية مختلفة السكان والمواقع الجغرافية ، وحيث يكون الغرب سهوباً من البرارى يعمرها الرعاة وأصحاب الماشية ، وحيث يكون القوم فى هذه الأقاليم أخلاطاً من الإنجليز والألمان والفرنسيين والهولنديين وأبناء السويد والنرويج وأبناء البحر الأبيض المتوسط من الطليان والإسبان .

أما فى مصر فطبيعة الإقليم متقاربة جداً بين الغربية والمنيا، أو بين أسيوط وجرجا أو بين الشرقية والبحيرة ، وما يوجد من الاختلاف بين الأناشيد والأغانى فإنما هو اختلاف النسب والسلالة لا اختلاف الأرض والنهر والجبل والصحراء .

ونأخذها من الجنوب حيث يقيم النوبيون ولهم أغانيهم وألحانهم ولهجاتهم وأساليبهم فى التعبير ، ولا يمكن أن يقال إن ذلك كله من عمل الإقليم فى مركز عنيبة ، ولكنه من عمل النسب والسلالة ، ويجاورها فى المركز نفسه أبناء وادى العرب والعلاقى والمضيق والنجوع التى تتكلم العربية ولا تشبه النوبة فى الأنغام ولا فى معانى الكلام وإن تجاوروا فى إقليم واحد .

وإذا مضينا شمالاً إلى الأقاليم التى يسكنها الفلاحون ويسكنها إلى جوارهم قبائل هوارة وزناتة ولواتة وجدنا فرقاً يرجع إلى النسب والسلالة ولا يرجع إلى طبيعة الأرض والنهر والصحراء .

وإذا رجعنا إلى الأدب الذى سبقت الإشارة إليه فى هذا المقال ، وهو أدب القصص اليمنية والهلالية ، فهناك أدب واحد شاع فى القطر من أقصاه إلى أقصاه ، وكانت نشأته من سلالة يمنية أو عربية على الإجماع ، ولا فرق فيه بين أقاليم الوجهين البحرى والقبلى ، أو أقاليم الصحراء .

إلا أن الواقع بالتطبيق اللفظى يجعل لنا آداباً إقليمية فى بلاد لم تتوحد طبيعة الإقليم قط كما توحدت فيها ، ولم يختلف فيها بيت من الزجل أو « الموال » أو مثل من الأمثال لأنه قيل فى أرض بلا نهر أو أرض بلا صحراء ، ولكنه يختلف لعلاقته من جانب السلالة والنسب بقبيلة مختلفة ، وإن تجاورت القبيلتان فى القرية الواحدة ، فضلاً عن جوار الأقاليم .

ومن لوازم الاسم ISM أن نعطى المذاهب الأدبية فوق حقها من الأثر فى الآداب القديمة أو الحديثة ، فإن الآداب العليا لم تنشأ قط من عمل أناس يطلقون على أنفسهم اسم المذهب ثم يقولون بعضهم لبعض : تعالوا ننظم أو ننثر على هذا المذهب ولا ننظم أو ننثر على ذاك .

وفى هذا أدب شعراء اليونان فى عصر واحد ولا تجمعه مدرسة واحدة مسماة قبل وجودها ، وهذا أدب شكسبير ومارلو وبن جونسون لا « أزم » ISM بينه

فى رأى أصحابه أو فى رأى أحد غير المبوبين والمرتبين ، وقد عاش هذا الأدب وماتت مدارس « الأزم » التى أعلن عنها أصحابها وقالوا إنهم يتبعونها ويوصون غيرهم باتباعها .

فإذا وجد المذهب فإنما يوجد فى التفرقة التاريخية أو النقدية بين أعمال النوابغ المبتدعين غير المأخوذين بمحاكاة منهج من المناهج كيف كان .

ونود أن يعلم الأديب صاحب الخطاب أن عمل المؤرخين الأدبيين هنا تابع للإنتاج وليس بخالق للإنتاج ، فليس المؤرخ صاحب بستان ينبت الثمرات والحبوب والغلال . . كلا . . ولا هو صاحب المخزن الذى يملك ما فيه بعد تحصيله من البستان ، ولكنه صاحب البطاقات التى يلصقها على أبواب الحجرات ويعد ما فيها من السلال والأقفاص والأكياس .

ونحن لا نقول جديداً حين نقول إن أدب الإنتاج غير أدب التحصيل وإن هذين الأدبين غير أدب الإحصاء والتقسيم فى كل لغة وكل إقليم . . .

الشعر السايب تأباه السليقة الشعبية*

من الحجج الواهية التى يتمسح بها أنصار الشعر « السايب » وأعداء الوزن والقافية ، أنهم يتعللون « بالغيرة الشعبية » فيزعمون أن إلغاء الوزن والقافية يقرب الأدب من الشعب ، ويقولون ويعيدون إن الشعر الموزون المقفى ترف « برجوازى » يتعالى على المدارك الشعبية ويصعب على السامع « الشعبي » أن يتتبعه بالفهم أو بالحفظ والرواية .

إن الغيرة الشعبية على هذه النغمة حجة باطلة لأن العدو المبين للشعب هو الذى يحرم عليه التعليم ثم يفرض عليه الجهل ضريبة دائمة لا ترتفع عن كاهله الآن ولا بعد حين .

ولكن الأمر هنا أكثر من أمر الدعوى الكاذبة والحجة الباطلة لأن الآداب العامية — إذا صح إطلاقها على أدب الشعب — تقوم كلها على الأوزان العروضية التى قامت عليها أشعار اللغة الفصحى ، وينظمها الشعراء الشعبيون على قواعد البحور والقوافى التى نظمها شعراء الفصحى من امرئ القيس إلى المتنبى إلى البارودى وشوقى ، ومن نشأ بعدهم إلى هذه السنة الهجرية أو الميلادية ، فالمسألة إذن عند دعاة التجديد المزعوم مسألة جهل بالشعب وافتراء عليه ، وليست كلها مسألة الحجة الباطلة والرأى الهزيل .

إن عدد البحور التى نظم فيها شعراء اللغة العامية أزجالهم يزيد على عدد البحور التى احتوتها دواوين الشعراء الأقدمين والمحدثين من أقدم أيام الجاهلية إلى العهد الحاضر ، فلا صعوبة فيها على السليقة الشعرية عند الزجالين ومنهم أميون لا يكتبون ولا يقرءون ، ولم يسمعوا باسم الخليل بن أحمد واضع علم العروض وإنما كانوا جميعاً فنانين مطبوعين على النظم معولهم كله على السليقة التى تجرد منها أنصار الشعر « السايب » وأبى عليهم الغرور أن يعترفوا بالعجز فأرادوا أن يموهوه على الناس باسم

---

* أخبار اليوم ١٠ / ٦ / ١٩٦١ .

« التقدمية » و « التحررية » . . . أو باسم الغيرة الشعبية بعد استنفاد الحجج والمعاذير !

* * *

إن آداب اللغة العامية قد اشتملت على موضوعات كثيرة واختلفت فى السعة والضيق وصعوبة النظم وسهولته من الأغنية السريعة إلى الملحمة المطولة التى تستغرق عشرات الصفحات .

ومن هذه الموضوعات حكم وأمثال ، وأغانى أفراح وأناشيد مآتم ، وقصص حروب وغزوات ، أشهرها حروب بنى هلال والزير سالم وأحدثها ملاحم الحوار بين السلك والوابور وبين القط والفأر ، وبين الطير والصياد ، وأشباه ذلك من ألوان القصة والملحمة نظمها على الأكثر — أناس مجهولون ، وعلى التحقيق أناس تعلموا الأوزان بالسليقة الفنية ولم يتعلموها فى المكتب ولا فى المدرسة ولا من صفحات كتاب .

وقل من رواة الأدب العامى فى القرى من لا يحفظ حكم ابن عروس التى يقول فيها :

ما يرقد الليل مغبون ولا يقرب النار دافى
ولا يطعمك شهد مكنون إلا الصديق الموافى

أو يقول فيها :

ما حد سالم من الهم حتى الحصى فى الأراضى
لا له مصارين ولا دم ولا هو من الهم فاضى

وهى — كما ترى — مصرعة تلتزم والقافية فى الشطرين الأول والثانى ولاتقتصر قافيتها على الشطر الأخير .

وأحدث من ذلك حكم الزجالين والمتأخرين ومنها قول أحدهم فى اختيار الزوجة لمالها :

يا واخد القرد أوعى يخدعك ماله تحتار فى طبعه وتتعذب بأفعاله
حبل الوداد إن وصلته يقطع أحباله تقضى عمرك حليف الفكر والأحزان
ويذهب المال ويبقى القرد على حاله

* * *

وكل أناشيد النواح على الجملة من نظم النائحات الجاهلات اللواتى ينظمن المراثى لكل ميت وميتة على حسب المناسبة . ومنها على سبيل المثال قولهن فى رثاء الأب الذى أعقب ذرية كلها من البنات :

يا بو البنـــات اوعى تقول نايم   عدى البحوره وتعال لهم عايم

وفى رثاء الأب الشاب الذى خلف بنتاً صغيرة :

ولا تسألوا إيش وخر الغنـــدور   وخر بنية جناحها مكسور

وفى رثاء الوجيه الرئيس فى قومه :

حطوا دراع السبع فوق بابه   إن طال غيابه يحسبو حسابه

وفى رثاء فقيد الأسرة الكبيرة :

يا ولاد عمه عـــدوا عمايمكم   عمامـــة نظيفـــة غايبة منكم

ومعظم هذه المراثى ذو قافيتين لا يكتفى فيه بقافية واحدة ، بل ربما تكرر النواح بالبيت الواحد لتكرار القافية ، كما يقال فى تفريع الأبيات المتقدمة :

ولا تدفنوا الغنــــدور فى الرملة   تثـــور العجاجة وتغبر الشماة

ولا تدفنوا الغنــــدور فى الحيشان   تثور العجاجة وتغبر الشيشان

أو يقال فى البيت الآخر :

حطوا دراع السبع فوق الباب   إن طال غيابه يحسبو له حساب

ولا حصر لأمثال هذه الأناشيد « المأتمية » فى تنويعاتها وتفريعاتها على حسب القوافى والمناسبات .

ولعل الأمثال المنثورة أدل على هزل الهازلين بحديث الوزن والقافية من هذه المنظومات فى أبوابها المتعددة . . . فإن المثل العامى المنثور يلتزم القافية فى كثير من الأحيان ، ويلتزم الإيقاع على الدوام إن لم يلتزم القافية بحرف الروى المعاد . انظر إلى هذه الأمثال :

« جحر ديب يساع ميت حبيب »

« جات الحزينة تفرح مالقت مطرح »

« الجوز موجود والابن مولود والأخ مفقود »

« جوزوا مشكاح لريمة ما على الاتنين قيمة » .

« طوبة على طوبة تخلى العركة منصوبة »

* * *

فإذا جاء المثل بغير قافية فهو لا يخلو مرة من المقابلة أو الإيقاع ، ومن شواهده قولهم :

عين ما تنظر قلب ما يحزن

لا للبيت ولا للغيط

ما لقوش للورد عيب قالوا يا أحمر الخدين .

ويتفق لهم من « لزوم ما يلزم » شيء كثير يلاحظ فى الشطر بعد الشطر ولا يقنعون فيه بالبيت بعد البيت كقولهم :

إردبا مـــالك لا تحضر كيله

يتغبر شـــالك وتتعب فى شيله

أو قولهم :

القلب مرضان ومتعـــل وكتر الحكاوى شماته

من بعد ، الكسترا العـــال صبحنا لاقينش النكاته

والنكاتة فى لهجة الصعيد الأوسط هى بقايا السجاير الملتقطة من الطريق .

هذه هى « سليقة الشعب » فى الوزن والقافية يجرى عليها شاعر اللغة العامية بوحى بديهته فلا يشكو صعوبتها ولا يحتاج إلى دراستها ونقلها ، وما من شك فى أنه يستطيبها ويستعذبها ويعلم بالبداهة والتجربة أن « الموسيقية » فيها كفيلة بتوضيح معناها وتثبيته وتعميق ذكره ومعونة القائل والناقل على حفظه وروايته ، فإذا كانت القصائد الموزونة المقفاة تشق على أحد فهى لا تشق على « السليقة الشعبية » التى يتمسحون بها ويدارون عجزهم باصطناع الغيرة عليها ، لأن سليقة الشعب أقدر من سليقتهم الفاترة على الخلق الفنى ، وأسماع الشعب أقرب إلى الذوق الجميل من

أسماعهم التى تنبذ « الموسيقية » المحبوبة التى توارث الأحياء حبها من أقدم الأزمنة ليضعوا فى موضعها كلاماً سقيماً لا يصلح للفن ولا للفكر ولا هو بالمأثور المختار عند القراء المطلعين ولا عند الجهلاء والأميين .

وفى سبيل ماذا كل هذا ؟

ما هى تلك البلاغة المعجزة التى جاءوا بها وعجز الناظمون قبلهم عن مثلها فى الوزن والقافية ؟

لا بلاغة ولا يحزنون !

بل بلاهة ويحزنون !

أو ندعهم يحزنون أو يفرحون ، على أية حال ، وهم يعيدون عن الشعب ننظللوم ، لأنهم لا وزن لهم ، وهو شعب « موزون » !

« شغلة » لا تفلح . . أو لعبة لا تسلى !*

إذا صح أن إخواننا « المجددين » يعتبون علينا لأننا نقصر فى توجيههم ، فمن حق النصيحة — إذن — أن نهمس فى آذانهم ليتركوا هذا « الشعر السايب » من ألفه إلى يائه ، لأنه شغلة لا تفلح أو لعبة لا تسلى، ولن يستمع إليهم أحد فيما يتغنون به من حديث الشعر بلا وزن ولا قافية ، لأن حجتهم فيه هزيلة مملولة ، وما عهدنا فى التاريخ القديم أو الحديث أن الأمم تبنى أركان ثقافتها عشرات القرون، ثم تهدمها آخر الأمر بهذه السهولة ، وبغير حجة معقولة أو غير معقولة .

وسأكرر هذه النصيحة لهم بعد المقال الذى نشره السيد « صلاح عبد الصبور » بأخبار اليوم مقسماً فى عنوانه على أن الشعر الحر « موزون والله العظيم . . . » وحسناً صنع بالقسم ، لأنه كلام لا بينة فيه غير اليمين !

إن السيد عبد الصبور يقول إن التفعيلة هى أساس الوزن فى شعره وأشعار زملائه ، « وإن كل ما فيها من مخالفة للنمط الشعرى المتوارث هو اعتبار التفعيلة الواحدة بنياناً عروضيًّا متكاملاً . . . » إلى آخر ما قال .

كدت أعتقد أن أخانا المجدد يمزح ويتبسط فى المزاح ، لأن الاحتمال الآخر لكلامه هذا هو أن يكون جاهلاً بمعنى التفعيلة ، وقد يكون المزح فى مقام الجد أرحم من الجهل بمعنى التفعيلة عند رجل يتصدى لإصلاح الشعر العربى كله ، ويقول إنه يستبدل بأشعار الأولين والآخرين شعراً أجمل منه فى الوقع والإيقاع ، وأحب منه إلى الأذواق والأسماع .

أى تفعيلة هذه التى تريد أن تجعلها أساساً للوزن يا سيد عبد الصبور ؟

إن التفعيلات كلها تكتسب وزنها من البحر الذى تنتظم فيه ، فلا تتشابه التفعيلة فى بحرين من بحور الشعر سواء بعدد الحروف أو ترتيبها أو بعدد التفعيلات وطريقة تكرارها .

---

* أخبار اليوم ٢٤ / ٦ / ١٩٦١ .

فتفاعيل البحر الطويل مثـــلا :

فعولن مفاعيلن فعول مفاعيلن فعول مفاعيلن فعول مفاعيلن

وقد يكون منها المقبوض وغير المقبوض فتحل مفاعلن محل مفاعيلن الأخيرة ، وتحل فعلن محل فعولن الأولى .

والبحر المديد تفعيلاته غالباً :

فعول مفاعيلن فعول مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعول مفاعيلن

وقد تأتى « فاعلن » بدلاً من فاعلاتن فى بعض قصائده الطوال والقصار .

و « مستفعلن فاعلن » هى التفعيلات فى غالب وزن البحر البسيط .

ومفاعلتن مفاعلتن فعول هى تفعيلات البحر الوافر . . إلخ إلخ إلخ .

فهذه التفعيلات بين مستفعلن وفعول ومتفاعل وفاعلاتن وغيرها وغيرها ليست وزناً لكلمة ولا لبحر من البحور ، ولكنها تنتظم فى البحر فتكسب وزنها منه،وتتغير بحروفها وأسبابها وأوتادها وفواصلها ، على حسب الوزن الذى اكتسبته فى كل بحر من بحورها ؟

فأى تفعيلة هذه التى يريد صاحبنا أن يهدم العروض كلها ليبقيها وهى لا وزن لها بغير بحر من بحورها ؟

هل يريد أن يبقى البحر مع التفعيلة ، وأن يبقى البحور كلها مع تفعيلاتها فى مواضعها ؟

إن كان هذا مراده من التجديد فلماذا نهدم شعرنا القديم إذن ؟ ولماذا نقضى على الصلة بين حاضرنا وماضينا بعد إبقائنا على أوزان بحورنا وتفاعيلها ؟

أهى مجرد شقاوة ياسى عبده ؟

أتمسح دواوين الشعر العربى جميعها من أجل كلمة « التفعيلة » التى لا تنفع الشاعر ولا الناظم كيفما كان بغير بحر تنتسب إليه ؟

أيظن « سى عبده » أننا نقلب الأوزان والأسماء التى نميز بها قصائد شعرائنا منذ القدم لأجل هذه « الشغلانة » التى لا تفلح ، أو من أجل هذه اللعبة التى لا تسلى ؟ أو من أجل شىء جديد فيه غير الخلط بين الأوزان بعد الانتظام ، وغير إعدام قديمنا المسكين بلا جريرة يستحق عليها عقوبة الإعدام .

دعك من هذه الشغلة يا سيد عبد الصبور ، أو دعك من هذه اللعبة وكسر ما شئت من الأطباق والفناجين ، بل من الكراسى والدواليب ، إن كان لابد من تكسير وتخريب !

* * *

وقيل لنا إن السيد « الدكتور مندور » أيضاً قد كتب عن الآراء الغريبة التى للعقاد فى الشعر والمرأة . .

قلنا : هى شرطة النجدة المتطوعة تظهر من جديد فى الأوان ، ولا مانع عندها من الظهور فى غير أوان .

إن دور « الدكتور مندور » القديم معنا هو دور « شرطى النجدة » المتطوع كما سميناه !

العقاد يخالف أحد فى رأى من الآراء ، فاستلم صفارتك يا دكتور ، واجمع المشرقين والمغربين على نفخ الصور .

يا للظلم من العقاد . . !

يا للعنف من العقاد . . !

يا ناس . يا خلق الله . . . يا مسلمين ، . . . يا غير المسلمين من بيض وسود وزرق وصفر وحمر وبنفسجيين .

أدركونا وأدركوهم أولئك المظلومين المعلومين والمجهولين . . . أى مظلومين . . . نعم أى مظلومين !

والعقاد لابد أن يكون دائماً فى جانب العدوان والاغتصاد .

وغير العقاد دائماً هو المعتدى عليه بلا سؤال ولا جواب ولا ملام ولا عتاب .

وما القضية اليوم ؟

القضية اليوم بين العقاد وبين زمرة من « الشعراء » و « النقاد » .

جماعة الشعر « الأحرار » يقولون إنهم يهدمون تراث الشعر العربى من عهد امرئ القيس إلى الثالث والعشرين من شهر يونية سنة ١٩٦١ .

جماعة الشعر « بلا قافية » يقولون : إنهم يهدمون كل وزن غير التفعيلة . . . هد بلا نيلة ! .

لهم حق . . .

وفيها إيه !

لم لا يهدمون الدنيا والآخرة ما دام من « نفسهم » أن يهدموا لهم حبتين . . . يا نور العين ؟

لكن العقاد يا دكتور مندور .

العقاد يقول . . .

وقبل أن يعلم الشاويش « مندور » ما يقول هذا العقاد ، الممنوع ، من كل اعتقاد وانتقاد .

قبل أن يعلم وأن يسمع يتناول الشاويش صفارته ليصيح ويمعن فى الصياح ، من مغرب الشمس إلى مطلع الصباح :

أى حق لهذا العقاد أن يغار على تراث قديم ، وأن يدفع معاول التخريب والتحطيم عن رأسه الهشيم .

إن الناس يلعبون فكهين ، وإنهم ليهزءون بالأولين والآخرين ، ومن « نفسهم » أن يخربوا لهم « حبتين » اثنتين . . . ولكن هذا العقاد هو الذى يعتدى عليهم ويلوى يديهم ، ويقول لهم : اختشوا حبتين !

* * *

والأدهى من ذلك أن العقاد قبل عشرين سنة ، ولك أن تقول بعد عشرين سنة . . . أى سنة . . . !

أدهى من ذلك أن العقاد « يهاجم . . المرأة هجوماً عنيفاً قاسياً ويؤكد أنها غير صالحة لشىء ولا قادرة على شىء ، وأنها ناقصة العقل والإحساس » .

وناقل هذا عن العقاد هو الدكتور الذى يتغنى « بالتحقيقات العلميات » وينعى على الرواة أنهم يدعون ولا يحسبون حساب المسئوليات .

فهل يصدق أحد من الألوف الذين قرءوا كتب العقاد أن « محققهم » الدكتور مندور يكتب عنه لتصحيح الخطأ وتوضيح الصواب ؟ وهل يجهل أحد بعد هذا ، وغير هذا ، أنه كتب ما كتب وسيكتب ما سيكتب لأنه يخلق الخطأ للعقاد ولابد أن يخلقه له لينعاه عليه . . .

يا دكتور مندور !

الزجاجة تنكسر يا دكتور .

أما إن كنت لا تبالى أن تنكسر وراء ظهرك ، فدعها فى مكانها وحضر صفارتك قبل أوانها ، واعلم أننا سننظم قصيدتنا التالية بالشعر السايب والليالى الحمراء ، فوا أسفاه إذن على القافية والوزن ، وعلى بنات حواء .

المازنى والنقاد*

قائل هذه الأبيات :

كل حب إلى مـــلال وللحسـ ن عفاء . وما أمضى العفاء
ما لنـــا ننفق الحيـــاة يمينـــا وشمالا مستعجلين الفنـــاء ؟
أضمنـــا عمراً ســـواه جديداً أم وجـــدنا لعمرنا رفاء ؟

وقائل هذه الأبيات :

ما تبالى الأيام ثارت بنا هوجـــا أم غضـــة النسيم رخـــاء
فتراها آنـــاً تقص جناحينـــا وآنـــاً تنميهمـــا إنمـــاء
وأراهـــا لمـــا رأتنـــا قـــرودا أوسعتنا فى عيشنا إزراء
عابثـــات بنـــا يخاطبن منـــا أغبيـــاء قد أشبهوا الببغـــاء
حفظوا باللسان ثم تحـــاكوا كلمـــات من المعانى قواء
الهـــوى والخلود والوحى والعز م جميعاً ، والهمة الشماء
إيه ما أرخص العقول علينـــا إن حشونا عقـــولنا أسماء

وقائل القصيدة كلها ، وهى لم تكمل فى ثلاثمائة بيت على هذا النسق — هو ولا ريب شاعر متمكن من اللغة والفكر لا يستطيع مؤرخ أدب أن يؤلف كتاباً فى الشعر العربى الحديث ولا يثبت فيه اسمه بين طليعة الشعراء من أبناء عصره وأبناء سائر العصور واسم هذا الشاعر هو « المازنى » وكفى !

المازنى الذى جعل ديدنه — رحمه الله — ينكر على نفسه الشاعرية فى أخريات أيامه ، ولكنه — فى أخريات أيامه هذه — قد نظم قصيدة العراك وبلغ بها ما يريد على ثلاثمائة بيت وفارق الدنيا قبل أن يتمها كما يريد . وربما جاوز بها ، لو فسح له فى الأجل ، خمس مئات أو ست مئات من الأبيات على وزن واحد وقافية واحدة ، وعلى هذا النسق من جودة الكلم والمعنى وجزالة العبارة بما تشتمل عليه من دلالة الفكر وإيحاء الخيال .

* الأخبار ٨ / ٨ / ١٩٦٢ .

واسم القصيدة — العراك — يدل على موضوعها :

فهى عراك بين ملكات النفس الإنسانية من وجدان وضمير وفكر وذوق وخيال وشعور على معنى الحياة وقيمة العيش فى هذه الدنيا ، أو هى عراك بين مذاهب الفلاسفة والشعراء والنساك والخلعاء من المثاليين والواقعيين ، ومن المتقدمين والمتأخرين ، فى كل خلاف بينهم على الغاية والبداية من حياة هذا الإنسان .

ولقد نظم صديقنا هذه القصيدة ، ونظم غيرها فى غير هذا الموضوع وهو يكتب ويقول لمن يسألونه ، ولمن لايسألونه إنه نفض يديه من الشعر وود لو يقذف بقصائده جميعاً فى بحر من بحور النسيان !

ونحن نعرف أخانا فى جده ومزاحه ، وفى سره وعلانيته ، وفى رضاه وسخطه ، ونعرف أنها « مازنية » من مازنياته التى ولدت معه وشاخ وهى باقية على صباها ، وأولى هذه المازنيات « إخراج اللسان » على الماشى . . . وربما كان منها إخراج اللسان لنفسه بين أربعة جدران .

قالوا : ليس المازنى بشاعر .

قال كما يقول الصدى الساخر : وليس بشاعر . . . وليس بشاعر ، وزاد عليه الصدى العاقل فقال : وإن شئتم فليس بناثر ولكنه قبض الريح وباطل الأباطيل .

وفى ذكرى المازنى تعود هذه الأصداء إلى بعض الأجواء التى لا ينسى فيها أدب الشاعر الناثر على الرغم من منكريه وعلى الرغم من إنكاره هو مع عامة المنكرين ، فيتساءل قراء الشعر : أى حكم ياترى يلزم المازنى من إنكاره الشاعرية على نفسه ؟ وأوجز جواب على هذا السؤال أنه « اعتراف » فى الأدب كالاعتراف فى القانون لا يدين صاحبه بغير دليل . . !

فلو جاز لشاعر أن يجعل نفسه سيد الشعراء باعترافه لجاز له أن يسلب نفسه ملكة الشعر بمثل ذلك الاعتراف .

إن المرجع فى النهاية إلى كلام الشاعر من جيد ورديء ومن مشهور وغير مشهور . فهو المرجع بعد كل حكم وكل تقدير ولو كان حكم القراء وتقدير النقاد ، مردداً على ألسنة الشعراء أنفسهم فى زمرة المنكرين ؛ لأن التقليد فى الرأى جائز على هؤلاء كافة

بعض حين ، ولكنه غير جائز أبداً على طبيعة المعدن الذى ينقدونه ويقدرونه ، لأن دينار الذهب دينار ذهب بقيمة الذهب فى جوهره بين معادنه وخزانته ، وإن اختلفت أسعار الصيارفة واختلف رصيد الأوراق والأسواق .

وقد اقترحت يوماً على « أبى خليل » طيب الله ثراه أن يتوج « مازنياته » فى هذا الباب بمازنية تبقى على الزمن بين آداب الأمم ، فيستعير من موليير عنوانه الطبيب المغصوب لينظم بشعره مسرحية الشاعر المغصوب ، ويجعلها سخرية الأبد بأدعياء النقد فى عصره ، فلا تفوتهم ضحكات الخلف من بعدهم ولا يفوته هو أن يخرج لهم لسانه من عالم الخلود . . . ويوسعهم إزراء لأنه رآهم من القرود !

ولكن قراء آخرين سوف يغنون المازنى عن هذه السخرية المازنية الموليرية ، لأنهم سيقولون ، وقد قالوا : صدقت يا مازنى . . . لست بشاعر ، وليس أحد فى الدنيا بشاعر ، ان كان أصحابنا أولئك من القراء الأدباء .

ذرية البنات*

من أخبار الصحف اليوم أن رجلا طلق زوجته لأنها ولدت له أربع بنات !

ونعود — مرة أخرى — إلى الأدب القديم ليعلم « الأميون » دعاة التجديد أنه أدب يمثل الحياة ويحفظ شواهدها لزمانه وللزمان الذى يأتى بعده بمئات السنين .

قال أعرابى : زوجونى لأنجب ولداً أعلمه الفروسية حتى يجرى الرهان ، ورواية الشعر حتى يفحم الفحول. فزوجوه امرأة ولدت له ابنة فقال فيها شعراً وانتظر حولاً حتى جاءته امرأته بوليدة أخرى ، فهجرها وجعل يتردد على بيت جارة لها ، فنظمت امرأته فى هذه المرة شعراً تقول فيه :

ما لأبى حمــزة لا يأتينــا يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان ألا نلد البنينــا وإنمــا نأخذ ما أعطينا

ولو كان « الأميون » المجددون يحسنون القرءة لقرأوا هذه القصص وأمثالها فى أقرب مرجع من مراجع الأدب القديم ، فلا يقولون عنه إنه لم يعبر عن حياة الأمس ، وعندهم تعبيره عن « الأخبار المحلية » فى صحف هذا الصباح .

قالت امرأة « أبى حمزة » إن الأمهات يعطين ما أخذنه من الآباء ، فقالت ما لو شاءت مطلقة اليوم أن تزيد عليه شيئاً لما استطاعت ، فإن الأب الذى يلوم الأم على نسله ونسلها منه يسقط نفسه من الحساب ، ولا يحق له أن يفضل البنين على البنات وهو يعول على الأرحام ولا يعول على الأصلاب .

أليست البنت فى رأيه هى التى تعطى البنين كما تشاء ، ولا حساب للآباء فى أخذ ولا عطاء ؟

---

* الأخبار ٢١ / ٩ / ١٩٦٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شعر شكرى

« من محاسن الصدف أن وقع فى يدى ديوان شعر للمرحوم عبد الرحمن شكرى ، وفى هذا الديوان قصيدة مهداة لك لمناسبة ظهور ديوانك الثانى . . . وفى هذا الديوان المطبوع سنة ١٩١٨ بمطبعة إسكندرية تنبيه إلى أن الشاعر قد اجتمعت لديه من نظمه جملة من قصائد التهانى والمدائح سينشرها فى مجموعة خاصة . . . فهل نشرت هذه المجموعة ، أكون شاكراً لو تفضلتم بالإجابة عن ذلك فى اليوميات » .

رمضان فهمى أبو المعاطى

بور سعيد

لهذه القصائد سر نذيعه الآن ولا ضير فى إذاعته

إن بعض الرؤساء والزملاء فى وزارة المعارف يوم كان شكرى مدرساً بمدارسها كانوا يعتبون عليه أنه يبخل عليهم بالتهنئة الشعرية فى مناسباتها ويقولون له إنهم يحتفظون بتهنئات الشعراء من أدباء اللغة العربية العاملين فى مدارس الوزارة ولا يحبون أن تخلو محفوظاتهم من ثمرات قريحته ، وقد أجاب طلبتهم — مجاملة أو مداراة — وبعث إليهم فى مناسبات الترقية أو مناسبات الأفراح بعشرات من القصائد التى كان يرسلها إرسالا على غير اختيار وبغير عناية ، ثم جمع ديوانه وحار فيما يصنع بهذه المنظومات — المغصوبة — وهو لا يرتضيها ولا يرتضى شعر المناسبات من قبيلها ، فأشار عليه بعض أصدقائه أن يطبعها فى نسخ معدودة على قدر أصحابها ، وأن ينبه إلى ذلك فى ديوانه « رعاية لخواطرهم » . . . وقد أعجبته الفكرة فكتب ذلك التنبيه وهو لا ينوى أن يطبع كثيراً ولا قليلا من تلك القصائد المنتزعة منه على غير اختياره ، وقال لأحد الناشرين أنه يعطيه القصائد ليطبعها بغير مقابل ، إن رأى فى طبعها فائدة مادية . . . فلم يطبعها الناشر ولم يحتفظ شكرى — على ما أعلم — بأصولها ، ولا أحسب أن نسخ القصائد موجودة اليوم عند أحد غير من حفظوها من الذين أرسلت إليهم ، ولست أعرف أحداً منهم الآن .

---

* الأخبار ٢٦ / ١٠ / ١٩٦٠ .

الاتصال بين موضوعات الأدب الأصيل *

الشاعر القروى

من تجاربى فى المطالعة أنك لا تجمع خمسة كتب من الأدب الأصيل حيثما اتفق إلا وجدت بينها شيئاً من الاتصال فى موضوعاتها ولفتات الخواطر عند مؤلفيها ، وتعليل ذلك يسير عند من يرى أن موضوعات الأدب الأصيل كلها تستقى من ينبوع واحد ، وهو ينبوع السليقة الإنسانية .

وقد صدقت هذه الملاحظة فى الكتب التى بين يدى ، ومنها ديوان الشاعر القروى الأستاذ رشيد خورى فى دار الهجرة بالبرازيل .

فأين من البرازيل القاهرة ؟ وأين من عروس القريض وعروس القصة ؟ وأين أسلوب الحكيم وأسلوب الرشيد ؟ وأين قصص حيكت فى الشهور الأخيرة من قصائد صيغت منذ سنوات ؟

فوارق شتى . . .

ولكنك تقرأ فى ديوان الشاعر القروى من قصيدة « أين وجدت الله » .

هو الحب حتى ليس فى الأرض مجرم	ولا مدمع يجرى عليها ولا دم
وحتى كأن القلب فى خفقـــانه	يود به نطقاً كما نطق الفم
فقل للذى لم يعرف الحب قلبــه	ولم يلف إلا شاكيــاً يتألم
أيا صاحبى إن العـــداء جهــنم	وما فيه من عز لتحلو جهنم
ويا صاحبى إن التجهـــم يقتضى	من الجهد ما لا يقتضيه التبسم
ألا كل دين ما خلا الحب بدعـــة	ألا كل علم ما عداه توهم
ولا عجب أن يشكر الله كافــر	فماذا ترى من يجهل الحب يعلم ؟

وفى الديوان أيضاً حديث يتردد من الذرة وقذائفها ومن يحاكمون من النازى ومن يحاكمهم ، يقول الشاعر فى بعضه :

---

* أخبار اليوم ١٠ / ١ / ١٩٥٤ .

أمحاكم « النازى » وشرك لــو طغى طوفان نوح فوقه لم يغسل
ألقيت عنهـــم وزرهم وحملته يوم القيامة فوق وزر أثقل
لا سلم حتى تستريـــح الأرض من نفر بإرهاق الشعوب موكل
أعدى على أمـــل السلام ذريـــرة لم تبــق منه ذريرة لمؤمـــل
شحذ الذكاء فشقها للفتك مـــن سوداء قلب الجـــوهر المتحلل

ولا نستطيع أن نطيل فى الاقتباس من هذا الديوان النفيس ، فإنه من الدواوين القلائل التى تجد فيها الشعر كلما قلبت صفحة من صفحاته ، ولكن على سبيل المثال خذ من إحدى صفحاته بغير ترتيب فى موالاة الدول الأجنبية :

ربما كان من توالى من الإفـــر نج أهى عليك ممن تحارب
لن يعادى من أجلك العلج علجاً والأفاعى بنات عم العقـــارب

وخذ من صفحة أخرى فى ذكرى المتنبى :

كلا أحمديها جـــاء فيها بمعجـــز فللشرع قرآن وللشعـــر قرآن

وخذ من صفحة غيرهما فى يوبيل المقتطف :

خمسون عاماً من شباب الفـــكر قـــد طويت لنشر هدى وبذر فضائل
عمر الفتى مجمـــوع أعمـــار الأولى منـــه استفادوا ناقلا عن ناقل
واللانهـــاية من ثـــوان ساوقـــت نبضاتهـــا نبضات قلب عامل

ومن صفحة أخرى فى الجامدين :

أديانهم محصـــورة فى الطقوس نفوسهم يا ذلها من نفوس
لهم جســـوم ما عليهـــا رءوس لهم رءوس ليس فيها عقول !

ومن شعر العناوين تسمية المقطوعات بالموجات القصيرة ، وتسمية الغزل بزوايا الشباب ، وتسمية شعر الشباب بالبواكير ، وليس منها عنوان لم يجمع تحته آيات بينات على صدق الوعد وصدق الموعود .

الهوى والشباب

والهوى والشباب شعر عربى ..

أو هو على الأقل شعر لا ينظم فى لغة أخرى غير العربية ، تعترف بالمفرد

والجمع ولا تعترف بالمثنى ، فإن اعتماد الشاعر فى القافية على صيغة المثنى لابد له من لغة عربية تسعفه إذا أراد أن يقول :

موقفى بين حائطين لا يحيران أخرسين
وعلى الخد دمعتين

وإذا أراد أن يقول :

يا عاقد الحاجبين إن كنت تقصد قتلى
قتلتنى مرتين !
أصفرة فى جبينى أم رعشة فى اليدين

وإذا أراد أن يقول :

جرت فى الموت والحياة عليا وحسوت الضياء من ناظريا
كنت أنشودة الخلود على ثغ ر ى وهمس السماء فى أذنيا

وإذا أراد أن يقول :

لم يكن لى غد فأفرغت كأسى ثم حطمتها على شفتيا
أأنا العاشق الوحيد لتلقى تبعات الهوى على كتفيا

وإذا أراد أن يقول :

الصبا والجمال ملك يديك أى تاج أعز من تاجيك

وإذا أراد أن يقول أكثر ما يقول .

وجرياً على هذه السنة وعلى سنة التوافق فى الموضوعات بين ينابيع الأدب الأصيل يقول الشاعر عن سيف الدولة والمتنبي :

سيفان فى قبضة الشهباء لا ثلما قد شرفا العرب بل قد شرفا الأدبا

ويقول عن التجديد فى هذه القصيدة :

قالوا الجديد فقلنا أنت حجته يا واهباً كل عصر كل ما خلبا
بعد الجديد الذى يدعونه أدبا يموت فى يومه — هذا إذا وهبا

والديوان الذى نعنيه — كما قد عرف القارئ من اسم الهوى والشباب — هو ديوان «بشارة الخورى» الملقب بالأخطل الصغير ، ولا تبخسه حقه صيغة المثنى

الكثيرة فيه ، بل قد تضاعفه وتثنيه ، إذا وزنت مع ألفاظه ومعانيه .

وقد أنصفه الشاعر المجيد عادل الغضبان إذ يقول فى تقديمه إنه « عاش حتى اليوم بتلك الروح الرقيقة الحلوة ينبض بها الشعور الحى الخافق فأسالها على أوتار الشعر غناء تنتشى منه القلوب قبل الأسماع وحمل ذلك الغناء إلى قلوب الناس صوراً من جراحات الهوى وبسماته . . »

فالرقة حسنة تسرى فى أبيات الديوان طوعاً ، وقد تسرى فيه مقسورة بمشيئة الشاعر ، ومن ثم يعيبها أنها لا تساغ إلا بغمضة من العين لا غنى عنها لتصديق الخيال المقسور .

وإليك مثلا قصيدة هند وأمها وهى أيضاً على قافية المثنى :

أتت هند تشكو إلى أمهـــا ... فسبحان من جمع النيرين
فقالت لها إن هذا الضحـــى ... أتانى وقبلـــنى قبلتين
وفـــر فلمـــا رآنى الــدجى ... حبـــانى من شعره خصلتين
وما خاف يا أم بل ضمـــنى ... وألقى على مبسمى نجمتين

فكل خيال سائغ إلا أن نتخيل بنتاً تعرف أمها التى ولدتها كيف خلقت بمحاسنها وملامحها ، ولو كانت البنت هى التى تسأل عن تلك المحاسن والملامح فتخبرها أمها بأسرار خلقها لصح الخيال هنا واستغنى عن القسر وعن غمضة العين ، لأنه خيال يصدق والعينان مفتوحتان .

ومن أمثال هذا الخيال الذى يكثر فى الديوان ، ويود له تغمض له العينان ، هذان البيتان :

رحمة رب لست أسأل عدلا ... رب خذنى إن أخطأت بخطاها
دع سليمى تـــكون حيث تـــرانى ... أو فدعنى أكون حيث أراها

فهنا مكان واحد ، وليس هنا مكانان .

ومن أمثاله أن يصبح كل شىء رقة وتقبيلا حتى الجهاد :

قم نقبـــل ثغـــر الجهاد وجيـــده ... أشرق الـــكون يوم جدد عيده

هذا المعنى : « إن كثيراً من شعراء الغرب لا ينظرون إلى الأديان نظرة ملؤها القدسية والاحترام ، فكذلك نرى شعراء المهجر لا يأبهون بتعاليم الدين » .

والواقع أن جو المهجر كله كان ولم يزل إلى التشدد فى المحافظة أقرب منه إلى التمرد والإنكار ، فلا يزال بعض الجامعات هناك تحرم تدريس مذهب دروين ومذاهب الاقتصاد المادية ، ولا نزال نذكر ثورة القوم على الفيلسوف الإنجليزى برتراند رسل لما أبداه من رأى فى مسألة الزواج بين الطلاب ، ولم ننس قبلها ثورتهم على مكسيم جوركى لأنه كان يسيح مع خليلته فى الديار الأمريكية ، وأنهم مع هذا قد كانوا يعطفون على الثائرين الروس ويقاومون سياسة القياصرة فى الشرق الأقصى ، وهذا شاعرهم فى العصر الحاضر – إليوت – عميد من عمداء حركة الكثلكة الجديدة فى البلاد الإنجليزية ، وقديماً كانت بلاد المهجر من قبل الحرب الأهلية إلى ما بعدها تستمع إلى أصوات «الدينيين الحماسيين» قبل سائر الأصوات ، فمنذ حملة وليام رسل سميث إلى حملة جاكوب ليسلر Leisler وجون كود Coode إلى حملة تيموثى بكرنج Pickering لم يسمع صوت أقوى فى أرض المهجر من أصوات المحافظين المتشددين ، وقد كان بعضهم يشمل بحملته كل جماعة مشكوك فى مقاصدها الدينية كالماسون وأصحاب النحل السرية ، ولا شك أن الحرية الفكرية تجرى فى مجراها بين هذه الحملات المحافظة ، ولكنها على أقواها وأشدها لا تسوغ القول بغلبة الإنكار على التدين والإيمان .

ونحن نعتقد أن ثورة الأدباء المهجريين بدأت فى لبنان ، وأنها ثورة على السلطة التقليدية وليست ثورة على العقيدة فى جوهرها ، لأن حوادث سنة ١٨٦٠ قد انتهت بتقرير الحقوق الطائفية المعلومة ، وأسند تنفيذ هذه الحقوق إلى رؤسا الطائفة بطبيعة الحال ، فاجتمعت فى أيديهم سلطة سياسية وحكومية نافذة إلى جانب السلطة الدينية والكهنوتية ، وشق احتمال هذه السلطة على الجيل الجديد فتمردوا عليها وظهر ذلك فى قصص الكتاب وقصائد الشعراء ، فكان أكثر ما فيها ثورة على تقاليد المجتمع فى صميم لبنان ، وفضل اللبنانيين فى ذلك لا يحتاج إلى مدد من الخارج يعزى إلى العالم القديم أو العالم الجديد ، وبخاصة حين نعلم أن القائمين بالتعليم الحديث فى المدارس اللبنانية كانوا هم أنفسهم من رجال الدين ، وكان فريق منهم رهباناً أو مبشرين .

المبالغة الشعرية *

يسأل الطالب النجيب « محمود برهان الدين » بالمدرسة السعيدية الثانوية « عن المبالغة الشعرية » و يطلب تعيين حدود المبالغة المقبولة .

ورأينا فى المبالغة ، عموماً أننا يجب أن نتلخص من مبالغة النقاد العصريين فى فهم الأوصاف المبالغ فيها . فلا نحتاج بعدها إلى حدود كثيرة للتفرقة بين ما يجوز فى الوصف الفنى للشاعر والفنان وما لا يجوز لهما ولا لغيرهما فى كلام واصف أمين .

فكثير من النقاد المعاصرين يقيسون المبالغة بمعيار القناطير والأشبار ، فيحكمون بالمبالغة على أوصاف شعرية لا مبالغة فيها على الإطلاق . . .

إذا قال الشاعر إن ممدوحه كالجبل الأشم ، وقاراً ومنعة وهيبة فى الانظار قالوا : تلك مبالغة محققة ! لأن الجبل يزن ألوف الأطنان والبطل الممدوح، لا يزيد وزنه على قنطارين . . . !

لكنه خطأ من النقاد وليس الخطأ فيه من الشعراء ،

لأن المقارنة بين الجبل الأشم والإنسان الوقور المهيب ينبغى أن تقاس بالأثر النفسانى فى وجدان الناظر إليهما ، ولا يصح أن تقاس بالمقاييس الحسية فإننا إذا نظرنا إلى هيبة الجبل وهيبة البطل العظيم لم نشعر بالمبالغة ولم نضع هذا ولا ذاك فى ميزان الفنان لنعلم صدق الشاعر والفنان ، وربما كانت مبالغة الشاعر هنا معكوسة إذا كانت هيبة الناظرين العظماء الذين يعرفون أقدارهم أكبر وأعمق من هيبتهم لمناظر الجبال .

وقد يقول الشاعر حين يصف الحزن أن النهار قد أظلم فى عينى الحزين وأن الشمس قد انطفأت أمام بصره ، فيقول الناقد إنها مبالغة ولا مبالغة فيها من ناحية الشعور الصادق . . إذ كانت وحشة الليل المظلم أهون من وحشة النفس الحزينة فى وضح النهار .

---

* الأخبار ١ / ٣ / ١٩٦١ .

وإنما المبالغة التي تكاد أن تكون هزلاً هي اختلاق المعاني الوهمية لتمثيل الحقيقة كما قال الشاعر محمد إمام العبد — وهو أسود الجلد — يرثي الأستاذ الإمام محمد عبده : « لبست سوادي فيك من قبل مولدي » . . . فإن سواد الجلد لا يمثل سواد الحداد على أي معنى من معانيه ، ولو صح قول الشاعر لكانت حياته كلها حداداً على الأستاذ الإمام قبل أن يموت ، ولما كان له فضل يسير الشاعر ويستحق من أجله أن يحزن عليه .

وقد قال الشريف الرضي يرثي عالماً راجح اللب راسخ العلم مشهوراً بالحكمة والوقار :

جبل هوى لو خر بالبحر اغتـدى   من وقعـه متتابـع الأزباد

فإذا جاء ناقد فقال إن الشريف بالغ في وصف هول الحزن بهول البحر المزبد إذا وقع الجبل فيه فالخطأ هنا من الناقد لا من الشاعر ، لأن هول الخبر الذي يتردد في أسماع العارفين بفضل العالم المرثي أكبر من هول الموج المضطرب من موقع الجبل فيه .

فلا مبالغة بين أثرين متشابهين في شعورنا بكل منهما ، ولو قيس أحدهما بالفراسخ والأطنان وقيس الآخر بالقيراط والجرام .

أسلوب السجع *

(قرأت فى يوميات الأخبار ردكم القيم على السيد حسنين خليل حول كتاب «خمسة أيام فى دمشق الفيحاء» . . وقد استرعى انتباهى فى ردكم إيثاركم الأسلوب المسجوع الذى جاء – والحق يقال – خالياً من شائبة التكلف أو الافتعال ، ولكنى أعلم أن الأستاذ الكبير لا يؤثر الأسلوب المسجوع على الأسلوب المرسل إلا لماماً . فهل لى أن أسأل : هل تؤثرون أسلوب السجع الآن أو أن الطابع التهكمى الساخر الذى اتسم به تعقيبكم هو الذى وجه قلمكم نحو هذا الأسلوب ؟ . .)

إجلال محمود سعيد

طالبة بكلية الآداب – جامعة عين شمس

إن الآنسة الأديبة قد أجابت عن سؤالها وكادت تغنينى عن الإجابة ، لولا بعض التفصيل .

فالواقع أننى أختار السجع فى موضوعات التهكم والدعابة كما أختاره فى الموضوعات الوجدانية وما إليها مما يلحق بالأغراض الشعرية ، فإن السجع ينبه الذهن إلى المعانى فى هذه الأغراض ويزيدها جلاء ، وتوكيداً كأنه اللحن الذى يضيف إلى الكلمات ومعانيها قوة ليست للكلام الذى يسمع بغير تلحين .

ولكننى أتجنب السجع فى المباحث الفكرية لأنه – على عكس ذلك – يشغل الذهن بانتظار القافية ونهاية الفاصلة فيصرفه عن متابعة الفكرة والمضى مع سياق العبارة المتصلة بين المقدمات ونتائجها .

ومن الواجب أن نصحح هنا أوهاماً عارضة تغلب على جماعة المجددين « المقلدين » الذين يستنكرون أسلوباً من الأساليب على السماع ولا يسألون أنفسهم : لماذا استنكروه ؟

فليس السجع منتقداً لذاته وإلا كان نظم الشعر أولى بالانتقاد . وإنما يعاب

---

* الأخبار ٢٦/١٠/١٩٥٩ .

السجع إذا اضطر الكاتب إلى التضحية بالمعنى وبالتعبير السليم فى سبيل الأسجاع الملفقة والفواصل المغتصبه .

أما إذا استقام به المعنى وازداد به تأثيره وانتباه الذهن إليه فهو واجب مفضل على الكلام المرسل ، وميزان الحكم فى هذا الأسلوب أن نحاول استبدال الكلمات المرسلة بالكلمات المسجوعة ثم ننظر إلى الفرق بين أثر الأسلوبين . فإذا ضعف الكلام بعد قوة وسكن بعد حركة فالتجديد هو اختيار السجع وإهمال الاسترسال ، ولا مسوغ لإيثار الكلام والمرسل فى هذه الحالة إلا الشعور بالعجز عن سواه . .

اللغات الأجنبية

قلتم فى إحدى يومياتكم . . . « إننا إذا تساوى عندنا الجهد فى تعلم اللغات الكبرى والاسبرانتو فالأنفع لنا أن نتعلم اللغة التى يعرفها الملايين وتحوى بين آثارها أمهات كتب الثقافة » .

. . فما رأى سيادتكم فى الاتجاه إلى إلغاء الدراسة باللغات الأجنبية فى جامعاتنا ؟ . .

محمد محمد مرشدى بركات

القاهرة

لا غنى عن تعلم اللغات الأجنبية بأية حال ، وبخاصة فى هذا العصر الذى اشتبكت فيه العلاقات العالمية والمصالح الدولية فى كل مطلب من مطالب الحياة العامة أو الحياة الخاصة .

أما التدريس بلغة الأمة فذلك هو الواجب المستحسن متى تحققت شروطه الضرورية ، وأول هذه الشروط توافر الكتب والمراجع التى تشرح العلوم للطلبة بلغتهم فى كل مرحلة من مراحل التعليم إلى أعلى درجاته ، وشيوع المصطلحات العلمية والفنية التى تساعد المعلم والمتعلم على أداء المعنى الدقيق فى كل مادة من مواد التعليم .

وبعد هذا لا غنى عن إتقان لغة أجنبية وعن مصاحبة كل استصلاح فنى بترجمته فى تلك اللغة ، لأن كثيراً من المصطلحات ترجع فى لغاتها الأصيلة إلى أسماء أعلام من المخترعين وأصحاب النظريات ، ومنها ما يختزل عن كلمات متعددة يؤخذ من كل كلمة حرف أو حرفان للرمز إلى عبارة طويلة لا يسهل نقلها . وقد حاول الألمان فى عهد النازية محو الكلمات اللاتينية واليونانية والأجنبية على العموم من كتبهم الدراسية فتعثروا زمناً فى هذه المحاولة ثم أخذوا يعدلون عنها الآن ، وستنتهى كل محاولة من هذا القبيل إلى الفشل لاستحالة العزلة الثقافية فى الزمن الذى نحن فيه ؛ وقد كانت فى الواقع مستحيلة فى كل زمن .

بلاغة العرب فى مراحل التعليم*

تدرس نصوص الأدب فى مدارسنا على قواعد البلاغة العربية ، ولكن باعتبار البلاغة ذوقاً ومفهوماً ، وليست قواعد مقررة وقوالب محفوظة ، كتلك التى حفظت بمصطلحاتها وجمعت فى علوم عرفت بأسمائها ، وهى البديع والمعانى والبيان .

وهذا حسن وليس كل الحسن !

أو هو حسن على شريطة لا بد أن تفهم ، وأن تظل حاضرة فى الذهن عند التعويل على الذوق والفهم فى نقد النصوص وتفسيرها .

فلا بد أن نفهم أن علوم البديع والمعانى والبيان لم توضع لتلغى أو لينصرف عنها النظر فى الدراسة أو المطالعة لأنها هى خلاصة الملاحظات التى أدركها النقاد بالذوق والفهم واهتدوا بها إلى مواضع البلاغة فيما وعوه من كلام الشعراء والكتاب .

ولقد وضعها الأقدمون وأدركوا من شأنها كل ما يدركه المحدثون الآن من فوائدها ومآخذها ، بل أدركوا منها — على التحقيق — فوق ما يدركه المتحذلقون الذين يجهلون البلاغة قواعد ومصطلحات ، كما يجهلونها معانى ومفهومات .

أليس أولئك البلغاء الأقدمون هم الذين كانوا ينصحون تلاميذهم قائلين : احفظوا جيد الشعر وانسوه ؟ !

بلى . . تلك كانت نصيحتهم ، وتلك هى غايتهم من تسجيل ملاحظاتهم ، وهى أن تعرف حتى تصبح فى الذهن عادة من عادات البداهة بغير قصد ولا محاولة ، كما يعرف الإنسان سبب العمل الذى تعوده وهو يفكر فى غايته ، ثم يعمله بعد ذلك وليست الغاية حاضرة فى ذهنه

فالعلوم التى عرفت باسم علوم البديع والمعانى والبيان صحيحة لا عيب فيها ، وكل ما يؤخذ عليها فإنما يؤخذ على « إساءة استعمالها » ولا يؤخذ على استعمالها كما ينبغى لها وكما أرادها واضعوها .

---

* الأخبار ٢٩ / ١ / ١٩٦٤ .

وسوء استعمالها أن تصبح قيوداً لا فكاك منها ونماذج للمحاكاة « الآلية » بغير فهم لها ولا تصرف فى مدلولها ، وأن تكون الحلية هى المقصودة دون ما تحلية .

واستعمالها كما ينبغى أن تصبح للمتعلم والناقد « توجيهات » تختصر له جهود البلغاء الأولين فى سطور معدودة ، ويستعين بها على امتحان الرأى فى مواضع الخلاف والمناقشة .

وكل حرف من حروف هذه القواعد هو ذخيرة باقية لا يستغنى عنها ، وإنما يأتى الخطأ ممن يتبعها بغير فهم ولا ذوق ولا يأتى الخطأ من قبلها .

ومما ينبغى أن يقال ، والحق ينبغى أن يقال : إن الحذلقة كانت أكثر من الوعى الصادق والفهم الحسن عند من حاولوا فى العصر الحديث أن يبطلوا علوم البديع والمعانى والبيان ، فكادوا أن يبطلوا « موضوعاتها » ومحاسنها قبل أن يبطلوا حواشيها ومواطن الفضول منها .

وأول الخطأ — بل أكبر الخطأ عند هؤلاء — أنهم جهلوا أقدار الأقدمين وجهلوا أقدار أنفسهم ، فوقع فى وهمهم أنهم يلغون تلك العلوم لأنهم أحق من واضعيها بتعليمها وأقدر منهم على إدراك البلاغة ونقدها ، وفاتهم أن الناقد الأول الذى لحظ الجناس فى اللفظ والمعنى وقسم أقسامه وميز بين فروقه وسمى كل قسم من أقسامه باسمه وكل فرق من فروقه بمزيته ، لم يفعل ذلك إلا بعد أن تيسر له أن يطلع على مئات من القصائد ومن العبارات المنثورة ، وأن يستخدم فهمه وذوقه فى ملاحظتها والمقابلة بينها ، وفى تبويبها وترتيب أبوابها ، واختيار الأسماء التى تدل أحسن الدلالة على معانيها ووجوه المشابهة أو المخالفة بينها ، وأن أحداً منهم لو أراد أن يعيد هذه « العملية » عوداً على بدء وأن يضع لها — من جديد — قواعد غير القواعد ، وأسماء غير الأسماء ، لخرج من ذلك على التحقيق بنتيجة لا شك فيها ، وهى أن يعرف قدر نفسه وأن يعرف الأقدار التى تحدثه النفس أن يستطيل عليها بحسن الفهم وحسن التوجيه .

ومن أوضح الأمثلة على ذلك أن معنى « التقليد » لم يفهم حق فهمه عند الكثيرين من نقاد العصر إلى الآن ، ومن فهمه بعض الفهم لم يفهم ما هو المحظور منه ، وما هو سبب الزراية به والإنكار عليه .

وأندر من فهم معنى التقليد فهم معنى المبالغة التى ينعونها على الأقدمين من المبتكرين والمقلدين ، فأكثرهم لا يزالون يحسبون أن المبالغة شىء يقاس بمقاييس الأحجام والألفاظ ، وينكرونْ ما ينكرون منها على أساس هذا الخطأ الملموس !

فوصف الإبل — مثلا — من الأوصاف الشعرية التى يسلكونها فى باب «التقليد» بلا تردد ولا مراجعة . . لأن الإبل بعض موصوفات المتقدمين فلا ينبغى أن تكون من موصوفات المتأخرين .

ولكن لماذا يعاب الشاعر الذى يصف لنا رحلة من رحلاته على ظهور الإبل إذا كنا نمتطيها اليوم فى أماكنها كما نمتطى القطار والسيارة والطائرة السباقة قصوت ؟ ومن الذى قال إن « الإبل » مخلوقات لا معنى لوجودها إلا أنها « موديل » من المواصلات سابق لموديل البخار والكهرباء ؟

وقصائد المديح — مثلا — من المنظومات الشعرية التى لا تردد ولا مراجعة فى اعتبارها على علاتها مذهباً من الشعر القديم لا يجوز للشاعر الحديث أن يذهب إليه.

وهذا هو التقليد بعينه فى فهم التقليد ، لأنه يصدر ممن يعيب الشىء ولا يدرى علام يعاب ؟

فالمديح الذى كان يعاب على الشاعر القديم إنما يستنكر لأنه ابتذال للفكر والضمير فى سبيل العطاء ، وقد يستنكر لأن العطاء يأتى من صاحب سلطان قد يجمع المال نهباً وغصباً كما يجمعه حقاً وكسباً ، وقد تكون عودة الشاعر إلى المديح فى هذا العصر نكسة إلى العصر الذى كان له سلطان يقوم على غير أساس الحكم فى هذا الزمان .

أما العظمة التى تهز النفوس إعجاباً وتبعث فينا الشكر وفاء وتقديراً ، ونلمس فيها العلم الذى يهدى والعمل الذى ينفع والخير الذى يعم الناس ولا يخص عامله، فلماذا لا نمدحها ونطنب فى مدحها ؟ بل لماذا نلوم الشاعر على تقديرها وهو أولى بأن يلام على تركه ؟

وفى فنون الكتابة يحسب النقاد « من الموديل الأخير » أن الكلام المسجوع معيب حيثما كان ، وكيفما كان ، ولأى غرض كان ! وقد يمضى الناقد من هؤلاء وراء ذلك خطوة فى البيان والتصرف ، فيقول لك إنه معيب لأنه « تكلف » !

وإنه لينطق بكلمة « التكلف » وهو يحسب أنها وحدها كافية للنقض والإبرام بغير بحث ولا كلام !

ولكننا ينبغى أن « نبحث » معنى « التكلف » أولاً لتعرف مواضع العيب فيه .

فإذا كان التكلف هو كل شيء يحتاج إلى جهد غير جهد اللفظ المرسل بغير محاولة ولا مزاولة فليس فى الفنون جميعاً شيء لا يعاب !

يعاب النغم فى الموسيقى ، ويعاب التحضير فى التمثيل ، وتعاب الأوزان والتفاعيل فى الشعر ، ويعاب التأثير بالقول والإشارة فى الخطابة ، ويعاب كل فعل ينشئه تدبير صاحبه ولا ينشأ هكذا « بقدرة قادر » وعلى غير انتظار من الفاعل والناظر .

وليس هذا بصحيح فى جملة ولا تفصيل .

وإنما يعاب التكلف الذى يظهر فيه عناء « الكلفة » على صاحبه ، ويظهر عناء الكلفة عليه إذا ضيع معناه فى سبيل لفظة ، أو يظهر هذا العناء إذا تبين من الأسلوب أن « المحسنات » تزويق فى غير موضع التزويق . . وهكذا تكون الحلية التى تلبس فى غير موضعها كما تكون حلية الزخرف البهيج فى المأتم ، أو الزخرف الضاحك فى مواقف الجد والخطر ، أو يكون زخرف الإغراء حيث يستحب الوقار والحياء .

أما الكلفة التى هى « القدرة » اللازمة لكل مقتدر على فنه ، والتى هى وسيلة إلى الغرض منها بغير تضييع لمعناه أو لفظه ، فليست هى من التكلف وليس فيها عيب التكلف ، وهو المحاولة حيث يظهر العجز ، والادعاء حيث لا تثبت الدعوى ، وقد يكون التكلف فى هذه الحالة أنك تترك السجع وهو أبلغ فى الأثر وأجمل فى اللفظ وأهون على توكيده وعلى حفظه وحفظ معناه .

ومقياس النقد الصحيح فى ذلك أنك تعمد إلى الكلام المسجوع فترسله وتمحو مواطن الفصل والإيقاع فيه ، فإن كان المعنى واحداً وعليه المزيد من جمال النغم وسهولة الحفظ وبلاغة الأثر فالمعيب المتكلف هو الكلام المرسل والمحمود السائغ هو الكلام المسجوع .

* * *

وربما كانت عيوب « المبالغة » أعسر فهماً على النقاد المحدثين من جملة تلك العيوب . لأنهم يقيسونها جميعاً بمقاييس الألفاظ أومقاييس الأشكال والأحجام ، ولا يفهمون أن أثرها فى النفس هو المعنى المقصود بجميع التشبيهات والمجازات .

فرشاقة الحركة هى المقصودة بمشابهة « الغزال » وليست دقة الساق ولا مشاكلة الرأس والشفتين ، فإنها أقبح ما يرى فى الإنسان على صفة الحيوان .

وإذا قال الشاعر القديم فى وصف الكريم إنه أعظم من البحر الخضم ، فالناقد الغافل عن معنى التشبيه سريع إلى قياس البحر الخضم بالأميال وقياس الرجل الكريم بالأشبار . . لينقد المبالغة « الهائلة » فى مطابقة الأشبار للأميال ، ولو أنه نظر إلى أثر العطاء من الكريم فى شعور من يحسن إليه لكانت المبالغة أقرب إلى جانب الحجم الصغير !

ويكذب الشاعر المفجوع كذباً واضحاً إذا قال فى وصف الفجيعة إنها زلزلت الأرض وكسفت الشمس وضيقت منافذ الهواء ، لأن شيئاً من ذلك لم يحصل فى العالم المحسوس ، ولكننا ننظر إلى الضمير الواجم والقلب المضطرب والعين التى تعرض عن كل ما تراه فلا نرى « أثراً » أشبه بأثر الزلزال وأثر الكسوف من وصف تلك الفجيعة !

ولقد أصاب « المتنبى » أكبر ما يصيب شاعراً أو ناثراً من هذه المقاييس فى تقدير أولئك النقاد المحدثين .

فخرج من باب الوصف الصادق قوله فى وصف نحوله :

كفى بجسمى نحولا أننى رجـل   لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

كأنما كان المتنبى يعنى حقًّا أنه غاب بنحوله عن العيان ، وهو لم يكن يعنى ذلك ولا عناه فى العصر الحديث نقاد الرياضة « البدنية » الذين تخصصوا فى الوصف « العلمى » للأبدان وقدروا بعضها بوزن الريشة وبعضها بحجم الذبابة أو بحجم الديك ، ثم فهم الناس معنى الاصطلاح فلم يخطئوا مدلوله قيد شعرة بالوزن ولا بالقياس .

ومما تعرض له « المتنبى » خاصة فى أدب النصوص أن تكون العناية بتحرى الإسناد مقدمة على العناية بمفهوم دلالة الكلام .

ومن الأمثلة الكثيرة على ذلك سؤال تلقيناه من الطالب الأديب « محمد سعد حسن بطاطه » بمدرسة النيل الثانوية بالإسكندرية ، يقول فيه إنه يفهم نص البيت التالى على غير ما ورد برسمه وشكله فى كتاب النصوص ، وذاك إذ يقول المتنبى فى وصف الحمى :

يضيق الجلد عن نفسى وعنها فتوسعه بأنواع السقام

فإن الطالب النجيب قد ألهم بذكائه أن المقصود هو النفس بسكون الفاء وليس بفتحها .

وهذا ما حفظنا البيت عليه رواية عن أساتذتنا المحققين ، خلافاً لما جاء فى نصوص بعض الدواوين ، وإنه لهو القول الراجح فى لفظ البيت ومعناه. لأن الإنسان المصاب بالحمى ليس بزق من الجلد خلا من اللحم والعظام ولم يتسع لغير أنفاس الزفير والشهيق ، ومهما يكن من مصاب أبى الطيب بالحمى فإنه ذكر عظامه فيما احتواه جلده حيث قال مشيراً إلى الحمى :

بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت فى عظامى

وإنما أراد أن جلده ضاق عن ذاته وعن ذات أخرى تسكنه معه وهى الحمى التى جعل لها « شخصية » إلى جانب « شخصيته » إذ يقول عنها :

وزائرتى كأن بها حياء فليس تزور إلا فى الظلام

وليس أكثر فى كلام الناس من قول البليغ وغير البليغ « إن فلاناً لا يسعه جلده فرحاً أو غمًّا أو تيهاً وكبرياء » لأنه جلد يمتلئ « بذات » تشغله ولا يمتلئ بأنفاس من الهواء .

ولا يتسع المقام للإطالة فى هذه الشواهد التى يتكرر السؤال عنها وعن غيرها من شواهد « النصوص » فى هذه اليوميات . . ولكن الذى ذكرناه يغنى عما لم نذكره فى تصحيح أخطاء النقد والدراسة عندنا ، كما يغنى عما طويناه عمداً فى التعريف بالمقاييس والأقدار :

أقدار العارفين ، وأقدار الأدعياء والمتحذلقين .

ثقافة الشعراء الأقدمين*

الشعراء وكوكب الجوزاء

« . . . لماذا اتخذ الشعراء برج الجوزاء بالذات ليتمثلوا به فى أشعارهم ؟ فإننا نجد اسم هذا الكوكب أو هذا البرج ظاهراً فى قصائدهم فى جميع العصور دون الكواكب الأخرى . . »

أبو الفضل فهمى حسين
السيدة زينب — مصر

إن العرب قد عرفوا النجوم بالمشاهدة قبل معرفتهم إياها بتقسيم البروج الفلكية ، لأنهم كانوا يستدلوا بها فى سرى الليل ، كما كانوا يستدلون بها على أوان المرعى ومواقيت الفصول .

والجوزاء أظهر هذه النجوم بمكانها ولمعانها ، لأنها تتوسط الفلك الظاهر ، كما يدل عليها اسمها ، وهو الجوزاء ومعناه النجم الذى يظهر فى جوز السماء أو وسط السماء ، حيث يكون (المجاز) الأكبر للنجوم .

ولما نقل العرب علومهم الفلكية من البابليين ، ثم من اليونان ، نقلوا برج الجوزاء فرسموه فى صورة طاووسين ، لأنهم تمثلوا فيه الزهو والخيلاء ، ولم يرسموه توأمين كما رسمه اليونان ولا جديين كما رسمه المصريون الأقدمون .

وعرفت له خصائصه المزعومة فى التنجيم ، وهى خصائص كثيرة يتعلق بعضها بالعشق والألفة لازدواج صورته واقتران كل شطر منها بالآخر ، ويتعلق بعضها بالنجاح والتوفيق فى الأعمال ، ويتعلق أحياناً بالخصب والرخاء لأن الشمس تحل فيه بين أواسط الربيع وأواسط الصيف ، وهو موسم من أطيب المواسم فى البلاد العربية يرقبونه فى البادية كما يرقبونه فى الحاضرة ، ويبالغ فى تعظيمه جماعة المنجمين من أبناء الأمم التى لا يصلح لها هذا الموسم كما يصلح للبلاد العربية وبلاد المناطق

* الأخبار ٢٠ / ١١ / ١٩٦٣ .

المعتدلة أو الحارة . لأن هؤلاء المنجمين نقلوا خصائصه عن الشرق وربطوا به طوالع شتى يترقبها الرجال والنساء والشبان والشيوخ ، لعلاقتها « التنجيمية » بالحب والزواج والحمل والولادة والمغامرة فى الصفقات والتفاؤل بالتوفيق والتجانس بين مطالع هذا البرج على حسب صورته فى السماء . . وتستغرق الكتابة عن هذا البرج أحياناً فى تقاويم المنجمين الأوربيين باسمه المشهور عندهم (Gemina) أضعاف ما تستغرقه كتابتهم عن البروج الأخرى التنجيمية ، إذ يوجد بين خصائصه المزعومة شيء يعنى كل طائفة من الناس وكل فئة من فئاتهم على تفاوت الأعمار والأعمال ، خلافاً للبروج الأخرى التى تعنى فريقاً من طلاب الطوالع وقلما تعنى طلابها الآخرين ، ولا يخطر على البال أن العلوم الطبيعية التى شاعت بين الغربيين عصمتهم من تضليل هذه السخافات البالية ، لأننا فى الشرق لا نحتفل بها بعض احتفال القوم بالكتب التى يؤلفونها فى موضوعاتها والتقاويم السنوية التى تصدر كل عام فى مثل هذا الموعد من السنة قبل ابتداء العام الجديد ، والمكاتب التى تفتح للاستشارة وتتوارد عليها الأسئلة عن « مشروعات » التجارة والزراعة والزواج والطلاق، بل مشروعات السياسة ومعارك الأحزاب ومراهناتها على الانتخابات فى غير قليل من الأحوال .

ولكن الجوزاء لم تنفرد بهذه المكانة عند شعرائنا بعد شيوع الثقافة الفلكية والرياضية على عهد الدولة العباسية والدول التى قامت بعدها من أقصى العالم الإسلامى إلى أقصاه ، ومنه بلاد الفرس والهند والروم . . فقد كان الشعراء المثقفون يذكرون الكواكب والبروج أحياناً بأسمائها اليونانية أو الفارسية وخصائصها المشهورة بين الفلكيين والمنجمين ، كما قال أبو نواس وهو يذكر المشترى باسمه العربى واسمه اليونانى ويذكر المريخ باسمه الفارسى وبرجه العربى :

صورة المشترى لدى بيت نور اللي	ل والشمس أنت عند انتصاب
ليس زاويش حين سار أمام الحـو	ت والبدر إذ هوى لانصباب
منك أسخى بمـا تشح به الأنـ	فس عند انتقاص در الحلاب
لا و « بهـرام » تستقـل به العقـ	رب بالليـل زائغاً فى الحساب

أو كما قال ابن الرومى عن « عطارد » وهو عند اليونان رب الفنون :

أبونا عند نسبتنا أبوهم عطارد السماوى المكان

أو كما قال المعرى وهو ضرير كان يعرف مواقيت الفلك بحسابه الدقيق :

وقالوا بدا « المشترى » فى الظلام فياليت شعرى ماذا اشترى

أو كما قال عن قران المشترى وزحل فى برج الحوت :

قران المشترى زحلا يرجى لإيقاظ النواظر من كراها

أو كما قال وهو يعلم مكان زحل من فلك المنظومة الشمسية :

زحل أشرف الكواكب داراً من لقاء الردى على ميعاد

ويقول الطغرائى وهو يعلم مثل هذا العلم عن مكان الشمس فى دارة الحمل ، وهو أول دارة فى منطقة البروج :

لو كان فى شرف المأوى بلوغ منى لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل

وهذا وأمثاله يملأ الصفحات من أقوال شعرائنا الذين أخذوا عن ثقافة عصورهم ما يتقاصر دونه حتى اليوم هؤلاء الأدعياء الذين يحسبون الحكاية كلها حكاية سفاهة وجعجعة وقلة أدب ، وهم يشيرون إلى أولئك الشعراء مترفعين متبخترين ، لا لشىء يسمى الثقافة إلا أن تكون قراءة بضع قصص يلتقى العاشق فيها والعاشقة فى مخادع الفجور . . وإلا أن تكون قراءة بضع تهريجات لمن يخلطون بين الرأى والتهريج .

ومهما يكن من ولع الشعراء العرب بالجوزاء ،عن مشاهدة أو عن علم بتقسيم الفلك ، فالواقع أن هذا الكوكب لا يطغى بنصيبه الموفور على غيره من الأفلاك السماوية ، إذا نظرنا إلى الأفلاك التى يسمى بها الناس كالثريا ، وزهرة ، وفرقد، وقمر ، وهلال ، ولم يسم باسم الجوزاء من النساء غير قليل .

ابن عبد القدوس*

« . . قرأت فى كتاب قديم قصيدة بليغة أعجبنى أسلوبها وما حوته من الحكمة ، وسميت بالقصيدة الزينبية لما جاء فى مطلعها وهو :

صرمت حبالك بعد وصلك زينب   والدهــر فيه تصرم وتقلب

ولكن الكتاب لم يذكر اسم ناظم القصيدة فمن هو ؟ وما هى منزلته بين الشعراء ؟ »

فكرية عبد الوهاب حراز
مدرسة ــ دمياط

صاحب هذه القصيدة هو حكيم الشعراء فى عصره صالح بن عبد القدوس ومن الطريف حقاً أن تعجب الأستاذة بالقصيدة التى يقول فيها ناظمها بعد مطلعها :

وكذاك وصــل الغانيات فإنــه   آل ببلقعة وبرق خلب

ثم يقول منها :

فدع الصبا فلقد عــداك زمانه   واجهد فعمرك مر منه الأطيب
ذهب الشباب فما له من عــودة   وأتى المشيب فأين منه المهرب ؟

ولعلها تعجب فوق هذا العجب إذا علمت أن هذا الحكيم قد حوسب بقوله، وقتل لأنه درج منذ صباه على رأى فى الدين لم يعدل عنه بعد بلوغ الشيخوخة كما قال متهموه ، فألزموه الحجة من كلامه حيث قال فى قصيدة أخرى من قصائد الحكمة :

لا يبلــغ الأعداء من جاهــل   ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيــخ لا يترك أخلاقــه   حتى يوارى فى ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد إلى جهلــه   كذى الضنى عاد إلى نكسه

* الأخبار ١١ / ٧ / ١٩٦٢ .

وكان متهماً بالزندقة فنقل الوشاة أحاديث زندقته إلى الخليفة المهدى فقال له بعد أن مثل بين يديه ، ألست أنت القائل :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه

فقال : بلى يا أمير المؤمنين ! . . فعاد الخليفة يقول : وهكذا أنت ، لا تترك أخلاقك حتى تموت ! وأمر به فصلب ومات . . .

ومن أخبار الزندقة التى قيل إنها نقلت عنه أنه شوهد يصلى صلاة حسنة الركوع والسجود فسئل : ما هذا ومذهبك معروف ؟ ! فلم ينكر ذلك المذهب ولكنه قال : سنة البلد ، وعادة الجسد ، وسلامة الأهل والولد . . !

ومن الخسارة حقاً أن يذكر هذا عن الحكيم الذى كان يفيض بالحكمة فيضاً فى كل ما نظم من الشعر حتى كاد أن يخلو شعره من غير الحكمة ، ومنها قوله :

وزن الكلام إذا نطقت فإنما يبدى عقول ذوى العقول المنطق
ومن الرجال إذا استوت أحلامهم من يستشار، إذا استشير ، فيطرق
حتى يحل بكل واد قلبه فيرى ، فيعرف ما يقول ، فينطق

وهو القائل :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وهو القائل :

أنست بوحدتى ولزمت بيتى فتم الصفو لى ونما السرور
وأدبنى الزمان فليت أنى هجرت، فلا أُزار ولا أزور
ولست بسائل ما عشت يوماً أقام الجند أم نزل الأمير

بل هو القائل كل كلام يحتاج إليه الفتى المنصوح من الشيخ الحكيم ليعرف طريق الخلاص من المصير الذى صار إليه ، بمنطق لسانه ، بعد أن عرف كل ما عرف وقال كل ما قال !

ولكنه القدر ، كما قيل ، يعمى البصر ، وقد عمى ابن عبد القدوس وفقد بصره قبل أن يفقد حياته (سنة ١٦٧ للهجرة) . . . ولعله — غفر الله له — قد عاش ومات مفترى عليه ، إذ ليس الافتراء على أمثاله بالعجيب ولا بالقليل .

على مبارك*

« . . . فى كتاب صدر أخيراً للأستاذين محمود الشرقاوى، وعبد الله المشد عن على مبارك قرأت ما رواه المؤلفان عن جورجى زيدان أنه كان يلقب بالرومى ، وقد استبعد المؤلفان ذلك ، فمن أين جاء جورجى زيدان بهذه النسبة ؟

وقد دافع المؤلفان دفاعاً قوياً عن موقف على مبارك من الثورة العرابية . . . مع أن المعاصرين له — وخاصة عبد الله نديم — كان لهم رأى آخر . فما هو وجه الحق التاريخى فى هذه المسألة .

وقرأت فى كتاب للدكتور طه حسين بيتاً من الشعر الرائع هو :

وما أنا بالمفتون ضربة لازب ولا كل سلطان علىّ أمير

ولكنى لم أستطع معرفة صاحبه ، فهل هو من الشعر القديم ؟ . . . »

محمد منير الحسامى

جامعة القاهرة

إن جورجى زيدان لم يقل إن « على مبارك » كان يلقب بالرومى ، وإنما نقل نسبته من كتاب الخطط التوفيقية الذى ألفه على مبارك وجاء فيه غير مرة أنه يلقب « بالروجى » بالجيم ، وأن جده الأعلى قد عرف بهذا اللقب قبل عدة أجيال .

ولا نرى رأى المؤلفين أن تلقيبه بالرومى محتمل لانتقاله زمناً إلى آسيا الصغرى التى كانت مشهورة باسم بلاد الروم ، لأن جده الأعلى كما تقدم هو صاحب اللقب الأصيل .

أما موقف على مبارك من الثورة العرابية فخلاصة القول فيه أن الرجل كان ثائراً يدعو إلى الإصلاح وتنظيم الحكم النيابى ولكنه لم يكن « عرابياً » فى خطته وفى طريقة تنفيذه لرأيه ، وقد فصل من وظيفته وحاق به الغضب غير مرة لانتقاده

* الأخبار ٨ / ٨ / ١٩٦٢ .

نظام الحكم « الخديوى » فى كتبه وفى أحاديثه .

وينبغى أن نذكر هنا حقيقة تغيب عن أذهان بعض قراء التاريخ فيما يتعلق بفترة الثورة العرابية على الخصوص ، وهى حقيقة الموقف الثورى بين المفكرين والساسة من طبقة الوزراء فى تلك الفترة . فقد كان المطلوب من الرجل الذى يدعى لتأليف الوزارة أو الاشتراك فيها يومئذ أن يتولى معاملة السفراء ومفاوضة الدول الأجنبية وإجراء الأعمال الوزارية برئاسة الأمير ، فكان الوزير الثورى الصالح لهذه الوظيفة هو الوزير الذى يرتضى عنه دعاة الثورة والإصلاح ولكنه لا يكون على حالة العداء البين لمن تحاربهم الثورة ويحاربهم المصلحون ، ولا غنى له عن الوقوف موقف التفاهم أو موقف « التخاطب » مع جميع العناصر التى تتصل بجهاز الحكومة من جانب الدول أو من جانب الدولة العثمانية أو من جانب الأمير ، ولم يكن على مبارك ولا أمثاله من طراز شريف والبارودى ورياض ليضطلعوا بأعباء الوزارة إذا كانوا منتسبين إلى معسكر عرابى فى الصميم ، وإنما كان يكفى أن يكون أحدهم مؤيداً لمطالب الثورة ليتقبله الثائرون ، ولكنه لا يقطع علاقاته بجهات الحكم ولا بجهات السياسة الدولية ، وقد يكون على خلاف مع العرابيين فى بعض الأمور وعلى خلاف مع الأطراف الأخرى فى غيرها من الأمور . أو يكون له موقف فى السياسة العملية وفى برامج التنفيذ والإدارة يستقل به عن الفريقين ، ولكنه لا يسلكه مسلك المقاطعة البينة لأنصار الثورة أو لأعدائهم المحافظين .

وقد كان على مبارك ينتقد الحكم الخديوى فهو بذلك مقبول عند العرابيين . وكان ينتقد الخطط المتطرفة التى لجأ إليها العرابيون ودفاعاً عن أنفسهم فهو بذلك قريب من جانب القصر وجانب السياسة الدولية ، وهكذا كان سائر الوزراء فى سياستهم الثورية على درجات من الاقتراب إلى هذا الجانب أو إلى ذاك وربما تغير هذا الموقف قرباً وبعداً على حسب درجات الخلاف وتبدل الحوادث والأحوال .

ولم يكن على مبارك على التحقيق ، من أتباع القصر الممالئين لسياسته ولا من أتباع عرابى المنقادين له فى جميع خططه ، ولكنه — على ما يظهر — لم يكن مؤيداً لمسلك عرابى فى المرحلة الأخيرة بعد حوادث الإسكندرية .

* * *

أما البيت الذى قرأه الأديب الحسامى فى كتاب الدكتور طه حسين، فهو من قصيدة لأبى نواس نظمها وهو يقصد إلى مصر بمديحه لأميرها الخصيب ، ومطلعها :

أجارة بيتينا أبـــوك غيـــور　　وميسور ما يرجى لديك عسير

ومنها :

أما دون مصر للغنى متطلـــب　　بلى ! إن أسباب الغنى لكثير

ذرينى أكثر حاسديك برحلـــة　　إلى بلد فيه الخصيب أمير

ويروى البيت الذى أعجب به الأديب الحسامى على رواية أخرى لا نرجحها فنى بعض نسخ الديوان النواسى أنه قال :

وما أنا بالمشغوف ضربة لازب　　ولا كل سلطان على قدير

والمعنى واحد . . .

من الجاحظ إلى إيليا أبى ماضى *

السيد محمود إسماعيل سيد الصفتى بالعياط يسأل : هل الجاحظ خليق أن نعده من الكتاب الإنسيين (Humanists) إذا بحثنا عن مثيل أو قرين له بين كتاب العرب ؟ وهل ندعم مجده إذا أطلقنا عليه هذه الماهية ؟

ونحن نبدى « أولا » اعتراضنا على ترجمة كلمة « الهيومانزم » بالإنسية ، لأن المفهوم من كلمة الإنسية أنها قد تقابل الجنية أو الملائكية ، وقد تقابل الإلهية إذا أردنا النسبة إلى الإله كما ننسب إلى الإنس أو إلى الجن أو إلى الملائكة ، ولكن كلمة « الهيومانزم » فى أصل وضعها تقابل الكهنوتية من كلمة(Divinity) للتعبير عن الدراسات الدينية التى كانت مختصة برجال الدين أو كان رجال الدين مختصين بها فى القرون الوسطى . . ثم ظهرت علوم شتى اشتغل بها الباحثون فى عصر النهضة من غير رجال الدين ، فانقسمت العلوم إلى لاهوتية بمعناها المرادف للكهنوتية و إلى إنسانية بمعناها الذى يطلق على عامة الناس وليست هى من مصدر الوحى الدينى الذى اختص به رجال الدين ، وتدخل فى هذا القسم علوم الفلك والرياضة والقانون والأدب والطب والكيمياء والصيدلة ، وإن كان الاصطلاح العصرى يلحق هذه الدراسات الأخيرة بطائفة العلوم الطبيعة . (Sciencc)

والأفضل فى رأينا أن تسمى دراسات « الهيومانزم » بالإنسانية لأن الذهن يألفها دون أن يعجل إلى المقابلة بينها وبين الجنية والملائكية كما يحدث عند سماع كلمة الإنسية .

وبعد هذه الملاحظة على التسمية نقول إننا قد نطلق كلمة « الهيومانزم » فى اللغة العربية على بعض الدراسات عند النظر إلى ما يقابلها فى اللغات الأجنبية ، ولكننا لا نرى وجهاً لإطلاقها على الدارسين من أمثال الجاحظ لأننا لا نعرف عندنا طائفة لاهوتية أو كهنوتية ينفصل عنها الجاحظ ومن نحا نحوه فى الكتابة بنوع

---

* الأخبار ٢٢ / ١٢ / ١٩٥٩ .

من الدراسات مقصور عليهم ممتنع على غيرهم ، ولا خلاف فى مشابهة الجاحظ للكتاب الإنسانيين من الغربيين فى موضوعاته ودراساته ، ولكن من هم إذن كتابنا اللاهوتيون ؟ هل هم كتاب التفسير والتوحيد وعلوم الحديث والفقه والأصول ؟ يصح هذا لو كان هؤلاء فى اللغة العربية طائفة منعزلة كطائفة الكهان فى القرون الوسطى ، ولكنهم عندنا لا ينعزلون ولم يكن الجاحظ نفسه منعزلا عن هذه الموضوعات لأنه صاحب مذهب من مذاهب التوحيد ، ولا موجب لتمجيده بإطلاق هذا اللقب عليه ، لأن الكتابة فى المسائل الإنسانية عندنا لم تكن « نهضة » من نهضات الفكر المستقل فى وجه أحد من المحتكرين لجميع الدراسات أو المترفعين عن بعض البحوث دون سائر البحوث ، وحسب كاتبنا أن يقال « الجاحظ » وكفى ، فلا حاجة به بعد تسميته إلى تمجيد بالألقاب والعناوين .

* * *

. . سؤالى يتعلق بقصيدة الحجر الصغير لإيليا أبى ماضى المقررة على الثانوية العامة ، فقد قرأت فى كتب عديدة أنها من الشعر الرمزى لأنها ترمز إلى كثير من الفوارق الاجتماعية . . وسمعت رأياً آخر يقول إن هذه القصيدة ليست من الشعر الرمزى لأن هذا الشعر غامض يعبر عن شىء يحس به الشاعر فى نفسه لا يشعر به القارئ لزاماً فى جميع الأحوال . . ورجائى أن تبسطوا لنا الحقيقة فى يوميات الأخبار .

محمد رفعت سيد أحمد عطية
بالثانوية العامة

إن سؤال الطالب النجيب يفتح الباب للنظر فى ثلاثة أساليب تتشابه فى الظاهر مع فوارق دقيقة لا يصعب الانتباه إليها :

(أولها) أسلوب الكتابة بضرب الأمثال aPrbles ومنه قصيدة أبى ماضى ، وليس هو المقصود عامة بالكتابة الرمزية ، لأنه قد يأتى فى الشعر الصريح ، وقد يصرح فيه الشاعر بأنه يمثل لأفكاره وتشبيهاته أو يفهم القارئ ذلك منه بغير حاجة إلى التصريح .

والأسلوب الثانى وهو المقصود بالأسلوب الرمزى يكون الشعر فيه ضرباً من الألغاز والكنايات يفهمه القارئ كما يفهم التورية إلى المعنى بالتلميح دون التصريح . والفرق بينه وبين أسلوب الأماثيل أن أسلوب الأماثيل لا تلميح فيه ، لأن الشاعر والقارئ معاً صريحان فى القصد إلى التشبيه والإشارة ، وليس ضرب المثل غير زيادة فى التوضيح ، وليس هو بشيء مخالف للتوضيح .

أما الشعر الرمزى فهو نوع من الكتابة بالعلامات التى يسمونها بالشفرة (أو الصفر) غاية الفرق بينه وبين الشفرة أن العلامات فيه كلمات وعبارات وليست حروفاً أو أرقاماً أو تلفيقات مختزلة من الألفاظ التى لا تجرى على الألسنة .

والأسلوب الثالث هو أسلوب الأسرار أو أسلوب الصوفية (mysticism) الذى يوصف أحياناً بأنه أسلوب رمزى لسبب واحد : وهو حاجته إلى الصراحة ، ولكنه فى الواقع أسلوب آخر قوامه الخفايا الروحية التى هى من طبيعتها غامضة لا توجد لها ألفاظ صريحة ولكنها توصف على ألسنة الصوفية كما توصف « الحالات الوجدانية » بالتقريب بينها وبين المحسوسات والمعقولات على قدر المستطاع .

وليست قصيدة الحجر الصغير من أسرار الصوفية ولا من كتابة الشفرة الرمزية ، ولكنها من باب الأمثال الصريحة فى كتابات الأقدمين والمحدثين .

الأمة والشعب فى شعر حافظ *

يقول حافظ إبراهيم فى قصيدة يخاطب فيها اللورد كرومر العميد البريطانى :

وإذا سئلت عن الكنانة قل لهم ... هى أمــة تلهــو وشعب يلعب

فهل هناك اختلاف فى المعنى بين الأمة والشعب أو بين اللهو واللعب ، أو إنها ألفاظ تتكرر لغير معنى لوزن الشعر كما يقال . . »

حسن الأمير

ونقول للسيد الأمير إن البيت من النظم الضعيف فى شعر حافظ ، وقد انتقده صديقنا المازنى فى إحدى مقالاته التى كتبها عن ديوانه ، وقال ما معناه إن الشاعر كأنما يقول : هى شعب يلعب وشعب يلعب ، أو هى أمة تلهو وأمة تلهو ، بغير ضرورة لهذا التكرار . ولكننا سمعنا من الشيخ عبد العزيز البشرى فى بعض أحاديثه معنا بمجمع اللغة العربية أن حافظاً إنما قال :

وإذا سئلت عن الكنانة قل لهم ... هى أمة تلهــو وملك يلعــب

وبدل الكلمة عند نشر القصيدة بالصيغة التى تسمح بنشرها فى الصحف السيارة . فسلمت بعض السلامة من ضعف التركيب .

أما كلمتا الأمة والشعب فبينهما اختلاف فى أصل الوضع اللغوى ، واختلاف فى الاصطلاح السياسى ، واصطلاح العرف الشائع فى العصر الحديث ، وكذلك تختلف كلمة اللهو وكلمة اللعب عند تخصيص كل منهما بمعناها الدقيق من الوجهة النفسية والوجهة اللغوية .

فالشعب يطلق على شعبة من الناس المجتمعين فى موطن واحد ، ثم عمموا إطلاقه على المجتمع كله بعد طول الاستعمال ، ولكننا لا نزال نفهم من كلمة الشعب أنها أقرب إلى الدلالة على الرعية فى مقابلة الراعى أو الرعاة ، ولا يمنع ذلك أن تكون الحكومة من الشعب فيقال إذن إنها حكومة شعبية .

---

* الأخبار ٢٦ / ٩ / ١٩٦٢ .

وكلمة الأمة فى الاصطلاح الحديث أعم من ذلك ، لأنها ليست مما يلزم فيه أن تكون شعبة من جماعة أكبر منها ، وهى فى أصلها تعنى الجماعة ذات الوجهة الواحدة من الأمانة والائتمام ، وقد تطلق على الرجل الواحد يأتم به قومه كما جاء عن إبراهيم عليه السلام أنه كان أمة ، وكما سميت الجماعة التى يأتم بها الناس أمة فى قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير » وسميت جماعة من بنى إسرائيل أمة مقتصدة « وكثير منهم ساء ما يعملون » .

وقد يكون معنى اللهو ومعنى اللعب قريباً من قريب فى أصل الوضع اللغوى ، ولكنهما يختلفان اختلافاً كبيراً بعد عرضهما على الدراسات النفسية ، لأن اللهو يقابله العمل ولكن اللعب يقابله الجد ، وقد يكون عملا مطلوباً كالأعمال الجدية فى موضعه الذى يصدر عن بواعثه النفسية أو تبعثه طبيعة الحياة فى جميع الأحياء .

فاللهو يصرف الناس عن عمل أهم منه وأولى باشتغاله ، ولكن اللعب شاغل طبيعى لا يصح الانصراف عنه عند انبعاثه من دوافع الطبع السليم ، كألعاب الفروسية وألعاب الرياضة وألعاب الفنون الجميلة عامة ، وكل لعب يشترك فيه الناس على اختلاف الأعمار والأمزجة والأجناس .

ويقرر علماء النفس أن اللعب ينبعث من دوافع طبيعية كثيرة ولا ينحصر فى دافع واحد كيفما كان ، فقد يصدر عن رغبة فى تصريف الحيوية الفائضة ، أو يصدر عن رغبة فى رياضة الغرائز العدوانية لتصبح من المألوفات المأنوسة التى يستفيد منها الغالب والمغلوب ، أو يصدر عن الوعى الباطن كما تصدر الأحلام التى يحقق بها الإنسان ما يفوته فى عالم الواقع من الشعور بالغلبة والامتياز ، أو يصدر عن حاجته إلى التدرب على الحركات النافعة له فى أعمال الحياة لأنها تعينه على النشاط وحسن التناول وتسديد الأعضاء إلى أغراض وظائفها الجدية ، ولا فرق فى أداء هذه الأغراض بين ما تنجزه لعباً وما تنجزه جداً لمصلحة العقل والجسد .

فالاختلاف بين معانى الكلمات فى بيت حافظ موجود يبرئها من مظنة التكرار لوزن الشعر ، وإن كانت على ما نعتقد رمية من غير رام ! . .

أشعر شعراء الغرب فى القرن العشرين*

من الكنايات المألوفة أن يقال عن قارئ الشعر إنه يطير فى الخيال ، أو إنه يسبح فوق السحاب !

فماذا يقال عن قارئ الشعر فى الطائرة ؟ ماذا يقال عن طائر الخيال وهو يطير فى الواقع ، إن صح أن « الواقع » يطير ؟

إن ثلاث ساعات فى الطائرة بين القاهرة وأسوان قد تنقضى فى النوم ، أو فى الزعيق مع جارك إن كان لك رفيق فى السفر ، أو تقضيها محملقاً فى جدران الطائرة ، أو محملقاً فى صفحات كتاب .

ولم أتعود أن أنام جالساً ولو استقبلت النوم ساعات مغمض العينين ، ولست أحب حديث الزعيق مع عدو ولا صديق ، وليست الحملقة فى الجدران مما يحمده الساهر ولا النعسان .

أما القراءة فلا حاجة بى معها إلى احتيال ، أو إغراء .

ولتكن هذه المرة فى صفحات ديوان ، ولتحسن المصادفة إحسانها المعهود فتريحنى من حيرة الخيرة بين الدواوين .

إن لى من الشعراء أصدقاء أحب أن أعاود قراءتهم كما يحب الصديق أن يعاود الأحاديث مع أصدقائه ، ولو كانت من شجون الحديث المعاد .

ومن هؤلاء الشعراء توماس هاردى وهو فى تقديرى أشعر شعراء القرن العشرين من الغربيين .

وهانت مشكلة الاختيار ، لأن طبعته التى تحمل فى الجيب وصلت إلى القاهرة مع واردات عيد الميلاد ، وفيها نحو ألف قطعة من مختاراته التى كانت موزعة بين عدة دواوين .

---

* الأخبار ١٥ / ٢ / ١٩٦١ .

و « استقرت » الطائرة فوق السحاب ففتحت الديوان على الباب الذى جمع فيه الطابع منظومات هاردى بعناوين « المعارض الإنسانية والأشباح البعيدة ، والأناشيد ، والسفاسف » . . وهى أبلغ منظوماته على الإطلاق . . كان أول المختارات أبيات للشاعر سماها « كلانا منتظر » وفيها يقول للنجم الذى يساهره :

« ذلك نجم ينظر إلى من عل
« ويومض قائلا : ها نحن أولاء اثنين . .
« كل منا فى مكانه ينتظر
« فماذا تنوى أن تصنع ؟
« . . . تنوى أن تصنع . . ؟

* * *

« وقلت : كل ما أعلم
« أننى أنتظر وأدع الزمن يمضى
« أدعه يمضى إلى أن تحين الساعة
« ساعة التوبة التى يحل فيها البدل . . ؟
« قال النجم من عل
« وهكذا نويت
« . . هكذا نويت ! » .

وتأتى بعد هذه الأبيات أبيات أخرى بعنوان : أية أغنية صغيرة محفوظة ؟ ! . . يقول فيها :

« أغنية صغيرة من الأغانى العتيقة
« تغنينى وتعجبنى
« أغنية تعيد ذكرى السرور الذى انقضى
« أو تمنينى بالسرور المقبل
« بالوجوه التى طال مغيبها
« وإليها يطول الحنين

* * *

« لا أحب أحدث الأنغام
« على الأوتار التى تغلو فى الافتنان
« ولا يستخفنى الطرب المهتاج
« الذى يجلبه النغم الجديد
« كلا . . حسبى من النغم
« أقربه إلى الشجن الهادى القرير » .

* * *

ومضيت أقلب الصفحات ، نغمة بعد نغمة ، وهمسة بعد همسة ، وكلها على هذا الشرط الذى اختارته لنا المصادفة ، كأنها تعلم ما نريد من الشاعر وما يريده الشاعر من أصداء دنياه : نغم يعود من بعيد ، فى هدأة من لواعج الأسف الباطل وضلال الشوق الجديد ، وفى يقينى من نوايا النجم السابح فى السماء ، والشاعر الحالم على الصعيد .

ولا طيران فى الواقع ولا فى الخيال ، فهذا هو الشعر الذى يعلمنا القرار حين نحلق على غير هدى ، ولعله ألزم من الشعر الذى يعلم القاعدين كيف يكون التحليق ، ويضع الجناحين فى مواضع القدمين !

شكسبير . . وشيخ زبير*

بعد ملاحظات لا يتسع المقام لتفصيلها حول موضوع الثقافة العربية كتب الأستاذ « محيي الدين إسماعيل – شارع هنداوى بالدقى » معلقاً على رأينا فى موطن العرب الأول فقال :

« أما الموطن الذى جاء منه العرب . . فيعود بنا إلى العقدة المعروفة فى تاريخ السلالات البشرية باسم عقدة القوقاز (Caucasian Knot) حيث انحدر من هذه المنطقة بعض الأنواع إلى الجنوب . . ويبدو لنا فى الأبعاد الميثولوجية السحيقة التى تستبين لنا عند بحثنا عن العلاقة بين ألفاظ هامة مثل كلمة الشمس (Sun) بالإنجليزية وأصولها فى اللغات الأوربية وبين كلمة (سنة) باللغة العربية أن أقدم الألفاظ فى لغتنا العربية لها وشائج وثيقة باللغات الأوربية . . وأنت تعلم أن أقدم الألفاظ هى هاتيك الألفاظ التى تدل على الخطيئة والإثم . أفلا ترى إلى العلاقة بين كلمة (Crime) (كرايم) الإنجليزية وكلمة جريمة ؟ أو بين كلمة (Sin) وكلمة زنا ؟ أو كلمة ناشن (Nation) وكلمة ناس ؟ » .

هذه خلاصة الرسالة المطولة التى أفاض فيها الأستاذ « محيي الدين إسماعيل » على هذا النحو من الاستشهاد بآراء الباحثين عن أصل واحد لجميع اللغات ، وهو بحث متسع الجوانب يتيه فيه رواده إلى مطارح بعيدة من الفروض والتخريجات ، منها المقبول ومنها ما يصعب قبوله ولا يستند إلى غير التوافق العرضى . حول ألفاظ لا رابطة بينها ولا تشابه فى الأصل ولا فى الاشتقاق .

والبحث عن أصل واحد لجميع اللغات يقوم على خطأ ظاهر إذا اعتقد أصحابه أن أجناس البشر الأقدمين لبثوا فى مكان واحد حتى ارتقت لغاتهم إلى التفاهم على الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية التى يتصل فيها معنى الشمس ومعنى السنة أو يتصل فيها معنى الخطيئة ومعنى الزنا أو معنى الأمة ومعنى الجماعة من الناس كما نفهمه بعد التفرقة بين القبيلة والشعب والأمة وما يندرج تحتها من الفروع .

---

* الأخبار ٢٢ / ١٢ / ١٩٥٣ .

فليس من المقبول أن تكون كلمة (سنة) قد وجدت بعد إدراك حركة الشمس وعلاقتها بتقسيم السنين والشهور وأقرب من ذلك أن تكون كلمة « سنة » مأخوذة من « السن» التى تدل على عمر الإنسان والحيوان ، وأن تكون كلمة «سن » Sun وسول من كلمة « سورى » السنسكريتية ، كما يظهر عند استخدام صيغة النسب باللغة الإنجليزية وهى (سولار Solar) على خلاف القياس ، فإنها ترجع إلى « سول» ولا ترجع إلى « سن » .

ولو أخذنا بالمشابهة اللفظية لكانت كلمة (كرايم Crime) أقرب إلى الكرم منها إلى الجريمة ، وكانت « ناتس» بمعنى المولود باللاتينية بعيدة العلاقة بكلمة الناس المأخوذة من الإنس باللغة العربية مقابلة للوحشة والانفراد ، وأين الولادة التى يشترك فيها كل مخلوق من هذا المعنى المتأخر فى أطوار الاجتماع ؟

ولا يخفى على الأستاذ محيي الدين أن كلمة (سن Sin) بالإنجليزية تقابلها كلمة (بيشيه Péché)بالفرنسية وكلمة(بكاتو Péccato) بالإيطالية وكلمة (أمارثيا Amartia) باليونانية ، وتقابلها فى شتى اللغات كلمات لا تتقارب باللفظ ولا بمصدر الاشتقاق ، فكيف تباعدت هذه الكلمات فى اللغات الآرية الأوربية وتقاربت على بعد الديار بين الإنجليزية والعربية ؟

إن القرابة هنا ليست بأقرب من شيكسبير وشيخ زبير ، ولا بأقرب من ترافلجار والطرف الأغر ، ولا بأقرب من الجن والجنيه ولا من الشيطان والحرير الستان !

وهذه أمثالها قرابات تذهب بنا بعيداً جداً ، ولا تقترب بنا من أصل قديم ولا جديد .

المنهج بتعطيش الجيم = المنهش !*

من « التقاليع » التي يتخطفها الأدعياء « المنهجيون » على غير فهم ولا روية تقليعة الأدب الإقليمي ، أو الفنون الإقليمية على الإجمال (Regional) .

وهي كلمة يلتقطونها بأطراف الآذان فيهرعون بها إلى السوق على آخر نفس أو « آخر أنفاس » لكي لا يسبقهم أحد إليها . . وإنهم ليحسبون أنها السر المكنون الذي لم يسمع به أحد — قبلهم — من العالمين .

وقد خيل إلى هؤلاء الخطافين زمناً أن « الإقليمية » بضاعة يمكن أن تستورد إلى بلادنا وبدعة ينبغي أن نعمل على ترويجها باسم التجديد ، ولا بأس أن تروج باسم الموضوعية ، أو باسم التقدمية ، أو باسم الانتفاضية . أو بما شاءوا من تشكيلة هذه الأسماء . . وإن هي إلا أسماء ! . .

وأول جهالة من جهالات هذه الرعونة الفكرية أنهم يجهلون أن الأدب الإقليمي شيء يوجد اضطراراً كلما وجدت أسبابه الطبيعية ، كما توجد الأصناف الإقليمية من الزرع بغير إرادة الزارعين . . بل على الرغم من إرادة الزارعين ، في كثير من الأحايين .

والجهالة رقم (٢) من جهالات هؤلاء الأدعياء باسم المنهج أو باسم التقدم أنهم يجهلون أن الفوارق الإقليمية إذا وجدت في ثقافة أمة وجب عليها أن تعمل على إزالتها وأن تجتهد في تقريب المسافة بينها ، ولم يكن من واجبها أن تعمل على توسيعها وتثبيتها وتصعيب وسائل التقريب بينها .

والجهالة رقم (٣) من جهالات هؤلاء أنهم لا يعرفون ما هي العوامل الطبيعية والاجتماعية التي تفعل فعلها ، أو التي فعلت فعلها من قبل ، فنشأت منها الآداب الإقليمية .

---

* الأخبار ١٢ / ١٢ / ١٩٦٢ .

فى اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية عوامل كثيرة تعمل عملها اضطراراً على إنشاء الآداب الإقليمية ، ولكنها جميعاً ليس لها نظير فى بلادنا ولا وجه على الإطلاق للمقارنة بينها و بين عوامل الاتفاق والاختلاف التى نشاهدها فى أقاليم بلادنا .

ولنضرب مثلا بالبلاد الأمريكية فى الولايات المتحدة وحدها ، ودع عنك البلاد الأمريكية بين وسط القارة وشمالها وجنوبها .

فمن عوامل الأدب الإقليمى فى بلاد الولايات المتحدة :

(أولا) الاختلاف بين الأقاليم التى يتألف سكانها من سلالات أمم الشمال والوسط فى القارة الأوربية كالسويد والدنمرك وألمانيا والجزر البريطانية وهولندة ، و بين الأقاليم التى يتألف سكانها من اللاتين كالطليان والأسبان وأبناء البرتغال .

و (ثانياً) البلاد التجارية على الشواطئ والبلاد الزراعية فى الوسط والجنوب وتقابلها البلاد التى تكثر فيها الأمطار ومراعى البقر والخيل .

و (ثالثاً) البلاد الصناعية وتقابلها البلاد « الريفية » ولا سيما فى الجنوب .

و (رابعاً) البلاد التى لا تعرف غير فصل واحد طوال العام ، والبلاد التى تتقدم فيها الساعة بتوقيت الصيف من نصف ساعة إلى ساعتين .

و (خامساً) الولايات التى يكثر فيها الأرقاء الملونون ويكثر فيها أتباع الكنيسة لكاثوليكية ويشتد فيها الشعور بالفوارق المذهبية والفوارق فى الحقوق السياسية ، فلا يتيسر فيها العمل بمبادئ الديمقراطية على أحدثها وأوفاها ، ولا تزال النزعة إلى المحافظة الشديدة غالباً على عاداتها وتقاليدها وأنظمتها الاجتماعية والسياسية مع ما يصحب هذه المحافظة الشديدة من تقاليد النفاق الاجتماعى ونقائض التردد فى الكتابة والفن بين الواقعية التى تدعو إلى كشف النقاب عن أسرار البيت والضمير أو تدعو فى مقابلة ذلك إلى الإباحية والانطلاق من جميع القيود ، وليس للإقليمية فى الأدب أثر أبلغ من هذا الأثر فى الاختلاف بين أمتين غربيتين أو بين عصرين متباعدين .

و (سادساً) الولايات التى تجمعها ذكريات الغلبة فى الحرب الأهلية والولايات التى تجمعها ذكريات الهزيمة فيها .

و (سابعاً) تلك البيئة النفسية — السيكولوجية — الغربية التى تجمع النقائض من أبعد الأطراف لمواجهة الغلاة المتعصبين من بقايا « البيوريتان » الأولين ، ومنهم تلك الجماعة المرهوبة التى تألفت فى الخفاء منذ الحرب الأهلية ثم أعيد تأليفها قبيل الحرب العالمية الأولى ، وهى جماعة (كو — كلكس — كلان Kukluxklan) ومذهبها استخدام السلاح فى مقاومة اليهود والكاثوليك والزنوج والهنود الحمر ، ويلتقى فى صفوفها المحافظون من سلالة النبلاء وأبناء البيوتات والنازيون وأنصار الحكم المطلق وأعداء السامية من شتى الألوان والأحزاب .

* * *

وكل هذه الفوارق قد وجدت اضطراراً ولم توجد بالبرامج المرسومة التى تنقل من الخارج على منهج من مناهج الفنون أو مناهج الدروس .

وكل ما يملكه المفكرون والمصلحون من جانب الاختيار بعد انكشاف هذه الفوارق لهم وظهور أسبابها وبواعثها لعقولهم ونفوسهم فهو ماض على الدوام إلى وجهة التقريب بينها واقتلاع حواجزها وحدودها ، سواء بالعمل السياسى أو بالعمل الثقافى أو بالعمل الأخلاقى الذى تتولاه الجماعات كما يتولاه الآحاد ، والزمن يساعد العاملين على تقريبها من جميع الأطراف ، كلما توحدت فيها الصحافة والإذاعة ومنشورات الطباعة وخطط التعليم وتعميم الدعاية من كل فريق فى أنحاء البلاد بإجماعها .

وأصحابنا « المنهجيون » أين هم من كل هذا . . ؟

ولا هم هنا .

ولا هم هناك !!

إنهم فرحانون بأطراف ما سمعوا فرح المحدث فى نعمته بتقليد المعرقين من أهل النعم ، ولا فرق بينهم وبين مطربنا « الغشيم » المعروف الذى سئل عن إحدى العقائل فهتف قائلا يا سلام . إنها « جنتلمان » !

فبينما يجتهد الأمريكيون فى القضاء على هذه الإقليمية بالجهود المختارة والجهود الاضطرارية ، يرفع المنهجيون من هؤلاء الأدعياء عقائرهم بالدعوة إلى خلق الأدب الإقليمى بين القليوبية والبحيرة ، وبين دمنهور وأسيوط وبين قناطر إسنا وخزان أسوان ، وبين إسكندرية وبور سعيد .

وأوجز ما يقال عن الفوارق بين هذه الأقاليم أنها كلها جميعاً ليست أبعد ولا أثبت من الفوارق التى توجد فى البلد الواحد ، فليس بين الجيزة فى طرف الصعيد ولا بين أسوان فى طرفه الآخر فارق واحد لا يوجد مثله فى بلدة طنطا أو بلدة الزقازيق ، وأكبر ما يلحظ من هذه الفوارق أنها اختلاف لهجات فى نطق بعض الحروف والكلمات يسمع مثله وأكثر منه فى مدينة القاهرة ، حيث تختلف لهجة « ابن البلد » فى الأحياء القديمة وتختلف اللهجات عامة بين جميع الأحياء .

فإذا كان هذا هو المقصود بالأدب الإقليمى فقد انتقلنا من الكلام على الكتابة بالعامية أو بالفصحى إلى الكتابة بلهجة الحسينية أو لهجة كرموز أو لهجة كفر الصيادين أو لهجة شندويل !

ذكرنى بتلك « المنهجية » المختطفة سؤال تلقيته من قارئ أديب من قراء اليوميات كدت أن أحوله إلى واحد من جماعة « المناهجة » لولا أنه سؤال فى موضوع يجاب عنه وليس فى منهجية الأدب الإقليمى موضع لغير السخرية والإهمال .

يقول الأديب صاحب التوقيع :

« قال لى طالب بكلية الزراعة — جامعة القاهرة — وفى السنة الأخيرة للنجاح ، ومن أصل صعيدى ، لماذا لاتتكلم باللهجة القاهرية وقد مضى لك فيها أكثر من سبع سنوات ؟ . . فقلت له : إننى أنتسب إلى أصل صعيدى ، وبلدتى — كودية الإسلام — بمركز ديروط ، ولا أريد أن أدخل على لهجتى أسلوباً أصطنعه للتجمل والادعاء ، وقد حاولت أن أقنعه على غير جدوى فكتبت إلى سيادتكم أستوضح رأيكم منتظراً منكم الجواب بما ترون » .

حنا وهبه الفهلوى

وأقول للأديب الفهلوى إن « المنهجية » على سنة محدثى النعمة فى سوق المصطلحات لم تتقرر بعد لحسن الحظ ، وإلا وجب عليه أن يحتفظ بكل حرف من حروف اللهجة الديروطية الصعيدية ، ووجب عليه بعد ذلك أن يكتب بها ويمعن فى المحافظة فيجمع قاموسها على حدة خالياً من كل كلمة منياوية أو جرجاوية ولا نقول قاهرية وطنطاوية .

ولكن المسألة بعد هذا مسألة عادة غير متكلفة ، فإذا كان كلامه تكلفاً مصطنعاً فترك التكلف والاصطناع أجمل وأولى ، وإذا جرى لسانه بهذه اللهجة طواعية مع طول الإقامة وامتناع المقاومة فلا موجب للعناد والإصرار على لهجة دون غيرها من لهجات هذا الوطن ، فإنها كلها لغة وطنية لاتخرج المتكلم بها من نسبته إلى بلاده ، وليس من الكسب له أن يترك النسبة إلى القاهرة لسكانها ، ولا أن يقنع من الوطن كله بحدود ديروط !

. . . إلى تحديد النسل*

. . في الأسطر التالية منظر من فصل من مسرحية غير ذات فصول ، أهديها بعد تمامها لمن يعقلها ، ولا يعقل شيئاً .

حكيم : هل قرأتها ؟

عقاد : لا . لم أقرأها !

حكيم : متى ؟

عقاد : غداً

حكيم : وهل ، مرة أخرى ، لا تقرؤها ؟

عقاد : نعم . نصف ثلاث مرات على وجه التقريب ، وقد أعود فلا أقرؤها وأقرؤها معاً مرتين تحت الصفر على وجه التأكيد ، وقريباً من ذلك أو بعض ذلك بين الشك واليقين .

حكيم : وما رأيك فيها ؟

عقاد : كرأيك في هذا . .

حكيم : يعني ماذا ؟

عقاد : وهل تسألني عن المعنى ؟

حكيم : لا . ولكن ما الذى لا تراه فيها ، وما رأيك في المؤلف الذى لم يؤلفها ؟

عقاد : من هو ؟

حكيم : أنا . . وحق اللامعقولية هو . . أنت . . والقارئ . . وأنا . . .

عقاد : يا سلام . . معقولة جداً . . ومفهومة من الآخر للأول ، ومن الأول للآخر . .

---

* الأخبار ٩ / ١ / ١٩٦٣ .

حكيم : يا خبر . . مفهومة ؟؟!! . . معقولة ؟؟!!... اللامعقولية كلها معقولة؟؟ تشتمنى ؟ . . تنكر عملى ؟ تشوه فنى ؟ . . النجدة . . النجدة . . يا بوليس . . يا بوليس!

زكى عبدالقادر : شتائم ومهاترات . . مهاترات وشتائم . . وغير موضوعية . . وموضوعية غير . . ومن الذى شتم الآخر ؟ من الذى شتم الآخر يا حكيم ؟

حكيم : وحق اللامعقولية أنا ، ولا شىء غير أنا . . ولا أقول إلا أنا . .

عبد القادر : إذن انصرف ؟

عقاد : لا . . أنا

عبقادر : إذن احضر !

حكيم : لالالا . أنا . أنا .

عبقادر : إذن لابد من الانصراف !

عقاد : أنا أنا . . . لالالا . .

عبقادر : إذن لابد من الحضور! . . الحضور لابد منه . . الحضور الحضور الحضو . . الحض . . . ضور . . ضور . . اور . . اور

الجمهور : غير معقول . . لا معقول . . غير غير . . لا لا . . غير لا . . . لا غير . . !

عبقادر : يا بوليس !

(ينزل الستار)

ملحوظة . . . وإلا لا . . يبقى الستار مرفوعاً إلى الأبد . . ويذهب البوليس فى إجازة إلى أن يحضر . . بلا طلب !

اللامعقوليون فى غاية من العقل ؟*

يرى الدكتور زكى نجيب محمود أن « اللامعقول » قد يشيع فى القارة الأوربية لأسباب كثيرة منها أنها شبعت من المعقول .

قال : « وقد اجتاحت أوربا – ولا تزال تجتاحها – موجة تعلى من الجوانب اللامعقولة من الإنسان ، ولعلها موجة خلقتها هناك ظروف من أهمها أنهم شبعوا عقلا حتى أتخموا . فللعلوم الطبيعية هناك سلطان أى سلطان، والعلوم كلها عقل صرف ، ولو اقتصر أمرها على الطبيعة الجامدة لما ضاقت النفوس ، لكن محاولات كثيرة تأخذ فى الانتشار تبتغى إخضاع الإنسان نفسه لتلك العلوم . . »

ونوافق الدكتور على رأيه فى جانب واحد ، وهو جانب « اللامعقولزم » بصبغة « المذهبية » فى آخرها . فإن اتخاذ « اللامعقولية » مذهباً يلغى العقل الإنسانى هو الشيء الجديد فى هذه « التقليعة » الخالدة من عهد آدم وحواء ، وليس فى « اللامعقولية » شيء جديد غير هذه الدعوى أو هذه الدعوة التى قد وجد اليوم من يجترئ على الجهر بها ولم تكن قط مذهباً يجترئ العاقل والمجنون على الجهر به فى الزمن القديم .

ولو كانت الدعوة إلى « اللامعقولية » تصدر فى القارة الأوربية من أناس شبعوا عقلا لقلنا : إنها وليدة التخمة التى تضيق بها النفوس كما تضيق بها العقول ، ولكن دعاة هذه المذاهب – كما يعلم الدكتور – كلهم من طائفة لم تشبع قط من العلم والعقل ، ولعلها جاوزت حد الجوع إلى حد الصيام « الدهرى » عن هذا الطعام !

كذلك نرى أن التوسع فى العلوم الطبيعية قد يكون سبباً لاطراح العقل والتحول إلى اللامعقولية لو كان الاشتغال بالعلم الطبيعى ومخترعاته ينقص بمقدار ما تزيد « اللامعقولية » حيثما تخلفه على النفوس والحواس والأفكار ، ولكن الواقع أن الاشتغال بالعلم ومخترعاته يزداد فى الحياة العامة والخاصة ازدياداً مطرداً شاملا يفوق كل زيادة يطمع فيها أنصار السخف أو « اللامعقولية » . . . ولا نرى ظاهرة واحد تدل على النقصان هنا بمقدار الزيادة هناك .

---

* الأخبار ١٦ / ١ / ١٩٦٣ .

واللامعقول أقدم من العلوم الطبيعية ومن العلوم المنطقية ومن جميع العلوم بزمن طويل .

فما هى « الكوميدية » بكل معنى من معانيها ؟

إنها « أغنية العربدة » التى ينطلق فيها الناس من قيود السكينة والروية إلى طلاقة المجون والخلاعة وسورة الصخب والرقاعة ؟

ثم ما هو مفهوم « العربدة » نفسها بجميع اللغات ؟

إن لفظها باللغة العربية يدل على مفهومها ، وإن كلمة « ريفل (Revel) » بمعنى العربدة وكلمة « ريبل » (Rebel) بمعنى الجموح والتمرد مشتقتان فى اللغات الغربية من جذر واحد : كلتاهما حالة تنبذ القيود وتنطلق من الحدود .

وقبل أن يوجد العالم الطبيعى والفيلسوف الحكيم وجد المهرج والبهلوان ، وماذا كان يصنع المهرج (Jester) بطرطوره وجلاجله وذنبه ووجهه المطلى بالأصباغ ؟ إنه أبرع فى « اللامعقولية » الحية من كل صورة ممسوخة يرسمها المهرج بيكاسو فى تزييفه المشوه لصناعة التهريج . .

بل ماذا كان المئات من المتنكرين يصنعون فى حفلات المساخر والكرنفالات وهم يتقنعون بوجوه الحيوانات والطيور ويلبسون المرقعات والمصبغات ، بلا قياس ولا تناسب فى التفصيل ؟

وماذا كان « البلياتشو » يصنع حين كان يحكى الرقص بالهرولة والرشاقة بالعثرات المتخبطة ويحكى الغناء بالنهيق والنباح ويحكى كل معقول موزون بشىء يناقضه فى التعقل والاتزان ؟

وماذا كان زجالنا يعنى حين كان يقول فى أدوار الزجل « المجنون » ؟

فتحت بطيخـــة لقيت العجـــب فى قلبها أربع مداين كبار

أو كان يقول :

يا ليل يا عين ما أعرفش أكدب الضفدعة شايلة مركب ..!

كل هذا كان « لامعقولية » من أبلغ « اللامعقوليات » فى موضعها إذا كانت البلاغة هى مراعاة مقتضى الحال .

ومقتضى الحال هنا هو التنفيس عن العقل بحالة من الحالات العارضة تنقضى وينقضى معها التهريج والعربدة والسخف المقصود وغير المقصود .

وهذا كله قديم جد قديم ، مضت عليه ألوف السنين قبل أن يأكل الإنسان لقمة على مائدة العلوم الطبيعية ، وقبل أن تنزل هذه المائدة !

وليس هذا هو اللامعقولية التى يلغط بها اللاغطون اليوم .

إن هذا الذى يلغطون به هو « اللامعقولزم » الذى اجترأ عليه فى القارة الأوربية من جهلوا المعقول واللامعقول وحسبوا أن العقل دور من الأدوار قد انتهى وحلت محله « مدرسة » تنكر العقل والمعقول وتحكم عليهما بالرجعية والجمود .

ولم يقل بذلك أحد من اللامعقوليين الأقدمين ، لأنهم أصلاء غير مقلدين وغير مخدوعين .

أما الذى جد على اللامعقولية فى العصر الأخير فأصبحت فى عداد الدعوات المذهبية فهما أمران :

أولهما دخول الجهلاء فى ميدان الثقافة بالملايين وعشرات الملايين ، مع سوء الفهم للفرق الواضح بين المساواة فى الحقوق والمساواة فى الأفكار والآراء والأذواق .

و « ثانيهما » شيوع الدراسات النفسية وشيوع مصطلحاتها التى يتخطفها، أولئك الجهلاء عن الوعى الباطن والعقد النفسية ومركبات النقص وغيرها وغيرها من كلمات محفوظة لا يفقهونها ولكنهم يجترئون من أجلها على إعلان جهالاتهم كأنها من الحالات الباطنية التى يتساوى فيها العالم والجاهل والخبير وغير الخبير !!

وبهذا انتقلت « اللامعقولية » من موضعها الطبيعى إلى كل موضع معقول وغير معقول . . وأصبحت « الهوسة » العارضة التى يستبيحها الناس متنكرين أو ذاهلين عن الصواب مذهباً واجباً مفروضاً على العقول فى كل حين ، بل خلقا جديداً يلغى المخلوق الإنسانى الأول ويخلفه بإنسان آخر ليس فيه غير أخلاط العقل الباطن وعربدة السكارى والخلعاء ، وبغير ندم وبغير حياء . . . وتساوى معرض الفن الجميل ومستشفى المجاذيب !

ومن المعقول أن تحل اللامعقولية عند الكثيرين محل القبول ..

فقد كان هؤلاء الكثيرون يحبون فى كل زمان أن يتحذلقوا بدعوى الذوق والفن ولا يستطيعون . . .

فلماذا لا يرحبون بالفن اللامعقول وليس أسهل عليهم من ادعاء فهمه ولا من إبداء هذا الإعجاب بقول غير مفهوم ؟

ولماذا يحجم العاجز عن انتحال هذا المذهب وليس فى الدنيا مقياس يثبت عليه العجز أو يلزمه الاعتراف بوجاهة النقد الذى يوجهه العارفون أو غير العارفين إليه ؟

وكيف يستطيع ناقد أن يرفض من معرضه صورة من الصور لسبب من الأسباب ؟

فالمعقول جداً أن تروج اللامعقولية بهذه السهولة ما دام ادعاء الفن بهذه السهولة وما دام بطلان النقد بهذه السهولة كذلك ؟

والمعقول جداً أن يتحدى الناقدين صاحبُ صورة يتساوى وضعها المعدول ووضعها المقلوب . ويستطيع الفنان الذى صورها أن يقول إنها فى وضعها المقلوب أقرب إلى الحقيقة من وضعها المعدول ، لأن الأمور تنقلب فى الوعى الباطن ، كما تنقلب فى الأحلام !

وهذا هو الجانب الوحيد المعقول فى « اللامعقولية » . . . لأن المحروم من حق الحذلقة قديماً « مجنون » إذا هو لم يبادر إلى الفن الذى يعطيه حق الحذلقة بالذوق والتجديد والحرية الفكرية . وبكل دعوى يدعيها بغير دليل وبغير خوف من التكذيب !

إن هؤلاء « اللامعقوليين» لعقلاء جداً يا دكتور زكى حين يسرحون بهذه البضاعة . .

أما «اللامعقوليون » حقاً فهم أولئك « العقلاء » الذين يزنون أولئك الشطار بميزان العقل و يطمعون فى الإقناع حيث يعاب الإقناع بما تقتضيه العقول !

* * *

« . . . كثيراً ما نسمع من لهجة أبناء الصعيد العبارة التالية فى معرض الشتم الذى يراد به المزاح : "يخرب مطنك" بتشديد النون . . فالرجا أن تتكرموا بشرح

المعنى الصحيح لهذه العبارة ، وهل كلمة " مطناك " أصيلة فى اللغة العربية أو أنها كلمة مصرية قديمة ؟ . . . »

حلمى رياض المشوادى
منصور ساويرس المشوادى
كلية التجارة—جامعة القاهرة

. . . كلمة « مطنك » عربية منقولة إلى اللهجة العامية من كلمة « موطنك » بالعربية الفصحى . وقد حذفت الواو من كلمة « موطن » ووضعت النون بعد حذف الواو ، كما يجرى أحياناً فى اللغة الفصحى بعد حذف الواو أو الياء ، وإن لم يكن على هذا الوزن أو هذا القياس .

ومن أمثلة الحذف والتضعيف فى اللغة الفصحى كلمة « اتصال » فإنها من « وصل » ويجب أن يكون مصدر الافتعال منها « اوتصال »

ولكن الواو تحذف لسهولة النطق التاء تضاعف لتعويض الحرف الناقص فيقال « اتصال » بدلا من « اوتصال » .

ومن أمثلة الإتيان بالياء بعد تخفيف الشدة كلمة دينار وأصلها « دنار » بتشديد النون ولذلك تجمع على دنانير ، وهى حالة مطردة كما يفهم من تشديد التاء فى اتصال بعد حذف الواو ويفهم من الإتيان بالياء بعد تخفيف الحرف المشدد ، أو بعد فك الإدغام .

وفى ذلك دليل على أن التصريف فى اللغة العربية يجرى على قاعدة طبيعية وليس على رأى بعضهم من تأويلات اللغويين .

والمتكلمون باللهجة العامية جميعاً ينطقون بكلمة « الموطن » مفتوحة الطاء فى الوجهين القبلى والبحرى ، ولو نطقوها نطقاً صحيحاً بكسر الطاء لما سمعت لفظة « مطنك » فى لهجة الصعيد ، ولا نذكر أننا سمعناها مضافة إلى ياء المتكلم أو مضافة إلى غير كاف الخطاب ، لأن المتكلم لايدعو على موطنه بالخراب ، فإذا أراد القائل أن يقول « موطنى » فهو فى الغالب يرجع إلى النطق الفصيح ولا يذكر اللفظ الدارج فى « شتم المزاح » .

* * *

« . . . سبق أن قرأت لكم أن المنفلوطي منشئ لا كاتب . فهل تتفضلون بالتفرقة بين المنشئ والكاتب مشكورين ؟

« . . . وفرقتم بين الخيال والوهم قائلين إن هذه التفرقة من فنون النقد عند الغربيين ، فهل فطن إلى هذه التفرقة أحد من نقادنا العرب القدامى كما فطن إليها نقادنا المحدثون ؟ »

الغزالى حرب

المدرس الأول بمدرسة المعلمين ببنها

. . . إن الفرق بين الإنشاء والكتابة هو من فوارق الاصطلاح الحديث ، والمقصود به أن صيغة الكتابة هى المقصودة فى الإنشاء قبل الموضوع ، على خلاف الكتابة التى يكون الموضوع فيها هو المقصود قبل الصيغة وأسلوب التركيب والتحسين .

أما الفرق بين الخيال والوهم فهو أقرب إلى مصطلحات علم النفس وينتقل إلى علوم البلاغة حديثاً عند الغربيين .

ولم تكن عند العرب اصطلاحات لعلم النفس العصرى وإن كانت لهم دراساتهم النفسية فى صدد الكلام على الأخلاق .

إلا أن التفرقة بين الخيال والوهم واردة فى مواضع عدة من علوم البلاغة العربية ولا سيما علم البيان . ومنها كلام البيانيين عن « وجه الشبه » على التحقيق والتخييل ، ومنه تقسيم التشبيه إلى مقبول ومردود وقوى وضعيف ، ومنه كلامهم فى المجاز عن صحة المناسبة وصدق الاستعارة ، ولا تخرج فوارق المصطلحات الأوربية عن هذه الفوارق العربية فيما يعلمه الأستاذ الغزالى من أبواب التشبيه والاستعارة والمجاز .

بين نقد العابثين . . وعبث الناقدين*

مسألة يمكن الاتفاق عليها ، بل يجب الاتفاق عليها قبل كل كلام فى دعوة العبث ودعوة اللامعقول . وهما غير مترادفين ولكنهما مشتركان فى كثير من وجوه الخلاف عليهما بين الناقدين والعابثين .

ينبغى أن نتفق على التفرقة بين العبث وإدراك العبث . .

فإن العبث لغو وسخافة بغير غاية أو بغير معنى .

ولكن إدراك العبث غاية مقصودة لها معناها ولو كان هذا المعنى فصلا حاسماً بين العمل المقصود واللامقصود ، إذا جرينا على منهجهم اللغوى فى المعقول واللامعقول .

إن الماء المختلط بالأتربة والنفايات عكر .

ولكن العين التى تدرك أنه عكر ليست بعكرة ، ولا يجوز لنا أن نعكرها عمداً لكى يصبح النظر موافقاً للمنظور . . على قول أولئك الأدعياء الذين يعطوننا كلاماً مختلطاً معكراً لأن العالم فى رأيهم خليط من الأكدار ، ولا سبيل إلى تصفيته على شكل من الأشكال .

وكل عبث فهو خال من الغاية ، ولكن غاية من ؟

لا بد من هذا السؤال ، لأن كاتب القصة غير بطل القصة وغير قارئ القصة ، وغير الطابعين والناشرين للقصة . .

فمهما يكن من عبث الحياة التى يحياها بطل القصة حسب تصور المؤلف ، فإن القصة نفسها غاية مقصودة لا عبث فيها ولو كانت تمثل العبث كله على كل صورة من صوره فى الواقع أو فى الخيال .

وما من شيء يكشف لنا مهازل هؤلاء (العبثيين) من فلاسفة الحى اللاتينى وزبائنهم فى البلاد الأخرى ، كما يكشفه لنا أكبر الأمثلة التى ضربوها لعبث المقادير التى تتسلط على حياة الإنسان وحياة الكون كله فى نهاية المطاف .

---

* الأخبار ١٢ / ٢ / ١٩٦٤ .

ذلك هو مثل « سيسفوس » الذى تقول لنا أساطير اليونان إن الأرباب غضبت عليه فعاقبته بالعمل الدائب لا ينقطع ولا يزال يتكرر على صورة واحدة ، كلما انتهى منه عاد إليه كما بدأ إلى غير نهاية .

فهو مسلسل إلى جبل شامخ يصعد بالصخرة من أسفله إلى قمته العليا ، ثم تعود الصخرة كلما بلغ بها تلك القمة فتأخذه متدحرجة إلى القرار ، ليعود هو مرة ثانية وثالثة ورابعة إلى الصعود بها دواليك بغير راحة ولا استقرار ، بين أعلى القمة وأسفل القرار .

فإذا شاء ناقد أن يسمى عملا من هذه الأعمال عبثاً بغير غاية فعليه أن يقول لنا من هو صاحب الغاية التى يريد أن ينسبها إليه ؟

أهو الأرباب ؟

كلا . لأن العمل كله من جانبها ليس بالعبث على وجه من الوجوه ، ولن يكون عبثاً ما كان له سبب مفهوم وما كانت له كذلك غاية مفهومة .

أما السبب هنا فهو واضح مفهوم جد الوضوح والفهم ، وهو الغضب الذى يدعو إلى النقمة .

وأما الغاية هنا فهى العقوبة التى يشعر المغضوب عليه بأنها عقوبة مفروضة عليه ، ولن تكون كذلك إذا كانت عملا يحقق له غاية يختارها لنفسه بغير غضب من الأرباب .

بل من الجائز جداً أن تتجرد المسألة من العبث بالنسبة لسيسفوس المقضى عليه بتلك العقوبة ، إذا كان معنى العبث مرادفاً لمعنى غير المفهوم . فإن سيسفوس يفهم فى كل حركة من حركاته لماذا يتحركها وماذا يتبعها بعد انتهائها وماذا دعا إليها قبل ابتدائها ، ويفهم أنه لو لم يغضب الأرباب لما فرضت عليه الأرباب شيئاً منها ، ويفهم أن المسألة جد لا هزل فيه ، وليس بعبث ولا هزل ما نعرف أسبابه ونعرف أنه القضاء المبرم الذى نؤدى به فريضة العقاب .

فإذا أراد فيلسوف الحى اللاتينى أن يجعل صاحبه سيسفوس مثلا للإنسان فى الكون الأبدى الذى لا أول له ولاآخر ، فليقل لنا كيف يحكم على هذا الكون

الأبدى بالخلو من الغاية فى النهاية ، وليست له نهاية ؟ . .

وليقل لنا إذا كان للكون نهاية فى رأيه ولو إلى العدم : كيف يحكم على غايته بما يراه اليوم أو بما سيراه الأعقاب بعد الآلاف وبعد الملايين من السنين ؟

تلك غاية يجهلها ، ولا بد أن يجهلها وأن يجهلها مثله كل من تصدى للحكم عليها .

وإذا صح عنده أن الكون (أبدى) لا يوجد من ورائه شىء خارج عنه فلماذا لا تكون غايته هى هذا الذى يحدث فيه ويتكرر حدوثه كما نراه ويراه مثلنا كل من رآه ؟

لماذا لا يكون هذا كله غاية مطلوبة لذاتها ؟

وكيف تكون الغاية فى تعريفه وتقديره إذا شاء أن يتصورها واستطاع أن يخلقها ، أو وجب عليه أن يخلقها كما يريدها جاداً غير عابث ، وقاصداً غير مسوق إلى غرضه هو وليس إلى غرض أحد سواه .

فالحكاية ليست من السهولة بحيث يتخيلها فلاسفة التقاليع ، وليس من السهل أن يعبث فيها من يرسل عنانه مع العبث على هواه .

ومهما يكن من عبث هذه الدنيا فإن السؤال عن الغاية التى يتعلق بها حكم العبث خليق أن يرد إلى العقل أطول عنان من أعنة اللامعقول الجموح .

وليقولوا عن العبث ما يشاءون ، ولكنهم سيعلمون راغمين أن إدراك العبث جد لا هزل فيه ، وأن العين « العكرة » لا تصلح للنظر إلى الماء المعكر ولا إلى الماء الذى يقطر بالصفاء . . !

* * *

وليس كاتب هذه السطور هو الذى كتب السطور التالية التى يقول كاتبها الحكيم : ليس معنى اللامعقول « أنه موقف ضد العقل . فأنا لست من هذه الطائفة . . إن ما يصدر عنى إنما يصدر تحت سيطرة عقلى . وإنى قصدت عمداً استخدام كلمة اللامعقول . . وهى شىء آخر غير مسرح العبث كما يسمى فى أوربا وأمريكا . . »

وكاتب تلك السطور هو كاتب سطور مثلها سبقتها فى صفحات الكتاب وقال فيها بحكمته التى يستمدها من اسمه ومسماه :

« إن الغموض فى الفن إذا كان نتيجة فهو نقص وإذا كان سبباً فهو دجل . . وإذا تعمد الفنان منذ البداية أن يكون غامضاً واتخذ الغموض سبباً أو غرضاً لذاته بغية الإدهاش والصدم والتعمية فهو دجل . . »

وقائل هذه الكلمات وتلك الكلمات معاً — هو أولى القصاصين عندنا أن يقولها وأن يعرف الدجالين الذين صدقت عليهم من جانب السبب ومن جانب النتيجة فى وقت واحد. ممن يسميهم بالمجددين، وربما هاله أن يسمع منا عنهم وعن أتباعهم وأشياعهم وصفهم بالدجل والرقاعة لأنهم يحملون شهرة كشهرة بيكاسو فى التصوير، وهو يهدم فن الرسم واللون ويهدم الأشياء والأشكال ، ويمارس التنجيم بالفرشة وهى لم تخلق من أدوات التنجيم .

ومن ترى يكون ذلك الكاتب الحكيم ؟

هو — بغير حاجة إلى فرشة بيكاسو — عبقرينا القصصى توفيق الحكيم أولى القصاصين أن يقولها لأنه هو أديب القصة « الفكرية » قصة الحوار المحكم الذى لا يفلت من زمام العقل لحظة فى سؤال ولا جواب ؛ ولا يزال يستدنى الخيال من وادى التيه لينظمه فى حلقة من حلقات تلك السلسلة الذهنية، متلاحقاً بها أطراف الحوار .

وليس الحكيم من تلك (الطائفة) كما قال . .

ولكنه — وهذا عيبه يا خسارة ! — لا يزهد فى حسن الرأى من المعجبين بها ومن كل طائفة لها معجبون يحسنون التهويش و « التحشيش» ولو مقدار نفسين اثنين . . !

وما أشبه حسن الرأى من هؤلاء بأسوأ الآراء .

* * *

وتبقى لنا بين عبث الناقدين ونقد العابثين كلمة تخصنا بمقدار ما يخص الكاتب « العام» كلام يذيعه أو يذاع عنه على مسمع ومنظر ممن يستمعون أو ينظرون إلى « التلفزيون » .

لم يكن نصيبنا من نقد السهرة (التلفزيونية) عبثاً كله بحمد الله، فإن الذين اشتركوا فى ذلك النقد قد دلوا فى كثير مما قالوه على خبرة فنية جديرة بالالتفات إليها والاستفادة منها فى هندسة الصوت والإضاءة .

ولكنهم سلكوا إلى الخطأ من باب الصواب فى أصوب ما قالوه .

فمن الناقدين غير العابثين من عاب على النقل الصوتى أنه لم يسلم من عوارض الأصداء الخارجية ، وهو عيب قد يلاحظ فى كل موضع إلا فى هذا الموضع بعينه ، لأن هذه الأصداء كانت لازمة كل اللزوم فى موضعها الذى ظهرت فيه ، بل كان من الواجب على ناقل الصوت أن يتعمد إبقاءها أو خلقها — بهذا القدر المحدد — لو لم تظهر فى أثناء الحديث .

إن الناقد الخبير قد عاب على المسجلين أنهم لم يحيطوا موضع الحديث بمناظر الدار التى سجلت فيها ومناظر الحى الذى يحيط بتلك الدار .

ولكنه يعود فيأخذ عليهم أنهم أثبتوا صوت الآذان ومقارع النجارين إلى جانب مكان التسجيل ، ولعلها علامة على (الوسط) كله تغنى عن صور الدكاكين ومعالم الشرفة من حيث صدر صوت الآذان ، وقد كان ثبوت ذلك فى التسجيل ضرورياً فى تلك اللحظة بعينها ،لأن الحديث قد استطرد بعدها على الأثر إلى ذكر مزايا الدار من قبل ومن بعد ، وقيل فى تلك المزايا إن الدار كانت عند ابتداء السكن فيها بعيدة من أصداء الطرق والدق التى تسمع حولها الآن !

* * *

وأصاب الناقد الذى لاحظ أننى نسبت ميراث النظام تارة إلى الوالد وتارة إلى الوالدة .

وأصاب كذلك فى قلة التعويل على هذا الاختلاف الظاهر ، لأن الإنسان قد يرث من أبيه كما يرث من أمه ، وقد تكون الخصلة الواحدة ميراثاً من كلا لأبوين . ولا يهتدى الابن إلى فاصل يشعر به بين ما ورثه من أحدهما بغير الأثر لمحسوس من عمل مشابه لخلائق أبيه أو خلائق أمه .

ومما أحمده للناقد الأديب أنه نبه إلى ذلك الاختلاف لأنه حقيق بالتنبيه إليه . .

ولكنى أحسبه من قبيل الصواب الذى جاءه الخطأ من بابه ، أو جاءه من النافذة إن لم يكن من الباب الكبير !

إن الاختلاف هنا أدل على طبيعة الذكريات « التلقائية » من كل توافق متعمد يصدر من عمل الذهن بعد الإمعان فى التفسير والتقسيم وبعد إطالة النظر فى وجوه التحليل والتعليل .

ولقد كان من وحى هذه الذكريات التلقائية أننى تذكرت ما ورثته من الأب بعد الإلمام بعمل من أعمال الآباء فى الحياة الخارجية ، ومنها تنظيم دار المحفوظات وحصر الأوراق الرسمية التى كانت مهملة موزعة بين المخازن أيام حملة الدراويش . وتذكرت ما ورثته من الأم بعد الإشارة إلى شدتها التى لقبت من أجلها « بالمشدة » وهى لا تكف عن توجيهاتها فى تنظيم البيت ،وكان هذا الاختلاف التلقائى هو بعينه الوفاق « المطابق » للمأثور عن ميراث الأبناء من الأبوين ، وللعقيدة التى أدين بها عن مجال العمل الطبيعى بين الجنسين فى الحياة الخارجية أو الحياة البيتية .

وحمدت « اللامعقول » من نقد السهرة كما حمدت المعقول ، لأن النقد السليم « جداً » هو النقد الذى يسلمك من شره بيديه ، ويصدق غاية الصدق فى الدلالة على باطله بلسانه .

وإنه لمشكور غاية حقه من الشكر ذلك الناقد الذى قال إننى حملت على اللامعقول بغير سبب . وأنكرت الشعر الذى يسمونه حراً ، أو يسمونه جديداً بغير دليل . .

الفن تعبير*

أيها الأديب . لا تتعلم !

هذه — على ما يظهر — هى المفارقة العصرية فى بلدنا الذى اشتهر قديماً بأنه بلد المفارقات . . .

ولم تنقطع هذه المفارقات منذ أكثر من خمسة وعشرين قرناً ، أو منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو القرن الذى كتب فيه هيرودوت تاريخه ليقول عن هذا البلد إنه بلد المفارقات أو بلد النقائض والأعاجيب .

وهذه المفارقة العصرية — مفارقة الأدب بغير تعلم — هى مفارقة بلدنا على قول القائلين بالتجديد والاستعداد للأدب بغير عدة غير بركة العجز . . . وفيها الكفاية .

وموضع المفارقة فى هذه الدعوة أنها تصدر من أناس ينتسبون إلى الجامعات و يلقون الدروس على طلابها ، و يعلمونهم أن الكتابة لا تحتاج إلى لغة ، وأن الشعر لا يحتاج إلى وزن ، وأن القاعدة الذهبية فى الدراسات الأدبية هى إهمال كل قاعدة ذهبية ، بل كل قاعدة فضية أو نحاسية ، أو قصديرية ، أو طينية إذا وصل الأمر إلى الطين ، وقد وصل إلى ما دون الطين بحمد الله رب العالمين !

فالمعهود فى الدعوات الجامعية أنها هى دعوات « التعبئة العلمية » بمختلف الشروط والقواعد والأصول ، وبكل ضرب من ضروب الاستعداد والتحضير والاستيعاب .

أما بلدنا فهو ، والحمد لله عند شهرته القديمة بالمفارقات والنقائض والأعاجيب ، يعطينا — ولا يبالى — علامة أو علامتين أو ثلاث علامات أو علامين ، يقلبونها رأساً على عقب ولا يزالون يصيحون ثم يعيدون الصياح ثم يكررون الإعادة ، قائلين مرددين مجددين ، ومهددين ومرغين ومزبدين :

مالك ولقواعد اللغة أيها الكاتب ؟ أليست أمامك اللغة العامية ؟

ومالك ولقواعد العروض والبلاغة أيها الشاعر ؟ أليس أمامك الشعر بلا قافية ، ولو بالعافية ؟

---

* الأخبار ٢٣ / ٥ / ١٩٦٢ .

ومالك وما للدراسة الثقافية أيها الأديب ؟ أليست أمامك (الحدوتة) تسميها قصة فنية أو تسميها بما تشاء من أسماء الفنون الخنفشارية ؟

ومن المألوف فى كل دعوة جامعية — ولو من قبيل هذه الدعوة الخنفشارية أنها تتحلى بشىء من وقار الحذلقة يخيف السامع من بعيد ، ثم يرتفع عنه الخوف قليلا قليلا كلما اقترب من بيت القصيد .

لكن هذه المفارقة العصرية لا تعتصم فى دعواها بشىء غير بركة العجز الصريح أو بركة « العبط » الذى رفع الكلفة واستغنى عن التلميح !

فلماذا نهمل الكتابة الفصيحة فى القصة الفنية أو فى الرواية المسرحية ؟

إن السبب الذى تسمعه من العلامة الفهامة آخر ما يصدر عن علم وفهم فى هذا الموضوع !

إنهم يقولون لك إن اللهجة العامية هى لهجة الكلام الطبيعية ، فمن الواجب إذن أن تكون هى لغة الفن ولغة المسرح ولغة البيان !

ما هذا « العبط » يا أستاذ ؟ !

ومتى كان العمل الفنى هو نقل الطبيعة كما تنقلها الآلة ؟ متى كانت الصوره الشمسية هى المثل الأعلى للتصوير أو للنحت فى فنونكم التى تسمونها بالتشكيلية ؟

إن الفن — بغير عبط — هو التعبير عن الطبيعة وليس هو نقل الطبيعة ، فلو لم يكن للفنان عمل فى التعبير عن شكله لما استحق أن يوجد ولا أن يوجد معه فنه ، لأن الطبيعة تغنينا عنه وعن صورته فى كل مخلوق نراه .

وأنت تلغو باسم شكسبير وخلفاء شكسبير وأسلاف شكسبير ، من الزمن الأول إلى الزمن الأخير .

فإذا كان فى روايات شكسبير ألف متكلم ومتكلمة فمن منهم كان ينطق بتلك الألفاظ التى وضعها شكسبير على لسانه ؟ بل كم من هؤلاء الألف كان يعرف من اللغة الإنجليزية كلمة واحدة يفهمها شكسبير ؟

كليوباترة المصرية ؟ جولييت الإيطالية ؟ هملت الدنمركى ؟ يوليوس قيصر اللاتينى ؟

تيموف الأثينى ؟ عفاريت الغاب ؟ كليبان الجزيرة المسحورة ؟ خلائق الجن وأشباح الهاوية ؟

ليس من هؤلاء مخلوق واحد نطق بكلمة إنجليزية فى حياته ، ولكنهم نطقوا بها فى روايات شكسبير ، ونطقوا بكلماتنا العربية الفصحى بما نقلناه من تلك الروايات ، ولو رددناها إلى (الأصل) الذى يخيل إليك أنها كانت أليق به وكان أليق بها لنقصت فناً وأدباً وشعراً ومسرحاً ، ولم تزد شيئاً يحرص عليه القارئ أو المستمع أو الناقد أو الملحقون بالمسرح من أسفله إلى أعلاه !

ومن آيات العبط البالغ أن هؤلاء الذين يسومون الفن أن ينقل « العطسة » بلغتها العامية حرصاً على مشابهة الطبيعة — هم بأعينهم الذين يهللون للمصور « الخنفشارى » حين ينقل لك وجهاً آدمياً فلا تدرى هل هو كرنبة أو إنسان ، وهل وجهه فيه أنف واحد أو أنفان ؟ . . أو ينقل لك شكلا من الأشكال فإذا هو خليط من جميع الأشكال ، لا مثال له فى الواقع ولا فى الخيال !

والفن الذى لا يسمح لك أن تقول « نعم » بدل « إيوه » هو الفن الذى ينخلع له وسط العلامة (الخنفشارى) رقصاً وطرباً حين ينظر إلى صورته « السريالية » فلا يعرفها برأس ولا ذنب ، ولا يشترط لها شبهاً من الأشباه ولا حكاية صادقة أو غير صادقة لمثال أو غير مثال ، فى واقع ولا فى خيال . . !

ولا يجوز فى العقل أن يجمع أحد بين الدعوتين فى فهم وصدق وإيمان بصحة القول الذى يدعو إليه باسم الفن أو باسم الطبيعة ، لأنهما نقيضان يقوم كل منهما على بطلان الآخر كل البطلان .

فهو لا يستطيع أن يقول للمؤلف المسرحى : استمع يا صاح إلى الحوار الطبيعى فى عرض الطريق وإياك أن تجترئ عليه بشىء من التعديل والتبديل : إذا سمعت متكلماً يقول « بلاش » فإياك أن تجعلها « بلا شىء » . . . بل هى الباء المفتوحة أمام الباء المفتوحة ، واللام أمام اللام ، والألف أمام الألف والشين ساكنة أمام الشين ساكنة ، بلا فتحة عليها ولا همزة بعدها ، ولا تحريف ولا تبديل ، لأنه لا تبديل فى محكم التنزيل . . !

ومن استطاع أن يقول ذلك فما هو بمستطيع أن يعود إلى الفنان المصور ليقول له باسم هذا التنزيل : انظر يا صاح إلى وجه ذلك الآدمى فى الطبيعة واحذر كل الحذر أن تجعله آدمياً ، وأن تجعله طبيعياً ، وأن تنظر فيه إلى شبه من اللون أو شبه من الرسم أو شبه من الملامح أو شبه من كائن واحد بين كائنات الطبيعة تبصره العينان ويدل عليه اسم فلان ابن فلان .

إياك ثم إياك ، فإن الفن هكذا ، وإن الطبيعة ليست هكذا ، وإن هكذا ليست هكذا ولا هكذا ، ولكنها لا فهم ولا معنى ولا شبه ولا دلالة ، وافهم كما تريد ، أو أرد كما تفهم ، بلا كلام !

فمن قال إن تحريف « حرف » فى الكلمة العامية كفر بالطبيعة والفن ، لا يستطيع أن يقول إن مسخ الطبيعة بكل ما اشتملت عليه هو الفن الطبيعى الصادق ، أو هو الطبع الفنى الأصيل .

لكن الدعوتين المتناقضتين تجتمعان معاً وتجتمع معهما ألف دعوة مناقضة لكل ما فى العالم بأسره إذا تم الاتفاق على « المبدأ » الأول من مبادئ هذا التجديد الموفق السعيد : وهو التجديد بلا قواعد ولا مقاييس ولا دليل على صحة هذا وبطلان ذاك من صورة أو تمثال أو قصيدة أو مقال : صور وأقوال بلا أسماء ولا أوزان ولا أقيسة ولا مراجع للاستحسان والانتقاد غير فهاهة « العبط » وبركة العجز بحمد الله الذى يحمد على المكروه ، ولا إكراه .

وبهذا نعود إلى الأديب لنقول له : أيها الأديب لا تتعلم ولا تتفهم ولا تبال كيف تكتب لأنك ستكتب على كل حال كما سيتكلم الناس على كل حال .

وبهذه « الرخصة» المباحة لكل مستبيح يصح أن يقول العلامة (الجامعى) إن قواعد اللغة فضول ، وإن قواعد الشعر لغو مرذول ، وإن الأدب كلام أى كلام ، وإن الأدباء أعلام وأى أعلام! مقدار ما يجهلون هو مقدار ما يرشحهم للفهم والإفهام ، ومقدار ما يحفظ لنا المفارقات والنقائض والأعاجيب ، من عهد أبى التاريخ إلى مسيرة ألف عام ، بعد هذه الأيام . .

في عالم النقد*

« . . . في ندوة حضرتها للدكتور محمد مندور في معرض الكتاب العربي سأله سائل : ما هي الملامح التي توضح مدرسة الدكتور في النقد ؟ وما هي المميزات التي تميزها عن مدرسة العقاد ؟ وأجاب الدكتور : إن مدرسة الأستاذ العقاد تأخذ بمنهج التفسير النفسي للأدب ؛ ويظهر ذلك على سبيل المثال في كتاب العقاد عن أبي نواس وكتابه عن ابن الرومي ... على حين أننا نرى للأدب قيماً جمالية أخرى تنأى بنا عن النزول إلى مستوى ذلك التفسير . . . والذي أراه يا سيدي أن الصورة النفسية التي دبجتها يراعتكم عن أبي نواس تكاد تنطق من فرط براعتها . .

فإذا رأيتم أن في ردكم على هذا الكلام ما يفيد الدراسة النفسية – وبالطبع هو سيفيد – فهو كذلك . . . »

محمد محمد مرشدي بركات

ونحن نعرف من أسئلة الطالب الأديب أنه جيد الفهم لما يسمع ؛ وأنه يحسن السؤال الذي يجاب عنه ، ولكننا نقدر على سبيل الظن أن الكلام الذي رواه عن الدكتور محمد مندور منقول بمعناه الغالب دون ألفاظه وكلماته ؛ لأن المسألة هنا ليست مسألة صواب أو خطأ يقع فيه الدكتور مندور ، ولكنها مسألة وجود أو عدم؛ أو مسألة كائن حقيقي في عالم الواقع أو خرافة لا تتفق صفاتها وصفات الموجودات ؛ إذ كان الإنسان الذي يتصدى لرسالة النقد الأدبي ويجهل أثر النفس الإنسانية في صور الجمال ومذاهب الخيال مخلوقاً وهمياً لا تصدقه العقول؛ وصاحبنا هذا المندور بحمد الله الذي يحمد على كل شيء – مساحة ثابتة في الفراغ قابلة للتصديق على الأقل بشهود العيان !

وربما ساغ في عصر غير هذا العصر أن يقول القائل إنه يتجاهل القيم النفسية في تقدير شعور الأديب بالجمال وتقدير أسلوبه في التعبير عنه ؛ ولكن كلاماً

* الأخبار ٢٠ / ١١ / ١٩٦٣ .

كهذا لا يمكن أن يقال فى عصر الدراسات النفسية وهى اليوم مرجع الاختبارات فى كل مجال من مجالات الأعمال الصناعية التى لا تخلو معاملها الكبرى من « خبير نفسانى » يقدر قيمة العامل والصانع والمهندس والمحاسب والخازن بمقاييس الاختبار التى تعول على « النفسيات » قبل تعويلها على علامة أخرى من علامات الكفاية والصلاح لأداء العمل والتعاون مع المشتركين فيه .

وهذا هو شأن القيم النفسية فى الشئون المادية التى يعزها السيد المندور ولا يحسبها من المنحدرات فيما تحت القمم العالية ولا فيما تحت السراديب ، فما قوله فى القيم النفسية فى تقدير الشعر والشعور ؟

ويتساوى هذا الشأن الجلل فى بلاد الكتلة الغربية وبلاد الكتلة الشرقية على تباعد القواعد « الأيديولوجية » بين الفريقين ، فليس خبراء « الأيديولوجية » فى بلاد الكتلة الشرقية بالذين ينكرون شأن « النفسيات » عند الاستدلال على الأعمال وعلى ثمرات الفنون والصناعات ؛ ولا هم ممن يهملون تعبيرات النفس ويرفضون النظر إلى حسناتها وسيئاتها على ضوء الدراسات الحديثة ؛ وكل ما هنالك أنهم يرجعون بأسباب الحسنات والسيئات إلى تمام الموافقة بين الإنسان والبيئة الاجتماعية أو إلى نقص الموافقة بينهما . . .

أما أن نفس الشاعر أو الأديب تدل عليه وعلى مجتمعه فذلك هو « المستوى » المعقول ولا منحدر عنه لمن يحمل رأساً آدمياً فوق قدمين اثنتين .

ونحن قد نقول فى نقد الأشياء التى لا نفوس لها إن القطن — مثلا — يعرف بفتلته ولونه ورائحته وشكله مع شكل بذوره ولا ينفى ذلك أنه نبت فى حقل تنبت فيه ألوان شتى من الزروع والغلال .

فإذا عرفنا القطن بهذه العلامات فقد عرفنا منه كل ما يستحق أن يعرف فى المصنع والسوق وعلى أجسام لابسيه .

أما إذا كان قصارانا من المعرفة أن نذكر مساحة الحقل بالفدان والقيراط ، وأن نذكر موقعه من المنوفية أو الجيزة ؛ وأن نذكر سماده الكيمى أو الكفرى ، فقد بقيت كل قيمة صناعية أو طبيعية لذلك القطن مجهولة مفتقرة إلى البيان ، وجاز أن يكون

ذلك الحقل منبتاً لثمرات شتى من القمح والشعير والكتان ؛ فضلا عن شتى الأصناف والألوان من الأقطان ؟

وإن مدارس النقد الأدبى لكثيرة فى الأزمنة الماضية وفى هذا الزمن الذى شاعت فيه الدراسات النفسية أيما شيوع ؛ وإننا نقدرها كل قدرها ونقدر الكثيرين من أعلام النقد الذين تناولوا الأعمال الأدبية على أصولها .

نحن نقدر المدرسة التاريخية كما نقدر المدرسة الاجتماعية ؛ ونقدر المدرسة الفنية ، كما نقدر معها المدرسة اللغوية والبلاغية .

وكل منها قد دل على شىء من قيم الأدب لا نستغنى عن الدلالة عليه .

ولكننا نفضل عليها المدرسة النفسية لأن المدرسة النفسية تغنينا عنها ، ولا تلجئنا إلى مزيد من البيان بعد المعرفة لنفس الشاعر وبواعثها الظاهرة فى معانيه وألفاظه وأسلوبه وأغراضه النفسية المتمثلة فى تلك المعانى والألفاظ وذلك الأسلوب .

نحن نعرف كل ما نريد أن نعرفه وكل ما يهم أن يعرف متى عرفنا نفس الشاعر وعرفنا كيف يكون أثرها فى كلامه ، وكيف يكون أثر هذا الكلام فى نفوس الناس .

ولكن المدارس الأخرى لا تكفى هذه الكفاية للعلم بالشاعر وشعره .

لا تكفى مساحة الحقل ؛ ولا موقعه من المنوفية أو الجيزة ؛ ولا نوع السماد الذى يذرونه فى أرضه — إذا جهلنا بعد ذلك كله ما هو الفرق بين أصنافه وما هو الفرق بين أصناف القطن وأصناف النبات الذى يزرع معه فى أرض واحدة .

والتاريخ كله والمجتمعات كلها ، والمنحدرات السفلية بحذافيرها لن تغنينا مقدار فتلة عن العلم بأسباب الفوارق الشاسعة بين مائة شاعر نشأوا فى بلد واحد وفى بيئة واحدة وحقبة واحدة ؛ وكلهم — بعد هذا — مخالف لأخيه بل مناقض له فى لفظه ومعناه ؛ وفى غرضه ومرماه . .

ولهذا نفضل المدرسة النفسية لأنها تحيط بالمدارس كلها فى جميع مزاياها ولا تحيط مدرسة من المدارس التاريخية أو الاجتماعية أو اللغوية أو الفنية بمدرسة النقد النفسانى إذا جهلنا ملامح الشاعر وجهلنا المميزات بينها وبين غيرها ، مع وحدة البيئة والزمان .

ولينحدر الدكتور المندور أو يرتفع .

ولينزل المندور الدكتور أو يطلع .

وليشرق حيث يحب ويهوى أو يغرب ويستغرب .

وليكن حيث كان فيما يحسبه على هواه على عليين .

إننا لراضون أن نقيم حيث نحن مقيمون لأن مكاناً لا محل فيه للنفس الإنسانية ولا للقيم النفسية : نحسبه نحن أسفل سافلين ؛ ولا الضالين . . آمين آمين .

* * *

« . . . هل من شروط القصة فى الأدب الواقعى الصادق أن تكون لها نهاية غير سعيدة ؟ وهل من الضرورى أن يتغلب الشر على الخير فى نفس بطل القصة وأن يخضع للغواية فى جميع الأحوال ولا يخضع فى حال من الأحوال لصوت ضميره ؟

شهدت فى التلفزيون قصة قصيرة للكاتب عبد القادر حميدة عرضت فى شكل تمثيلية وعقب عليها الناقد عبد القادر القط بعد مشاهدة تمثيلها فجعل النقد كله منصبًّا على انتهاء القصة بانتصار بطلها على غواية الرشوة مع احتياجه الشديد إليها لمرض والدته وعجزه عن شراء الدواء لها وهو يكلفه فى روشتة واحدة ثلاثة جنيهات .

وخلاصة القصة أن البطل ملاحظ الطريق مرضت والدته فسهر على علاجها ، وخرج من البيت ذات صباح وهو يحمل فى جيبه روشتة لا يعلم كيف يحصل على ثمن الدواء المكتوب فيها ، ورآه زميله فى العمل مهموماً فسأله وعرف منه السبب ؛ فهون عليه الأمر ؛ وعرض عليه المبلغ اللازم فلم يقبله وقال له إنه سيطلبه إذا صرف كل ما عنده من مرتبه واحتاج إلى الاقتراض ثم خرج ملاحظ الطريق للتفتيش فى دائرة عمله فصادفته مخالفة مقدارها أربعون جنيهاً عرض عليه المقاول الذى وقعت منه المخالفة عشرين جنيهاً على سبيل الرشوة فرفضها بعد منازعة شديدة لنفسه ، ولمح فى أثناء التردد صورة أمه وهى آخذة بقضبان السجن تسأل عنه أخاه ؛ فجعل يعيد فى نفسه كلمات : إشغال الطريق وعشر سنين أشغال شاقة ؛ ثم وثب فجأة وهو يقطع القسيمة من الدفتر ويقول للمقاول : اذهب إلى المكتب وادفع مقدار الغرامة أربعين جنيهاً ؛ وانتهت القصة بهذه الخاتمة . . .

وقد كان مضمون نقد الأستاذ عبد القادر القط أن النهاية غير مقنعة وأن القصة تحتاج إلى سبب خارجي يبرر تحويل الموظف من الخضوع لإغراء الرشوة إلى مقاومة هذا الإغراء فى ظروفه المحرجة .

فهل نفهم من ذاك أن القصص الواقعية الصادقة لا يمكن أن تنتهى بغير الخضوع للظروف المحرجة والعجز عن مقاومتها ؟

وإذا كانت العادة الغالبة أن يكثر الخضوع للظروف المحرجة فهل يخلو الواقع من الحوادث القليلة التى ينعكس فيها حكم العادة الغالبة وتنتصر فيها نزعة الخير على الشر وحب المال على حب السمعة ؟ وهل يتحتم على المؤلف إذا حصل ذلك أن يختلق الوقائع ليقال إنه صادق فى وصف الطبيعة ؟

ومن العجب أن مؤلف القصة كان حاضراً فلم يخالف الأستاذ الناقد ؛ ولم يدافع عن قصته بغير الاعتذار ، فهل يعجبكم هذا الحكم على الطبيعة البشرية ؟ وهل تتفضلون بإبداء رأيكم فى معنى الواقعية وفى صحة القصص التى تنتهى بالخواتم السعيدة وانتصار الفضيلة على الرذيلة ، رغم كل شىء » . . . ؟ ؟

سلامة أحمد الجعفرى — إسكندرية

هذه خلاصة الرسالة المطولة بعد اختصارها والتصرف فى بعض عباراتها .

ورأينا فى سؤال السيد الجعفرى عن موقف المؤلف أنه مثل من أمثلة كثيرة معهودة تؤيد قول القائلين إن المؤلفين لا يشترط فى جميع الأحوال أن يكونوا أحسن الحكم فى العلم بمحاسن مؤلفاتهم أو العلم بوجوه الرد على نقادها .

وقد شهدنا هذه القصة عند عرضها وسمعنا ما دار من الحوار حولها ؛ وبدا لنا أن الصواب فى جانب المؤلف وليس فى جانب الناقد ؛ وأن مراعاة الواقعية فى القصة لا تقتضى بإخراج حوادث الانتصار على الظروف الحرجة من عداد الوقائع الحاصلة فى الحياة ، فإن هذا الانتصار شىء علمه الناس مما يجرى فى دنياهم ولم يعلموه من قبيل الفرض والتخيل عن عالم غير هذا العالم وأناس غير هؤلاء الناس .

ولا فرق بين من يتعمد ختام القصص جميعاً بتقرير مواقف الضعف أمام الغواية وبين من يتعمد أن يختمها جميعاً بنجاح المقاومة بعد جهاد للنفس « الأمارة

بالسوء » أو بغير جهاد . . . فإن هذا وذاك على السواء يجردان الواقع من حالة كائنة فيه ويخرجان الضعف النفسي كما يخرجان القوة النفسية من عداد الممكنات ، وليست هي — أي الممكنات — مما يثبت أو ينتفي بالكثرة أو القلة في درجة الإمكان. فليست هناك درجة وسطى بين الممكن والمستحيل ؛ وإن كانت هناك درجات كثيرة بين احتمال واحتمال .

وفي هذه القصة بذاتها نرى أن المؤلف لم يغفل عن التمهيد اللازم لتسويغ النتيجة على الصورة التي ختم بها القصة .

فلم تكن ظروف الإشفاق على الأم المريضة سبباً للحرج والإصغاء إلى وسواس الغواية وحسب ؛ ولكنها كانت كذلك سبباً للإعراض عن هذا الوسواس وفرط الشعور بالصدمة القاسية التي تفاجأ بها الأم المريضة إذا فجعت على حين غرة في سمعة وليدها وفي حريته ومورد رزقه ، وليس هذا العامل النفساني بالضعيف ولا هو بالمستغرب أن يخطر على بال الشاب المحرج مبالغاً فيه مع التهويل على ضميره تهويلا لا يخطر على باله وهو آمن على أمه في غير ظروف الحرج والاضطرار .

وقد أحسن المؤلف عامداً أو غير عامد بإبراز ناحية من نواحي البطل الأخلاقية في علاقته بالمال الذي يعرض عليه وهو مضطر إليه . فقد كان تأجيله لقبول التبرع من زميله دليلا على نفس تملك الأناة بين يدي الضرورة الملحة ، فلا حاجة بالمؤلف بعد هذا الدليل إلى اختلاق حادثة خارجية لجلاء هذه الناحية من أخلاق بطله ، ونعني بها ناحية التمالك أمام الغوث المستعجل من مورد سمح لا ملامة عليه ولا غضاضة فيه بين الزميل والزميل ؛ فأحرى أن يكون ذلك خلقاً له مفهوماً عند القارئ والناقد حين يعرض عليه المال من طريق ذميم غير مأمون .

ويتلخص موقف المؤلف في أنه حسن الظن بالنفس الإنسانية في بعض الظروف .

أما موقف الناقد فخلاصته أن النفس الإنسانية التي تسمح بمثل هذا الظن الحسن معدومة لا توجد في دنيا الواقع ولا في دنيا الخيال .

ولا خفاء بوجه الصواب بين هذين الموقفين . .

شيخ النقاد . . هل ولد ؟ اسألوه ؟ *

شيخ النقاد — بلا قافية — ينسى دروس صباه . . يا ولداه !

وشيخ النقاد — بشهادته لنفسه — هو الدكتور المندور .

ودروس صباه التي ينساها هي دروس كثيرة جداً نستعيد منها في هذه اليوميات درساً واحداً « صغيراً » كان موضوعه التصغير في شعر المتنبي ، شاعر العربية الكبير .

وبلا قافية ليست من مخترعاتنا نحن ، ولكنها هي مذهب الشيخ المندور — شيخ النقاد — بعد دعوته إلى الشعر الذى يكون شعراً ويسمى شعراً ويلغى الشعر كله بلا وزن ولا قافية . . . ولماذا لا يسمى نثراً ونخلص من إلقاء الأوزان والقوافى ؟!.

هكذا والسلام ، على عهدة المشايخ الكرام .

وحديث هذا الدرس يرجع عشرين سنة إلى أوائل سنة ١٩٤٣ ، ثم يرجع قبل ذلك نحو عشرين سنة إلى أواخر سنة ١٩٢٣ .

ففى عدد البلاغ الذى صدر فى العاشر من شهر ديسمبر سنة ١٩٢٣ كتبنا مقالا عن التصغير فى شعر المتنبي قلنا فيه إنه يدل على طموح المتنبي واغتراره بعظمته واحتقاره لمن ينافسهم وينافسونه من أهل زمانه فهو إذا افتخر بالغ فى التفخيم والتضخيم وإذا هجا بالغ فى التصغير والتحقير ، كأنما ينظر من طرفى مجهر مكبر يرينا الأشياء غاية فى الكبر أو غاية فى الصغر من الطرفين ، وقلنا بعد التمثيل لتفخيماته وتضخيماته .

« اعكس هذه الصورة بعد هذا واقلب المجهر المكبر وانظر فى الناحية الأخرى : ماذا ترى ؟ . . ترى صوراً صغيرة ضئيلة لا تدرى كيف تبالغ فى تصغيرها وتهوين شأنها . . . ترى شعور التفخيم قد انقلب إلى شعور بالتأفف والاشمئزاز ، أو أنت ترى المتنبي ذلك الذى امتلأ أمام العظمة روعة وتوقيراً قد نظر فى المجهر من ناحيته الأخرى فامتلأ أمام الضئولة تقززاً وتحقيراً . . » .

---

* الأخبار ٤ / ١٢ / ١٩٦٣ .

وكان فى هذا البلد طائفة قليلة أطلقوا على أنفسهم لقب (أدباء الشباب) كهذه الطائفة التى تلقب نفسها اليوم بهذا اللقب وتحصر جهودها فى غرض واحد وهو هدم شيخ واحد فقط لا غير يسمى « عباس العقاد » .

وإنما الفارق بينها وبين أخت لها بالأمس أن أختها بالأمس كانت تتعلل بهدم أدب الشيوخ وتخص« عباس العقاد » وحده بالشيخوخة .. مع أنه لم يكن يجاوز الأربعين ، ثم تقوم وتقعد بنشر الدعوة لأحمد شوقى وخليل مطران ومحمد المويلحى . وأصغرهم قد جاوز الستين . .

وفتش عن القصر تارة . . وفتش عن السياسة تارة أخرى . . . وفتش عن الغرور بالألقاب المدرسية تارات . . وفتش عن الحزازة الشخصية مع كل تارة من هذه التارات ، فإنك ستعرف السر الكامن وراء الشيخوخة فى الأربعين والفتوة الناشئة فيما وراء الستين !

أما أخت تلك الطائفة ممن يسمون أنفسهم اليوم بأدباء الشباب ففى الصبغة الحمراء تفسير لما يعلنون ويضمرون ، وفى غير ذلك من المعلل تفسيرات أخرى تتفرع إلى فروع شتى ، يبرز بينها أصحاب الدجل الدينى وأصحاب الدجل الحزبى وأصحاب الدجل من كل طائفة تعرضت للحملة عليها من كاتب هذه السطور ، وتتخللهم جميعاً طائفة المغرورين بالألقاب المدرسية ، وليس عندهم من محصول الثقافة غير الغرور والقشور .

ولقد كان مسلكنا مع هؤلاء المتربصين بنا على ألوانهم الكثيرة أن نعرض عنهم ونتركهم يهدمون ما استطاعوا ليعلموا بعد حين أن الغبار الذى يثيرونه إنما هو أنقاضهم الهزيلة تتهاوى فوق رءوسهم وتتساقط تحت أقدامنا دون أن تحوجنا بعد ذلك حتى إلى الطلاء لتلميع الحذاء .

فما أجبنا أحداً منهم إلا أن يكون فى كلامه موضوع سؤال نتلقاه من أصدقائنا القراء ، ويومئذ نعرض له بالبيان الضرورى لأنه حق للقارئ على كاتبه الذى يحرص على تمحيص آرائه بين الموافقين لها والمعترضين عليها .

وكان شيخ النقاد فى تلك الأيام من « صبيان النقد » بلا قافية . . . قبل ثلاثين سنة .

وكان همه فى هذه السنين جميعاً أن يتتبع ما نقوله بالإنكار والتسفيه فى الجملة والتفصيل كأنما قد خلقنا الله معجزة أخرى من معجزات الخلق فى هذه الدنيا : وهى معجزة العصمة من الصواب ، ولعلها أندر من معجزات النبوة التى تتصف بالعصمة من الأخطاء .

كل ما نقوله خطأ ، وكل ما يكتبه شيخ اليوم ، صبى الأمس بلا قافية ؛ تصريح أو غمز بالإعادة والإبداء فى تسفيه كل ما نقول .

شعرنا ليس بشعر ، لأن شعر (الهمس) هو الذى يرتضيه شيخ النقاد وقد نسى شيخ النقاد أنه الناقد الاجتماعى العصرى الصناعى المادى الذى لم يكتب حرفاً واحداً فى نقد المذهب الماركسى . . ثم نسى مع ذلك أن (الهمس) آخر أساليب التعبير عن ضوضاء الصناعة وثورات الاجتماع .

والقصيدة يجب أن تكون بغير ترتيب ولا انتظام بين معانى الأبيات ، لأننا نحن نقول فى الشعر بوحدة القصيدة .

والوزن والقافية فضول فى الشعر العربى عند شيخ النقاد : رأى لم يقل به الشيخ ولم يتحمس له إلا بعد أن أصبحت معارضتنا له هى « بيت القصيد » وأصبح الواضح فى رأينا أن الوزن أصل من أصول الكلمات العربية فضلا عن القصائد والأبيات ، فلا يوجد فى لغة الضاد لفظ واحد له معنى بغير وزن يقاس عليه ، ولا يوجد فى اللغات الأوربية لفظ واحد له وزن مقصود .

والأدب يجب أن يؤخذ سطوراً وشطوراً بغير نفوس . . . لأننا نحن نعتمد على التعبير ونعتمد فى التعبير على الفوارق بين نفوس المعبرين .

وكل إنسان فى هذه الدنيا لا يستحق عند الشيخ حرفاً من الثناء إلا بمقدار ما فى الثناء عليه من التعريض بكاتب هذه السطور .

ثم المرأة وما أدراك ما المرأة عند مولانا الشيخ ؟ . . . إنها سيدة الرجل لأننا نحن نقول إنها والرجل جنسان لم يختلفا تركيباً وخلقاً ليصبحا نسخة مكررة ، وإن المرأة يعيبها أن يقال عنها إنها كالرجل كما يعيب الرجل أن يقال عنه إنه والمرأة سواء .

والثقافة العربية لابد أن تتأخر عن الثقافتين اليونانية والعبرية — عنوة — لأننا

نحن نقول بقدم الثقافة العربية ولا نقول ذلك عبثاً بل نسنده بكل دليل من التاريخ والفكر السليم ، لأن اليونان استعاروا حروفهم الأبجدية من حروف العرب ، وليست « ألفا . . بيتا . . جما . . دلتا . . » إلا « أبجد بعينها » لأن الأبجدية العربية أكمل من أبجدية اليهود ، ومشتقات لغة الضاد تمت قبل المشتقات فى سائر اللغات السامية ، ونظم الشعر العربى أسبق من نمط الشعر العبرى الذى لا وزن فيه إلى الآن . . . وقد كان لإبراهيم وموسى معلمون من أبناء العرب على تخوم العراق وفلسطين .

وكذنا نعتقد أننا لو استطعنا يوماً أن نقول إن « المندور » هو شيخ النقاد حقًّا لظهر فى الغد مقال بتوقيع المندور نفسه يقسم فيه إن هذا المندور جنين لم يولد بعد ، أو يصبح فيه هذا المندور بعينه ومينه عقاداً آخر مبرّءاً من الحسنات معصوماً من كل قول وعمل غير المساوئ والسيئات .

* * *

وعلى هذه السنة كتب « المندور » قبل ثلاثين سنة ينكر رأينا فى ولع المتنبى بالتصغير ، وينكر أن يكون للتصغير فى شعره شأن غير شأنه فى دواوين عامة الشعراء ، ولن يقول بذلك أحد فتح ديوان المتنبى فى حياته مرتين على صفحة من الصفحات .

وعلى سنتنا نحن أعرضنا عنه حتى وصل إلى مجلة الرسالة التى نكتب فيها سؤال بتوقيع « محمد جابر » يشير فيه إلى رأينا فى ولع المتنبى بالتصغير ويعقب عليه قائلا : « وقد اطلعنا أخيراً على مقالة فى مجلة الثقافة لبعضهم يقول فيها إن هذا من طغيان النفسيات على الأدب وإن التصغير فى شعر المتنبى لم يكن لتكبره وإنما هو أداة من أدوات الهجاء يعرفها شعراء هذا الفن فى الأدب العربى وفى غيره من الآداب . . فهل لكم أن تدلوا برأيكم فى تعقيب الكاتب لأنه تفسير لرأيكم وفيه بيان لمسألة من مسائل النفسيات والأدب ؟» .

وحق علينا جواب السائل دون أن نذكر شيخ النقاد اليوم بغير الإشارة إلى كلامه فى مجلة الثقافة ، وكان جوابنا توكيداً لوجوب الدراسة النفسية فى فهم كل أسلوب من أساليب التعبير . لأن النقد الذى يأخذ البلاغة أخذه لمجموعة من الكلمات والألفاظ المنسوقة لن يصل إلى نقد التعبير كما صدر من صاحبه ،

إذ كانت العبارة ونفس المعبر صفتين حيويتين ، ولا قيمة للأدب الذى ينعزل عن الحياة .

وخلاصة ذلك الجواب سؤال وجيز فحواه : إذا كان كل ما فى الأمر أن التصغير قاعدة فى اللغة وفن من فنون الهجاء ــ فلماذا خلا منه شعر الهجائين من أمثال الفرزدق وجرير وابن الرومى ودعبل والحطيئة من قبل هؤلاء ؟ ولماذا اجتمع منه فى شعر المتنبي وحده ــ وهو ليس من المختصين بالهجاء ــ ما لم يجتمع فى دواوين هؤلاء الشعراء متفرقين ؟

هنا لابد من التفسير النفسانى لتعبيرات الشاعر عن ذات نفسه ، ولا سبيل إلى فهم الكلام بغير فهم المتكلم ، لأن الاتصال بينهما ــ كما تقدم ــ إنما هو ذلك الاتصال الوثيق بين المؤثرات والمعبرات ، ولا سبيل إلى العزل بين هاتين الصلتين .

ولو أن شيخ النقاد أراد أن يفهم جلية الرأى لفهم من هذا الدرس الصغير ما هو كفيل بتصحيح خطئه .

ولكن الآراء عند شيخ النقاد لا تنقسم إلى صواب وخطأ ، وإنما تنقسم إلى رأى نقول به فهو خطأ لا صواب فيه ، ورأى يعارض ذلك الرأى فهو الصواب كل الصواب !

* * *

وفى ندوة الكتاب ــ بعد ثلاثين سنة ــ سأل الشيخ سائل عن الفرق بين مدرسة العقاد فى النقد وبين مدرسته هو فكان جوابه : « أن العقاد يعتمد على النفسيات وأنه هو يعرف أصولا للنقد الأدبى تعصمه أن ينزل إلى ذلك المستوى » .

وبدر إلينا الشك فى الصيغة التى جاءت بها هذه العبارة على لسان شيخ النقاد ، ولكنه رواها بعد ذلك بصيغة لا تختلف كثيراً عن صيغتها المنقولة إلينا ، فكتب فى إحدى الصحف الصباحية يقول : « إننى أجنح نحو النظر إلى الأعمال الأدبية والفنية كوثائق نفسية لتحليل نفسيات مؤلفيها على أساس من فلسفة فرويد وتلاميذه المعروفة وذلك بينا أرفض أنا النزول إلى مستوى الوثائق النفسية فحسب » .

وعلى السنة التى توخيناها قديماً لم نعرض لكلام الدكتور المندور فى الندوة حين

نقل إلينا ، ولكننا عرضنا له حين سألنا عنه أحد أصدقائنا القراء فى اليوميات ، وجاء بعد ذلك جواب الدكتور المندور فى الصحيفة الصباحية فإذا هو أحق بالتصحيح مما ورد فى سؤال القارئ الصديق من وجوه كثيرة .

فما كنا يوماً من أشياع مدرسة فرويد وتلاميذه فى الدراسات النفسية .

وما قلنا قط إن التحليلات النفسية هى غرضنا من دراسة نفوس الشعراء ، وإنما قلنا ونقول إن نفس الشاعر هى التى نرجع إليها حين نلتمس الفوارق التى لا تفسرها البيئة الاجتماعية ، وهى واحدة حيث يختلف العشرات بل المئات من الشعراء ، وما كتبنا عن شاعر واحد دون أن نحيط الكلام عليه بالبحوث المطولة عن أحوال عصره وعن معنى ظاهرته الأدبية من الوجهة الاجتماعية .

ولا جديد فى قول صاحبنا عن كاتب هذه السطور : « إن الأستاذ قد اهتبل هذه الفرصة لكى يشن هجوماً دونيكشوتيًّا صاخباً لا شىء فيه من وداعة وحكمة سانكوبانزا . . . وما حيلتى فى العملاق الباطش العقاد المعقود » .

لا جديد فى هذا الادعاء إلا أنه ينم على شىء من اللباقة تعلمه المندور فى السنين الثلاثين . . فنحن نحن الذين نلاحقه بالحملة الدونكشيوتية بغير حكمة ، وهو هو — ويا للبراءة — ذلك المظلوم الذى لا حيلة له فى تلك الغارة القديمة التى جعلتنا نترصد له فى كل مناسبة وغير مناسبة ، والتى بدأنا بها حياتنا القامية لنهدمه قبل أن توضع فيه طوبة إلى طوبة ، وقبل أن يترقى فى « كادره » الخاص إلى مشيخة النقاد .

إنها لباقة يا شيخ ؟

لكنها لباقة فى « زعبوط » لم يتغير فيه لون فروه الأصيل .

ومن ذا يغفل عن ذلك « الزعبوط » المعتبر حتى يبحث عن الطرفين المتهمين ، من منهما البادئ فى كلمته ، ومن هو المجيب بعد إعراض وسؤال ؟

* * *

يسأل السيد (حميدو الأزهرى) عن مقام ومسجد رائعين بمدينة المنزلة ، ينسبهما أبناء الإقليم إلى أحد كبار الصحابة وهو القعقاع بن عمرو التميمى ويقام

له مولد سنوى يمجده أهل المنزلة والمدن المجاورة ويحجون إليه فى كل عام . .

ولا خلاف فى أمر القعقاع الصحابى الجليل والفارس المغوار والشاعر المبين ، وهو الذى قال عنه أبو بكر الصديق رضى الله عنهما : « لصوت القعقاع فى الجيش خير من ألف رجل » وقال عنه سعد بطل القادسية فى رسالة إلى الفاروق : « لم أر مثل القعقاع بن عمرو ، حمل فى يوم ثلاثين حملة يقتل فى كل حملة بطلا ، وهو الذى غنم فى كل فتح المدائن أدراع كسرى وكان فيها درع لهرقل ودرع لخاقان » .

وقد كان الفاروق يأمر بإقامته على مقدمة الجيش فى الوقائع المهمة ومنها وقعة جلولاء .

وأحدث المراجع التى ورد فيها كلام عن مسجد القعقاع كتاب الخطط التوفيقية لعلى مبارك باشا ، جاء فيه من وصف معالم المنزلة : (ومسجد القعقاع بحارة القعقاع مسجد جامع أنشأه الحاج سويدان الحريبى وفيه قبتان إحداهما يقال إنها للقعقاع الصحابى تزار على الدوام ، سيما ليلة الاثنين ، وكان فى السابق يعمل له مولد فى كل سنة ، والأخرى يزعمون أنها لسيدى محيى الدين . . »

وقائع .. عن جماعة أبولو *

شاء زميلنا الأستاذ « صالح جودت » أن يعتبر نفسه مسئولا عن جماعة « أبولو » ظاهرها وخافيها ؛ لأنه كان يكتب فى إحدى مجلتيها ، فيجب علينا إذن أن نصدق كل ما قالته تلك الجماعة وأن ندعو الناس إلى تصديقه وحسبانه من « تاريخ الأدب » الذى يقرؤه الناس كأنه حركة فكرية أو حركة تاريخية ، وألا يعرفوا عنه حقيقة غير تلك الدعاوى التى يعلنها أصحابها ويتقبلها الناس من بعدهم فلا يرتابون فى صدقها ولا فى اتهامنا نحن بما ادعته علينا باسم النقد والأدب ، وكله لحاجة لا شأن لها بالنقد والأدب ، إذا اطلع الناس على دخائلها الخفية .

وللأستاذ صالح جودت أن يعلن أنه كان على علم بأعمال الجماعة الظاهرة ولم يكن على علم بنياتها أو نيات القائمين على إدارتها ، وقد يحدث هذا فى أمر كتاب الصحف جميعاً فلا يلزم من كتابتهم فيها أنهم مطلعون على أسرارها وأسرار تأسيسها وتوجيهها ، فليس كل من كتب فى « المقطم » مثلا مسئولا عن نشأة المقطم لترويج سياسة الاحتلال ، وليس كل من كتب فى صحيفة « الاتحاد » مسئولا عن علاقة الصحيفة بسياسة الخاصة الملكية فى عهد أحمد فؤاد .

إن الأستاذ صالح جودت يستطيع أن يعلن ما يشاء من هذا القبيل ، ولكنه لا يستطيع أن ينقض الوقائع الثابتة بمجرد النفى والإنكار ، ولا يستطيع أن يفرض علينا السكوت فى أمر سمعتنا وأمر التاريخ الأدبى إكراماً لمقالات كان يشترك فى كتابتها لهذه الصحيفة أو تلك يوماً من الأيام .

ومن تلك الوقائع التى لا شك فيها أن القائمين على جماعة « أبولو » أعلنوا أنهم يحاربون أدب الشيوخ باسم أدب الشباب ، وكنا يومئذ فى نحو الأربعين ولكن المجلتين التابعتين للجماعة لم تحملا على أحد غيرنا ممن هم أندادنا سناً وأدباً ، أو من الذين سبقونا بالزمن والكتابة .

---

* الأخبار ١٦ / ٨ / ١٩٦١ .

ومن الوقائع المحققة أن المطبعة التى كانت تصدر منشورات الجماعة أغلقت بعد خروج زكى الإبراشى من ديوان الخاصة الملكية ، وأن رئيس الجماعة الذى بالغ لنا الأستاذ صالح جودت فى وصف فقره قد أنفق على إعداد تلك المطبعة ونشر مطبوعاتها التى كانت تكلفه مئات الجنيهات ، وليس لها عوض ظاهر يقوم بأعباء تلك التكاليف .

ومن الوقائع الثابتة أننا لم نكتب حرفاً عن أحد من المنتسبين إلى تلك الجماعة إلا ما جاء بعد إنشائها عرضاً واتفاقاً فى سياق الرد عليها وعلى غيرها .

هذه الوقائع الثابتة ليست مما ينقض بكلمة تقال .

ولهذا اكتفينا بها ولم نتعرض لما يجوز الخلاف عليه من تعيينات بعض المعينين فى ديوان الأوقاف على عهد السيطرة الفؤادية عليه ، ولم نتعرض لما يجوز الخلاف عليه من إنفاق الخاصة الملكية على تعليم أبناء بعض الشعراء ومن إغراء أولئك الشعراء بلقب الشاعر المتوج ، أو شاعر الملك ، أو ماشابه ذلك من الألقاب .

فنحن لا نتعرض لأمثال هذه الأخبار المحققة لجواز الخلاف عليها ، ولا نتعرض كذلك للمناورات الصبيانية التى يعمد إليها بعضهم كلما أدركته حفيظة من أعمال كاتب هذه السطور ، ومنها ما هو قريب العهد لم يتجاوز الشهور .

ولكننا إذا اكتفينا بالوقائع ولم نتعرض لما بين سطورها فنحن فى حدود الحق البين — حقنا وحق التاريخ — كلما قلنا عن إشاعة تمسنا إنها تقصدنا لغرض معلوم ، وإننا نجاريها فى خدمة ذلك الغرض إذا سكتنا عليه وتركناه يعاد ويتكرر ويروى فيما يسمونه بكتب الأدب وكتب التاريخ الأدبى ، ونحن صامتون نؤكد التسليم والتصديق بالسكوت والتأمين .

وحسبنا كرماً أننا نسكت إلى اليوم عن بعض تلك الصبيانيات التى ينساق إليها من هم أهل لها فلا نكشف النقاب عن بواطنها ، وهى على مدى الإشارة بالخنصر فضلا عن سائر أصابع اليدين .

حسبنا هذا من الكرم لأننا بحمد الله لا نطمع فيما هو أكرم منه ولا نتطلع إلى منازل الأولياء ، ودع عنك منازل الأنبياء :

وبعيد بلوغ هاتيك جدا   تلك عليا مراتب الأنبياء

* * *

تناقشنا فى أصل كلمة « القرش » فقال بعضهم إنها من مادة قرش وهى جمع الشىء من هنا وهناك بعضه إلى بعض ، أو من التقريش والقرش وهى السعى لطلب الرزق والكسب للعيال كما جاء فى المعجمات .

فإذا صح هذا فلماذا انفردت هذه العملة بهذه التسمية من اللغة العربية ؟ وما هو معنى قطع العملة الأخرى بهذه اللغة أو باللغات التى استعيرت منها ؟

أحمد زايد عبد الله

إسكندرية

كلمة قرش لم تعرف بمعنى هذه العملة المتداولة قبل أيام الدولة العثمانية ، وقبل الاتصال بين البلاد العربية وغيرها من الأقطار التى كانت تعاملها فى شئون التجارة الهندية الشرقية ، سواء على شواطئ البحر المتوسط أو على شواطئ القارة الأوربية الغربية .

وقد عرفنا فى بلادنا إلى زمن قريب أصنافاً من العملة كانت مقبولة فى بلاد الدولة العثمانية بين القارات الثلاث ، ومنها البندقى والمجر والبنتو والريال القشلة (من الكاسل أو القلعة) والريال الشينكو (فى عدد خمسة) والميدى فى اللغة التونسية بمعنى النصف ، أى نصف القطعة الفضية الصغيرة .

أما باقى قطع النقود التى لا يزال أكثرها باقياً بأسمائه — وإن تغيرت قيمته مع تغير المعاملات الدولية والوطنية — فأسماؤها كلها أجنبية معروفة بمعانيها فى لغاتها إلى اليوم .

فالجنيه — مثلا — مأخوذ من اسم بلاد غينيا ، لأنه صنع لأول مرة فى القرن السابع عشر من ذهب كان يستخرج من مناجم تلك البلاد ، وكانت قيمته عشرين شلناً ثم زيدت هذه القيمة إلى واحد وعشرين شلناً على ما يظهر لمضاهاة القطعة الذهبية فى أسواق غير أسواق الجزر البريطانية .

والريال مأخوذ من اللغة الأسبانية نقلا عن اللاتينية ، ومعناه بتلك اللغة الملكى

أو السلطانى (Regal) ثم تحولت الجيم إلى ياء كما تتحول فى أكثر الكلمات الأسبانية المنقولة عن اللغة اللاتينية .

والقرش مأخوذ من كلمة جرمانية بمعنى الكبير ، ويطلقونها أحياناً على « الدستة » لاشتماله على اثنتى عشرة قطعة صغيرة ، وأصله بتلك اللغة « جروشن » (Groschen) نقلت إلى البولونية فنطقوها جروشى وتسربت بهذا اللفظ إلى ألسنة الترك وعملاء البندقية وجنوة وغيرها من أقاليم إيطاليا التى كانت تتجر مع النمسا وألمانيا ومعنا منذ القرن السابع عشر ، ومن لفظ جروش تحول إلى جرش ثم تحول فى الكتابة إلى قرش كما تكتب الآن ، فلا علاقة له بمادة القرش والتقريش فى معجماتنا ، ولم يعرف من قبل بمعنى العملة مستعاراً من هذه المادة على لسان أمة عربية

والمليم كلمة فرنسية بمعنى جزء من ألف (Millieme) أطلقت على العملة المعروفة بعد أن قدر الجنيه بمائة قرش وقدر القرش بعشرة مليات ، وكان هذا المليم يساوى أربع « بارات » وهى جمع بارة التركية بمعنى نقد أو فلوس ، ولعلها من (Pris) الفرنسية ، وهى مادة تشتق منها كلمات القيمة والثمن والمكافأة والقبض والتناول وغيرها مما يترادف مع معانى النقود ، وترجع إليها كلمة البريزة العربية ، وهى فى الوجه البحرى تساوى عشرة قروش وفى الصعيد تساوى نصف مليم وتقارب كلمة « بارا » التركية باللفظ والمقدار .

وبعض العملة عندنا ينسب إلى المعدن الذى يصك منه ، كالنيكلة والبرنزة والفضة ، وكانت تساوى ربع مليم !

وقد أشار السيد زايد فى خطابه — بعد الأسطر التى نقلناها — إلى مسألة فقر اللغة وغناها فى اختيار أسماء العملة التى تتداولها ، فنقول للسيد إن اللغة العربية لم تكن لتعجز فى القديم والحديث عن تدبير كلمات بمعنى الكلمات الأجنبية سواء بالنسبة أو الوصف أو الاستعارة لإطلاقها على النقود ، وكان المتكلمون باللغة العربية يستطيعون أن يسموا الجنيه باسم « الغالى » ، والريال باسم السلطانى أو الأميرى ، والقرش باسم الكبير ، والمليم باسم الألفى كما فعل المتكلمون باللغات الأجنبية ، بل كان فى استطاعتهم أن يتوسعوا فى معانى الفلوس والمثاقيل والسكة

والوزنة لتقسيم القطع وحسبان عددها فى كل عملة مصطلح على قيمتها.

فليست المسألة الآن ولا من قبل مسألة فقر أو غنى فى ألفاظ اللغة ومعانيها . ولكنها مسألة السبق إلى سك العملة وتداولها بين الأسواق العالمية ، وقديماً كانت الأمم تتعامل بالدينار والدرهم وأولهما لاتينى من كلمة عشرة وثانيهما يونانى من كلمة درخم بمعنى قبض أو تناول ، ولم يكن الاصطلاح على كلمة تنسب إلى العشرة بالأمر العسير على لغة الضاد ، ولا كانت مادة القبض والتناول مغلقة على العربى المستعير منها كما استعار منها اليونانى وجاراه الرومانى والفارسى والجرمانى وغيرهم من أبناء القرون الخالية ، ولو أخذنا بالمقاصة بيننا وبين أبناء اللغات العالمية لاستردنا من معجماتهم أضعاف ما يستردونه من معجماتنا فى باب المعاملات وحدها ، فلا يحق لهم أن يدينونا بالجنيهات والريالات إلا إذا دناهم بالبنك والحوالة والورق ، بل بأرقام العدد نفسها وبالصفر فى حساب ما بعد العشرات والمئات ، وسينتهى الأمر بيننا وبينهم إلى حساب « امسح ونمسح » بغير حاجة إلى السؤال والمطال ، وليس بالغارم من يدين كما يدان فى هذا المجال .

أدب *

نحن مجموعة من الشباب ممن يعشقون الأدب ويجلون الفن والمتفننين تجمعنا فى كل أسبوع ندوة نعقدها بمنزل أحدنا . . وكعادتنا اجتمعنا منذ أيام وجعلنا نناقش بعض المسائل المتعلقة بالنقد والنقاد ، وفجأة انطلق أحدنا قائلا : إننى لا أؤمن بالنقد ولا بالنقاد لأمر بسيط جداً وهو أن الناقد فى رأيى أديب فاشل ، ومن ثم فإنى لا أعير قوله اهتماماً ، وكان هذا القول وحده كفيلا بأن يثير من الجدل ما تركنا مختلفين لا نتفق على شىء إلا أن نحتكم إلى سيادتكم لنعلم رأيكم الذى هو عندنا حجة دامغة . . وإنى أكتب إليكم هذا الخطاب باسم زملائى جميعاً لعلنا نلتقى بردكم المقنع فى يوميات الأخبار . .

السيد عبد الحليم الزيات
كلية الآداب — إسكندرية

زميلكم على حق فى أمر النقاد الذين يعيشون عالة على الأدباء المنتجين ولا ينتجون شيئاً من عندهم ولا هم بقادرين على الإنتاج .

ولكن الناقد يصارع الأديب المنتج ويفوقه أحياناً إذا كان من النقاد الخلاقين ولم يكن من النقاد المقلدين ، وإن الناقد القدير ليخلق المقاييس الأدبية والقيم الفنية أحياناً فيعلم الأدباء كيف ينتجون وكيف يتجنبون العيوب ، ومن طراز هذا الناقد أناس معدودون بين أعلام الأدب فى الغرب لا يعلو على مكانهم فى الخلق والإبداع مكان أديب من أدباء لغاتهم النابهين ، فليس بين أدباء الألمان والفرنسيين والإنجليز من هو أعظم مكاناً من لسنغ وسان بيف وهازليت ، وكلهم صاحب فضل على الأدب المنظوم والمنثور فى لغته لا يستغنى عنه بعمل الأدباء المنتجين غير الناقدين .

---

* الأخبار ١٤ / ٣ / ١٩٦٠ .

المسائل الجنسية فى الأدب والفن

« . . . إن كلا من نجيب محفوظ و (فلان بن فلان) يتحدثان عن الجنس ، ولكنك مع ذلك تقدر نجيب محفوظ وتنفر من « فلان بن فلان » . . . فما الفرق بينهما ؟ وما الفرق بين كتابة كل منهما عن الجنس ؟ وماذا يجب أن يلتزم الكاتب حين يتحدث عن هذا الموضوع . . . أرجو أن نقرأ ردكم فى يومياتكم بالأخبار ... »

سمير أحمد شاكر

كلية المعلمين — القاهرة

إذا رأى الناس ألوفاً من الرجال والنساء فى علاقة زوجية فلم يعترضوا على هذه العلاقة لم يجز لأحد أن يقول لهم إنكم ناقضتم أنفسكم لأنكم لا تعترضون على هذه العلاقات ، ولكنكم تعترضون على العلاقات الجنسية فى دور الفساد .

فلا الجنس ، ولا الكتابة عن الجنس ، موضع اعتراض من أحد يتحدث عنهما من الوجهة الأدبية أو الأخلاقية ، وإنما الاعتراض على ابتذال الجنس والاتجار به فى سوق الشهوات . واتخاذه وسيلة لترويج البضاعة باستثارة الغرائز وتحريض النزعات البهيمية التى يتساوى فيها الإنسان والحيوان . . . ولا فرق بين من يحتال لكسب المال من إدارة أماكن الفساد ، وبين من يحتال لكسبه من ترويج كتب الفساد ، بل ربما كانت مصيبة الأماكن التى تدار للاتجار بالأعراض أهون خطرا من مصيبة الكتب التى تعرض للبيع فى كل سوق ، لأن البيت الواحد مقصور على زواره الباحثين عنه ، ولكن الكتاب الذى تباع منه مئات النسخ أو ألوفها خطر يقع فيه كل من يلقاه فى طريقه إلى المكتبة أو الرصيف .

ولا صعوبة فى التمييز بين الكتابة السابقة والكتابة الشائكة عن المسائل الجنسية ، فإننا نستطيع دائماً أن نسأل وأن نجيب عن هذا السؤال ؟ لماذا يكتب الكاتب عن هذه المسائل ولماذا يقرؤها القارئ ؟ . . . فلا خفاء ، بما يكتب للتعريف بالحقائق

الجنسية وتمثيل العيوب والنقائص ومواطن الضعف فى الطبيعة البشرية من هذه الناحية، وبين الكتابة لعرض اللوحات المخزية بالكلمات والحروف على صفحات الورق بدلا من عرضها بالصور السرية على تذاكر البريد وما إليها . فليست صور الجنس على التذاكر المخزية فنًّا جميلا يحتاج إلى براعة أدبية أو قدرة فنية . وليست الفضائح المكتوبة فنًّا من فنون الأدب أو وسيلة عبقرية لاجتذاب النظارة والمتفرجين . ولكنها جميعاً عمل من أهون الأعمال وأقلها حاجة إلى الفهم والذوق وحسن التعبير .

وما حاجة الناس إلى تفصيلات ما يجرى فى المخادع وراء الأبواب ؟ ولكنهم يحتاجون دائماً إلى فهم الجنس ولو زادهم ذلك علماً بمواطن الضعف فيه ومبلغ الاعتماد على حفظه أو تفريطه فى الحياة الاجتماعية والحياة الفردية ، تبصيراً بحقائق الحياة وهواجس النفوس ، لا تبصيراً بشىء يعرفه الحيوان قبل أن يعرفه الإنسان !

ولك أن تسأل القارئ بعد الفراغ من كتاب يعرض للعلاقات الجنسية . ماذا تعلمت من هذا الكتاب ؟ فإذا كان قد تعلم منه سرًّا نفسيًّا فقد وجد فيه ما يستحق القراءة ، وإذا كان كل ما تعلمه منه سرًّا « ماديًّا » ليس إلا . . . . سرًّا تحجبه الجدران ليس إلا . . . . فهو عملية هدم لإزالة الجدران من عالم الخيال ، وعملية هدم لإزالة الأخلاق والآداب . . .

مفهوم ؟ . . أظن أنه مفهوم !!

الأدب المكشوف بقية من بقايا العصور الوسطى*

تمتد أصبع من أصابع التاريخ القوية إلى دعاة الأدب الفاضح الذى يسمونه بالأدب المكشوف، فتعود به إلى مكانه من القرون الوسطى كلما حاولوا أن يدسوه على الناس باسم النهضة « التقدمية» ويظهروه لهم فى صورة الحرية الفكرية التى تجمل بأبناء العصر الحديث ، بعد انقضاء عصور الظلام والجهالة . . . وهى هى بعينها تلك القرون الوسطى التى ولد فيها أدبهم الفاضح « المفضوح ».

فمما لا يخفى على قراء القصص المختلفة من بقايا القرون الوسطى أن أدب العورات والشهوات الجسدية كان أظهر الظواهر التى عبرت بها أقلام كتابه وشعرائه عن أمراض الانحلال والنفاق التى شاعت فيه على أثر اضطراب العقائد وغلبة الشكوك على المفكرين فى قيم الأخلاق التى يفرضها على الناس دعاة العرف الكاذب ومن ورائهم جماعة المحترفين للمناصب الدينية الكبرى وأتباعهم من سائر المحترفين لمناصب الدين، فظهرت فى هذه الفترة كتب بوكاشيو ورابليه ولحقت بها كتب الأب برانتوم ورسائل دى لاكلوس وما كان يتبعها من أمثالها و « تقليداتها » المزيفة إلى نهاية القرن الثامن عشر، وهو الحلقة الوسطى بين نهاية قرون الظلام والجهالة كما يسمونها ، وهذا القرن العشرين الذى نسميه عصر الحرية والنور .

وكلما حاول « المكشوفون » فى هذا العصر أن يمثلوا للناس أدبهم فى صورة السابق العداء المهرول . «مستعجلا» إلى الأمام صاح بهم صائح من الأمس يقول لهم وهم يصطنعون معه الصمم والبلاهة . مكانكم يا هؤلاء العدائين . . . . إنكم فى الحق تهرولون على عجل، ولكن إلى الطرف الآخر من ساحة السباق تسمونها عصور الحجر والقيد ، وقرون الجهالة والظلام .

وآخر الأصابع التاريخية التى امتدت إلى الأدب المكشوف فى هذه السنين أصبع القرن الثامن عشر وفيه ظهرت رسائل كودرلوس دى لاكلوس التى أصدرها فى

---

* الأخبار ٢٨ / ٣ / ١٩٦٢ .

سنة ١٧٨٢ وسماها بالعلاقات الخطرة لأنها علاقات تمثل الخطر الذى يحيط بفن الإغواء والإغراء وتمثل معه قدرة الخادع البارع فى هذا الفن وهو يغالب الموانع من آداب الحياء والتقوى فى نفوس النساء بلا استثناء لنساء الأديرة والمدارس والقصور ، ويغالب قبل ذلك موانع المجتمع وتقاليد العرف وزواجر الشريعة وألوان التكلف والنفاق .

وقد اقترنت هذه المناورة الأخيرة من مناورات الأدب المكشوف باحتياط غريب من جانب الحكومة الفرنسية ، لأنها أباحت تمثيل الفلم الذى استخرجته شركات الصور المتحركة لتعرضه فى داخل البلاد الفرنسيه دون السماح بإصداره إلى البلاد الخارجية ، وتساءل نقاد الفن فى بعض الصحف الإنجليزية : ما معنى هذا الاحتياط الغريب من رقابة الأفلام الفرنسية ؟ هل معناه أن الفلم المعروض فضيحة للبلد يكتمها أولئك المراقبون عن العالم الخارجى ؟ أو معناه أن المراقبين يخافون على أخلاق الأمم ولا يخافون على أخلاق أمتهم ..... لأنها لم يبق لها ما تحذره من هذه الغوايات ؟

وذكر بعض النقاد الإنجليز أن الكاتبة الفرنسية « مدام ريكوبونى » أرسلت إلى زميلها المؤلف بعد ظهور رسائله تقول له مامعناه : إنها لا تستغرب إجادته « الكتابية » لأنها وراثة فى أسرته ولكنها لا تستطيع أن تهنئه بهذه الإجادة التى تفضح أخلاق الرجال والنساء فى وطنه وتجعلهم مضغة فى أفواه الغرباء بشهادة الأقربين « المحترمين » ...

يقول أولئك النقاد الإنجليز : هل يعنى المراقبون الفرنسيون أنهم يرجعون إلى نصيحة « مدام ريكوبونى » ويقصدون بتحريم إصدار الفلم إلى خارج البلاد الفرنسية أنهم يسترون هذه الفضيحة عن أنظار الغرباء ؟ ... يسألون هذا السؤال ثم يقولون : إنهم لايظنون أن هذا هو السبب الذى خطر للمراقبين الفرنسيين وقد يجهلون النصيحة كما يجهلون الكاتبة ،وما كتبت فى زمانها؛ ولكن الذى حدث أن الفلم قد أصاب فى بلده نجاحاً لم يصبه فلم مسموح بتصديره وبيعه لشركات العرض الأجنبية ، وقيل إن عدد التذاكر التى صرفت لمشاهدته فى شهر واحد زادت على ستمائة ألف تذكرة من مختلف الدرجات ، وإن المتفرجين البلجيكيين تقاطروا

بالألوف على بلدة (ليل) لمشاهدته هناك ، ولم يكن عدد الوافدين من الجزر البريطانية لمشاهدة الفلم فى باريس أقل من الوافدين البلجيكيين على ليل .

وتروى الصحف أن لجنة المراقبين قد اشتملت على ثلاثة من الوزراء : هم وزير العدل ووزير الاستعلامات ووزير الصحراء والبلاد الخارجية ، واعتبرت الدولة حكم هؤلاء الوزراء كافياً لتبرئة القصة من الحكم الذى دمغها به القضاء فى سنة ١٨٢٣ وقرر فيه أنها « انتهاك لحرمة الآداب العامة» والصقت هذه التهمة بالقصة بعد ذلك فاجتنب مؤرخو الأدب « المحترم » أن يشيروا إليها فى صفحاتهم من قريب أو بعيد .

ونعود فنقول لهذه المناسبة — كما قلنا فى مناسبات أخرى — إن سماح المتأخرين بالقصة لا تفيد أن أسلافهم كانوا مخطئين فى إتهامها وتحريمها ، لأنهم ربما اعتبروا فى تحريمها أسباباً كانت على غاية من الوجاهة فى زمانها بين أصحاب القانون وأصحاب النقد الأدبى وجمهرة المتفرجين ، ومثل هذا يقال عن القانون الذى يقبض على السيد أو السيدة فى الطريق بلباس الحمام المباح على شاطئ البحر المكشوف . فإن الآداب العامة فى العصر الواحد قد تبيح على الشاطئ ما لا تبيحه فى عرض الطريق ، وقد تبيحه فى المكان الذى يستطيع من يشاء أن يتجنبه ثم تحرمه فى المكان الذى يقتحمه عليهم بغير اختبارهم من يخالفون التقاليد .

على أننا نعتقد أن العرف « الرسمى» الذى يجيز ألوان هذا الأدب المكشوف فى الأقطار الغربية المختلفة لم يقل كلمته الأخيرة فى أسباب السماح أو التحريم ، فإن حكم القضاء فى البلاد الإنجليزية برفع الحظر على رواية « لادى شاترلى » لا يزال محلا للتردد بين الجهات العليا التى تملك الحق الدستورى فى تعديل المبادئ التى تبنى عليها أحكام القضاء ، ومنها مجلس اللوردات .

وقد تناقش المجلس بعد الإفراج عن نسخ الرواية فى مدى السماح بالكلمات « العوراء » فلم يتفق على تعيينها وإحصائها لملاحظتها فى الأحكام المقبلة ، واولا أن بعض الأعضاء أسرف فى المنع فأراد أن يحسب من الكلمات المحظورة كلمة دامن (Damn)التى تجرى على الألسنة فى عبارات الشتم والسباب لصدر التعديل وفيه ما يعتبر فى حكم الإلغاء والإبطال للسماح برواية « لادى شاترلى » بعد منعها أكثر

من عشرين سنة ، وقد يسر إلغاء « المبدأ » أنه كان من المبادئ السلبية التى « لا تمنع » الكلمة لمجرد أنها من ذوات الحروف الأربعة . . . كناية عن أسماء الأعضاء التى اتفق – بالمصادفة – – أنها تدل فى اللغة الإنجليزية على عورات الرجال والنساء بنطقها المتعارف عليه !

فإذا تيسر غداً أن يتفق المسئولون على نص يجمع الكلمات المباحة ويحظر ما عداها فالروايات من قبيل رواية لادى شاترلى لا تضمن السماح بها بعد اليوم فى جميع الأحوال .

وأيًّا كان حكم الغد« الرسمى » فى ذلك، فالحكم التاريخى الذى لا ينقض أن الأدب المكشوف يعود بالقرن العشرين إلى رقم (١٥ و ١٦ و ١٧ و ١٨) ولا يحوله امتيازاً محتكراً للرقم العشرين وما بعد العشرين !

الأدب المكشوف*

مليون نسخة فى مدينة القاهرة وحدها من كتب « الأسرار الجنسية » .

هكذا تقول الصحف . . . وهى حالة يتعلم منها الكبار ما ينبغى لهم أن يتعلموه من حقائق هذه الأسرار .

وأول ما يتعلمونه من دروسها أنهم يخطئون حين يظنون أن الإقبال على الكتب الجنسية نتيجة من نتائج الكبت والحجر على علاقات الفتيان والفتيات ، فإن مثل هذا العدد من الكتب لم ينتشر فى مدينة القاهرة أيام البراقع والستائر والمقاصير والخصيان ، مع حساب الفارق فى عدد القارئين والقارئات .

ومن دروس هذه الحالة للكبار — قبل الصغار — أن الأدب الذى يسمونه بالأدب المكشوف ليس بالنهضة « التقدمية» التى نستحث لها خطوات الأبناء والبنات وإنما هو عارض من عوارض الضعف التى تنم على الحاجة إلى التربية والرياضة الخلقية ، وتدل على أن « الشباب» مفتقر إلى ضبط الإرادة فى هذه الفتنة وليس بالمفتقر إلى إطلاق الإرادة لاستباحة ما يباح وما لا يباح .

ومن دروسها أن تفهم حكمة « النوع الإنسانى » منذ نشأته الأولى فى تدبيره المقصود أو غير المقصود لإحاطة المسائل الجنسية بالضوابط والمحظورات . فلم يكن من العبث أن تشيع كل هذه (التابوات Tobooes) حول الجنس وعلاقاته منذ أقدم العصور ، ولا شك أن الأقدمين أخطأوا الوسيلة مع اتفاقهم على الغاية : لأن معرفتهم بالوظائف الجسدية لا ترتقى إلى العلم الصحيح بوسائل تنظيمها وتهذيبها على الوجه الأمثل ، ولكنهم إذا أخطأوا صناعة اللجام فليس معنى ذلك أننا نترك الجامح فى هذه الطريق يجمح على هواه ، وليس معناه من الباب أولى أننا نلغى اللجام ونستخدم المنخاس بديلا منه ، كما يفعل دعاة النكسة الذين (يسترون) فضائحهم بذلك الأدب المكشوف

---

* الأخبار ٤ / ١ / ١٩٦٠ .

مليون نسخة من كتب لا عمل لها غير أن تثير فى النفوس ما لا حاجة به إلى الإثارة ، لأن الطبيعة تغنى المطبعة والقلم عن كل جهد مصنوع فى ثورتها الحيوانية ، ولأن المطابع والأقلام لازمة هنا لكبح الجماح وتقويم الشطط وتفويت هذه الفترة بين الطفولة والرجولة على خير . ولو كان هذا الإقبال على الكتب الجنسية إفراطاً فى علم نافع كما يقول أنصار الأدب المكشوف لوجدنا أنفسنا الآن مضطرين إلى الإقلال من ملايين الكتب فى الآداب والعلوم التى يقبل عليها قراؤها الناشئون ، لأنهم يفرطون فى طلب المعرفة والانتفاع بالحرية الفكرية .

ولكنها شعوذة مكشوفة يروجها سماسرة السوء اليوم باسم الأدب المكشوف ، بعد أن روجوها ألوف السنين من وراء حجاب .

الكتب الرخيصة . . قضت على الصحافة الأدبية*

تواردت الكتب السنوية التى تظهر فى اللغات الأوربية ، وفيها - مع البيانات المختلفة - بيان كاف عن حركة الثقافة خلال السنة التى مضت من تاريخ ظهور هذه الكتب فى السنة الماضية إلى تاريخ ظهورها فى هذه السنة ، وهى على الأكثر تظهر بعد منتصف شهر أكتوبر كل عام .

والمعول فى هذه الكتب - دائماً - على الإحصاء بالأرقام ، ومن هذا الإحصاء يفهم القارئ دلالة الأرقام على حركة الثقافة من الوجهة الفكرية أو من وجهة المعنى والذوق ، وجوهر الموضوع على التعميم .

فمن هذه الإحصاءات تعرف عدد الكتب وعدد الجديد منها والقديم الذى أعيد طبعه مرة أو مرات ، ونعرف دخل الناشرين من جميع هذه الكتب مفصلة مبوبة ، كما نعرف موضوعاتها التى تدل عليها العناوين .

والواضح بعد المقابلة بين الأرقام أن الإقبال على القراءة فى ازدياد ، وأن الزيادة عامة فى العدد وفى الدخل وفى التنويع والتبويب .

وإنما يلاحظ أن زيادة الدخل لا تدل حتما على نمو الحركة الثقافية ، لأنها قد تنشأ من هبوط قيمة النقود ، ومن مضاعفة ثمن الكتاب تعويضاً لذلك الهبوط .

ويلاحظ أيضاً أن بعض الدور الناشرة أغلقت أبوابها ولم توزع على المساهمين فيها أرباحاً مجزئة ، وليس هذا من أدلة الرواج إذا نظرنا إليه من الناحية التجارية .

إلا أن هذه الملاحظات توازنها ملاحظات أخرى تصحح دلالتها .

فالدور الناشرة التى أغلقت أبوابها تقابلها دور باقية يتسع نطاقها وتنمو أرباحها .

والكتب الغالية تقابلها كتب رخيصة الثمن يسمونها بكتب « الغلاف الورقى » تمييزاً لها من الكتب المجلدة والكتب الأنيقة المزينة بالصور والجلود الثمينة ، وقد زاد عدد المنشآت التى تصدر هذه الكتب على الستين ، بعد أن كانت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى تحسب على أصابع اليدين .

---

* الأخبار ٢٨ / ١٢ / ١٩٦٠ .

ومما يدعو إلى التفاؤل عند طلاب المعرفة والمشتغلين بنشرها أن الإقبال على المطالعة يسرى إلى طبقات كثيرة ، بعد أن كان مقصوراً فى الأغلب الأعم على أصحاب الدخل المتوسط والقليل من عشاق الكتب بين أبناء الطبقة الفقيرة ، وهذه دلالة تتضح على الدوام من شيوع الطبعات الرخيصة وقلة تأثيرها فى الطبعات الغالية ، فلا يحول تداول الكتاب بالثمن الرخيص دون تداوله بمختلف الأثمان بين القادرين على بذل الثمن الكبير فيه ، وعلى تكوين المكتبات والمجاميع .

وهذه الحالة — فى جملتها — تقاس بنظائرها عندنا بين البلاد العربية فيظهر من المقارنة أن الشبه قريب مع الفارق فى العدد واتساع النطاق ، فإن الزيادة عندنا مطردة على مثال اطرادها فى البلاد الأوربية ، وكل ما زاد هناك فقد زاد نظيره هنا ولا يزال فى ازدياد .

وقد يمتد التشابه هنا وهناك إلى مجالات أخرى لا تدخل فى حساب الكثيرين عندنا ، فإن انتشار الكتب « ذات الغلاف الورقى » قد أضعف الصحافة الأدبية عندهم من جهة واضطر الصحافة الباقية إلى العناية بالمباحث التى كانت مقصورة من قبل على الكتاب ، ترغيباً لقراء الموضوعات الجدية فى قراءة صحف الأدب الرفيع والثقافة العلمية .

ولعلنا نفهم ما ينبغى عمله إذا فهمنا أن ضعف الصحف الثقافية عندنا لم ينشأ من إعراض القراء عن موضوعات الثقافة — أدبية كانت أو علمية — ولكنه نشأ من سهولة الحصول على الكتب الرخيصة فى كثير من موضوعات الصحافة الأدبية والعلمية ، فإذا استطاعت صحافتنا أن تجتذب القراء المثقفين إلى أبوابها المخصصة للبحث الجدى الملائم للصحف كسبت ولم تخسر ، وقد تكون لها يومئذ مزية السرعة فى التعليق والتعريف فيعتمد عليها القارىء المثقف ولا يضطر إلى انتظار الكتاب المخصص لاستيفاء هذه البحوث .

وكل هذا ولا شك يعنى أن يزداد عدد الصحفيين الذين يحسنون القراءة والكتابة وأن ينقص عدد الصحفيين الأميين وأشباه الأميين !

* * *

فى أخبار الأدب أمس أن الأديب الإيطالى « البرتو مورافيا » قال عن قصة الملل ـ آخر قصصه المطولة — إنها تعبر عن روح العصر ، لأن الناس فى أعقاب

الحرب العالمية ملوا كل شيء مثير ، لتشابه الأشياء المثيرة ، حتى ينتهى بها التكرار إلى فقدان طعمها وانصراف الناس عنها .

وهذا كله صحيح ، وإن لم يكن جديداً فى أقوال نقاد الأدب والفن ومؤرخى الجيل.

ولكن ما هى العلة فى التهافت على المثيرات منذ الحرب العالمية الأولى ومن قبلها فى بعض الأحوال ؟

العلة هى حب التعويض الخاسر والعجز عن التعويض المفيد .

إن الإنسان لا يطلب المثيرات الحسية ، إلا لأنه فقد القرار على عقيدة روحية أو على فكرة مثالية أو على ثقة خلقية .

ومتى فقد هذا القرار دفعه القلق إلى أن يشغل نفسه بما يثير حسه ، وسئم المثيرات لا محالة لأن المثيرات تفقد معناها ولا تصبح « مثيرة » ولا قابلة لتنبيه الحس إذا استمر التنبيه يوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، فلا يسع طلاب المثيرات إلا أن يعودوا إلى طلب القرار والاطمئنان إلى المرسى الذى يسكن إليه هذا العيش المستثار .

وهذا الذي عنيناه حين قلنا إن الولع بالمثيرات تعويض خاسر عن العقيدة الروحية وعن الفكرة المثالية وعن الثقة الخلقية .

لأن هذه القيم الرفيعة تزود النفس بعوامل الحركة وعوامل السكون فى وقت واحد ، ولا تدعها فارغة فى لحظة من اللحظات .

إن العقيدة الروحية تزود الإنسان ببواعث الحركة وحوافز العمل عن ثقة وقوة ، وتزوده ببواعث العزاء عند الإخفاق والخيبة ، وتوحى إليه أن يفضل الإخفاق والخيبة أحياناً على النجاح إذا كان فيه ما يناقض عقيدته ويحمله على إهمالها والتفريط فيها .

وإذا احتاج صاحب العقيدة إلى الصبر والقرار وجد من عقيدته معواناً له على التصبر والاستقرار ، ولم يستسلم للملل والسآمة كما يفعل طلاب المثيرات كلما فقدوا ما يثيرهم ، وكلما استسلموا للمنبهات بعد المنبهات حتى ضاعت منها قوة التنبيه.

وإننا لنقرر هذه الحقيقة ونحن آمنون أن يثور علينا عبيد الحس والجسد ، لأنهم أطاعوا هذه المحسوسات حتى عجزوا عن طاعتها وملوا نداءها ، فلم يبق لديهم رمق يستثيره المثير .

* * *

« ... هل على الأديب أن يتقيد برغبات الجمهور القارئ فيكتب ما لا يرضى عنه هو نفسه إرضاء لجمهور القراء ؟ وبعبارة أخرى هل على الأديب أن ينزل بمستواه من ناحية الأساوب والأفكار إلى مستوى عامة القراء ؟ أو على هؤلاء أن يرتفعوا إلى المستوى الذى يتناوله الكاتب بكتاباته وهم يعجزون عن ذلك فى بعض الأحيان فتكون الكتابة فى هذه الحالة لفئة خاصة من القراء على قدر من الثقافة ، فيتعارض ذلك مع مهمة الكاتب والأديب » .

قارئ . . .

ربما استغنى السيد « القارئ » عن رأينا فى هذه الأسئلة إذا اكتفينا من الجواب عنها بهذه الحقائق التى نحسب أنها موضع اتفاق يقل الخلاف عليه ، إن جاز فيه الخلاف .

وأول هذه الحقائق أن القراءة عمل « إيجابى » يشترك فيه القارئ وليست مجرد استسلام سلبى من القارئ بغير مجهود ، فلا مناص فيه من مقابلة عمل الكاتب بعمل القارئ الذى يساوى الكاتب فى ثقافته أو ينقص عنه .

ومثل هذه الحقيقة أن المسألة ليست مسألة كاتب واحد يرتفع أو يهبط وطائفة واحدة من القراء على درجة واحدة من الفهم والذوق ، ولكنها مسألة كتاب متعددين على تفاوت فى العقول والأذواق . فالمجال متسع لأنواع كثيرة من الكتابة والقراءة ودرجات كثيرة من الارتفاع والهبوط ، ومهما يبلغ من ارتفاع الأسلوب فهناك طائفة قارئة تدركه وتتلقى رسالته بغير حاجة إلى الهبوط من جانب والارتفاع من جانب آخر .

ومن الحقائق التى ينبغى أن تتقرر — إن لم تكن مقررة فعلا — أن الكتابة كلها عبث إذا كان الغرض منها أن يجهل الكاتب ما يعرف وأن يظل القارئ الجاهل على جهله ولا يتحول عنه بمجهود أو بغير مجهود .

ومن هذه الحقائق أن الكاتب مطالب بأن يعطى القراء ما يحتاجون إليه وليس قصاراه أن يعطيهم ما يرغبون فيه ، وأن الكاتب الذى يدع القارئ فى موضعه من الفهم والشعور قبل القراءة يستوى وجوده وعدمه ، بل يرجع عدمه على وجوده لأنه يضيع على القارئ وقته بغير جدوى .

ومن الحقائق أن الذى ارتفع لا يجوز له أن يهبط وأن الذى هبط يجب عليه أن يرتفع ويعاب عليه أن يبقى حيث كان . فإذا كان الارتفاع عملا يحتاج إلى مجهود وإلى وقت يتم فيه هذا المجهود، فهذا هو عمل الحياة التى لا تنقضى فى يوم واحد ، وتلك هى سنة الأحياء الذين يعملون للحاضر والمستقبل ، وإنما الميت الذى فقد الحياة هو الحمل الجاثم الذى يحمل من مكان إلى مكان ويرفع على الأعناق بغير مجهود منه ولا مشاركة فى الانتقال والارتفاع .

وتاريخ الكتابة — منذ تعلم الناس الكتابة — يجرى على هذه السنة ولا يشذ عنه كاتب على الإطلاق ، فإذا وجد الكاتب الذى يؤلف لأطفال صغار يتعلمون الهجاء والخط فهو لا يهبط إلى مستواهم ، لأن مستوى الأطفال لا يؤهلهم لوظيفة التعليم ، ولكنه يحافظ على مستوى المعلم وهو يصنع كتب الأطفال المبتدئين .

وما من زمن وجدت فيه كتب الأطفال واقتصر الأمر كله عليها فى الكتابة والتأليف ، فلا غنى عن كتب السنة الأولى مع كتب السنة التحضيرية ، ولا غنى عن كتب السنة الثانية والثالثة والرابعة وكتب التعليم التوجيهى والتعليم العالى مع كتب السنوات التى تنقص عنها فى درجات الدراسة .

وإذا وضعت كتب الهجاء لطفل صغير فهو يعاقب ويهمل إذا اكتفى بها طول عمره أو احتاج إليها سنة أخرى بعد سنته الأولى ، وينتهى الأمر بإغلاق المدرسة التى تنحصر دروسها ومدرسوها وكتب دراستها على قدر السنة التحضيرية دون سواها .

وكل مجتمع تلغى فيه الكتابة التى تعلو على جهل الجهلاء وغباوة الأغبياء فهو فى حكم تلك المدرسة التى ينتهى بها الأمر إلى الإغلاق .

ولابد إذن من كتابة يفهمها كل قادر على الفهم حسب اجتهاده ، ولابد إذن لكل قارئ من أن يرتفع باجتهاده ولا يقعد فى حضيض الجهل أبداً لكى يهبط إليه من يعلمون ومن لا يعلمون ؛ وهو مستريح حيث أقعده الجهل فى قراره المهين !

ولا فائدة من العلم إذا كان من حصله مطالباً بأن ينساه ومن جهله غير مطالب بأن يسعى إليه .

أدباؤنا الجهلاء !*

فى يدى الساعة كتاب ينبغى أن يرسل مع « مخصوص » إلى كل أديب من أدبائنا الجهلاء .

وأدباؤنا الجهلاء هؤلاء طائفة لم تبلغ بعد أن تعد مع القراء، إلا أن تكون القراءة بمعنى فك الخط والنطق بالحروف الأبجدية ، ولكنها على هذا تتطاول إلى مقام الحكم فيما يكتب وما لا يكتب وما يحسب من الأدب وما لا يحسب من الأدب . ثم لا تخجل وهى ترفع العقيرة بهذا الادعاء الرقيع .

والكتاب هو أحاديث عن شكسبير .

لم يطبع فى القرن السابع عشر أو فى القرن الثامن عشر أو فى القرن التاسع عشر ، أو فى أوائل القرن العشرين . .

حاشاه وما شاه . . !

بل طبع فى الشهرين الماضيين فى سنة ١٩٥٤، واشتمل على المحاضرات التى ألقيت أخيراً على المسرح الذى تمثل عليه روايات شكسبير فى مسقط رأسه ، ويتسابق إليه المئات من أقطار البلاد.

وليست الطامة الكبرى فى عرف الأدباء الجهلاء عنوان الكتاب أو موعد صدوره ، بل الطامة الكبرى موضوعاته وآراء كتابه فى تلقى الموضوعات .

ومثل منها يغنى عن كثير .

ومثل منها يقول فيه « سترونج » مدير معهد «مثوين» إنه يكتب عن شكسبير وعلماء النفسانيات فى العصر الحاضر ولكنه لا يكتب هذا البحث ليمتحن شكسبير بمعيار علم النفس الحديث ، وإنما يكتبه ليمتحن علم النفس الحديث بمعيار شكسبير ، فإن أدب شكسبير قيمة ثقافية جربت ثلاثة قرون فصدقت التجربة ؛ وأما علم النفس فلا يزال تحت التجربة وسيبقى تحت التجربة إلى زمن بعيد .

---

* الأخبار ٢٤ / ٩ / ١٩٥٤ .

وتقرأ البحث فترى حقًّا أن علم النفس يستفيد من معارضته على أقوال الشاعر العظيم .

هذا هو أدب الحياة ...

هذا هو الأدب الذى يحيا وتحيا فيه الأفكار قروناً بعد قرون ، وأما الأدب الميت فهو ذاك الذى يتهالك فيربطونه فى عجلات الجرارات والكراكات ، ليعيش فى أذنابها خمس سنوات بعد خمس سنوات .

يموت ردىء « القول » من قبل أهلـــه وجيـــده يبقى وإن مات قائله

فرانسواز ساجان فى النقد الأدبى !*

يقول السيد « حسنين خليل » من أرباب المعاشات فى رسالته :

« قرأت كتاباً حديثاً لأديب شاعر معروف بشرف النفس وكرم الأخلاق ، ألفه عن رحلة له إلى دمشق فى مهرجان الشعر ، والكتاب بقسميه النثرى والشعرى يستهدف تمجيد القومية العربية وتوثيق الروابط بين شطرى الجمهورية ، ووفاء صادقاً لإخواننا بالشمال ولمدينتهم الخالدة . . ولكن شد ما أدهشنى أن قرأت كلاماً لبعضهم تناول المؤلف بنقد جارح عنيف حتى بلغ من غيظه – كما قال – أنه مزق الكتاب . . والآن أسأل سيادتكم : أين أمانة النقد وشرف القلم وكيف تختلف الآراء فى فروع الأشياء بل فى أصولها إلى هذا الحد ؟ . . فأرجو التكرم بالتعقيب على ذلك فى يومياتكم القيمة ولسيادتكم شكرى العميق » .

* * *

نعم . . تختلف الآراء أوسع اختلاف كما قال السيد « حسنين خليل » ولكن الرأى الذى لا يجوز لصاحبه أن يبديه هو استنكار كتاب من الكتب باسم العرف والتقاليد والآداب مع الصباح الذى يخترق أطباق الجو إعجاباً « بالواقعية » المكشوفة بل الواقعية العارية فى كل ما يقذفه إلينا الغرب من اعترافات المتيمين والمتيمات ، الواقعين والواقعات ، والمتقدمات والمتقدمين ، الذين يخلفون البنين والبنات فى كل سطر من الأسطر وكل صفحة من الصفحات .

ترى لو كان الكتاب من قلم « ساجان » أو ماجان ، أو ذات قرين من الجان حيث كان – وتبسطت فيه على هواها شرحاً لما اعتراها فى دنياها ، وجهراً بخفايا الرحلات والمآزق ، فى أعطاف الطريق وأعماق الزوارق – أكان القارئ يسمع من هؤلاء الغيورين ، على العرف المسكين ، صيحة غير صيحة التهليل مع التلحين . . لذلك الفن المتين . . ! وتلك الحرية الواقعية المستقبلية الأبدية ، وهذه الحياة الارتعاشية الانتعاشية التى يتغنى بها « هوه وهيه » من أبناء تلك المدرسة الخفية أو العلنية ؟

---

* الأخبار ١٢ / ١٠ / ١٩٥٩ .

فتش عن « المذهب إياه » يا سيد حسنين ولا تزد عليه . . فإنك إن عرفت المذهب وعرفت ما يذهبون إليه ، فلا عليك بعدها ممن يقول ومما يقال ، ولا يعنيك من ينتحلون الغيرة على العرف هذا الانتحال ، وكلهم من أولاد الحلال . .

* * *

الفارسية والتركية

« ... وأيهما تفضل للمتخصصين فى اللغة العربية وآدابها ، أن يدرسوا اللغة الفارسية أو التركية ولماذا ؟ أرجو الإجابة فى يومياتك وشكراً »

ماهر محمود البقرى
طالب بآداب الإسكندرية

إن دراسة الفارسية أو دراسة التركية مطلبان مختلفان لا يطلبهما المتخصص فى اللغة العربية أو فى غيرها من اللغات لغرض واحد . فلا يغنى مطلب منهما عن مطلب ولا يتيسر ترجيح لغة منهما على الأخرى إلا إذا عرفت الغاية من دراستها غير الاطلاع على آدابها والتوسع فى ثقافتها .

فاللغة الفارسية إحدى اللغات الهندية الجرمانية وأقربها إلى أصول هذه الشعبة الكبيرة من لغات العالم ، ولا غنى عنها لمن يريد الاستقصاء فى تحقيق جذورها وقواعدها والإحاطة بالفوارق بينها وبين اللغات السامية فى تركيب الجمل وتصريف الكلمات ، وفائدتها للمتخصص فى اللغة العربية أنها أقدم اللغات الهندية الجرمانية التى كتبت بالحروف العربية — الآرامية — قبل الإسلام وبعده ، وأنها مصدر مئات من المفردات التى دخلت فى لغة العرب منذ أيام الجاهلية الأولى ، وللعربية فيها آثار هامة ظهرت فى شعرها ونثرها كما ظهرت آثارها هى فى أساليب العربية التى نقلتها من البساطة إلى التفخيم والتنميق على عهد العباسيين ومن تلاهم من دول المشرق إلى أواخر القرن العاشر للهجرة .

أما التركية فهى فرع من شعبة أخرى بينها وبين الشعبة الهندية الجرمانية وبين الشعبة السامية خلاف أصيل .

فهى من فروع الشعبة الطورانية التى تحسب من لغات النحت كثيراً كما تحسب قليلا من لغات الاشتقاق ، وعلاقتها بالعربية الحديثة ولكنها علاقة طويلة

بدأت قبل عهد الترك العثمانيين ولا تزال بقاياها شائعة فى الكلمات والعبارات التى تداولناها قرونًا متوالية ولا سيما فى لغة الدواوين ، وأنفع مزاياها للمتخصص فى اللغة العربية أنها كتبت قديمًا بحروفها وكتبت حديثًا بالحروف اللاتينية، فلا يجد الباحث فى موضوع الكتابة مثالا أصلح منها للتيقن من الصواب والخطأ فى الدعوة إلى الكتابة بالحروف اللاتينية ، لأنها تدل دلالة واضحة على مواضع النقص فى استخدام هذه الحروف لكتابة لغة تقوم على الاشتقاق — كلغتنا — ويتغير معنى الكلمة فيها بحركة على الحروف لا تمثلها الأبجدية اللاتينية إلا بحروف المد الطويل.

وأعتقد أن العرف بالفارسية لا يصعب عليه أن يتعلم التركية ولا تكلفه من الجهدما يتكلفه فى لغة غيرها ، فمن أجاد الفارسية ففى وسعه أن يضيف إليها التركية كأنه يتوسع فى دراسة واحدة ، فلا يفوته الغرض من اللغتين .

* * *

ثروة لغوية

عندما كنت أتصفح أحد الدواوين العصرية عنت لى بعض كلمات ليس عندى لها مدلول : الأولى كلمة يوتوبيا فى قصيدة أسطورة عينين :

عينان أم عوالم شاسعة ؟

وبؤبؤ أم دعوة للرحيل ؟

باب إلى يوتوبيا الضائعة

ومعبد ينهى إلى المستحيل

والكلمة الثانية « مدوزا » فى مقطع آخر من القصيدة نفسها :

وأنها كما روى آخرون :

بقية من أعين آفلة

عينا « مدوزا » أفرغ الساحرون

ما فيهما من قوة قاتلة

فهل هما اسمان لمكان أو لشخص أم ماذا ؟ وهل يجوز استعمال هذه الكلمات فى الشعر العربى ؟

محمد محمود مصطفى

كلمة «يوتوبيا» يونانية معناها «حيث لا حيث» وضعها الحكيم الإنجليزى توماس مور ليسمى بها المجتمع المثالى ، الذى يتخيله ويتمنى أن تصير المجتمعات الإنسانية إلى مثله ، وتقابلها فى العربية كلمة المدينة الفاضلة التى اختارها فيلسوفنا الفارابى ترجمة لجمهورية أفلاطون ، وأوفق من ذلك أن ندل عليها بكلمة «طوبى» من الآية الكريمة : «الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب» .. لأنها تدل على أطيب حال يؤوب إليه الإنسان .

أما «المدوزا» فهى مخلوق أسطورى عند اليونان يمثلونه فى صورة أنثى ذات جناحين وجلد كجلد الحية ، لا يثبت على نظراتها أحد من الأحياء ، فمن قابلته بنظرها هلك وضاعت عليه سبيل النجاة .

ولا حرج من استخدام هذه الكلمات فى الشعر العربى ، لأن كلمات كثيرة من قبيلها وردت فى الكلام العربى الفصيح ، كالفردوس بمعنى الجنة ، و«الفقنس» من الطيور الأسطورية ، والنوروز بمعنى اليوم الجديد .

إلا أن الشاعر العربى يستطيع أن يعربها بكلمة تؤدى معناها فى صيغة عربية ، ويستطيع — إن لم يتيسر له التعريب — أن يفسرها ويذكر مناسبتها فى مصدرها الأول ، لأنها ليست من كلمات اللغة التى يعرفها المتكلمون بها من أبنائها بغير اطلاع على قصتها فى الأساطير الموروثة والملاحم القديمة ، وقد يجهلها اليونانى الحديث ، بل يجهلها اليونانى القديم — إن لم يكن له اطلاع على أساطير قومه وقصائد الشعراء المقتبسين منها . ويشبه ذلك فى لغتنا كلام المتقدمين عن العنقاء وعن جوف الفرا وغيرهما من مضارب الأمثال السائرة ، فإنها لا تعرف بغير الوقوف على تلك الأمثال فى مناسباتها .

وعندنا أن اتساع اللغة العربية لهذه التعبيرات ومواضع الاستشهاد بها ثروة حسنة تضاف إليها ولا تمسها فى مادتها ولا فى قواعدها .

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع	١٩٨٢/٢٤٩٠
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٠٢-٠٠٢٧-١

١/٨١/٣٠٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



يوميات

وفق جمهور الأدباء والنقاد يوم أطلقوا على الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد لقب العملاق ، فقد شاءوا أن يضفوا عليه بذلك اللقب ، صفة القدرة العلمية ، وصفة وفرة الإنتاج .

والحق أن الأستاذ العقاد قد أغنى المكتبة العربية بثروة من روائع آثاره ، عالج فيها قلمه الصناع مختلف الفنون معالجة تتميز بالعمق والشمول والأصالة .

على أن جهاد أديبنا الخصب وعالمنا الضليع ، لم يقف فى توطيد أركان النهضة الفكرية فى العالم العربى ، عند دواوين شعر ينظمها ، وأسفار علم وأدب يؤلفها ، ويضمن هذه وتلك ، الجديد من آرائه ومذاهبه ، والفريد مما وعى صدره من كنوز المعرفة ، بل إنه مهر النهضة أيضاً بكتابات متصلة ، بثها عنه منابر المجلات وأنهار الصحف .

ومن بين ثمرات الفكر التى قدمها للقراء على موائد الصحافة ، خواطر وأبحاث بعنوان « يوميات » تجلت بالقوة ، وتنوعت فيها ألوان المعارف ، فمن فصول فى الدين والفلسفة وعلم النفس ، إلى نظرات فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ، إلى دراسات فى العلوم والآداب والفنون ، إلى غير ذلك من الموضوعات ، استلهمها من وحى العصر أو أرسلها جواباً عن سؤال ، ثم نزل على اقتراح أصدقائه القراء ، فجمعها ونسقها وفق موضوعاتها ، بالقدر الذى يحتمله التنسيق ، ومثلها بالطبع .

ومن قبل صدر الجزء الأول من هذا الكتاب . . .

والآن نضع بين يدى القراء الجزء الثانى .